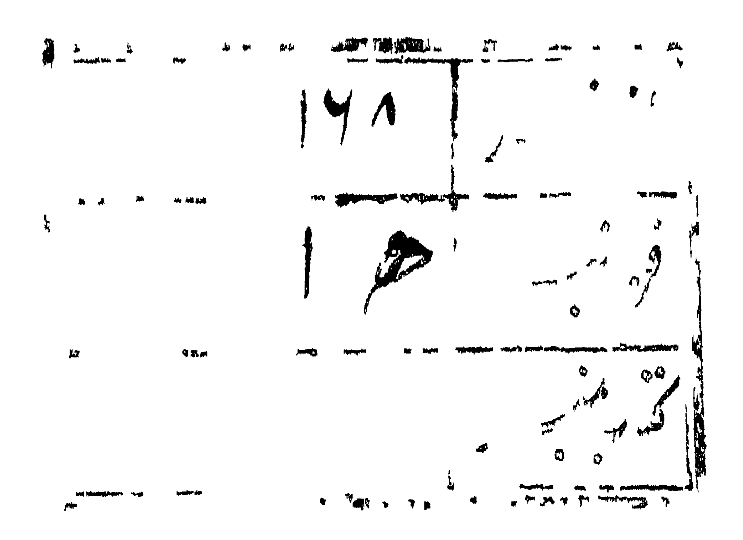


مقالات

لبعض مشاهير كتّاب ال

في الانشاء

توطئة

فصل في حقيقة علم الأدب واقسامه واركانه

البحث الاول

في حدّ علم الادب

(عن الزمخشري والجرجاني وغيرهما بتصرف)

(راجع الجزء الاوّل من علم الادب صفحة ١ من التمهيد)

علم الأدب علمٌ يُحترَزُ به عن جميع أنواع الخطأ في كلام العرب لفظاً وكتابةً. وذلك أنّ فائدة التخاطب والمحاورات في إفادة العلوم واستفادتها لمّا لم تتبيّن للطالبين إلّا بالألفاظ والكتابة وأحوالهما كان ضبط أحوالهما ممّا اعتنى به العلماء. فاستخرجوا من أحوالهما علوماً سمّوها بالعلوم الأدبيّة لتوقّف أدب الدرس عليها بالذات وأدب النفس بالواسطة يتعرّف بها التفاهم عمّا في الضمائر

البحث الثاني

في تقسيم الادب وانواع العلوم الادبيّة

(عن الوطواط والجرجاني)

(راجع صفحة ٢ و٣ من تمهيد علم الادب)

اَلْأَدَبُ نَوْعَانِ نَفْسِيٌّ وَكَسْبِيٌّ. فَٱلنَّفْسِيُّ بِتَوْفِيقِ ٱللهِ يَهَبُهُ لِمَنْ يُرِيدُ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى كَرَمِ ٱلطِّبَاعِ. وَٱلْكَسْبِيُّ مَا ٱسْتَفَادَتْهُ ٱلْأَنْفُسُ مِنْ أَحَاسِنِ ٱلْأَقْوَالِ ٱلْآخِذَةِ بِأَعِنَّةِ ٱلْقُلُوبِ وَٱلْأَسْمَاعِ وَهُوَ ٱلَّذِي تَرْجَمْتُ عَلَيْهِ فِي هذا ٱلْوَضْعِ يَقَعُ ذِكْرُهُ فِي ٱلنُّفُوسِ أَحْسَنَ مَوْقِعٍ لِتَرْمُقَهُ لِأَجْلِهِ ٱلْعُيُونُ بِٱلْإِجْلَالِ وَتَحِنُّ ٱلنُّفُوسُ بِهِ لِمَيْلِهَا إِلَيْهِ بِتَتَابُعِ ٱلْإِذْلَالِ

وَأَمَّا تَقْسِيمُ ٱلْأَدَبِ ٱلْكَسْبِيِّ فَإِنَّهُمُ ٱخْتَلَفُوا فِي أَقْسَامِهِ فَذَكَرَ ٱبْنُ ٱلْأَنْبَارِيِّ أَنَّهَا ثَمَانِيَةٌ وَقَسَمَهُ ٱلْعَلَّامَةُ ٱلْجُرْجَانِيُّ الى ٱثْنَي عَشَرَ قِسْمًا قَالَ: لِعِلْمِ ٱلْأَدَبِ أُصُولٌ وَفُرُوعٌ. أَمَّا ٱلْأُصُولُ فَٱلْبَحْثُ فِيهَا: (١) عَنِ (ٱلْمُفْرَدَاتِ) مِنْ حَيْثُ جَوَاهِرِهَا وَمَوَادِّهَا وَهَيْئَاتِهَا فَعِلْمُ ٱللُّغَةِ. وَمِنْ حَيْثُ صُوَرِهَا وَهَيْئَاتِهَا فَقَطْ فَعِلْمُ ٱلصَّرْفِ. أَوْ مِنْ حَيْثُ ٱنْتِسَابِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِٱلْأَصَالَةِ وَٱلْفَرْعِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلِٱشْتِقَاقِ. (٢) وَأَمَّا (عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ). فَإِمَّا بِٱعْتِبَارِ هَيْئَاتِهَا ٱلتَّرْكِيبِيَّةِ وَتَأْدِيَتِهَا لِمَعَانِيهَا ٱلْأَصْلِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلنَّحْوِ. وَإِمَّا بِٱعْتِبَارِ إِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ مُغَايِرَةٍ لِأَصْلِ ٱلْمَعْنَى فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي. وَإِمَّا بِٱعْتِبَارِ كَيْفِيَّةِ تِلْكَ ٱلْإِفَادَةِ فِي مَرَاتِبِ ٱلْوُضُوحِ فَعِلْمُ

ٱلبيان.وَعِلمُ ٱلبَدِيعِ ذَيلٌ لِعِلمي ٱلمعَانِي وَٱلبيَانِ دَاخِلٌ تحتَهمَا.(٣)وَامَّا (عَنِ ٱلْمرَكَبَاتِ ٱلموْزُونَةِ). فَامَّا مِنْ حَيْثُ وَزنِهَا فَعِلمُ ٱلعَرُوضِ اَوْ مِنْ حَيثُ اَوَاخِرِهَا فَعِلمُ ٱلقوَافِي

وَامَا ٱلفرُوعُ فَٱلبحثُ فِيهَا اِمَا اَنْ يَتعَلقَ بِنُقُوشِ ٱلكِتَابَةِ فَعِلمُ ٱلخَطِ اوْ يختصُ بِٱلمنظُومِ فَٱلعِلمُ ٱلمسَمَّى بِقَرْضِ ٱلشِعْرِ. اَوْ بِٱلنَثْرِ فَعِلمُ ٱلاِنْشَاءِ .اَوْ لايختصُّ بشيْء فَعِلمُ ٱلمحَاضَرَاتِ وَمِنْهُ ٱلتَوَارِيخُ

البحث الثالث

في موضوع علم الادب واركانهِ

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٣ من تمهيد علم الادب)

هٰذَا ٱلعِلْمُ لَا مَوْضُوعَ لَهُ يُنظَرُ فِي اِثْبَاتِ عَوَارِضِهِ اَوْ نَفيِهَا وَاِنمَا ٱلمقصُودُ مِنْهُ عِنْدَ اَهْلِ ٱللِسَانِ ثَمَرَتُهُ وَهِيَ ٱلاِجَادَةُ فِي فَنَي ٱلمنظُومِ وَٱلمنثُورِ عَلى اَسَالِيبِ ٱلعَرَبِ وَمَنَاحِيهِمْ . فَيَجْمَعُونَ لِذٰلكَ من كَلَامِ ٱلعَربِ مَا عَسَاهُ تحصَلُ بِهِ ٱلكَلِمَةُ مِنْ شِعْرٍ عَالِي ٱلطَبقَةِ وَسَجْعٍ مُتَساوٍ فِي ٱلاِجَادَةِ وَمَسَائِلَ مِنَ ٱللغَةِ وَٱلنحوِ مَبثُوثَةٍ اَثنَاءَ ذٰلِكَ مُتفَرِّقَةٍ يَسْتَقْرِي مِنْهَا ٱلنَاظِرُ فِي ٱلغَالِبِ مُعْظَمَ قَوَانِينِ ٱلعَرَبِيَّةِ مَعَ ذِكْرِ بَعْضٍ مِنْ اَيَّامِ ٱلعَرَبِ لِيفْهَمَ بِهِ ما يَقَعُ فِي اَشْعَارِهِمْ مِنْهَا وَكَذٰلِكَ ذِكْرُ ٱلمهِمِّ مِنَ ٱلاَنْسَابِ ٱلشَهِيرَةِ وَٱلاَخْبَارِ ٱلعَامَّةِ . وَٱلمقْصُودُ بِذٰلِكَ كُلِّهِ اَنْ لَا يَخْفَى عَلَى ٱلنَاظِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ ٱلعَرَبِ وَاَسَالِيبِهِمْ

ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه . لانه لا تحصل الملكة من حفظه الا
بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه . ثم انهم
اذا ارادوا حد هذا الفن قالوا : الادب هو حفظ اشعار العرب
واخبارها والاخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان
او العلوم الشرعية من حيث متونها فقط اذ لا مدخل لغير ذلك
من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتأخرون عند كلفهم
بصناعة البديع من التورية في اشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات
العلمية . فاحتاج صاحب هذا الفن الى اصطلاحات العلوم ليكون قائما
على فهمها : وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم ان اصول هذا الفن
واركانه اربعة دواوين وهي : ادب الكاتب لابن قتيبة وكتاب
الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب نوادر
لابي علي القالي البغدادي وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع
عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة . وكان الغناء في الصدر الاول
من اجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر اذ الغناء انما هو تلحينه .
وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون
انفسهم به حرصا على تحصيل اساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله
قادحا في العدالة والمروءة وقد ألف القاضي ابو الفرج الاصبهاني
كتابه في الاغاني جمع فيه اخبار العرب واشعارهم وانسابهم
وايامهم ودولهم . وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها
المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك اتم استيعاب واوفاه . ولعمري

إِنَّهُ دِيوَانُ ٱلْعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْتَاتِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلتَّارِيخِ وَٱلْغِنَاءِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ . وَلَا يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا ٱلْأَدَبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا

البحث الرابع

في شرف الادب ومنافعهِ

(عن الثعالبي وابن عبد ربّهِ والوطواط)

(راجع صفحة ٢ من تمهيد علم الادب)

قَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلرَّجُلُ بِلَا أَدَبٍ شَخْصٌ بِغَيْرِ آلَةٍ وَجَسَدٌ بِلَا رُوحٍ . وَقِيلَ : ٱلْأَدَبُ أَكْرَمُ ٱلْجَوَاهِرِ طَبِيعَةً وَأَنْفَسُهَا قِيمَةً فَٱطْلُبُوهُ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلنَّبَاهَةِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَدَلِيلٌ عَلَى ٱلْمُرُوءَةِ وَمَنْبَهَةٌ لِلرَّأْيِ وَلِلصَّوَابِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْغُرْبَةِ وَأَنِيسٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَجَمَالٌ فِي ٱلْمَحَافِلِ وَصِلَةٌ فِي ٱلْمَجَالِسِ . وَإِذَا أَكْرَمَكَ ٱلنَّاسُ لِمَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ فَلَا يُعْجِبْكَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلْكَرَامَةَ تَزُولُ بِزَوَالِهِمَا وَلْيُعْجِبْكَ إِذَا أَكْرَمُوكَ لِدِينٍ أَوْ أَدَبٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا ٱلْفَتَى فَاتَهُ مَالٌ يُجَمِّلُهُ فَفِي ٱلتَّأَدُّبِ مِمَّا فَاتَهُ خَلَفُ
هُوَ ٱللِّبَاسُ ٱلَّذِي لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ وَٱلْمَفْخَرُ ٱلدِّينُ فِيهِ ٱلْفَضْلُ وَٱلشَّرَفُ

قَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ لِبَنِيهِ : تَأَدَّبُوا فَإِنْ كُنْتُمْ مُلُوكًا بَرَزْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ أَوْسَاطًا فُقْتُمْ وَإِنْ أَعْوَزَكُمُ ٱلْمَعَاشُ عِشْتُمْ . وَقِيلَ : إِنَّ ٱلْأَدَبَ يُفِيدُ ٱلرَّغَائِبَ ٱلْجَلِيلَةَ وَيُعِزُّ بِلَا عَشِيرَةٍ وَيُكْثِرُ ٱلْأَنْصَارَ لِغَيْرِ

رَزِيَّةٍ . قَالَ بُزُرْجُمْهُرُ : مَنْ كَثُرَ أَدَبُهُ كَثُرَ شَرَفُهُ وَإِنْ كَانَ وَضِيعاً . وَبَعُدَ صِيتُهُ وَإِنْ كَانَ خَامِلاً . وَسَادَ وَإِنْ كَانَ غَرِيبًا وَكَثُرَتْ حَوَائِجُ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا . وَقَالُوا : مَنْ دَأَبَ فِي طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ أَدْرَكَ حَاجَتَهُ وَمَلَكَ نَاصِيَتَهُ وَنَبُلَ قَدْرُهُ وَنَبُهَ ذِكْرُهُ . يَنُوبُ ٱلْأَدَبُ عَنِ ٱلنَّسَبِ وَلَا يَنْفَعُ نَسَبٌ بِلَا أَدَبٍ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

كَمْ مِنْ خَسِيسٍ وَضِيعِ ٱلْقَدْرِ لَيْسَ لَهُ ... فِي ٱلْعِزِّ بَيْتٌ وَلَا يُنْمَى إِلَى نَسَبِ

قَدْ صَارَ بِٱلْأَدَبِ ٱلْمَحْمُودِ ذَا شَرَفٍ ... غَالٍ وَذَا حَسَبٍ مَحْضٍ وَذَا نَشَبِ

يُعْلِي ٱلتَّأَدُّبُ أَقْوَامًا وَيَرْفَعُهُمْ ... حَتَّى يُسَاوُوا ذَوِي ٱلْعَلْيَاءِ فِي ٱلرُّتَبِ

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ ٱلْأَعَاجِمِ يَفْتَخِرُ وَيَعْتَذِرُ :

مَالِيَ عَقْلِي وَهِمَّتِي حَسَبِي ... مَا أَنَا مَوْلًى وَلَا أَنَا عَرَبِي

وَإِذَا ٱنْتَمَى مُنْتَمٍ إِلَى أَحَدٍ ... فَإِنَّنِي مُنْتَمٍ إِلَى أَدَبِي

فَٱلْبَسُوا إِذًا ٱلْأَدَبَ حُلَّةً وَتَزَيَّنُوهُ حِلْيَةً فَإِنَّهُ أَنْفَقُ مَعَاشٍ وَأَجْمَلُ رِيَاشٍ إِنِ ٱحْتَجْتُمْ إِلَيْهِ كَانَ لَكُمْ مَالاً وَإِنِ ٱسْتَغْنَيْتُمْ عَنْهُ كَانَ لَكُمْ جَمَالاً

فصلٌ في قوى العقل الغريزيّة

البحث الاوَّل

في العقل وشرفهِ واصل تسميتهِ وتقسيمهِ

(عن الماوردي باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٣ من توطئة علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ اُسًّا وَلِكُلِّ اَدَبٍ يَنْبُوعًا . وَاُسُّ اَلْفَضَائِلِ وَيَنْبُوعُ اَلْآدَابِ هُوَ اَلْعَقْلُ اَلَّذِي جَعَلَهُ اَللهُ تَعَالَى لِلدِّينِ اَصْلًا وَلِلدُّنْيَا عِمَادًا فَاَوْجَبَ اَلدِّينَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ اَلدُّنْيَا مُدَبَّرَةً بِاَحْكَامِهِ وَاَلَّفَ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ مَعَ اَخْتِلَافِ هِمَمِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ . قَالَ بَعْضُ اَلْبُلَغَاءِ : اَلْعَقْلُ خَيْرُ اَلْمَوَاهِبِ وَاَلْجَهْلُ شَرُّ اَلْمَصَائِبِ . قَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ حَسَّانَ :

يَزِينُ اَلْفَتَى فِي اَلنَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ ... وَاِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ
يَشِينُ اَلْفَتَى فِي اَلنَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ ... وَاِنْ كَرُمَتْ اَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ
يَعِيشُ اَلْفَتَى بِاَلْعَقْلِ فِي اَلنَّاسِ اِنَّهُ ... عَلَى اَلْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَاَفْضَلُ قَسْمِ اَللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ ... فَلَيْسَ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ
اِذَا اَكْمَلَ اَلرَّحْمَانُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ ... فَقَدْ كَمُلَتْ اَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

وَقَالَ مُطَرِّفٌ : مَا اُوتِيَ اَلْعَبْدُ بَعْدَ اَلْاِيمَانِ بِاَللهِ تَعَالَى اَفْضَلَ مِنَ اَلْعَقْلِ . وَيُقَالُ : مَا تَمَّ دِينُ اَمْرِئٍ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ . قَالَ بُزُرْجُمْهُرُ : اَلْعَقْلُ كَالْمِسْكِ اِنْ خَبَأْتَهُ عَبِقَ وَاِنْ بِعْتَهُ نَفَقَ . وَقَالُوا : اَلْعَقْلُ كَنُورٍ وَضَعَهُ اَللهُ طَبْعًا وَغَرَزَهُ فِي اَلْقَلْبِ كَالنُّورِ فِي اَلْعَيْنِ وَهُوَ اَلْبَصَرُ .

وَكَمَا يُدْرَكُ بِٱلْبَصَرِ شَوَاهِدُ ٱلْأُمُورِ كَذٰلِكَ يُدْرَكُ بِنُورِ ٱلْعَقْلِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمَحْجُوبِ وَٱلْمَسْتُورِ. وَعَمَى ٱلْقَلْبِ كَعَمَى ٱلْبَصَرِ. قال بزرجمهر: ٱلْإِنْسَانُ صُورَةٌ فِيهَا عَقْلٌ فَإِنْ أَخْطَأَهُ ٱلْعَقْلُ وَلَزِمَتْهُ ٱلصُّورَةُ فَلَيْسَ بِإِنْسَانٍ . قَالَ ٱلْمُتَنَبِّي :

لَوْلَا ٱلْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ   أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ

وَسُمِّيَ ٱلْعَقْلُ عَقْلًا تَشْبِيهًا بِعَقْلِ ٱلنَّاقَةِ (١) لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ يَمْنَعُ ٱلْإِنْسَانَ مِنَ ٱلْإِقْدَامِ عَلَى شَهَوَاتِهِ إِذَا قَبُحَتْ كَمَا يَمْنَعُ ٱلْعِقَالُ ٱلنَّاقَةَ مِنَ ٱلشُّرُودِ إِذَا نَفَرَتْ . وَلِذَٰلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ : إِذَا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فَأَنْتَ عَاقِلٌ

البحث الثاني

في تقسيم العقل الى غريزيّ ومكتسَب

(عن الوطواط والماوردي)

إِعْلَمْ أَنَّ بِٱلْعَقْلِ تُعْرَفُ حَقَائِقُ ٱلْأُمُورِ وَيُفْصَلُ بَيْنَ ٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ وَقَدْ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ غَرِيزِيٌّ وَمُكْتَسَبٌ . قَالَ ٱلْغَزَالِيُّ : ٱلْعَقْلُ عَقْلَانِ عَقْلٌ تَفَرَّدَ ٱللّٰهُ بِصُنْعِهِ وَهُوَ ٱلْأَصْلُ . وَعَقْلٌ يَسْتَفِيدُهُ ٱلْمَرْءُ بِهِ وَهُوَ ٱلْفَرْعُ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا قَوَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ تَقْوِيَةَ ٱلنَّارِ فِي ٱلظُّلْمَةِ . وَلِذَٰلِكَ قَالَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :

رَأَيْتُ ٱلْعَقْلَ عَقْلَيْنِ   فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعُ

١ يُقال عَقَل الناقة عقلا اي ربطها في وسط ذراعها بحبل ويسمّى الحبل عقالا

فَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ ... إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ
كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ ... وَضَوْءُ الْعَيْنِ مَمْنُوعُ *

البحث الثالث

في العقل الغريزيّ وتعريفه

(عن الماوردي باختصار)

إِنَّ الْعَقْلَ الْغَرِيزِيَّ هُوَ الْعَقْلُ الْحَقِيقِيُّ وَلَهُ حَدٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّكْلِيفُ لَا يُجَاوِزُهُ إِلَى زِيَادَةٍ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ إِلَى نُقْصَانٍ . وَبِهِ

* قد قسّم القزوينيُّ القوى العقلية الى اربعة اقسام مرجعها الى هذين القسمين قال: القوى العقلية اربعة اقسام. (الاول) القوة التي بها يفارق الانسان البهائم وهي التي بها استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الفكريّة فيقال انها القوة الغريزيّة بها يستعدّ الانسان لادراك العلوم النظريّة. فكما ان الحياة هي الجسم للحركات الاختياريّة والادراكات الحسيّة فكذلك هذه القوّة الغريزيّة تهيئة الانسان للعلوم النظريّة والصناعات الفكريّة والحكماء يقولون لها العقل الهيولاني وهي مجرّد الاستعداد الذي هو موجود في الطفل وغير موجود في ولد البهيمة. (الثاني) القوّة التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميّز جواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين اكثر من الواحد والشخص الواحد لا يكون في مكانين فيقال انها التصوّرات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة والحكماء يسمونهُ العقل بالملكة. (والثالث) قوّة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الاحوال فمن اتّصف بها يقال انهُ عاقل في العادة ومن لم يتّصف بها يقال انهُ غبيّ غمر. فيقال لها معانٍ مجتمعة في الذهن من مقدّمات تستنبط بها المصالح في الاعراض. (والرابع) قوّة بها تُعرف حقائق الامور وعواقبها فتقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة وتحتمل المكروه العاجل لسلامة الآجل. فاذا حصلت هذه القوّة يسمّى صاحبها عاقلا من حيث ان اقدامهُ واحجامهُ بحسب ما يقتضيهِ النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة. والأوّلان بالطبع والأخيران بالاكتساب

يمتاز الانسان عن سائر الحيوان فاذا تم في الانسان سمي عاقلا وخرج به الى حد الكمال كما قال صالح بن عبد القدوس :

اذا تم عقل المرء تمت اموره وتمت امانيه وتم بناؤه

واختلف الناس في حد العقل وفي صفته على مذاهب شتى فقال قوم : هو جوهر لطيف يفصل به بين الحقائق المعلومات .. وهذا القول في العقل بانه جوهر لطيف فاسد من وجهين : (احدهما) ان الجواهر متماثلة فلا يصح ان يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها ولو اوجب سائرها ما يوجب بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله(١) . (والثاني) ان الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرا لجاز ان يكون عقل بغير عاقل كما جاز ان يكون جسم بغير عقل . فامتنع بهذين ان يكون العقل جوهرا . وقال آخرون : العقل هو المدرك للاشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى . وهذا القول وان كان اقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو : ان الادراك من صفات الحي (٢) والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل ان يكون متلذذا او آلما او مشتهيا (٣) . وقال آخرون من

---

(١) يريد انه لو كان العقل جوهرا مختلفا عن جوهر النفس ملازما [illegible] في جميع اجزائها لان النفس والعقل بسيطان متماثلان في ذلك واذا تم الاتفاق كان جوهر النفس وجوهر العقل واحدا فيستغني الانسان عن عقله بوجود نفسه وهذا باطل

(٢) يريد هنا بالادراك على ما حده الحكماء تمثل حقيقة الشيء وحده من غير حكم عليه او اثبات ويسمى ايضا التصور وهذا يعم كل حي لا يختص بالانسان فقط

(٣) اي ان العقل لا يمكنه ادراك هذه الجزئيات كما يستحيل عليه ان يكون متلذذا او آلما او مشتهيا . لان اللذة والالم والشهوة من الانفعالات الطارئة على المركب

ٱلْمُتَكَلِّمِينَ : ٱلْعَقلُ هُوَ جُمْلَةُ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٍ. وَهٰذَا ٱلْحَدُّ غَيْرُ مَحْصُورٍ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ ٱلْإِجْمَالِ وَيَتَنَاوَلُهُ مِنَ ٱلْإِحْتِمَالِ. وَٱلْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ ٱلْمَحْدُودِ بِمَا يَنْفِي عَنْهُ ٱلْإِجْمَالَ وَٱلْإِحْتِمَالَ. وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلصَّحِيحُ : إِنَّ ٱلْعَقْلَ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ. وَذٰلِكَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا مَا وَقَعَ عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ. فَأَمَّا مَا كَانَ وَاقِعًا عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ فَمِثْلُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلنَّظَرِ وَٱلْأَصْوَاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلسَّمْعِ وَٱلطُّعُومِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلذَّوْقِ وَٱلرَّوَائِحِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلشَّمِّ وَٱلْأَجْسَامِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱللَّمْسِ. فَإِذَا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مِمَّنْ لَوْ أَدْرَكَ بِحَوَاسِّهِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ ثَبَتَ لَهُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ. لِأَنَّ خُرُوجَهُ فِي حَالِ تَغْمِيضِ عَيْنَيْهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ بِهِمَا وَيَعْلَمَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ ٱلْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنْ لَوْ أَدْرَكَ لَعَلِمَ. وَأَمَّا مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ فَكَٱلْعِلْمِ بِأَنَّ ٱلشَّيْءَ لَا يَخْلُو مِنْ وُجُودٍ أَوْ عَدَمٍ. وَأَنَّ ٱلْمَوْجُودَ لَا يَخْلُو مِنْ حُدُوثٍ أَوْ قِدَمٍ. وَأَنَّ مِنَ ٱلْمُحَالِ ٱجْتِمَاعَ ٱلضِّدَّيْنِ. وَأَنَّ ٱلْوَاحِدَ أَقَلُّ مِنَ ٱلْإِثْنَيْنِ. وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنِ ٱلْعَاقِلِ مَعَ سَلَامَةِ حَالِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ. فَإِذَا صَارَ عَالِمًا بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ فَهُوَ كَامِلُ ٱلْعَقْلِ

الانساني". ولإدراك العقل يقتضي ان تجرّد مادّته عن المحسوسات وهذا ما يصعه العقل بالفعل فتنتقل المفردات بذلك الى حالة الكليات

البحث الرابع

في العقل المكتسب

(عن الماوردي)

إنَّ ٱلعقلَ ٱلمُكْتَسَبَ هُوَ نَتيجَةُ ٱلعقلِ ٱلغريزيِّ وهو نهايةُ ٱلمَعرِفَةِ وَصِحَّةِ ٱلسِّيَاسَةِ وَإِصَابَةِ ٱلفِكْرَةِ وَلَيسَ لِهٰذا حَدٌّ لِأنه يَنْمي إنِ ٱستُعْمِلَ وَيَنْقُصُ إنْ أُهمِلَ . وَنَمَاؤُهُ يَكُونُ بِأَحَد وجهينِ : (ٱلوَجْهُ ٱلأَوَّلُ) بِكَثْرَةِ ٱلِاستِعْمَالِ إذَا لَمْ يُعارِضْهُ مَانِعٌ مِنْ هَوى وَلَا صَادٌّ مِنْ شَهْوَةٍ كَٱلَّذِي يَحْصُلُ لِذَوِي ٱلأَسْنَانِ مِنَ ٱلحُنْكَةِ وصِحَّةِ ٱلرَّوِيَّةِ لِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ وَمُمَارَسَةِ ٱلأُمُورِ . وَلِذٰلِكَ حَمِدَتِ ٱلعربُ آرَاءَ ٱلشُّيُوخِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلمَشَايِخُ أَشْجَارُ ٱلوَقَارِ . وَمَنَاجِعُ ٱلأَخْبَارِ . لَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ . وَلَا يَسْقُطُ لَهُمْ وَهْمٌ . إنْ رَأَوْكَ في قَبيحٍ صَدُّوكَ . وَإِنْ أَبصَرُوكَ عَلَى جَمِيلٍ أَمَدُّوكَ . وَقِيلَ : عَلَيكُمْ بِآرَاءِ ٱلشُّيُوخِ فَإِنَّهُمْ إِنْ فَقَدُوا ذَكَاءَ ٱلطَّبْعِ فَقَدْ مَرَّتْ عَلَى عُيُونِهِمْ وُجُوهُ ٱلعِبَرِ . وَتَصَدَّتْ لِأَسْمَاعِهِمْ آثَارُ ٱلغِيَرِ . وقيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلحِكَمِ : مَنْ طَالَ عُمْرُهُ نَقَصَتْ قُوَّةُ بَدَنِهِ وَزَادَتْ قُوَّةُ عَقْلِهِ : وَقَالَ فِيهِ : لَا تَدَعُ ٱلأَيَّامُ جَاهِلاً إِلَّا أَدَّبَتْهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلحُكَمَاءِ : كَفَى بِٱلتَّجَارِبِ تَأَدُّبًا وَبِتَقَلُّبِ ٱلأَيَّامِ عِظَةً . وَقَالَ بَعْضُ ٱلبُلَغَاءِ : ٱلتَّجْرِبَةُ مِرْآةُ ٱلعَقْلِ . وَٱلغِرَّةُ ثَمَرَةُ ٱلجَهْلِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلأُدَبَاءِ : كَفَى مُخْبِرًا عَمَّا بَقِيَ مَا مَضَى وَكَفَى عِبَرًا لِأُولِي ٱلأَلبَابِ مَا جَرَّبُوا . وقال بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْعَقْلَ زَيْنٌ لِأَهْلِهِ وَلٰكِنْ تَمَامُ ٱلْعَقْلِ طُولُ ٱلتَّجَارِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

إِذَا طَالَ عُمْرُ ٱلْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ أَفَادَتْ لَهُ ٱلْأَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلَا

(وَأَمَّا ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) فَقَدْ يَكُونُ بِفَرْطِ ٱلذَّكَاءِ وَحُسْنِ ٱلْفِطْنَةِ وَذٰلِكَ جُودَةُ ٱلْحَدْسِ فِي زَمَانٍ غَيْرِ مُهْمَلٍ لِلْحَدْسِ . فَإِذَا ٱمْتَزَجَ بِٱلْعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ صَارَتْ نَتِيجَتُهُمَا نُمُوُّ ٱلْعَقْلِ ٱلْمُكْتَسَبِ . كَٱلَّذِي يَكُونُ فِي ٱلْأَحْدَاثِ مِنْ وُفُورِ ٱلْعَقْلِ وَجُودَةِ ٱلرَّأْيِ حَتَّى قَالَ هَرِمُ بْنُ قُطْبَةَ حِينَ تَنَافَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ ٱلطُّفَيْلِيِّ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَلَاثَةَ : عَلَيْكُمْ بِٱلْحَدِيثِ ٱلسِّنِّ . ٱلْحَدِيدِ ٱلذِّهْنِ . وَلَعَلَّ هَرِمًا أَرَادَ أَنْ يَدْفَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ فَٱعْتَذَرَ بِمَا قَالَ . لٰكِنْ لَمْ يُنْكِرَا قَوْلَهُ إِذْ عَانَا لِلْحَقِّ فَصَارَا إِلَى أَبِي جَهْلٍ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ وَحِدَّةِ ذِهْنِهِ . فَأَبَى أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا فَرَجَعَا إِلَى هَرِمٍ فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا . وَفِيهِ قَالَ لَبِيدٌ :

يَا هَرِمُ ٱبْنَ ٱلْأَكْرَمِينَ مَنْصِبَا إِنَّكَ قَدْ أُوتِيتَ حُكْمًا مُعْجِبَا

وَقَدْ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ : عَلَيْكُمْ بِمُشَاوَرَةِ ٱلشَّبَابِ فَإِنَّهُمْ يُنْتِجُونَ رَأْيًا لَمْ يَنَلْهُ طُولُ ٱلْقِدَمِ . وَلَا ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ ٱلْهَرَمِ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ ٱلْعَقْلَ لَمْ يَكُنِ ٱنْتِهَابًا وَلَمْ يُقْسَمْ عَلَى عَدَدِ ٱلسِّنِينَا

وَلَوْ أَنَّ ٱلسِّنِينَ تَقَاسَمَتْهُ حَوَى ٱلْآبَاءُ أَنْصِبَةَ ٱلْبَنِينَا

وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ قَالَ : قُلْتُ لِغُلَامٍ حَدَثٍ مِنْ أَوْلَادِ ٱلْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَأَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ : أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ

مِئَةُ أَلفِ دِرْهَمٍ وَأَنتَ أَحمَقُ . قالَ : لا . قالَ : فقلتُ : وَلِمَ . قال : أَخافُ أَنْ يَجْنِيَ عَلَيَّ حُمْقِي جِنايَةً تَذْهَبُ بِمالي وَيَبْقَى عَلَيَّ حُمْقِي . فَانْظُرْ إِلَى هٰذَا الصَّبِيِّ كَيفَ اسْتَخْرَجَ بِفَرْطِ ذَكائِهِ وَاسْتَنْبَطَ بِجَوْدَةِ قَرِيحَتِهِ مَا لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلَى مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا وَأَكْثَرُ تَجْرِبَةً . وَأَحْسَنُ مِنْ هٰذَا الذَّكاءِ وَالفِطْنَةِ مَا حَكَى ابْنُ قُتَيْبَةَ : إِنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ مَرَّ بِصِبْيانٍ يَلْعَبُونَ وَفِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا عَبْدَ اللهِ فَقالَ لَهُ عُمَرُ : مَالَكَ لَا تَهْرُبُ مَعَ أَصْحابِكَ . فَقالَ : يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لَمْ أَكُنْ عَلَى رِيبَةٍ فَأَخافَكَ وَلَمْ يَكُنِ الطَّرِيقُ ضَيِّقًا فَأُوسِعَ لَكَ . فَانْظُرْ مَا تَضَمَّنَهُ هٰذَا الجَوابُ مِنَ الفِطْنَةِ وَقُوَّةِ المُنَّةِ وَحُسْنِ البَدِيهَةِ كَيفَ نَفَى عَنْهُ اللَّوْمَ وَأَثْبَتَ لَهُ الحُجَّةَ فَلَيْسَ لِلذَّكاءِ غايَةٌ . وَلَا لِجَوْدَةِ القَرِيحَةِ نِهايَةٌ

البحث الخامس

في التصوُّر والتمثُّل

(من كتاب زجر النفس لهرمس)

يا نَفْسُ إِنَّ مُبْدِعَ الأَشْياءِ وَمُنْشِئَها جَلَّ جَلالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْماؤُهُ أَبْدَعَكِ وَجَعَلَكِ ذاتَ التَّصَوُّرِ وَالتَّمَثُّلِ . فَأَمَّا التَّصَوُّرُ فَتَصَوُّرُكِ الأَشْياءَ عَلَى حَقِيقَةِ مَا أَبْدَعَهُ مُبْدِعُهُ . وَأَمَّا التَّمَثُّلُ فَتَمَثُّلُكِ مَا خَفِيَ عَنْكِ مِنْ عالَمِ العَقْلِ بِمَا شاهَدْتِهِ فِي عالَمِ الحِسِّ مِثْلًا بِمِثْلٍ وَمَعْنًى بِمَعْنًى كَمَا أَنْ تَدُلَّ ذاتُ الصُّورَةِ المَطْبُوعَةِ فِي الشَّمْعِ عَلَى مَعْناهُ وَحَقِيقَتِهِ فِي الطَّابِعِ وَكَمَا تَدُلُّ الصُّورَةُ المُمَثَّلَةُ فِي الطَّابِعِ عَلَى مَعْنًى حَقِيقَتِهِ فِي نَفْسِ مُمَثِّلِها وَمُصَوِّرِها وَكَمَا يُؤَثِّرُ الماءُ فِي الرَّمْلِ مَعانِيَ حَرَكاتِهِ وَتَمَوُّجِهِ

البحث السادس

الخيال والخيالي

(عن الحاج خلفا بتصرّف)

(راجع صفحة ٥ من توطئة عام الادب)

اَلْخَيَالُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى اَلشَّخْصِ وَعِنْدَ اَلْحُكَمَاءِ يُطْلَقُ عَلَى اِحدَى اَلْحَوَاسِّ اَلْبَاطِنَةِ . وَهُوَ قُوَّةٌ تَحْفَظُ اَلصُّوَرَ اَلْمُرْتَسِمَةَ فِي اَلْحِسِّ اَلْمُشْتَرَكِ اِذَا غَابَتْ تِلْكَ اَلصُّوَرُ عَنِ اَلْحَوَاسِّ اَلْبَاطِنَةِ . وَمَحَلُّهُ مُؤَخَّرُ اَلتَّجْوِيفِ اَلْاَوَّلِ مِنَ اَلتَّجَاوِيفِ اَلثَّلَاثَةِ لِلدِّمَاغِ عِنْدَ اَلْجُمْهُورِ(١).وَاسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُودِ اَلْخَيَالِ بِاَنَّا اِذَا شَاهَدْنَا صُورَةً ثُمَّ ذَهِلْنَا عَنْهَا زَمَانًا ثُمَّ نُشَاهِدُ مَرَّةً اُخْرَى نَحْكُمُ عَلَيْهَا بِاَنَّهَا هِيَ اَلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ . فَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ اَلصُّورَةُ مَحْفُوظَةً فِينَا زَمَانَ اَلذُّهُولِ لَامْتَنَعَ اَلْحُكْمُ بِاَنَّهَا هِيَ اَلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ.(وَالْخَيَالِيُّ) يُطْلَقُ عَلَى اَلصُّورَةِ اَلْمُرْتَسِمَةِ فِي اَلْخَيَالِ اَلْمُتَاَدِّيَةِ اِلَيْهِ مِنْ طُرُقِ اَلْحَوَاسِّ.وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى اَلْمَعْدُومِ اَلَّذِي اخْتَرَعَتْهُ اَلْمُتَخَيِّلَةُ وَرَكَّبَتْهُ مِنَ اَلْاُمُورِ اَلْمَحْسُوسَةِ اَيِ اَلْمُدْرَكَةِ بِالْحَوَاسِّ اَلظَّاهِرَةِ . وَبِقَوْلِنَا مِنَ اَلْاُمُورِ اَلْمَحْسُوسَةِ خَرَجَ اَلْوَهْمِيُّ بِمَعْنَى مَا اخْتَرَعَتْهُ اَلْقُوَّةُ اَلْمُتَخَيِّلَةُ اخْتِرَاعًا صِرْفًا عَلَى نَحْوِ اَلْمَحْسُوسَاتِ وَبِهٰذَا اَلْمَعْنَى يُسْتَعْمَلُ فِي بَابِ اَلتَّشْبِيهِ كَمَا فِي قَوْلِ اَلشَّاعِرِ :

وَكَاَنَّ مُحْمَرَّ اَلشَّقِيقِ م اِذَا تَصَوَّبَ اَوْ تَصَعَّدْ
اَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

---

(١) ليس هذا الرأي بمقرَّر

فَإِنَّ ٱلْأَعْلَامَ ٱلْيَاقُوتِيَّةَ ٱلْمَنْشُورَةَ عَلَى ٱلرِّمَاحِ ٱلزَّبَرْجَدِيَّةِ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ ٱلْحِسُّ لِأَنَّ ٱلْحِسَّ إِنَّمَا يُدْرِكُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي ٱلْمَادَّةِ حَاضِرَةً عِنْدَ ٱلْمُدْرِكِ عَلَى هَيْئَاتٍ مَحْسُوسَةٍ مَخْصُوصَةٍ بِهِ . لٰكِنَّ مَادَّتَهُ ٱلَّتِي يَتَرَكَّبُ هُوَ مِنْهَا كَٱلْأَعْلَامِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلرِّمَاحِ وَٱلزَّبَرْجَدِ كُلٌّ مِنْهَا مَحْسُوسٌ بِٱلْبَصَرِ

البحث السابع

في الحافظة

(عن الماوَردي باختصار)

(راجع صفحة ٥٥٦ من توطئة علم الادب)

رُبَّمَا ٱسْتَثْقَلَ ٱلْمُتَعَلِّمُ ٱلدَّرْسَ وَٱلْحِفْظَ وَٱتَّكَلَ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْكُتُبِ وَٱلْمُطَالَعَةِ فِيهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا كَمَنْ أَطْلَقَ مَا صَادَهُ ثِقَةً بِٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ ٱلِٱمْتِنَاعِ مِنْهُ فَلَا تُعْقِبُهُ ٱلثِّقَةُ إِلَّا خَجَلًا وَٱلتَّفْرِيطُ إِلَّا نَدَمًا . وَهٰذِهِ حَالٌ قَدْ يَدْعُو إِلَيْهَا أَحَدُ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : ٱلضَّجَرُ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْحِفْظِ وَمُرَاعَاتِهِ وَطُولُ ٱلْأَمَلِ فِي ٱلتَّوَفُّرِ عَلَيْهِ عِنْدَ نَشَاطِهِ وَفَسَادُ ٱلرَّأْيِ فِي عَزِيمَتِهِ وَلَيْسَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلضَّجُورَ خَائِبٌ وَأَنَّ ٱلطَّوِيلَ ٱلْأَمَلِ مَغْرُورٌ وَأَنَّ ٱلْفَاسِدَ ٱلرَّأْيِ مُصَابٌ . وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ فِي أَمْثَالِهَا : حَرْفٌ فِي قَلْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ فِي كُتُبِكَ . وَقَالُوا : لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَعْبُرُ مَعَكَ ٱلْوَادِي وَلَا يَعْمُرُ بِكَ ٱلنَّادِي . وَأُنْشِدْتُ عَنِ ٱلرَّبِيعِ لِلشَّافِعِيِّ :

عِلْمِي مَعِي حَيْثُ مَا يَمَّمْتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقِي
إِنْ كُنْتُ فِي ٱلْبَيْتِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِيهِ مَعِي
أَوْ كُنْتُ فِي ٱلسُّوقِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِي ٱلسُّوقِ

وَرُبَّمَا ٱعْتَنَى ٱلْمُتَعَلِّمُ بِٱلْحِفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ وَلَا فَهْمٍ حَتَّى يَصِيرَ حَافِظًا لِأَلْفَاظِ ٱلْمَعَانِي قَيِّمًا بِتِلَاوَتِهَا وَهُوَ لَا يَتَصَوَّرُهَا وَلَا يَفْهَمُ مَا تَضَمَّنَهَا يَرْوِي بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَيُخْبِرُ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ فَهُوَ كَالْكِتَابِ ٱلَّذِي لَا يَدْفَعُ شُبْهَةً وَلَا يُؤَيِّدُ حُجَّةً وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: هِمَّةُ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلرِّوَايَةُ. وَهِمَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلرِّعَايَةُ. وَرَوَى ٱبْنُ مَسْعُودٍ: كُونُوا لِلْعِلْمِ رُعَاةً. وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً. فَقَدْ يَرْعَوِي مَنْ لَا يَرْوِي. وَيَرْوِي مَنْ لَا يَرْعَوِي. وَحَدَّثَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ بِحَدِيثٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا سَعِيدٍ عَمَّنْ. قَالَ: مَا تَصْنَعُ بِعَمَّنْ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ نَالَتْكَ عِظَتُهُ وَقَامَتْ عَلَيْكَ حُجَّتُهُ

وَرُبَّمَا ٱعْتَمَدَ عَلَى حِفْظِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَأَغْفَلَ تَقْيِيدَ ٱلْعِلْمِ فِي كُتُبِهِ ثِقَةً بِمَا ٱسْتَقَرَّ فِي ذِهْنِهِ وَهٰذَا خَطَأٌ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلشَّكَّ مُعْتَرِضٌ وَٱلنِّسْيَانَ طَارِقٌ. وَقَالَ ٱلْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: ٱجْعَلْ مَا فِي ٱلْكُتُبِ رَأْسَ ٱلْمَالِ وَمَا فِي ٱلْقَلْبِ ٱلنَّفَقَةَ. وَقَالَ مَهْبُورٌ: لَوْلَا مَا عَقَدَتْهُ ٱلْكُتُبُ مِنْ تَجَارِبِ ٱلْأَوَّلِينَ لَانْحَلَّ مَعَ ٱلنِّسْيَانِ عُقُودُ ٱلْآخِرِينَ

البحث الثامن

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٦ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ لَفظَةَ ٱلذَّوْق يَتَدَاوَلُهَا ٱلْمُعْتَنُون بِفُنُون ٱلبيان ومعناها حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلبَلَاغَةِ لِلِّسَانِ ٱلَّتِي هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلكَلَام للمعنى من جَمِيعِ وُجُوهِهِ بِخَوَاصَّ تقعُ لِلتَّرَاكِيبِ فِي إِفَادَةِ ذلك . فالمتكلم بِلِسَانِ ٱلعَرَبِ وَٱلبَلِيغُ فِيهِ يتحَرَّى ٱلهَيْئَةَ ٱلمُفِيدَةَ لذلك على اساليب ٱلعَرَبِ وَانْحَاءِ مُخَاطَبَاتِهِمْ وَيَنْظِمُ ٱلكَلَامَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلوَجه جهده . فَإِذَا ٱتَّصَلَتْ مَقَامَاتُهُ بِمُخَالَطَةِ كَلَامِ ٱلعَرَبِ حَصلتْ له الملكة فِي نَظْمِ ٱلكَلَامِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلوَجهِ وَسَهُلَ عَلَيهِ أمر ٱلتَّرْكِيب حتى لا يكاد يَنْحُو فِيهِ غَيرَ مَنْحَى ٱلبَلَاغَةِ ٱلَّتِي لِلْعَرَبِ . وَإن سمع تَرْكِيبا غير جار عَلَى ذٰلِكَ ٱلمَنْحَى مَجَّهُ وَنَبَا عَنْهُ سَمْعُهُ بادنى فِكْر بَلْ وبغير فكر الا بما ٱستَفَادَهُ مِنْ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ . فَإِنَّ ٱلملكاتِ اذا ٱستقرت وَرَسَخَتْ فِي مَحَالِّهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا طَبِيعَةٌ وَجِبِلَّةٌ لِذٰلِكَ المحل . ولذلك يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ ٱلمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ شَأْنَ ٱلملكاتِ أن ٱلصواب لِلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ إِعرَابًا وَبَلَاغَةً أمْرٌ طَبِيعِيٌّ وَيَقُولُ : كَانَتِ ٱلعربُ تنطق بِٱلطَّبْعِ . وَلَيسَ كَذٰلِكَ . وَإِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ لِسَانِيَّةٌ فِي نَظْمِ الكلام تَمَكَّنَتْ وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ أَنَّهَا جِبِلَّة وطبع وهذه

الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه . وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها اهل صناعة اللسان . فان هذه القوانين انما تفيد علما بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها . واذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجوه النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم . ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لانه لا يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده . واذا عرض عليه الكلام حائدا عن اسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم اعرض عنه ومجه وعلم انه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم . وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع اهل القوانين النحوية والبيانية . فان ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء وهذا امر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم . ومثاله لو فرضنا صبيا من صبيانهم نشأ وربي في جيلهم فانه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها وليس من العلم القانوني في شيء وانما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه . وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم واشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربي بين

احيائهم. والقوانين بمعزل عن هذا. واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه اهل صناعة البيان. والذوق انما هو موضوع لإدراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه وايضا فهو وجداني للسان كما ان الطعوم محسوسة له فقيل له ذوق. واذا تبين لك ذلك علمت منه ان الاعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرين الى النطق به لمخالطة اهله كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب فانه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا امرها. لان قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة اخرى الى اللسان وهي لغاتهم ان يعتنوا بما يتداوله اهل المصر(١) بينهم في المحاورة من مفرد ومركب لما يضطرون اليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لاهل الامصار وبعدوا عنها كما تقدم. وانما لهم في ذلك ملكة اخرى وليست هي ملكة اللسان المطلوبة. ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء انما حصل احكامها كما عرفت وانما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب. فان عرض لك ما تسمعه من ان سيبويه والفارسي والزمخشري وامثالهم من فرسان الكلام كانوا اعجاما مع حصول هذه الملكة لهم فاعلم ان اولئك القوم

(١) وفي نسخة: اهل المضر

ٱلَّذين تَسْمعُ عَنْهمْ إِنَّمَا كَانُوا عَجمًا فِي نسبِهمْ فَقَطْ وَأَمَّا ٱلْمَرْبَى وَٱلنشأَةُ فَكَانَتْ بَيْنَ اهلِ هٰذه ٱلْمَلَكَةِ مِنَ ٱلعَربِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهمْ فَاسْتَوْلَوْا بذلك مِن ٱلْكَلَام عَلَى غَايَةٍ لَا وراءَهَا . وَكَأَنَّهم فِي أَوَّل نشأَتِهمْ مِن ٱلعرَب ٱلذين نشأُوا في اجيالهم(١) حتَّى ادرَكُوا كُنْهَ ٱللُّغةِ وصَارُوا منْ اهْلها . فَهمْ وإنْ كَانُوا عجمًا فِي ٱلنَّسبِ فَلَيْسُوا بِأَعْجَام في ٱللغة وٱلكلام لِأَنهمْ ادركُوا ٱلمِلةَ فِي عُنفُوانِهَا وَٱللُّغةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذهَبْ آثارُ ٱلمَلَكَةِ ولا مِنْ اهل ٱلأمصار . ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى ٱلممارَسَة وَٱلمدراسَة لِكَلَام ٱلعرَب حتَّى ٱستَوْلَوا عَلَى غَايَتِهِ . وَٱلوَاحِدُ ٱليومَ مِن ٱلعجَم إذا خَالط اهلَ ٱللِّسان ٱلعَرَبِيّ بِٱلأَمْصَارِ فَأَوَّلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ ٱلمَلَكَة ٱلمَقْصُودَةَ منَ ٱللِّسان ٱلعرَبِيِّ مُمْتَحِيَةَ ٱلآثَار وَيَجِدُ مَلَكَتَهمْ ٱلخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخرَى مُخَالِفَة لِمَلَكَةِ ٱللِّسانِ ٱلعرَبِيِّ . ثُمَّ إذَا فَرضْنا أَنَّهُ أَقبلَ عَلَى ٱلممارَسَة لِكَلَام ٱلعَرب وَأَشعَارهمْ بِٱلمدارَسَةِ وَٱلحِفْظِ يَستَفِيدُ تَحْصِيلَهَا فَقلَّ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ ٱلمَلَكَةَ اذا سَبقَتْهَا مَلَكَةٌ أُخرَى فِي ٱلمحلِّ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا نَاقِصَة مَخْدُوشَةً . وإنْ فَرَضْنَا عَجَمِيًا فِي ٱلنَّسَب سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَة لِلِّسانِ ٱلعَجَمِيِّ بِٱلكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ بِٱلحِفْظِ وَٱلمدارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَه ذلِكَ لَكِنَّهُ مِنَ ٱلنُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخفَى عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ . وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلقَوَانِينِ ٱلبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هٰذَا ٱلذَّوْق لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ أَوْ مُغَالَطَةٌ وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ ٱلمَلَكَةُ إنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ ٱلقَوَانِينِ ٱلبَيَانِيَّةِ

(١) وفي نسخة : في اجيالهم

وَلَيْسَتْ مِنْ مَلَكَةِ ٱلْعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

البحث التاسع

في المطالعة

(المثل السائر لابي الفتح بن الاثير الموصلي)

(راجع صفحة ٨ من توطئة علم الادب)

اِنَّ فِي ٱلِاطِّلَاعِ عَلَى كَلَامِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ فَوَائِدَ جَمَّةً لِاَنَّهُ يُعْلَمُ مِنْهُ اَغْرَاضُ ٱلنَّاسِ وَنَتَائِجُ اَفْكَارِهِمْ وَيُعْرَفُ بِهِ مَقَاصِدُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ وَإِلَى اَيْنَ تَرَامَتْ بِهِ صَنْعَتُهُ فِي ذٰلِكَ . فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءَ مِمَّا تَشْحَذُ ٱلْقَرِيحَةَ وَتُذَكِّي ٱلْفِطْنَةَ . وَاِذَا كَانَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِهَا تَصِيرُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي ذُكِرَتْ وَتُعِبَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهَا كَٱلشَّيْءِ ٱلْمُلْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْخُذُ مِنْهُ مَا اَرَادَ . وَاَيْضًا فَاِنَّهُ اِذَا كَانَ مُطَّلِعًا عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْمَسْبُوقِ اِلَيْهَا قَدْ يَنْقَدِحُ لَهُ مِنْ بَيْنِهَا مَعْنًى غَرِيبٌ لَمْ يُسْبَقْ اِلَيْهِ . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ اَنَّ خَوَاطِرَ ٱلنَّاسِ وَاِنْ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً فِي ٱلْجُودَةِ وَٱلرَّدَاءَةِ فَاِنَّ بَعْضَهَا لَا يَكُونُ عَالِيًا عَلَى بَعْضٍ اَوْ مُنْحَطًّا عَنْهُ اِلَّا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ . وَكَثِيرًا مَا تَتَسَاوَى ٱلْقَرَائِحُ وَٱلْاَفْكَارُ فِي ٱلْاِتْيَانِ بِٱلْمَعَانِي حَتَّى اِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنًى مَوْضُوعٍ بِلَفْظٍ ثُمَّ يَأْتِي ٱلْآخَرُ بَعْدَهُ بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ بِعَيْنِهِمَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا جَاءَ بِهِ ٱلْاَوَّلُ وَهٰذَا ٱلَّذِي يُسَمِّيهِ اَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وُقُوعَ ٱلْحَافِرِ عَلَى ٱلْحَافِرِ

البحث العاشر

في الارتياض والممارسة

(المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٩ و١٠ من توطئة علم الادب)

اعلم ايها الناظر في كتابي ان مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو انفع من ذوق التعليم. وهذا الكتاب وان كان فيما يلقيه اليك استاذا او اذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا فان الدربة والادمان اجدى عليك نفعا واهدى بصرا وسمعا. وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول إمكانا وكل جارحة منك قلبا ولسانا. فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك واستنبط بادمانك ما اخطاك. وما مثلي فيما مهدته لك من هذا الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعه في يمينك لتقاتل به وليس عليه ان يخلق لك قلبا فان حمل النصال غير مباشرة القتال

وانما يبلغ الانسان غايته ما كل ماشية بالرحل شملال

وان صاحب الكتابة لا يرى في امره الا صعوبة ووعورة وطريقا متشعبة المذاهب كثيرة الشعاب. فاذا اكره خاطره على سلوكها وشجعه على تورّدها فما يمضي به هنيهة حتى يستنير به الطريق ويتضح لديه. والتعب على منازل العلياء امارة

البحث الحادي عشر

في طرائق مختلفة من الممارسة والتمرين

(المثل السائر باختصار)

(راجع صفحة ١٠ من توطئة علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصلُ هُوَ كَنْزُ ٱلْكِتَابَةِ وَمَنْبَعُهَا وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَتَكَلَّم فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَمَّا حُبِّبَتْ إِلَيَّ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةُ وَبَلَغَنِي ٱللهُ مِنْهَا مَا بَلَغَنِي وَجَدتُ ٱلطَّرِيقَ يَنْقَسِمُ فِيهَا إِلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ : (ٱلْاولى) ان يتصفح ٱلْكَاتِبُ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَيطَّلِعَ عَلَى أَوْضَاعِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَلْفَاظ وَٱلْمعَانِي ثُمَّ يَحْذُو حَذْوَهُمْ . وهٰذِهِ أَدْنَى ٱلطَّبَقَاتِ عِنْدِي . (ٱلثَانِيَةُ) أَنْ يَمْزُجَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِمَا يَسْتَجِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِن زِيَادَة حسنة اما فِي تَحْسِينِ ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي تَحْسِينِ ٱلْمَعَانِي.وَهٰذِهِ ٱلطَّبَقَةُ ٱلْوُسْطى وَهِيَ أَعْلَى مِنَ ٱلَّتِي قَبْلَهَا . (ٱلثَالِثَة) أَنْ لَا يَتَصَفَّح كِتَابَةَ ٱلْمتَقَدِّمِينَ ولَا يَطَّلِعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بَلْ يَصْرِفَ هَمَّهُ إِلَى حِفْظ ٱلْحَدِيثِ وَٱلْاخبار وعدة مِنْ دَوَاوِينِ فُحُولِ ٱلشُّعَرَاءِ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَى شِعْرِهِ ٱلْإِجَادَةُ فِي ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلْفَاظِ . ثُمَّ يَأْخُذُ فِي ٱلِٱقْتِبَاسِ مِنْ هٰذِهِ فَيَقُومُ وَيَقَعُ وَيُخْطِئ وَيُصِيبُ وَيَضِلُّ وَيَهْتَدِي حَتَّى يَسْتَقِيمَ عَلَى طَرِيقَةٍ يَفْتَتِحُهَا لِنفْسه.وَأَخْلِق بِتِلْكَ ٱلطَّرِيقِ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَعَةً غَرِيبَةً لَا شَرِكَةَ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فِيهَا . وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ طَرِيقُ ٱلِٱجْتِهَادِ وَصَاحِبُهَا يُعَدُّ إِمَامًا فِي فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ . إِلَّا أَنَّهَا مُسْتَوْعِرَةٌ جِدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُهَا إِلَّا مَنْ رَزَقَهُ ٱللهُ

تعالى إنساناً هجاماً وخاطراً رقاماً وإنما تكون نفاسة الأشياء بعزة حصولها ومشقة وصولها :

ليس حلواً وجودك الشيء تبغيه م طلاباً حتى يعز طلابه

وهذه الطريق يجهلها كثير من متعاطي هذه الصناعة والذي يعلمها منهم يرضى بالحواشي والأطراف ويقنع من لآليها بمعرفة ما في الأصداف . ولا أريد بهذه الطريقة أن يكون الكاتب مرتبطاً في كتابته بما يستخرجه بحيث أنه لا ينشئ كتاباً إلا من ذلك بل أريد أنه إذا حفظ مما قدمنا شيئاً ثم نقب عن ذلك تنقيب مطلع على معانيه مفتش عن دفائنه وقلبه ظهراً لبطن عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية . ألا ترى صاحب الاجتهاد من الفقهاء يفتقر إلى معرفة أخبار الأحكام وإلى معرفة علم العربية والفرائض والحساب من المعلوم والمجهول . وكذلك يجري الحكم في الكاتب إذا أحب الترقي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة فإنه يحتاج إلى أدوات كثيرة سنذكرها

فصلٌ في صفة الكاتب وما يحتاج اليهِ من المعارف

البحث الاوَّل

في صفة الكاتب الظاهرة

(عن ابراهيم الشيباني وآثار الاول للحسن بن عبدالله)

قِيلَ إِنَّهُمْ قَدِ ٱسْتَحْسَنُوا فِي ٱلْكَاتِبِ ٱعْتِدَالَ ٱلْقَامَةِ وَصِغَرَ ٱلْهَامَةِ وَخِفَّةَ ٱللَّهَازِمِ وَصِدْقَ ٱلْحِسِّ وَلُطْفَ ٱلْمَذْهَبِ وَحَلَاوَةَ ٱلشَّمَائِلِ وَحُسْنَ ٱلْإِشَارَةِ وَمَلَاحَةَ ٱلزِّيِّ حَتَّى قَالَ بَعْضُ ٱلْمَهَالِبَةِ لِوُلْدِهِ : تَزَيَّوْا بِزِيِّ ٱلْكُتَّابِ فَإِنَّ فِيهِمْ أَدَبَ ٱلْمُلُوكِ وَتَوَاضُعَ ٱلسُّوقَةِ . وَقِيلَ : إِنَّ مِنْ كَمَالِ آلَةِ ٱلْكِتَابَةِ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَاتِبُ نَقِيَّ ٱلْمَلْبَسِ نَظِيفَ ٱلْمَجْلِسِ ظَاهِرَ ٱلْمُرُوَّةِ دَقِيقَ ٱلذِّهْنِ حَسَنَ ٱلْفَهْمِ وَافِرَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعَقْلِ صَادِقَ ٱلْحِسِّ حَسَنَ ٱلْبَيَانِ صَحِيحَ ٱلرَّأْيِ وَٱلْعِبَارَةِ مَلِيحَ ٱلتَّأَنِّي فِي نَظْمِ ٱلْمَعَانِي وَنَثْرِهَا دَقِيقَ حَوَاشِي ٱللِّسَانِ حُلْوَ ٱلْإِشَارَةِ مَلِيحَ ٱلِٱسْتِعَارَةِ لَطِيفَ ٱلْمَسَالِكِ مُسْتَقِرَّ ٱلتَّرْكِيبِ . وَلَا يَكُونَ مَعَ ذٰلِكَ قَذِمَ ٱلْمَنْظَرِ مُتَفَاوِتَ ٱلْأَجْزَاءِ مُضْطَرِبَ ٱلْخَلْقِ . فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ هٰذِهِ ٱلصُّورَةَ لَا يَلِيقُ بِصَاحِبِهَا ٱلذَّكَاءُ وَٱلْفِطْنَةُ. وَإِنِ ٱتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ حَسَنَ ٱلْخَطِّ فَهُوَ كَمَالُهُ وَإِلَّا فَيَكُونُ هُوَ ٱلْمُنْشِئَ وَغَيْرُهُ ٱلْكَاتِبَ . وَنَظَرَ أَحْمَدُ ٱبْنُ خَصِيبٍ إِلَى رَجُلٍ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةِ فَقَالَ : لَأَنْ يَكُونَ هٰذَا قِنْطَاسَ مَرْكَبٍ أَشْبَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا . قَالَ بَعْضُهُمْ :

عَلَيْكَ بِكَاتِبٍ لَبِقٍ رَشِيقٍ ذَكِيٍّ فِي شَمَائِلِهِ حَذَارَهْ

تُنَاجِيهِ بِطَرْفِكَ مِنْ بَعِيدٍ فَيَفْهَمُ رَجْعَ لَحْظِكَ بِٱلْإِشَارَهْ

فَإِذَا ٱجْتَمَعَتْ لِلْكَاتِبِ هٰذِهِ ٱلْخِلَالُ وَٱنْتَظَمَتْ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ فَهُوَ ٱلْكَاتِبُ ٱلْبَلِيغُ وَٱلْأَدِيبُ ٱلنِّحْرِيرُ وَإِنْ قَصُرَتْ بِهِ آلَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْآلَاتِ وَقَعَدَتْ بِهِ أَدَاةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَدَوَاتِ فَهُوَ مَنْقُوصُ ٱلْجَمَالِ مُنْكَسِفُ ٱلْحُسْنِ مَنْحُوسُ ٱلنَّصِيبِ

البحث الثاني

في ادوات علم الكتابة

(عن المثل السائر لابن الاثير الموصلي باختصار)

اِعْلَمْ أَنَّ صِنَاعَةَ تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ تَفْتَقِرُ إِلَى آلَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَقَدْ قِيلَ : يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِكُلِّ عِلْمٍ حَتَّى قِيلَ : كُلُّ ذِي عِلْمٍ يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ إِلَيْهِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ ٱلنَّحْوِيُّ وَفُلَانٌ ٱلْفَقِيهُ وَلَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ إِلَى ٱلْكِتَابَةِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ ٱلْكَاتِبُ وَذٰلِكَ لِمَا يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْخَوْضِ فِي كُلِّ فَنٍّ . وَمِلَاكُ هٰذَا كُلِّهِ ٱلطَّبْعُ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّ طَبْعٌ فَإِنَّهُ لَا تُغْنِي تِلْكَ ٱلْآلَاتُ شَيْئًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ كَمَثَلِ ٱلنَّارِ ٱلْكَامِنَةِ فِي ٱلزِّنَادِ وَٱلْحَدِيدَةِ ٱلَّتِي يُقْدَحُ بِهَا . أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ٱلزِّنَادِ نَارٌ لَا تُفِيدُ تِلْكَ ٱلْحَدِيدَةُ شَيْئًا . وَكَثِيرًا مَا رَأَيْنَا مِنْ غَرَائِبِ ٱلطِّبَاعِ فِي تَعَلُّمِ ٱلْعُلُومِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ لَهُ نَفَاذٌ فِي تَعَلُّمِ عِلْمٍ مُشْكِلِ ٱلْمَسْلَكِ صَعْبِ ٱلْمَأْخَذِ فَإِذَا كُلِّفَ تَعَلُّمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ سَهْلِ ٱلْعُلُومِ نَكَسَ

عَلَى عَقِبَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ نَفَاذٌ . وَأَغْرَبُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الطَّبْعِ فِي الْمَنْظُومِ يُجِيدُ فِي الْمَدِيحِ دُونَ الْهِجَاءِ أَوْ فِي الْهِجَاءِ دُونَ الْمَدِيحِ أَوْ يُجِيدُ فِي الْمَرَاثِي دُونَ التَّهَانِئِ أَوْ فِي التَّهَانِئِ دُونَ الْمَرَاثِي. وَكَذٰلِكَ صَاحِبُ الطَّبْعِ فِي الْمَنْثُورِ. هٰذَا ابْنُ الْحَرِيرِيِّ صَاحِبُ الْمَقَامَاتِ قَدْ كَانَ عَلَى مَا ظَهَرَ عَنْهُ مِنْ تَنْمِيقِ الْمَقَامَاتِ وَاحِدًا فِي فَنِّهِ فَلَمَّا حَضَرَ بِبَغْدَادَ وَوَقَفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ قِيلَ هٰذَا يَسْتَصْلِحُ لِكِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ فِي دِيوَانِ الْخِلَافَةِ وَيَحْسُنُ أَثَرُهُ فِيهِ . فَأُحْضِرَ وَكُلِّفَ كِتَابَةَ كِتَابٍ فَأُفْحِمَ وَلَمْ يَجْرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلَةٍ وَلَا قَصِيرَةٍ . . . . وَبَلَغَنِي عَنِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ بْنِ الْخَشَّابِ النَّحْوِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : ابْنُ الْحَرِيرِيِّ رَجُلُ مَقَامَاتٍ أَيْ إِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ مِنَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ سِوَاهَا وَإِنْ أَتَى بِغَيْرِهَا لَا يَقُولُ شَيْئًا . فَانْظُرْ أَيُّهَا الْمُتَأَمِّلُ إِلَى هٰذَا التَّفَاوُتِ فِي الصِّنَاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ ومنْ أجل ذلك قِيلَ : شَيْئَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا الْبَيَانُ وَالْجَمَالُ

البحث الثالث

فيما يجب على الكاتب معرفته

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

وَمِمَّا يَجِبُ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَتَرَشَّحَ بِهِ لِلْكِتَابَةِ قِرَاءَةُ مَا يَتَّفِقُ مِنْ (كُتُبِ النَّحْوِ) الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِحَيْثُ يَجْمَعُ بَيْنَ طَرَفَيِ الْكِتَابِ الَّذِي يَقْرَأُهُ وَيَسْتَكْمِلُ اسْتِشْرَاحَهُ وَيُكِبُّ عَلَى

ٱلْإِعْرَابِ وَيُلَازِمُهُ وَيَجْعَلُهُ دَأْبَهُ لِيَرْتَسِمَ فِي فِكْرِهِ وَيَدُورَ عَلَى لِسَانِهِ وَيَنْطَلِقَ بِهِ عِقَالُ قَلَمِهِ وَكَلِمِهِ وَيَزُولَ بِهِ ٱلْوَهْمُ عَنْ سَجِيَّتِهِ وَيَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ عِبَارَتِهِ. فَإِنَّهُ لَوْ أَتَى مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِأَتَمِّ مَا يَكُونُ وَلَحَنَ ذَهَبَتْ مَحَاسِنُ مَا أَتَى بِهِ وَٱنْهَدَّتْ طَبَقَةُ كَلَامِهِ وَأُلْغِيَ جَمِيعُ مَا يُحْسِنُهُ وَوَقَفَ بِهِ عِنْدَ مَا جَهِلَهُ. وَيَتَعَلَّقُ بِذٰلِكَ قِرَاءَةُ مَا تَيَسَّرَ مِنْ مُخْتَصَرَاتِ (كُتُبِ ٱللُّغَةِ) كَٱلْفَصِيحِ لِثَعْلَبٍ وَكِفَايَةِ ٱلْمُتَحَفِّظِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ كُتُبِ ٱلْأَلْفَاظِ لِيَتَّسِعَ عَلَيْهِ نِطَاقُ ٱلنُّطْقِ وَيَنْفَسِحَ لَهُ مَجَالُ ٱلْعِبَارَةِ وَيَنْفَتِحَ لَهُ بَابُ ٱلْأَوْصَافِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَى وَصْفِهِ مِنْ خَيْلٍ أَوْ سِلَاحٍ أَوْ حَرْبٍ أَوْ سَيْرٍ أَوْ قِتَالٍ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى وَصْفِهِ وَيَضْطَرُّ إِلَى نَعْتِهِ. وَيَتَّصِلُ بِذٰلِكَ حِفْظُ (خُطَبِ ٱلْبُلَغَاءِ) مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ وَمُخَاطَبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَمُرَاجَعَاتِهِمْ وَمَا ٱدَّعَاهُ كُلٌّ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ أَوْ لِقَوْمِهِ وَمَا نَقَضَهُ عَلَيْهِ خَصْمُهُ لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْوَقَائِعِ بِنَظَائِرِهَا وَتَلَقِّي ٱلْحَوَادِثِ بِمَا شَاكَلَهَا وَٱلِاقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ مَنْ فَلَجَ عَلَى خَصْمِهِ وَٱقْتِفَاءِ آثَارِ مَنِ ٱضْطُرَّ إِلَى عُذْرٍ أَوْ إِبْطَالِ دَعْوَى أَوْ إِثْبَاتِهَا فَلَحَنَ بِحُجَّتِهِ وَتَخَلَّصَ بِلُطْفِ مَأْخَذِهِ وَدِقَّةِ مَسْلَكِهِ وَحُسْنِ عِبَارَتِهِ . . .

فَٱنْظُرْ فِي هٰذَا وَأَمْثَالِهِ وَٱلْحِفْظُ مِنْهُ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْ مُطَالَعَتِهِ مِمَّا يَشْحَذُ ٱلْقَرَائِحَ وَيَفْتُقُ ٱلْأَذْهَانَ وَيَرْتَسِمُ فِي ٱلْخَوَاطِرِ وَيَكْمُنُ فِي ٱلْأَفْكَارِ حَتَّى يَفِيضَ مَا غَاضَ مِنْهُ عَلَى لِسَانِ ٱلْقَلَمِ وَيَبْدُو مِنْهُ لِكُلِّ وَاقِعَةٍ مِنْوَالٌ يُنْسَجُ عَلَيْهِ وَمِثَالٌ يُنْظَرُ فِي نَظَائِرِ ٱلْأُمُورِ إِلَيْهِ

ثُمَّ ٱلنَّظَرُ فِي (أَيَّامِ ٱلْعَرَبِ) وَوَقَائِعِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ وَتَسْمِيَةِ ٱلْأَيَّامِ

ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَمَعْرِفَةِ يَوْمِ كُلِّ قَبِيلَةٍ عَلَى ٱلْأُخْرَى وَمَا جَرَى بَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُنَاقَضَاتِ . لِمَا فِي ذٰلِكَ من ٱلعلم بِمَا يُسْتَشْهَدُ بِهِ مِنْ وَاقِعَةٍ قَدِيمَةٍ أَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي مُكَاتَبَةٍ مِن ذِكْرِ أَيَّامٍ مَشْهُورَةٍ أَوْ ذِكْرِ فَارِسٍ مُعَيَّنٍ . . . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ فِي نَظَائِرِهِ كَثِيرَةٌ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِكُلِّ يَوْمٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَيَّامِ عَالِمًا بِمَا جَرَى فِيهَا لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ عَمَّا يَرِدُ إِلَيْهِ مِنْ مِثْلِهَا وَلَا مَا يَقُولُ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا وَحَسْبُهُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي صِنَاعَتِهِ وَقُصُورًا عَمَّا يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَحُسْنِ ٱلْجَوَابِ فِيهِ عِنْدَ ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ

ثُمَّ (ٱلنَّظَرُ فِي ٱلتَّوَارِيخِ) وَمَعْرِفَةُ أَخْبَارِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلِاطِّلَاعِ عَلَى سِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَسِيَاسَاتِهِمْ وَذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ وَمَكَائِدِهِمْ فِي حُرُوبِهِمْ وَمَا اتَّفَقَ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّجَارِبِ ٱلَّتِي بَلَغُوا بِهَا أَقْصَى ٱلْمَآرِبِ وَغَدَتْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ كَٱلْمِرْآةِ ٱلَّتِي تُصَوِّرُ لَهُمْ وُجُودَ ٱلتَّدْبِيرِ وَتُرِيهِمْ مَا ٱسْتَتَرَ عَنْهُمْ مِنْ صَغِيرِ أَحْوَالِهِمْ وَٱلْكَبِيرِ . فَإِنَّهُ قَدْ يُضْطَرُّ إِلَى ٱلسُّؤَالِ عَنْ أَحْوَالِ مَنْ سَلَفَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْعَصْرِ وَإِلَى ٱلْآنَ وَيُسْتَخْبَرُ كَيْفَ كَانَ ٱلْأَمْرُ بَيْنَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَكَيْفَ ٱنْتَصَرَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ . أَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي كِتَابٍ ذِكْرُ وَاقِعَةٍ بِعَيْنِهَا أَوْ يُحْتَجُّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ قَدِيمَةٍ فَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهَا مِنْ مَجَازِهَا وَلَا صِدْقَهَا مِنْ مَيْنِهَا

ثُمَّ (حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ) وَمُطَالَعَةُ شُرُوحِهَا وَٱسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهَا وَٱلتَّوَفُّرُ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْهَا كَٱلْحَمَاسَةِ وَٱلْمُفَضَّلِيَّاتِ وَٱلْأَصْمَعِيَّاتِ وَدِيوَانِ ٱلْهُذَلِيِّينَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ لِمَا فِي

ذلكَ مِنْ غزارة ٱلمَوادِ وَصِحَّةِ ٱلِاستشهادِ وَكَثْرَةِ ٱلنقلِ وصَقلِ مرآةِ ٱلعقلِ وٱنتزاعِ ٱلامثالِ وَٱلاخذِ في ٱختراعِ ٱلمعاني على اَصحِّ مثالٍ وَٱلاطلاعِ عَلَى اُصولِ ٱللُّغةِ وَشواهِدِها وَٱلاضطلاعِ مِنْ نوادرِ ٱلعَرَبيَّةِ وَشوارِدِها . وَقدْ كانَ ٱلصدرُ ٱلاوَّلُ يعتنونَ بذلكَ غايةَ ٱلاعتناءِ . فذُكِرَ انَّ عُمَرَ كانَ يُقدِّمُ زُهَيرَ بنَ اَبي سُلمى في ٱلشعرِ فقيل لهُ : بِمَ ٱستحقَّ ذلكَ عندكَ . فقالَ : كانَ لا يُعاظِلُ بينَ ٱلقولِ وَلا يتتبعُ حوشيَّ ٱلكلامِ وَلا يَصِفُ ٱلرَّجلَ اِلَّا بِمَا يكونُ في ٱلرِّجالِ . فَاِذا اَكثرَ ٱلمُترشِّحُ للكتابةِ مِنْ حِفظِ خِيارِ ٱلشِّعرِ وَتدبَّرَ معانيَهُ يَسْهلُ عَلَيهِ حَلُّهُ وظهرتْ لَهُ مَواضِعُ ٱلِاستشهادِ بِهِ وَساقهُ ٱلكلامُ اِلى اِبرازِ مَا في ذَخيرةِ حِفْظِهِ وَوَضْعِهِ في مَكانِهِ وَنَقْلِهِ في ٱلِاستشهادِ اَوِ ٱلتضمينِ اِلى مَا كأنَّهُ وُضِعَ لهُ . . . .

وَكَذلكَ حِفظُ جانبٍ جَيِّدٍ مِنْ شِعرِ ٱلمُحْدَثينَ كَاَبي تمَّامٍ وَمُسلِمِ ٱبنِ ٱلوليدِ وَٱلبحتريِّ وَٱبنِ ٱلرُّوميِّ وَٱلمتنبّي لِلُطفِ مَأخذِهِمْ وَدَوَرانِ ٱلصناعةِ في كلامِهِمْ وَدِقَّةِ توليدِ ٱلمعاني في اَشعارِهِمْ وَقُربِ اُسلوبِهِمْ مِنْ اُسلوبِ ٱلخطابةِ وَٱلكتابةِ وَخصوصًا ٱلمتنبّي ٱلذي كأنَّهُ يَنطِقُ عَنْ اَلسِنةِ ٱلناسِ في مُحاوَراتِهِمْ . وَكَثُرَ ٱلِاستشهادُ لِشِعْرِهِ حتّى قلَّ مَنْ يَجهلُهُ وَحتّى اُكتفِيَ بِٱلبيتِ ٱلواحِدِ في ٱلدِّلالةِ على ٱلقصدِ وَبُلوغِ ٱلغَرَضِ في ٱلجوابِ كَما كَتَبَ بَعضُ مُلوكِ ٱلعربِ اِلى مَنْ كَرَّرَ كُتُبَهُ وَارسلهُ اِليهِ بقولِ ٱلمتنبّي :

وَلَا كُتْبَ اِلَّا ٱلمَشرَفيَّةُ عِندَهُ وَلَا رُسُلٌ اِلَّا ٱلخميسُ ٱلعَرَمْرَمُ

وَكَذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي رَسَائِلِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ دُونَ حِفْظِهَا لِمَا فِي ٱلنَّظَرِ فِيهَا مِنْ تَنْقِيحِ ٱلْقَرِيحَةِ وَإِرْشَادِ ٱلْخَاطِرِ وَتَسْهِيلِ ٱلطُّرُقِ وَٱلنَّسْجِ عَلَى مِنْوَالِ ٱلْمُجِيدِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ ٱلْمُحْسِنِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا ٱنْتَجَتْهُ ٱلْقَرَائِحُ مِنْ أَبْكَارِ ٱلْأَفْكَارِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا رَوَّقَتْهُ ٱلْخَوَاطِرُ مِنْ حِيَاضِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ ٱلْقَاصِرَ وَٱلِاحْتِرَازِ مِمَّا أَظْهَرَهُ ٱلنَّقْدُ وَرَدَّ مَا بَهْرَجَهُ ٱلسَّبْكُ . فَأَمَّا ٱلنَّهْيُ عَنْ حِفْظِ ذٰلِكَ فَلِئَلَّا يَكِلَّ ٱلْخَاطِرُ عَمَّا فِي حَاصِلِهِ وَيَسْتَنِدَ ٱلْفِكْرُ إِلَى مَا فِي مُودَعِهِ وَيَكْتَفِيَ بِمَا لَيْسَ لَهُ وَيَتَلَبَّسَ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ . . . .

وَكَذٰلِكَ (ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَمْثَالِ) ٱلْوَارِدَةِ عَنِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا كَأَمْثَالِ ٱلْمَيْدَانِيِّ وَٱلْفَضْلِ بْنِ سَلَمَةَ ٱلضَّبِّيِّ وَحَمْزَةَ ٱلْأَصْبَهَانِيِّ وَغَيْرِهِمْ وَأَمْثَالِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْوَارِدَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ كَأَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ وَأَبِي تَمَّامٍ وَٱلْمُتَنَبِّي وَأَمْثَالِ ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱلْأَمْثَالِ ٱلْمَوْضُوعَةِ عَلَى أَلْسُنِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ لِيَسْتَشْهِدَ بِٱلْمَثَلِ فِي مَوْضِعِهِ وَيُورِدَهُ فِي مَكَانِهِ وَيَكُونَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِأَصْلِهِ وَأَوَّلِ مَنْ أَرْسَلَهُ مَثَلًا وَمَنِ ٱسْتَشْهَدَ بِهِ وَذِكْرِ سَبَبِهِ . . . .

وَأَمَّا (ٱلتَّمَثُّلُ بِٱلشِّعْرِ) فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ تَمَثَّلَ يَوْمًا بِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

ثُمَّ قَالَ : لِمَنْ هٰذَا . فَقِيلَ لَهُ : لِلنَّابِغَةِ . فَقَالَ : ذَاكَ أَشْعَرُ شُعَرَائِكُمْ . وَسَأَلَ عُمَرُ ٱبْنَ عَبَّاسٍ عَنْ شَيْءٍ فَأَجَابَهُ عَنْهُ فَأَعْجَبَهُ جَوَابُهُ فَقَالَ :

شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ . وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ مِمَّا تَمَثَّلَ بِهِ ٱلصَّحَابَةُ كَثِيرٌ .

وَكَذَٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي (ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ) فَإِنَّهُ قَدْ يُؤْمَرُ بِأَمْرٍ فَيَعْرِفُ بِهَا كَيْفَ يُخَلِّصُ قَلَمَهُ عَلَى حُكْمِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلْمُطَهَّرَةِ مِنْ وِلَايَةِ ٱلْقَضَاءِ وَٱلْحِسْبَةِ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ . فَهَٰذِهِ أُمُورٌ كُلِّيَّةٌ لَا بُدَّ لِلْمُتَرَشِّحِ لِهَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلتَّصَدِّي لِلِاطِّلَاعِ عَلَيْهَا وَٱلِانْكِبَابِ عَلَى مُطَالَعَتِهَا وَٱلِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا. يُنْفِقُ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَوَادِّ وَيَسْلُكُ فِي ٱلْوُصُولِ إِلَى تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ بِذَٰلِكَ ٱلْجَوَادِ وَإِلَّا فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ فِي وَادٍ وَٱلْكِتَابَةُ فِي وَادٍ

وَأَمَّا ٱلْأُمُورُ ٱلْخَاصَّةُ ٱلَّتِي تَزِيدُ مَعْرِفَتُهَا قَدْرَهُ وَيُزَيِّنُ ٱلْعِلْمُ بِهَا نَظْمَهُ وَنَثْرَهُ فَإِنَّهَا مِنَ ٱلْمُكَمِّلَاتِ لِهَٰذَا ٱلْفَنِّ وَإِنْ لَمْ يَضْطَرَّ إِلَيْهَا ذُو ٱلذِّهْنِ ٱلثَّاقِبِ وَٱلطَّبْعِ ٱلسَّلِيمِ وَٱلْقَرِيحَةِ ٱلْمُطَاوِعَةِ وَٱلْفِكْرَةِ ٱلْمُنْقَّحَةِ وَٱلْبَدِيهَةِ ٱلْمُجِيبَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ . لَكِنَّ ٱلْعَالِمَ بِهَا مُتَمَكِّنٌ مِنْ أَزِمَّةِ ٱلْمَعَانِي يَقُولُ عَنْ عِلْمٍ وَيَتَصَرَّفُ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَيَنْتَقِدُ بِحُجَّةٍ وَيَتَخَيَّرُ بِدَلِيلٍ وَيَسْتَحْسِنُ بِبُرْهَانٍ وَيَصُوغُ ٱلْكَلَامَ بِتَرْتِيبٍ

فَمِنْ ذَٰلِكَ (عِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ وَٱلْبَدِيعُ) وَمَا يَلْحَقُ بِهَا وَأَنَا أُشِيرُ ٱلْآنَ إِلَى نُكَتٍ مِنْهَا تَدُلُّ عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِ هَٰذَا ٱلْعِلْمِ وَعِظَمِ ٱلْفَائِدَةِ بِهِ وَأَنَّ ٱلْأَدِيبَ وَٱلْكَاتِبَ ٱلْعَارِيَيْنِ مِنْهُ قَاصِرَانِ عَنْ أَدْنَى رُتَبِ ٱلْكَمَالِ يُجِيدَانِ وَلَا يَدْرِيَانِ كَيْفَ يُجِيبَانِ . فَلَوْ سُئِلَ عَنْ عِلَّةِ مَعْنًى ٱسْتَحْسَنَهُ أَوْ لَفْظٍ ٱسْتَحْلَاهُ أَوْ تَرْكِيبٍ ٱسْتَجَادَهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ٱلْإِتْيَانِ بِدَلِيلٍ عَلَى ذَٰلِكَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ :

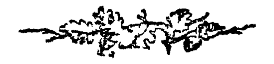
يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَتَحْكُمُ فِي ٱلشِّعْرِ م وَمَا فِيكَ آلَةُ ٱلْحُكَّامِ

إنَّ نَقْدَ الدِّينَارِ إلَّا عَلَى الصَّـ ـرْفِيِّ صَعْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ الْكَلَامِ
قَدْ رَأَيْنَاكَ لَسْتَ تَفْرِقُ فِي الْأَ م شْعَارِ بَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَامِ

وَحَكَى الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ قَالَ : رَكِبَ الْكِنْدِيُّ الْمُتَفَلْسِفُ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ حَشْوًا . فَقَالَ لَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ : فِي أَيِّ مَوْضِعٍ وَجَدتَ ذَلِكَ . قَالَ : وَجَدتُّ الْعَرَبَ تَقُولُ : عَبْدُ اللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّ عَبْدَ اللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّ عَبْدَ اللهِ لَقَائِمٌ . فَالْأَلْفَاظُ مُتَكَرِّرَةٌ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ . فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : بَلِ الْمَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ لِاخْتِلَافِ الْأَلْفَاظِ . فَقَوْلُهُمْ : عَبْدُ اللهِ قَائِمٌ إِخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ . وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ اللهِ قَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ اللهِ لَقَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ قِيَامَهُ . فَمَا أَحَارَ الْمُتَفَلْسِفُ جَوَابًا . فَإِذَا ذَهَبَ مِثْلُ هٰذَا عَلَى الْكِنْدِيِّ فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ . وَإِنْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الْكَلَامِ مَا لَا يَحْكُمُ فِي امْتِزَاجِهِ بِالْقُلُوبِ غَيْرُ الذَّوْقِ السَّلِيمِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

شَيْءٌ بِهِ فُتِنَ الْوَرَى غَيْرُ الَّذِي يُدْعَى الْجَمَالَ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ

لَكِنَّ الْغَالِبَ فِي الْكَلَامِ يُعْلَمُ سَبَبُ تَحْسِينِهِ وَتُعَارُ مَوَادُّ تَمْكِينِهِ وَيُجَابُ عَنِ الْعِلَّةِ فِي انْحِطَاطِهِ وَارْتِفَاعِهِ وَيُذْكَرُ الْمَعْنَى فِي ارْتِقَائِهِ مِنْ حَضِيضِ الْقَوْلِ إِلَى أَيْفَاعِهِ



الجزء الأول

في علم الانشاء

بحث في تعريف الانشاء

(عن ابي الخير وعن آداب المنشئ لابن صدر الدين)

(راجع الجزء الاول من علم الادب صفحة ١)

إِنَّ ٱلْإِنْشَاءَ عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ ٱلْمَنْثُورِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ بَلِيغٌ وَفَصِيحٌ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْآدَابِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَٱللَّائِقَةِ بِٱلْمَقَامِ . وَمَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ ظَاهِرَةٌ مِمَّا ذُكِرَ وَمَبَادِيهِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَتَبُّعِ ٱلْخُطَبِ وَٱلرَّسَائِلِ بَلْ لَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُلُومِ سِيَّمَا ٱلْحِكْمَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَسِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَوَصَايَا ٱلْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ . هٰذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْخَيْرِ . وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَا أَوْرَدَهُ فِي عِلْمِ مَبَادِئِ ٱلْإِنْشَاءِ وَأَدَوَاتِهِ فَلَا وَجْهَ لِجَعْلِهِ عِلْمًا آخَرَ . وَأَمَّا ٱبْنُ صَدْرِ ٱلدِّينِ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْمَعَايِبِ وَنُبْذَةً مِنْ آدَابِ ٱلْمُنْشِئِ . وَزُبْدَةُ كَلَامِهِ أَنَّ لِلنَّثْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ نَثْرٌ مَحَاسِنُ وَمَعَايِبُ يَجِبُ عَلَى ٱلْمُنْشِئِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا فَيَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلْمَعَايِبِ . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى كَعْبًا فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ مُحْتَرِزًا عَنِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ وَمَا يُخِلُّ لَهُ بِفَهْمِ ٱلْمُرَادِ وَيُوجِبُ

صُعُوبَتَهُ وَانْ يَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلتَّكْرَارِ وَانْ يَجْعَلَ ٱلْأَلفَاظَ تَابِعَةً لِلْمَعَانِي دُونَ ٱلْعَكْسِ . إِذِ ٱلْمَعَانِي إِذَا تَرَكَّبَتْ عَلَى سَجِيَّتِهَا طَلَبَتْ لِأَنْفُسِهَا أَلفَاظًا تَلِيقُ بِهَا فَيَحْسُنُ ٱللَّفْظُ وَٱلْمَعْنَى جَمِيعًا . وَامَّا جَعْلُ ٱلْأَلفَاظِ مُتَكَلِّفَةً وَٱلْمَعَانِي تَابِعَةً لَهَا فَهُوَ كَلِبَاسٍ مَلِيحٍ عَلَى مَنْظَرٍ قَبِيحٍ فَيَجِبُ انْ يَجْتَنِبَ عَمَّا يَفْعَلُهُ بَعْضُ مَنْ لَهُمْ شَغَفٌ بِإِيرَادِ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمُحَسِّنَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فَيَصْرِفُونَ ٱلْعِنَايَةَ إِلَى ٱلْمُحَسِّنَاتِ وَيَجْعَلُونَ ٱلْكَلَامَ كَانَّهُ غَيْرُ مَسُوقٍ لِإِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى فَلَا يُبَالُونَ بِخَفَاءِ ٱلدَّلَالَاتِ وَرَكَاكَةِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنْ اعْظَمِ مَا يَلِيقُ لِمَنْ يَتَعَاطَى ٱلْإِنْشَاءَ انْ يَكْتُبَ مَا يُرَادُ لَا مَا يُرِيدُ . كَمَا قِيلَ فِي ٱلصَّاحِبِ وَٱلصَّابِئِ : إِنَّ ٱلصَّابِئَ يَكْتُبُ مَا يُرَادُ وَٱلصَّاحِبُ يَكْتُبُ مَا يُرِيدُ . وَلَا بُدَّ انْ يُلَاحَظَ فِي كِتَابِ ٱلنَّثْرِ حَالُ ٱلْمُرْسِلِ وَٱلْمُرْسَلِ إِلَيْهِ وَيُعَنْوِنَ ٱلْكِتَابَ بِمَا يُنَاسِبُ ٱلْمَقَامَ

الفصل الاول

في الفصاحة

البحث الاوَّل

في تحديد الفصاحة

(عن الفصاحة والبلاغة للامام السيوطي باختصار)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الاول من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ لُغَةً تُنبِئُ عَنِ ٱلْإِبَانَةِ وَٱلظُّهُورِ يُقَالُ : فَصُحَ ٱلْأَعْجَمِيُّ وَأَفْصَحَ إِذَا ٱنْطَلَقَ لِسَانُهُ وَخَلَصَتْ لُغَتُهُ مِنَ ٱللُّكْنَةِ وَجَادَتْ فَلَمْ يَلْحَنْ . وَأَفْصَحَ بِهِ أَيْ صَرَّحَ . وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلْمَعَانِي تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ مِنْهَا : وَصْفٌ فِي ٱلْكَلَامِ بِهِ يَقَعُ ٱلتَّفَاضُلُ وَيَثْبُتُ ٱلْإِعْجَازُ . قَالَ ٱلْإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ : أَعْلَمْ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ خُلُوصُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ . وَأَصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : أَفْصَحَ ٱللَّبَنُ إِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ ٱلرَّغْوَةُ . وَهِيَ بِٱلْأَصْطِلَاحِ : عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلظَّاهِرَةِ ٱلْمُتَبَادِرَةِ إِلَى ٱلْفَهْمِ وَٱلْمَأْنُوسَةِ ٱلْإِسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا

البحث الثاني

في الفرق بين الفصاحة والبلاغة وموضوعهما

(عن كتاب الصناعتين الكتابة والانشاء لابي هلال العسكري باختصار)

اَلْبَلَاغَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ : بَلَغْتُ ٱلْغَايَةَ إِذَا ٱنْتَهَيْتُ إِلَيْهَا وَبَلَغْتُهَا

غيري. ومَبْلَغُ الشيءِ مُنتهاهُ . والمُبالَغةُ في الشيءِ الانتهاءُ الى غايتِه .
فسُمِّيَتِ البلاغةُ بلاغةً لانَّها تُنهي المعنى الى قلبِ السامعِ فيفهمُهُ
وسُمِّيَتِ البُلْغةُ بُلْغةً لانَّكَ تتبلَّغُ بها فتنتهي بكَ الى ما فوقَها وهي
البلاغُ ايضاً. ويُقالُ: الدُّنيا بلاغٌ لانَّها تؤدِّيكَ الى الآخرةِ . والبلاغُ
ايضاً التبليغُ . ومنهُ : هذا بلاغٌ للنَّاسِ اي تبليغٌ . ويُقالُ : بلغَ الرجلُ
بلاغةً اذا صارَ بليغاً كما يُقالُ نَبُلَ نبالةً اذا صارَ نبيلاً . وكلامٌ بليغٌ
وبَلْغٌ (بالفتحِ) كما يُقالُ وجيزٌ ووَجْزٌ . ورجلٌ بِلْغٌ (بالكسرِ) يبلغُ ما
يُريدُ وفي مَثَلٍ لهم: احمقُ بِلْغٌ . ويُقالُ : ابلغتُ في الكلامِ اذا
اتيتَ بالبلاغةِ فيهِ كما تقولُ : ابرحتُ اذا اتيتَ البرحاءَ وهو
الامرُ الجسيمُ . والبلاغةُ من صفةِ المتكلِّمِ فلهذا لا يجوزُ ان يُسمَّى
اللهُ عزَّ وجلَّ بانَّهُ بليغٌ اذ لا يجوزُ ان يوصفَ بصفةٍ كانَ موضوعُها
الكلامَ وتسميتُنا المتكلِّمَ انَّهُ بليغٌ توسُّعٌ وحقيقتُهُ [illegible] الكلامَ
بليغٌ كما تقولُ : فلانٌ رجلٌ مُحكَمٌ وتعني [illegible] مُحكَمٌ .
وكذلكَ كثرةُ الاستعمالِ جعلتْ تسميةَ [illegible] بليغٌ
كالحقيقةِ

اما الفصاحةُ فقد قالَ قومٌ [illegible] : فصحَ [illegible]
في نفسِهِ اذا اظهرَهُ . والشاهدُ على [illegible] العربِ
افصحَ الصبحُ اذا اضاءَ وفصحَ [illegible]
بعدَ ان لم يكنْ يبينُ وفصحَ [illegible]
على جهةِ الصوابِ دونَ الخطأِ . [illegible]

وَٱلْبَلَاغَةُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ إِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِبَانَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى وَٱلْإِظْهَارُ لَهُ . وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : ٱلْفَصَاحَةُ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ . فَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى ٱللهُ تَعَالَى فَصِيحًا إِذَا كَانَتِ ٱلْفَصَاحَةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى ٱلْآلَةِ وَلَا يَجُوزُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَى ٱلْآلَةُ . وَيُوصَفُ كَلَامُهُ بِٱلْفَصَاحَةِ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ تَمَامِ ٱلْبَيَانِ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَلْثَغَ وَٱلتَّمْتَامَ لَا يُسَمَّيَانِ فَصِيحَيْنِ لِنُقْصَانِ آلَتِهِمَا عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ . وَقِيلَ : زِيَادٌ ٱلْأَعْجَمُ . لِنُقْصَانِ آلَةِ نُطْقِهِ عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ وَكَانَ يُعَبِّرُ عَنِ ٱلْحِمَارِ بِٱلْهِمَارِ فَهُوَ أَعْجَمُ وَشِعْرُهُ فَصِيحٌ لِتَمَامِ بَيَانِهِ . فَعَلَى هٰذَا تَكُونُ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ مُخْتَلِفَتَيْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ فَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْآلَةَ تَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ دُونَ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْبَلَاغَةُ إِنَّمَا هِيَ إِنْهَاءُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْقَلْبِ فَكَأَنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَتَضَمَّنُ ٱللَّفْظَ وَٱلْبَلَاغَةَ تَتَنَاوَلُ ٱلْمَعْنَى أَنَّ ٱلْبَبَّغَاءَ يُسَمَّى فَصِيحًا وَلَا يُسَمَّى بَلِيغًا إِذْ هُوَ مُقِيمٌ ٱلْحُرُوفَ وَلَيْسَ لَهُ قَصْدٌ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُؤَدِّيهِ . وَقَدْ يَجُوزُ مَعَ هٰذَا أَنْ يُسَمَّى ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ فَصِيحًا بَلِيغًا إِذَا كَانَ وَاضِحَ ٱلْمَعْنَى سَهْلَ ٱللَّفْظِ وَجَيِّدَ ٱلسَّبْكِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ فَجٍّ وَلَا مُتَكَلَّفٍ وَخِمٍ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَحَدِ ٱلْإِسْمَيْنِ شَيْءٌ لِمَا فِيهِ مِنْ إِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى وَتَقْوِيمِ ٱلْحُرُوفِ . وَشَهِدْتُ قَوْمًا يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ لَا يُسَمَّى فَصِيحًا حَتَّى يَجْمَعَ مَعَ هٰذِهِ ٱلنُّعُوتِ فَخَامَةً وَشِدَّةَ جَزَالَةٍ فَيَكُونَ مِثْلَ كَلَامِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ : إِنَّ ٱلنَّاسَ عَبِيدُ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلدِّينُ لَغْوٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ بِهِ مَعَايِشُهُمْ فَإِذَا

مُحِّصُوا بِالْابتِلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُونَ . وَمِثْلُ الْمَنْظُومِ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

تَرَى غَابَةَ الْخَطِّيِّ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ كَمَا أَشْرَقَتْ فَوْقَ الصِّوَارِ قُرُونُهَا

(قَالُوا) وَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ يَجْمَعُ نُعُوتَ الْجُودَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ فَخَامَةٌ وَفَضْلُ جَزَالَةٍ سُمِّيَ بَلِيغاً ثُمَّ فَصِيحاً كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ عِنْدَ الْوَفَاةِ فَقَالَ : مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَراً بَعِيداً بِلا زَادٍ وَيُقْدِمُ عَلَى مَلِكٍ عَادِلٍ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَيَسْكُنُ قَبْراً مُوحِشاً بلا انيس . وَقَوْلِ آخَرَ لِأَخٍ لَهُ : مَدَدتَ إِلَى الْمَوَدَّةِ يَداً فَشَكَرْنَاكَ وشفعت ذٰلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْجَفَاءِ فَعَذَرْنَاكَ وَالرُّجُوعُ إِلَى مَحْمُودِ الْوُدِّ أَوْلَى بِكَ مِنَ الْمُقَامِ عَلَى مَكْرُوهِ الصَّدِّ . وَاسْتَدَلُّوا عَلَى صِحَّةِ هٰذا الْمَذْهَبِ بِقَوْلِ الْعَاصِي بْنِ عَدِيٍّ : الشَّجَاعَةُ قَلْبٌ رَكِينٌ وَالْفَصَاحَةُ لِسَانٌ رَزِينٌ . وَاللِّسَانُ هَا هُنَا الْكَلَامُ . وَالرَّزِينُ الَّذِي فِيهِ فَخَامَةٌ وَجَزَالَةٌ وليس الْغَرَضُ فِي هٰذَا الْكِتَابِ سُلُوكَ مَذْهَبِ الْمُتَكَلِّمِينَ . وَإنما قصدت فِيهِ مَقْصَدَ صُنَّاعِ الْكَلَامِ مِنَ الشُّعَرَاءِ والْكُتَّاب فلهذا لم أطل الْكَلَامَ فِي هٰذَا الْفَصْلِ

البحث الثالث

في حقيقة الفصاحة

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣ من علم الادب)

إِعْلَمْ أَنَّ هٰذَا بَابٌ مُتَعَذِّرٌ عَلَى الْوَالِجِ وَمَسْلَكٌ مُتَوَعِّرٌ عَلَى

ٱلنَّاهِجِ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ وَحَدِيثِهِ يُكْثِرُونَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَٱلْبَحْثَ عَنْهُ وَلَمْ أَجِدْ مِنْ ذٰلِكَ مَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ إِلَّا ٱلْقَلِيلَ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ فِي أَصْلِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ يُقَالُ: أَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ إِذَا ظَهَرَ ثُمَّ إِنَّهُمْ يَقِفُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ وَلَا يَكْشِفُونَ عَنِ ٱلسِّرِّ فِيهِ . وَبِهٰذَا ٱلْقَوْلِ لَا تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ ٱلْفَصَاحَةِ لِأَنَّهُ يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ مِنَ ٱلِٱعْتِرَاضَاتِ . (أَحَدُهَا) : أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنِ ٱللَّفْظُ ظَاهِرًا بَيِّنًا لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا ثُمَّ إِذَا ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ صَارَ فَصِيحًا . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) : أَنَّهُ إِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ ٱلْفَصِيحُ هُوَ ٱلظَّاهِرَ ٱلْبَيِّنَ فَقَدْ صَارَ ذٰلِكَ بِٱلنِّسَبِ وَٱلْإِضَافَاتِ إِلَى ٱلْأَشْخَاصِ فَإِنَّ ٱللَّفْظَ قَدْ يَكُونُ ظَاهِرًا لِزَيْدٍ وَلَا يَكُونُ ظَاهِرًا لِعَمْرٍو فَهُوَ إِذَنْ فَصِيحٌ عِنْدَ هٰذَا وَغَيْرُ فَصِيحٍ عِنْدَ هٰذَا . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْفَصِيحُ هُوَ فَصِيحٌ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ لَا خِلَافَ فِيهِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّهُ إِذَا تَحَقَّقَ حَدُّ ٱلْفَصَاحَةِ وَعُرِفَ مَا هِيَ لَمْ يَبْقَ فِي ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ خِلَافٌ . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّالِثُ) : أَنَّهُ إِذَا جِيءَ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَنْبُو عَنْهُ ٱلسَّمْعُ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فَصِيحًا وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ وَصْفُ حُسْنٍ لِلَّفْظِ لَا وَصْفُ قُبْحٍ . فَهٰذِهِ ٱلِٱعْتِرَاضَاتُ ٱلثَّلَاثَةُ وَارِدَةٌ عَلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ إِنَّ ٱللَّفْظَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ . وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى أَقْوَالِ ٱلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ مَلَكَتْنِي ٱلْحَيْرَةُ فِيهَا وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدِي مِنْهَا مَا أُعَوِّلُ عَلَيْهِ وَلِكَثْرَةِ مُلَابَسَتِي هٰذَا ٱلْفَنَّ وَمُعَارَكَتِي إِيَّاهُ ٱنْكَشَفَ لِي ٱلسِّرُّ فِيهِ وَسَأُوضِحُهُ فِي كِتَابِي هٰذَا

وَأُحقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ فَأَقُولُ : إِنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ وَأَعْنِي بِٱلظَّاهِرِ ٱلْبَيِّنِ أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُهُ مَفْهُومَةً لَا يُحْتَاجُ فِي فَهْمِهَا إِلَى ٱسْتِخْرَاجٍ مِنْ كِتَابِ لُغَةٍ . وَإِنَّمَا كَانَتْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ لِأَنَّهَا تَكُونُ مَأْلُوفَةَ ٱلْإِسْتِعْمَالِ بَيْنَ أَرْبَابِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ دَائِرَةً فِي كَلَامِهِمْ . وَإِنَّمَا كَانَتْ مَأْلُوفَةَ ٱلْإِسْتِعْمَالِ دَائِرَةً فِي ٱلْكَلَامِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا . وَذٰلِكَ أَنَّ أَرْبَابَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ غَرْبَلُوا ٱللُّغَةَ بِٱعْتِبَارِ أَلْفَاظِهَا وَسَبَرُوا وَقَسَّمُوا فَٱخْتَارُوا ٱلْحَسَنَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَٱسْتَعْمَلُوهُ وَنَفَوْا ٱلْقَبِيحَ مِنْهَا فَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ فَحُسْنُ ٱلْإِسْتِعْمَالِ سَبَبُ ٱسْتِعْمَالِهَا دُونَ غَيْرِهَا وَٱسْتِعْمَالُهَا سَبَبُ ظُهُورِهَا وَبَيَانِهَا . فَٱلْفَصِيحُ إِذَنْ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ هُوَ ٱلْحَسَنُ . فَإِنْ قِيلَ : مِنْ أَيِّ وَجْهٍ عَلِمَ أَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ ٱلْحَسَنَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوهُ وَعَلِمُوا ٱلْقَبِيحَ مِنْهَا حَتَّى نَفَوْهُ وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ . قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ : إِنَّ هٰذَا مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَحْسُوسَةِ ٱلَّتِي شَاهِدُهَا مِنْ نَفْسِهَا لِأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ دَاخِلَةٌ فِي حَيِّزِ ٱلْأَصْوَاتِ فَٱلَّذِي يَسْتَلِذُّهُ ٱلسَّمْعُ مِنْهَا وَيَمِيلُ إِلَيْهِ هُوَ ٱلْحَسَنُ وَٱلَّذِي يَكْرَهُهُ وَيَنْفِرُ عَنْهُ ٱلْقَبِيحُ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلسَّمْعَ يَسْتَلِذُّ صَوْتَ ٱلْبُلْبُلِ مِنَ ٱلطَّيْرِ وَصَوْتَ ٱلشُّحْرُورِ وَيَمِيلُ إِلَيْهِمَا وَيَكْرَهُ صَوْتَ ٱلْغُرَابِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَكَذٰلِكَ يَكْرَهُ نَهِيقَ ٱلْحِمَارِ وَلَا يَجِدُ ذٰلِكَ فِي صَهِيلِ ٱلْفَرَسِ . وَٱلْأَلْفَاظُ جَارِيَةٌ هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ لَفْظَةَ ٱلْمُزْنَةِ وَٱلدِّيمَةِ حَسَنَةٌ يَسْتَلِذُّهَا ٱلسَّمْعُ . وَأَنَّ لَفْظَةَ ٱلْبُعَاقِ قَبِيحَةٌ يَكْرَهُهَا ٱلسَّمْعُ . وَهٰذِهِ ٱللَّفَظَاتُ ٱلثَّلَاثُ مِنْ صِفَةِ ٱلْمَطَرِ وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ . وَمَعَ هٰذَا فَإِنَّكَ تَرَى لَفْظَتَيِ ٱلْمُزْنَةِ

وَٱلدِّيَةِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مَأْلُوفَةٌ ٱلِاسْتِعْمَالِ وَتَرَى لَفْظَ ٱلْبُعَاقِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ مَتْرُوكًا لَا يُسْتَعْمَلُ . وَإِنِ ٱسْتُعْمِلَ فَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ ٱلْفَصَاحَةِ أَوْ ذَوْقُهُ غَيْرُ ذَوْقٍ سَلِيمٍ وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا مَحْضًا مِنَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأَقْدَمِينَ فَإِنَّ حَقِيقَةَ ٱلشَّيْءِ إِذَا عُلِمَتْ وَجَبَ ٱلْوُقُوفُ عِنْدَهَا وَلَمْ يُعَرَّجْ عَلَى مَا خَرَجَ عَنْهَا . وَإِذْ ثَبَتَتْ أَنَّ ٱلْفَصِيحَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ وَإِنَّمَا كَانَ ظَاهِرًا بَيِّنًا لِأَنَّهُ مَأْلُوفُ ٱلِاسْتِعْمَالِ وَإِنَّمَا كَانَ مَأْلُوفَ ٱلِاسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهِ وَحُسْنُهُ مُدْرَكٌ بِٱلسَّمْعِ . وَٱلَّذِي يُدْرَكُ بِٱلسَّمْعِ إِنَّمَا هُوَ ٱللَّفْظُ لِأَنَّهُ صَوْتٌ يَأْتَلِفُ عَنْ مَخَارِجِ ٱلْحُرُوفِ فَمَا ٱسْتَلَذَّهُ ٱلسَّمْعُ مِنْهُ فَهُوَ ٱلْحَسَنُ وَمَا كَرِهَهُ فَهُوَ ٱلْقَبِيحُ وَٱلْحَسَنُ هُوَ ٱلْمَوْصُوفُ بِٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْقَبِيحُ غَيْرُ مَوْصُوفٍ بِفَصَاحَةٍ لِأَنَّهُ ضِدُّهَا لِمَكَانِ قُبْحِهِ . وَقَدْ مَثَّلْتُ ٱلْمِثَالَ ٱلْمُتَقَدِّمَ بِلَفْظَةِ ٱلْمُزْنَةِ وَٱلدِّيَةِ وَلَفْظَةِ ٱلْبُعَاقِ وَلَوْ كَانَتِ ٱلْفَصَاحَةُ لِأَمْرٍ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَعْنَى لَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ سَوَاءً لَيْسَ مِنْهَا حَسَنٌ وَمِنْهَا قَبِيحٌ . وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ عَلِمْنَا أَنَّهَا تَخُصُّ ٱللَّفْظَ دُونَ ٱلْمَعْنَى . وَلَيْسَ لِقَائِلٍ هٰهُنَا أَنْ يَقُولَ لَا لَفْظَ إِلَّا بِمَعْنًى فَكَيْفَ فَصَلْتَ أَنْتَ بَيْنَ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى . قُلْتُ : لَمْ أَفْصِلْ بَيْنَهُمَا وَإِنَّمَا خَصَصْتُ ٱللَّفْظَ بِصِفَةٍ هِيَ لَهُ وَٱلْمَعْنَى يَجِيءُ فِيهِ ضِمْنًا وَتَبَعًا

البحث الرابع

في احكام الفصاحة وشروطها

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣و٤ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّهُ يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي تَأْلِيفِهِ اِلَى ثَلاثَةِ اَشْيَاءَ : (اَلْاَوَّلُ) مِنْهَا اخْتِيَارُ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱللَّآلِئِ ٱلْمُبَدَّدَةِ فَاِنَّهَا تُتَخَيَّرُ وَتُنْتَقَى قَبْلَ ٱلنَّظْمِ . (اَلثَّانِي) نَظْمُ كُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ اُخْتِهَا فِي ٱلْمُشَاكَلَةِ لَهَا لِئَلَّا يَجِيءَ ٱلْكَلَامُ قَلِقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱلعِقْدِ ٱلْمَنْظُومِ فِي اقْتِرَانِ كُلِّ لُؤْلُؤَةٍ مِنْهُ بِأُخْتِهَا ٱلْمُشَاكِلَةِ لَهَا . (اَلثَّالِثُ) ٱلْغَرَضُ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ عَلَى اخْتِلَافِ اَنْوَاعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يُوضَعُ فِيهِ ٱلْعِقْدُ ٱلْمَنْظُومُ فَتَارَةً يُجْعَلُ اِكْلِيلًا عَلَى ٱلرَّأْسِ وَتَارَةً يُجْعَلُ قِلَادَةً فِي ٱلْعُنُقِ وَتَارَةً يُجْعَلُ شَنْفًا فِي ٱلْأُذُنِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ هَيْئَةٌ مِنَ ٱلْحُسْنِ تَخُصُّهُ . فَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ اَشْيَاءَ لَا بُدَّ لِلْخَطِيبِ وَٱلشَّاعِرِ مِنَ ٱلْعِنَايَةِ بِهَا وَهِيَ ٱلْاَصْلُ ٱلْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ . فَٱلْاَوَّلُ وَٱلثَّانِي مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَذْكُورَةِ هُمَا ٱلْمُرَادُ بِٱلْفَصَاحَةِ . وَٱلثَّلَاثَةُ بِجُمْلَتِهَا هِيَ ٱلْمُرَادُ بِٱلْبَلَاغَةِ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَضِلُّ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهِ ٱلْعُلَمَاءُ بِصِنَاعَةِ صَوْغِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَكَيْفَ ٱلْجُهَّالُ ٱلَّذِينَ لَمْ تَنْفَحْهُمْ رَائِحَتُهُ . وَمَنْ

ٱلَّذِي يُؤْتِيهِ ٱللهُ فِطْرَةً نَاصِعَةً يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى مَا يَسْتَعْمِلُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَيَضَعُهَا فِي مَوَاضِعِهَا

وَقَدْ ذَكَرَ مَنْ تَقَدَّمَنِي مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ لِلْأَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ خَصَائِصَ وَهَيْئَاتٍ تَتَّصِفُ بِهَا وَٱخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَٱسْتَحْسَنَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ وَكَذٰلِكَ ٱسْتَقْبَحَ ٱلْآخَرُ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ . وَلَوْ حَقَّقُوا ٱلنَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى ٱلسِّرِّ فِي ٱتِّصَافِ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ بِٱلْحُسْنِ وَبَعْضِهَا بِٱلْقُبْحِ لَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا

وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْجُهَّالِ إِذَا قِيلَ لِأَحَدِهِمْ إِنَّ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ حَسَنَةٌ وَهٰذِهِ قَبِيحَةٌ أَنْكَرَ ذٰلِكَ وَقَالَ : كُلُّ ٱلْأَلْفَاظِ حَسَنٌ وَٱلْوَاضِعُ لَمْ يَضَعْ إِلَّا حَسَنًا . وَمَنْ يَبْلُغُ جَهْلُهُ إِلَى أَنْ لَا يُفَرِّقَ بَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْغُصْنِ وَلَفْظَةِ ٱلْعُسْلُوجِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْمُدَامَةِ وَلَفْظَةِ ٱلْإِسْفِنْطِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلسَّيْفِ وَلَفْظَةِ ٱلْخَنْشَلِيلِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْأَسَدِ وَلَفْظَةِ ٱلْفَدَوْكَسِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَبَ بِخِطَابٍ وَلَا يُجَاوَبَ بِجَوَابٍ

وَقَدْ بَقِيَتْ هُنَاكَ أَوْصَافٌ أُخَرُ يَنْبَغِي أَنْ يُنَبَّهَ عَلَيْهَا . فَمِنْهَا أَنْ لَا تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ وَحْشِيَّةً . وَقَدْ خَفِيَ ٱلْوَحْشِيُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلْمُنْتَمِينَ إِلَى صِنَاعَةِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَظَنُّوهُ ٱلْمُسْتَقْبَحَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْوَحْشِيُّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا غَرِيبٌ حَسَنٌ وَٱلْآخَرُ غَرِيبٌ قَبِيحٌ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى ٱسْمِ ٱلْوَحْشِ ٱلَّذِي يَسْكُنُ ٱلْقِفَارَ وَلَيْسَ بِأَنِيسٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَلْفَاظُ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ مَأْنُوسَةَ ٱلِٱسْتِعْمَالِ . وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْوَحْشِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَحًا بَلْ أَنْ يَكُونَ نَافِرًا لَا يَأْلَفُ

ٱلْإِنْسَ فَتَارَةً يَكُونُ حَسَنًا وَتَارَةً يَكُونُ قَبِيحًا . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ أَحَدَ قِسْمَيِ ٱلْوَحْشِيِّ وَهُوَ ٱلْغَرِيبُ ٱلْحَسَنُ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلنِّسَبِ وَٱلْإِضَافَاتِ . وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلْآخَرُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ ٱلَّذِي هُوَ قَبِيحٌ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ فِي ٱسْتِقْبَاحِهِ سَوَاءٌ وَلَا يَخْتَلِفُ بِهِ عَرَبِيٌّ بَادٍ وَلَا قَرَوِيٌّ مُتَحَضِّرٌ . وَأَحْسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ مَا كَانَ مَأْلُوفًا مُتَدَاوَلًا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَأْلُوفًا مُتَدَاوَلًا إِلَّا لِمَكَانِ حُسْنِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْكَلَامُ عَلَى ذٰلِكَ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَإِنَّ أَرْبَابَ ٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ نَظَرُوا إِلَى ٱلْأَلْفَاظِ وَنَقَّبُوا عَنْهَا ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى ٱلْأَحْسَنِ مِنْهَا فَٱسْتَعْمَلُوهُ وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ وَهُوَ أَيْضًا يَتَفَاوَتُ فِي دَرَجَاتِ حُسْنِهِ فَٱلْأَلْفَاظُ إِذَنْ تَنْقَسِمُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ : قِسْمَانِ حَسَنَانِ وَقِسْمٌ قَبِيحٌ . فَٱلْقِسْمَانِ ٱلْحَسَنَانِ أَحَدُهُمَا مَا تَدَاوَلَ ٱسْتِعْمَالَهُ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ مِنَ ٱلزَّمَنِ ٱلْقَدِيمِ إِلَى زَمَانِنَا هٰذَا وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ وَحْشِيٌّ . وَٱلْآخَرُ مَا تَدَاوَلَ ٱسْتِعْمَالَهُ ٱلْأَوَّلُ دُونَ ٱلْآخِرِ وَيَخْتَلِفُ فِي ٱسْتِعْمَالِهِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلزَّمَنِ وَأَهْلِهِ وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ وَحْشِيًّا وَهُوَ عِنْدَنَا وَحْشِيٌّ

وَلَا يَسْبِقْ وَهْمُكَ أَيُّهَا ٱلْمُتَأَمِّلُ إِلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ ٱلَّذِي غَلَبَ عَلَيْهِ غِلَظُ ٱلطَّبْعِ وَفَجَاجَةُ ٱلذِّهْنِ بِأَنَّ ٱلْعَرَبَ كَانَتْ تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ كَذَا وَكَذَا فَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ . بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ٱلَّذِي نَسْتَحْسِنُهُ نَحْنُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي كَانَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ مُسْتَحْسَنًا وَٱلَّذِي نَسْتَقْبِحُهُ هُوَ ٱلَّذِي كَانَ عِنْدَهُمْ مُسْتَقْبَحًا . وَٱلِاسْتِعْمَالُ لَيْسَ بِدَلِيلٍ عَلَى ٱلْحُسْنِ فَإِنَّا نَحْنُ نَسْتَعْمِلُ ٱلْآنَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا

ليس بحسن وإنما نستعمله لضرورة فليس استعمال الحسن بممكن في كل الأحوال . وهذا طريق يضل بغير العارف بمسالكه ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة في صوغ الألفاظ واختيارها فإنه معذور في أن يقول ما قال :

لا يعرف الحزن الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

ومع هذا فإن قول القائل : بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا وهذا دليل على أنه حسن. قول فاسد لا يصدر الا عن جاهل. فإن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب لانه شيء ليس التقليد فيه مجال وإنما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه. وأما الذي نقلد العرب فيه من الألفاظ فانما هو الاستشهاد بأشعارها على ما ينقل من لغتها والأخذ بأقوالها في الأوضاع النحوية في رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف اليه وجزم الشرط وأشباه ذلك وما عداه فلا . وحسن الألفاظ وقبحها ليس اضافيا الى زيد دون عمرو أو الى عمرو دون زيد لأنه وصف ذووي لا يتغير الا بالإضافة . ألا ترى أن لفظة المزنة مثلا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم وهلم جرا لا يختلف أحد في حسنها . وكذلك لفظة البعاق فإنها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم فإذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم إياها مخرجا لها عن القبح ولا يلتفت اذن الى استعمالهم إياها بل يعاب مستعملها ويغلظ له النكير حيث استعملها

فَلَا تَظُنَّ أَنَّ ٱلْوَحْشِيَّ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ مَا يَكْرَهُهُ سَمْعُكَ وَيَثْقُلُ عَلَيْكَ ٱلنُّطْقُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ ٱلْغَرِيبُ ٱلَّذِي يَقِلُّ ٱسْتِعْمَالُهُ فَتَارَةً يَخِفُّ عَلَى سَمْعِكَ وَلَا تَجِدُ بِهِ كَرَاهَةً وَتَارَةً يَثْقُلُ عَلَى سَمْعِكَ وَتَجِدُ مِنْهُ ٱلْكَرَاهَةَ. وَذٰلِكَ فِي ٱللَّفْظِ عَيْبَانِ: (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ غَرِيبُ ٱلِاسْتِعْمَالِ (وَٱلْآخَرُ) أَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ كَرِيهٌ عَلَى ٱلذَّوْقِ. وَإِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَلَا مَزِيدَ عَلَى فَظَاظَتِهِ وَغَلَاظَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَلِيظَ وَيُسَمَّى أَيْضًا ٱلْمُتَوَعِّرَ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ فِي ٱلْقُبْحِ دَرَجَةٌ أُخْرَى وَلَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا أَجْهَلُ ٱلنَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ شَيْءٌ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذَا ٱلْفَنِّ أَصْلًا. فَإِنْ قِيلَ: فَمَا هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ. قُلْتُ: قَدْ ثَبَتَ لَكَ أَنَّهُ مَا كَرِهَهُ سَمْعُكَ وَثَقُلَ عَلَى لِسَانِكَ ٱلنُّطْقُ بِهِ. وَسَأَضْرِبُ لَكَ فِي ذٰلِكَ مِثَالًا فَمِنْهُ مَا وَرَدَ لِتَأَبَّطَ شَرًّا فِي كِتَابِ ٱلْحَمَاسَةِ:

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا ... جَحِيشًا وَيَعْرَوْرِي ظُهُورَ ٱلْمَسَالِكِ

فَإِنَّ لَفْظَةَ (جَحِيشٍ) مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُنْكَرَةِ ٱلْقَبِيحَةِ. وَيَا لِلهِ ٱلْعَجَبُ أَلَيْسَ أَنَّهَا بِمَعْنَى (فَرِيدٍ) وَفَرِيدٌ لَفْظَةٌ حَسَنَةٌ رَائِقَةٌ وَلَوْ وُضِعَتْ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ مَوْضِعَ جَحِيشٍ لَمَا ٱخْتَلَّ شَيْئًا مِنْ وَزْنِهِ. فَتَأَبَّطَ شَرًّا مَلُومٌ مِنْ وَجْهَيْنِ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْقَبِيحَ. وَٱلْآخَرُ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ ٱسْتِعْمَالِهِ فَلَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ. وَمِمَّا هُوَ أَقْبَحُ مِنْهَا مَا وَرَدَ لِأَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا ٱطْلَخَمَّ ٱلْأَمْرُ وَٱنْبَعَثَتْ ... عَشْوَاءُ تَالِيَةً غُبْسًا دَهَارِيسَا

فَلَفْظَةُ (اطْلَخَمَّ) مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُنْكَرَةِ الَّتِي جَمَعَتِ الْوَصْفَيْنِ الْقَبِيحَيْنِ فِي أَنَّهَا غَرِيبَةٌ وَأَنَّهَا غَلِيظَةٌ فِي السَّمْعِ كَرِيهَةٌ عَلَى الذَّوْقِ وَكَذَلِكَ لَفْظَةُ (دَهَارِيس) أَيْضاً . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُهُ مِنْ أَبْيَاتٍ يَصِفُ فَرَساً مِنْ جُمْلَتِهَا :

نِعْمَ مَتَاعُ الدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ   أَرْوَعُ لَاجَيْدَرٌ وَلَاجِبْسُ

فَلَفْظَةُ (جَيْدَر) غَلِيظَةٌ . وَأَغْلَظُ مِنْهَا قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي :

جَفَخَتْ وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا بِهِمْ   شِيَمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَغَرِّ دَلَائِلُ

فَإِنَّ لَفْظَةَ (جَفَخَ) مُرَّةُ الطَّعْمِ وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى السَّمْعِ اقْشَعَرَّ مِنْهَا وَأَبُو الطَّيِّبِ فِي اسْتِعْمَالِهَا كَاسْتِعْمَالِ تَأَبَّطَ شَرّاً لَفْظَةَ جَحِيش . فَإِنَّ تَأَبَّطَ شَرّاً كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِ تِلْكَ اللَّفْظَةِ كَمَا أَشَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ . وَكَذَلِكَ أَبُو الطَّيِّبِ فِي اسْتِعْمَالِ هٰذِهِ اللَّفْظَةِ الَّتِي هِيَ جَفَخَتْ فَإِنَّ مَعْنَاهَا فَخَرَتْ وَالْجَفْخُ الْفَخْرُ يُقَالُ : جَفَخَ فُلَانٌ إِذَا فَخَرَ . وَلَوِ اسْتَعْمَلَ عِوَضاً عَنْ جَفَخَتْ فَخَرَتْ لَاسْتَقَامَ الْبَيْتُ وَحَظِيَ فِي اسْتِعْمَالِهِ بِالْأَحْسَنِ . وَمَا أَعْلَمُ كَيْفَ يَذْهَبُ هٰذَا وَأَمْثَالُهُ عَلَى مِثْلِ هٰؤُلَاءِ الْفُحُولِ مِنَ الشُّعَرَاءِ . وَهٰذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ هُوَ الْوَحْشِيُّ الْغَلِيظُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مَا يُدَانِيهِ فِي قُبْحِهِ وَكَرَاهَتِهِ . وَهٰذِهِ الْأَمْثِلَةُ دَلِيلٌ عَلَى مَا أَوْرَدْنَاهُ . وَالْعَرَبُ إِذَنْ لَا تُلَامُ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْغَرِيبِ الْحَسَنِ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَإِنَّمَا تُلَامُ عَلَى الْغَرِيبِ الْقَبِيحِ . وَأَمَّا الْحَضَرِيُّ فَإِنَّهُ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْقِسْمَيْنِ مَعاً وَهُوَ فِي أَحَدِهِمَا أَشَدُّ مَلَامَةً مِنْهُ فِي الْآخَرِ

البحث الخامس

في الالفاظ المترادفة والاسماء المشتركة

(عن المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٦ من علم الادب)

وَيَفْتَقِرُ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ إِلَى مَعْرِفَةِ عِدَّةِ أَسْمَاءٍ لِمَا يَقَعُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ لِيَجِدَ إِذَا ضَاقَ بِهِ مَوْضِعٌ فِي كَلَامِهِ بِإِيرَادِ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ فِيهِ ٱلْعُدُولَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ . وَهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءُ تُسَمَّى ٱلْمُتَرَادِفَةَ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْمُسَمَّى وَٱخْتِلَافُ أَسْمَائِهِ كَقَوْلِنَا : ٱلْخَمْرُ وَٱلرَّاحُ وَٱلْمُدَامُ . فَإِنَّ ٱلْمُسَمَّى بِهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءِ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَأَسْمَاؤُهُ كَثِيرَةٌ . وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّجْنِيسِ فِي كَلَامِهِ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلِٱسْمِ وَٱخْتِلَافُ ٱلْمُسَمَّيَاتِ . كَٱلْعَيْنِ فَإِنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَعَلَى يَنْبُوعِ ٱلْمَاءِ وَعَلَى ٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ . إِلَّا أَنَّ ٱلْمُشْتَرَكَةَ تَفْتَقِرُ فِي ٱلِٱسْتِعْمَالِ إِلَى قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهَا كَيْ لَا تَكُونَ مُبْهَمَةً . لِأَنَّا إِذَا قُلْنَا : عَيْنٌ . ثُمَّ سَكَتْنَا وَقَعَ ذٰلِكَ عَلَى مُحْتَمَلَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَٱلْعَيْنِ ٱلنَّابِعَةِ وَٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ مَوْضُوعٌ بِإِزَاءِ هٰذَا ٱلِٱسْمِ . وَإِذَا قُرِنَ إِلَيْهِ قَرِينَةٌ تُخَصِّصُهُ زَالَ ذٰلِكَ ٱلْإِبْهَامُ بِأَنْ تَقُولَ : عَيْنٌ حَسْنَاءُ أَوْ عَيْنٌ نَضَّاخَةٌ أَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ لِلْعُلَمَاءِ فِيهِ مُجَاذَبَاتٌ جَدَلِيَّةٌ . فَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ ٱلْمُشْتَرَكُ حَقِيقَةً فِي ٱلْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا وَيَقُولُ

اِنَّ ذٰلِكَ يُخِلُّ بِفَائِدَةِ وَضْعِ اللُّغَةِ لِاَنَّ اللُّغَةَ اِنَّمَا هِيَ وَضْعُ الْاَلْفَاظِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى الْمَعَانِي اَيْ وَضْعُ الْاَسْمَاءِ عَلَى الْمُسَمَّيَاتِ لِتَكُونَ مُنْبِئَةً عَنْهَا عِنْدَ اِطْلَاقِ اللَّفْظِ وَالِاشْتِرَاكِ لَا بَيَانَ فِيهِ وَاِنَّمَا هُوَ ضِدُّ الْبَيَانِ. لَكِنَّ طَرِيقَ الْبَيَانِ اَنْ يُجْعَلَ اَحَدُ الْمَعْنَيَيْنِ فِي اللَّفْظِ الْمُشْتَرِكِ حَقِيقَةً وَالْآخَرُ مَجَازِيًا. فَاِذَا قُلْنَا: هٰذِهِ كَلِمَةٌ. وَاَطْلَقْنَا الْقَوْلَ فُهِمَ مِنْهُ اللَّفْظَةُ الْوَاحِدَةُ. وَاِذَا قَيَّدْنَا اللَّفْظَ فَقُلْنَا: هٰذِهِ كَلِمَةٌ شَاعِرَةٌ. فُهِمَ مِنْهُ الْقَصِيدَةُ الْمَقْصَدَةُ مِنَ الشِّعْرِ وَهِيَ مَجْمُوعُ كَلِمَاتٍ كَثِيرَةٍ. وَلَوْ اَطْلَقْنَا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ وَاَرَدْنَا الْقَصِيدَةَ مِنَ الشِّعْرِ لَمَا فُهِمَ مُرَادُنَا الْبَتَّةَ. هٰذَا خُلَاصَةُ مَا ذَهَبَ اِلَيْهِ مَنْ يُنْكِرُ وُقُوعَ اللَّفْظِ الْمُشْتَرِكِ فِي الْمَعْنَيَيْنِ حَقِيقَةً. وَفِي ذٰلِكَ مَا فِيهِ. وَسَأُبَيِّنُ مَا يَدْخُلُهُ مِنَ الْخَلَلِ فَاَقُولُ فِي الْجَوَابِ عَنْ ذٰلِكَ مَا اسْتَخْرَجْتُهُ بِفِكْرِي وَلَمْ يَكُنْ لِاَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ مِنْ قَبْلِي وَهُوَ: اَمَّا قَوْلُكَ: اِنَّ فَائِدَةَ وَضْعِ اللُّغَةِ اِنَّمَا هُوَ الْبَيَانُ عِنْدَ اِطْلَاقِ اللَّفْظِ وَاللَّفْظُ الْمُشْتَرِكُ يُخِلُّ بِهٰذِهِ الْفَائِدَةِ. فَهٰذَا غَيْرُ مُسَلَّمٍ بَلْ فَائِدَةُ وَضْعِ اللُّغَةِ هُوَ الْبَيَانُ وَالتَّحْسِينُ

(اَمَّا الْبَيَانُ) فَقَدْ وَفَى الْاَسْمَاءَ الْمُتَبَايِنَةَ الَّتِي كُلُّ اسْمٍ وَاحِدٍ دَلَّ عَلَى مُسَمًّى وَاحِدٍ. فَاِذَا اُطْلِقَ اللَّفْظُ فِي هٰذِهِ الْاَسْمَاءِ كَانَ بَيِّنًا مَفْهُومًا لَا يَحْتَاجُ اِلَى قَرِينَةٍ وَلَوْ لَمْ يَضَعِ الْوَاضِعُ مِنَ الْاَسْمَاءِ شَيْئًا غَيْرَهَا لَكَانَ كَافِيًا فِي الْبَيَانِ

(وَاَمَّا التَّحْسِينُ) فَاِنَّ الْوَاضِعَ لِهٰذِهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ اَحْسَنُ اللُّغَاتِ نَظَرًا اِلَى مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ اَرْبَابُ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ فِيمَا يَصُوغُونَهُ

مِنْ نَظْمٍ وَنَثْرٍ وَرَأَى اَنَّ مِنْ مُهِمَّاتِ ذٰلِكَ ٱلتَّجْنِيسَ وَلَا يَقُومُ بِهِ اِلَّا ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ ٱلَّتِي هِيَ كُلُّ ٱسْمٍ وَاحِدٍ دل على مسمَّيين فصاعدا فَوَضَعَهَا مِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَتَجَاذَبُهُ جَانِبَانِ يَتَرَجَّحُ اَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ . وَبَيَانُهُ اَنَّ ٱلتَّحْسِينَ يَقْضِي بِوَضْعِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ وَوَضْعُهَا يَذْهَبُ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ عِنْدَ اِطْلَاقِ اللفظِ . وعلى هٰذا فان وَضَعَهَا ٱلْوَاضِعُ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ ذهب بفائدة ٱلتَّحْسِينِ. لٰكِنَّهُ اِنْ وَضَعَ ٱسْتَدْرَكَ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلْبيان بِٱلْقرينةِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ لَمْ يَسْتَدْرِكْ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ فَتَرَجَّحَ حينئذ جَانِبُ ٱلْوَضْعِ فَوُضِعَ

البحث السادس

في فصاحة المفرد وفصاحة المركَّب

(من شرح بديعيَّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٥٤و من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ فِي ٱلْمُفْرَدِ هِيَ اَنْ تَكُونَ مِمَّا اسْتَعْمَلَتِ ٱلْعَرَبُ العرباءُ كَثِيرًا وَدَارَ عَلَى اَلْسِنَتِهِمْ فَسَلِمَ مِنْ سِتَّةِ اَشْيَاءَ . (الاول) : ان لَا يَتْرُكَ مِنْ حُرُوفٍ مُتَنَافِرَةٍ كَلَفْظَةِ (ٱلْعُخْعُخ) وَهُوَ نَبْتٌ . سئل اعرابي عَنْ نَاقَتِهِ فَقَالَ : تَرَكْتُهَا تَرْعَى ٱلْعُخْعُخَ . وَاِنَّمَا تَنَافَرَتْ حروف هذه ٱلْكَلِمَةِ لِكَوْنِهَا مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْحَلْقُ . (الثاني) : ان لَا تَتَوَالَى فِيهِ اَكْثَرُ مِنْ حَرَكَتَيْنِ يَحْدُثُ بِسَبَبِهِمَا ثقلٌ . (الثالث) :

أنْ لَا يَكُون مُتناهِيا فِي كَثْرة الْحُروفِ بِلَا زِيَادَةِ مَعْنَى نَحْوُ : خَنْدَرِيس . وَلَا فِي قِلَّتِهَا نَحْوُ : جِد عَنْ ذَا الْمرءِ . وَخَيْرُ الْأُمُورِ أوْسَطُها وَهُو الثلاثي إذ لَا فضْلة فِيهِ عَمَّا يُحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ حَرفِ الِابْتِدَاء وَحرفِ الْوَقْفِ وَحَرْف فَاصلٍ بَيْنَ الْوَقْفِ وَالِابْتدَاء . اما لَوْ كَانَتْ زِيَادَةُ الْحُرُوفِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى زَائد لَكَانَت اللفْظَةُ فَصِيحَةً نَحْوُ : اخْشَوْشَنَ . مَعْنَاهُ ازْيَدُ مِنْ خَشُنَ . (الرَّابِعُ) : أنْ لَا يَكُونَ وحْشِيًّا غَيْرَ مَأْلُوف نَحْو : الْإِسْفِنْطِ لِلْخَمْرِ وَالْخَنْشَلِيلِ لِلسَّيْفِ وَالْفَدَوْكَسِ لِلْأَسَدِ . فَهٰذِهِ الْأَلْفَاظُ غَرِيبَةٌ يَمُجُّهَا الطّبْعُ وَلَا يُطَّلَعُ عَلَى مَعْنَاهَا الَّا بَعْدَ بَحْثٍ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ . (الْخَامِسُ) : أنْ لَا يَكُونَ مَبْذولًا وَذٰلِكَ نَحْوُ انْ يَخْرُجَ اللَّفْظُ عَنْ اصْلِ وَضْعِهِ وَيُسْتَعْمَلُ فِي شَيْءٍ مُسْتَقْبَحٍ . (السَّادِسُ) : أنْ لَا يَكُونَ مُشْتَرِكًا بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ احَدُهُما مَكْرُوهٌ كما لَوْ قُلْتَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَرْتُهُ . فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ الْإِكْرامَ وَالْإِهَانَةَ . فَلَوْ كَانَ فِي الْكَلَامِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْحَسَنِ لَكَانَ اللفْظُ فَصِيحًا كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَرْتُهُ وَنَصَرْتُهُ . فَلَفْظُ (نَصَرْتُهُ) يُعَيّنُ فِيهِ الْمَعْنَى الْحَسَنَ . وَعَلَيْهِ يَكُونُ اللفْظُ حَسَنًا فِي نَفْسِهِ فَيُعَدُّ قَبِيحًا بِسَبَبِ مَحَلِّهِ مِنَ الْكَلَامِ وَمَوْقِعِهِ مِنْهُ

وَامَّا الْفَصَاحَةُ فِي التَّرْكِيبِ فَهُوَ انْ يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ اشْيَاءَ . (الْأَوَّلُ) : سَلَامَةُ مُفْرَدَاتِهِ مِنَ السِّتَّةِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ فِي الْمُفْرَدِ لِأَنَّ لِلْمُرَكَّبِ حُكْمَ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ . (الثَّانِي) : أنْ يَسْلَمَ مِنْ ضَعْفِ التَّأْلِيفِ وَهوَ خُرُوجُهُ عَنْ قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ كَقَوْلِهِ :

جَزَا رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ   جَزَاءَ ٱلْكِلَابِ ٱلْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

فَإِنَّهُ خَالَفَ ٱلْقِيَاسَ فِي إِعَادَةِ ٱلضَّمِيرِ فِي (رَبُّه) الى عَدِيٍّ وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَٱلْقَاعِدَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ أَنْ يَعُودَ ٱلضَّمِيرُ على مَا قَبْلَهُ أَوْ عَلَى مَا بَعْدَهُ لَفْظًا لَا مَعنًى . (ٱلثَّالِثُ) : أَنْ يَسْلَمَ مِنْ تَنَافُرِ ٱلْكَلِمَةِ وَذَلِكَ أَنْ تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ حَال ٱلْإِفْرَاد غَيْرَ مُتَنَافِرة فَإِذَا رُكِّبَتْ حَصَلَ ٱلتَّنَافُرُ نَحْوُ قَوْلِهِ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ (١) بِمَكَانٍ قَفْرٌ   وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قِيلَ : إِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ لَا يُمكِنُ إِنْشَادُهُ فِي ٱلغَالِب ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَوَالِيَةٍ إِلَّا وَيَغْلَطُ ٱلْمُنْشِدُ فِيهِ لِأَنَّ نَفْس اجتماع ٱلْكَلام وَٱلْقُرْبَ فِي ٱلْخَارِجِ يُحْدِثَانِ ثِقْلًا . وَإِذَا كَانَ ٱلتنافر فِي حُرُوف ٱلْكَلِمَةِ فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى عَدَمِ فَصَاحَةِ ٱلْفَرْد وَلا يَسْلَمُ ٱلْمُركَّبُ مِن ٱلتَّنَافُرِ مَتَى تَسْلَمْ مُفْرَدَاتُهُ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّام :

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَٱلْوَرَى   مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فَٱلتَّنَافُرُ فِيهِ مِنْ وَجْهِ تَكْرَار (أَمْدَحْهُ) لَا مِن وجه أَن حُرُوف (أَمْدَحْهُ) مُتَنَافِرَةٌ لِاجْتِمَاعِ حَرْفَيِ ٱلْحَلْقِ . (ٱلرَّابِع) : أن يسلم مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ وَهُوَ إِيرَادُ كَلَامٍ خَفِيِّ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَاهُ وَهُوَ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلمعنَى . فَمِنْ جِهَةِ اللفظ كَتَأْخِيرِ ٱلأَلفاظ و تقديمها عَلَى مَوَاضِعِهَا وَحُصُولِ ٱلْفَصْل إِذْ ذَاكَ بَيْنَ ٱلأَسمَاء المتلازمة كقول ٱلْفَرَزْدَقِ يَمْدَحُ إِبْرَاهِيمَ خَالَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِك :

---

(١) حرب اسم رجل

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا ❊ أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ (١)

اَلتَّقْدِيرُ : وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ فِي ٱلشَّرَفِ إِلَّا مُمَلَّكٌ أَبُو أُمِّ ذٰلِكَ ٱلْمُمَلَّكِ أَبُو هٰذَا ٱلْمَمْدُوحِ . فَتَأَمَّلْ مَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ ٱلْمُؤْذِنِ بِٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ . وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ ٱلدَّلَالَةَ فِي ٱللَّفْظِ عَلَى لَازِمِ مَعْنَاهُ فِي ٱعْتِقَادِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ مِنْ كَلَامِ ٱلْفُصَحَاءِ كَقَوْلِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ :

سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا ❊ وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا (٢)

فَجَعَلَ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ كِنَايَةً عَمَّا يَلْزَمُ فِرَاقَ ٱلْأَحِبَّةِ مِنَ ٱلْكَآبَةِ وَٱلْحُزْنِ وَأَصَابَ . لٰكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي جَعْلِ جُمُودِ ٱلْعَيْنِ كِنَايَةً عَمَّا يُوجِبُهُ دَوَامُ ٱلتَّلَاقِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ لِٱعْتِقَادِهِ أَنَّ ٱلسُّرُورَ بِمَعْنَى ٱلْجُمُودِ . لِأَنَّ جُمُودَ ٱلْعَيْنِ عِنْدَ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا يَلْزَمُ بُخْلَهَا بِٱلدُّمُوعِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ لَا ٱلسُّرُورَ . وَٱعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيَّ جَعَلَ بَيْتَ ٱلْعَبَّاسِ (سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ) مِنَ ٱلْمُطَابَقَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَهُ تَعْقِيدٌ مَعْنَوِيٌّ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ فِي ٱلْبَيْتِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْحُزْنِ . وَٱلْجُمُودَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلسُّرُورِ فَحَصَلَتْ بَيْنَهُمَا مُطَابَقَةٌ بِهٰذَا ٱللَّفْظِ . وَجَعَلَ ٱلتَّعْقِيدَ ٱللَّفْظِيَّ فِيمَا يَحْدُثُ مِنَ ٱلثِّقَلِ مِنْ تَوَالِي ٱلْمُضَافَاتِ وَٱلضَّمَائِرِ وَٱلصِّفَاتِ وَٱلْأَفْعَالِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ وَتَكْرَارِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَا جَرَى مَجْرَى

---

(١) اي ليس في الناس مثل الممدوح حيٌّ يقاربهُ الا ابن اختهِ وهو هشام المملك اي المعطى الملك

(٢) المعنى اني اطيب نفساً بالبعد والفراق واوطنها على مقاساة الحزن واتجرع غصصاً تعقبني لاجلها الدموع من عيني الى ان يأتي بعد العسر يسر

ذلكَ. (ٱلخامسُ) انْ يَسْلَمَ مِنَ ٱلتَّكْرَارِ ٱلْموجبِ فِي ٱلثقلِ كتكْرَار ٱللَّفظَةِ ذاتِهَا وتَوَالِي ٱلْاضَافَاتِ وَٱلصِّفَاتِ وَلَا يُخِلُّ بِٱلفصاحَةِ قطعًا تكرارُ ٱللَّفْظَةِ لِلتَّوْكيدِ وَاِنَّمَا يُعابُ قُبْحُ ٱلتَّكْرَارِ بِلَا فَائِدَة كقولِ بَعْضِهِمْ:

كُنْتُ كُنْتُ كَتَمْتُ ٱلسِّرَّ كُنْتُ كَمَا
كُنَّا وَكُنْتَ وَلٰكِنْ ذاكَ لَمْ يَكُنِ

فجاءَتِ ٱلْحُرُوفُ قَلِقَةً مَكْدُودَةً غَيْرَ مُتَمَكِّنَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا. (وَتَتَابُعُ ٱلْاضَافَاتِ) مِثْلُ قَوْلِ ابِي فَائِدٍ:

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ ٱلْجَنْدَلِ ٱسْجَعِي   فَانْتِ بِمَرْاى مِنْ سُعادَ وَمَسْمَعِ (١)

فَفِيهِ اِضَافَةُ حَمَامَةٍ اِلَى جَرْعَا وَجَرْعَا اِلَى حَوْمَةِ وَحَوْمَةَ اِلَى ٱلْجَنْدَلِ. وَلَيْسَ هٰذَا بِفَصِيحٍ مَأْنُوسٍ

(وَتَوَالِي ٱلصِّفَاتِ) ذَكَرَهُ ٱلطِّيبِيُّ ذلكَ مِمَّا يُحْدِثُ فِي ٱلكلامِ ثِقَلًا وَٱسْتَشْهَدَ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

دَانٍ بَعِيدٌ مُحِبٌّ مُبْغِضٌ بَهِجٌ   اَعَزُّ حُلْوٌ مُرٌّ لَيِّنٌ شَرِسُ

(١) الجرعا تخفيف الجرعاء ومؤنث الاجرع وهي ارض ذات رمل لا تنبت شيئًا. والحومة معظم الشيء. والجندل ارض ذات حجارة يقول: اسجعي يا حمامة ارض قفرةٍ سبخة فان سعاد تراك وتسمعك

الفصل الثاني

في البلاغة

البحث الاوّل

في الابانة عن حدّ البلاغة

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٩ من علم الادب)

اَلْبَلَاغَةُ كُلُّ مَا تُبَلِّغُ بِهِ ٱلْمَعْنَى قَلْبَ ٱلسَّامِعِ فَتُمَكِّنُهُ فِي نَفْسِهِ كَتَمَكُّنِهِ فِي نَفْسِكَ مَعَ صُورَةٍ مَقْبُولَةٍ وَمَعْرِضٍ حَسَنٍ . وَإِنَّمَا جَعَلْنَا حُسْنَ ٱلْمَعْرِضِ وَقَبُولَ ٱلصُّورَةِ شَرْطًا فِي ٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَتْ عِبَارَتُهُ رَثَّةً وَمَعْرِضُهُ خَلَقًا لَمْ يُسَمَّ بَلِيغًا وَإِنْ كَانَ مَفْهُومَ ٱلْمَعْنَى مَكْشُوفَ ٱلْمَغْزَى . أَلَا تَرَى إِلَى مَعْنَى ٱلْكَاتِبِ ٱلَّذِي كَتَبَ إِلَى بَعْضِ مُعَامِلِيهِ : (قَدْ تَأَخَّرَ ٱلْأَمْرُ فِيمَا وَعَدْتَ حَمْلَهُ ضَحْوَةَ ٱلنَّهَارِ وَٱلْقَوْمُ غَيْرُ مُقِيمِينَ لَيْسَ لَهُمْ صَبْرٌ . فَإِنْ رَأَيْتَ فِي إِزَاحَةِ ٱلْعِلَّةِ مَعَ ٱلْجَهْبَذِ فَعَلْتَ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ) . فَمَعْنَاهُ مَفْهُومٌ وَمَغْزَاهُ مَعْلُومٌ وَلَيْسَ كَلَامُهُ بِبَلِيغٍ فَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْ شَرْطِ ٱلْبَلَاغَةِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَى مَفْهُومًا وَٱللَّفْظُ مَقْبُولًا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ . وَمَنْ قَالَ إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِنَّمَا هِيَ إِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ فَقَدْ جَعَلَ ٱلْفَصَاحَةَ وَٱللُّكْنَةَ وَٱلْخَطَأَ وَٱلصَّوَابَ وَٱلْإِغْلَاقَ

وَٱلْإِبَانَةَ سَوَاءٌ . وَأَيضًا فَلَوْ كَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاضِحُ ٱلسَّهْلُ وَٱلْقَرِيبُ ٱلسَّلِسُ ٱلْحُلْوُ بَلِيغًا وَمَا خَالَفَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَبْهَمِ ٱلْمُسْتَغْلَقِ وَٱلْمُتَكَلَّفِ ٱلْمُتَعَقِّدِ أَيضًا بَلِيغًا لَكَانَ كُلُّ ذٰلِكَ مَحْمُودًا وَمَمْدُوحًا مَقْبُولًا لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱسْمٌ يُمْدَحُ بِهِ ٱلْكَلَامُ . فَلَمَّا رَأَيْنَا أَحَدَهُمَا مُسْتَحْسَنًا وَٱلْآخَرَ مُسْتَهْجَنًا عَلِمْنَا أَنَّ ٱلَّذِي يُسْتَحْسَنُ هُوَ ٱلْبَلِيغُ وَٱلَّذِي يُسْتَهْجَنُ لَيْسَ بِبَلِيغٍ . وَقَالَ ٱلْعَتَابِيُّ : كُلُّ مَنْ أَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَإِنَّمَا عَنَى أَنَّ مَنْ أَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْعِبَارَةِ ٱلنَّيِّرَةِ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَلَوْ حَمَلْنَا هٰذَا ٱلْكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِهِ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلْأَلْكَنُ بَلِيغًا لِأَنَّهُ يُفْهِمُنَا حَاجَتَهُ بَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ ٱلنَّاسِ بُلَغَاءَ حَتَّى ٱلْأَطْفَالُ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا يَعْدَمُ أَن يَدُلَّ عَلَى غَرَضِهِ بِعُجْمَتِهِ وَلُكْنَتِهِ وَإِيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ بَلْ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلسِّنَّوْرُ بَلِيغًا لِأَنَّا نَسْتَدِلُّ بِضُغَائِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ إِرَادَتِهِ وَهٰذَا ظَاهِرُ ٱلْإِحَالَةِ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ وَجَمْجَمَةَ ٱلْأَعْجَمِيِّ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ لَنَا فِي سَمَاعِهَا لَا لِأَنَّ تِلْكَ بَلَاغَةٌ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْأَعْرَابِيَّ إِنْ سَمِعَ ذٰلِكَ لَمْ يَفْهَمْهُ إِذْ لَا عَادَةَ لَهُ بِسَمَاعِهِ . وَأَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يَسْأَلَ بَعْضَ ٱلْأَعْرَابِ عَنْ أَهْلِهِ فَقَالَ : كَيْفَ أَهْلِكَ (بِٱلْكَسْرِ) . فَقَالَ لَهُ ٱلْأَعْرَابِيُّ : صَلْبًا . إِذْ لَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ إِنَّمَا يَسْأَلُهُ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي يَهْلِكُ بِهِ . وَسَمِعَ أَعْرَابِيٌّ قَصِيدَةَ أَبِي تَمَّامٍ فِي خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ :

طَلَلَ ٱلْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا

فَقَالَ : إِنَّ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ أَشْيَاءَ أَفْهَمُهَا وَأَشْيَاءَ لَا أَفْهَمُهَا

فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَائِلُهَا أَشْعَرَ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ أَشْعَرَ مِنْهُ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ مَعَانِيَ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ بِأَسْرِهَا لِعَادَتِنَا ٱسْتِمَاعَ مِثْلِهَا لَا لِأَنَّا أَعْرَفُ بِٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ . وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَا مِنْ أَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِنَّمَا هِيَ إِيضَاحُ ٱلْمَعْنَى وَتَحْسِينُ ٱللَّفْظِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱلْبَلَاغَةُ تَصْحِيحُ ٱلْأَقْسَامِ وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْحَنَفِيَّةِ : ٱلْبَلَاغَةُ قَوْلٌ يَضْطَرُّ ٱلْعُقُولَ إِلَى فَهْمِهِ بِأَسْهَلِ ٱلْعِبَارَةِ . فَقَوْلُهُ : (يَضْطَرُّ ٱلْعُقُولَ إِلَى فَهْمِهِ) عِبَارَةٌ عَنْ إِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى . وَقَوْلُهُ : (بِأَسْهَلِ ٱلْعِبَارَةِ) تَنْبِيهٌ عَلَى تَسْلِيسِ ٱللَّفْظِ وَتَرْكِ تَنْقِيحِهِ

البحث الثاني

اقوال في تحديد البلاغة

(ملخص عن زهر الاداب للحصري وكتاب الصناعتين للعسكري)

قَالَ أَعْرَابِيٌّ : ٱلْبَلَاغَةُ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنَ ٱلْكُلْفَةِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ . قَالَ عَبْدُ ٱلْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى : ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْأَفْهَامِ مِنْ أَقْرَبِ وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَلَاغَةُ ٱلْبُلُوغُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَلَمْ يَطُلْ سَفَرُ ٱلْكَلَامِ . قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْعُقُولِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ . وَقَالَ أَيْضًا : ٱلْعَقْلُ رَائِدُ ٱلرُّوحِ وَٱلْعِلْمُ رَائِدُ ٱلْعَقْلِ وَٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْعِلْمِ . قَالَ إِبْرٰهِيمُ ٱلْإِمَامُ : يَكْفِي مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ أَنْ لَا يُؤْتَى ٱلسَّامِعُ مِنْ سُوءِ فَهْمِ ٱلنَّاطِقِ وَلَا يُؤْتَى ٱلنَّاطِقُ مِنْ سُوءِ فَهْمِ ٱلسَّامِعِ . قَالَ ٱلْعَتَّابِيُّ : ٱلْبَلَاغَةُ مَدٌّ

ٱلْكَلَامِ بِمَعَانِيهِ اذَا قَصُرَ وَحُسْنُ ٱلتَّأْلِيفِ إِذَا طَالَ . قَالَ أَعْرَابِيٌّ : ٱلْبَلَاغَةُ إِيجَازٌ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَإِطْنَابٌ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَقَدْ قِيلَ لِلْيُونَانِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْحِيحُ ٱلْاقْسَامِ وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ . وَقِيلَ لِلرُّومِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حُسْنُ ٱلِاقْتِضَابِ عِنْدَ ٱلْبَدَاهَةِ وَٱلْغَزَارَةُ يَوْمَ ٱلْإِطَالَةِ . وَقِيلَ لِلْهِنْدِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : وُضُوحُ ٱلدَّلَالَةِ وَٱنْتِهَازُ ٱلْفُرْصَةِ وَحُسْنُ ٱلْإِشَارَةِ . وَقِيلَ لِلْفَارِسِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْوَصْلِ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلْبَلَاغَةُ إِيصَالُ ٱلْمَعْنَى إِلَى ٱلْقَلْبِ فِي حُسْنِ صُورَةٍ مِنَ ٱللَّفْظِ . وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ قَالَ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَسُنَ إِيجَازُهُ . وَقَلَّ مَجَازُهُ . وَكَثُرَ إِعْجَازُهُ . وَتَنَاسَبَتْ صُدُورُهُ وَأَعْجَازُهُ . وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ خَالِدٍ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلدَّلَالَةُ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ . وَقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَطْوِيلُ ٱلْقَصِيرِ وَتَقْصِيرُ ٱلطَّوِيلِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حَذْفُ ٱلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ وَحُسْنُ ٱلِاسْتِعَارَةِ . وَقِيلَ لِجَالِينُوسَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : إِيضَاحُ ٱلْمُعْضِلِ وَفَكُّ ٱلْمُشْكِلِ . وَقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : مَا قَرُبَ طَرَفَاهُ وَبَعُدَ مُنْتَهَاهُ . وَقِيلَ لِخَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : إِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْقَصْدُ إِلَى ٱلْحُجَّةِ . وَقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْوِيرُ ٱلْحَقِّ فِي صُورَةِ ٱلْبَاطِلِ وَتَصْوِيرُ ٱلْبَاطِلِ فِي صُورَةِ ٱلْحَقِّ (١) . وَقِيلَ لِإِبْرَهِيمَ ٱلْإِمَامِ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : ٱلْجَزَالَةُ وَٱلْإِصَابَةُ

(١) لا يجوز ذلك الا على طريقة المغايرة في الامور عادة مدح وذم

قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ حَسَّان : لَمْ يُفَسِّرْ أَحَدٌ ٱلْبَلَاغَةَ تَفْسِيرَ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ إِذْ قَالَ : ٱلْبَلَاغَةُ لِمَعَانٍ تَجْرِي فِي وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ : فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْإِشَارَةِ . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْحَدِيثِ . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْإِسْتِمَاعِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْإِحْتِجَاجِ . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ شِعْرًا . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱبْتِدَاءً . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ جَوَابًا . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ سَجْعًا . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ خُطَبًا . وَمِنْهَا رُبَّمَا كَانَتْ رَسَائِلَ . فَغَايَةُ (١) هٰذِهِ ٱلْأَبْوَابِ ٱلْوَحْيُ فِيهَا وَٱلْإِشَارَةُ إِلَى ٱلْمَعْنَى أَبْلَغُ وَٱلْإِيجَازُ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ . فَٱلسُّكُوتُ يُسَمَّى بَلَاغَةً مَجَازًا وَهُوَ فِي حَالَةٍ لَا يَنْجَعُ فِيهَا ٱلْقَوْلُ وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا إِقَامَةُ ٱلْحُجَجِ إِمَّا عِنْدَ جَاهِلٍ لَا يَفْهَمُ ٱلْخِطَابَ أَوْ عِنْدَ وَضِيعٍ لَا يَرْهَبُ ٱلْجَوَابَ . أَوْ ظَالِمٍ سَلِيطٍ يَحْكُمُ بِٱلْهَوَى وَلَا يَرْتَدِعُ بِكَلِمَةِ ٱلتَّقْوَى وَإِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ يُعْرَى مِنَ ٱلْخَيْرِ أَوْ يَجْلِبُ ٱلشَّرَّ فَٱلسُّكُوتُ أَوْلَى كَمَا قَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

مَا كُلُّ نُطْقٍ لَهُ جَوَابٌ   جَوَابُ مَا يُكْرَهُ ٱلسُّكُوتُ

وَرُبَّمَا كَانَ صَمْتُكَ فِي حَالٍ أَرْفَقَ مِنْ كَلَامِكَ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ قَوْلُهُمْ : كُلُّ صَامِتٍ نَاطِقٌ مِنْ جِهَةِ ٱلدَّلَالَةِ . وَذٰلِكَ أَنَّ دَلَائِلَ ٱلصَّنْعَةِ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ وَاضِحَةٌ . وَٱلْمَوْعِظَةُ فِيهَا قَائِمَةٌ . وَقَدْ قَالَ ٱلرَّقَاشِيُّ : سَلِ ٱلْأَرْضَ مَنْ شَقَّ أَنْهَارَكِ وَغَرَسَ أَشْجَارَكِ وَجَنَى ثِمَارَكِ . فَإِنْ لَمْ تُجِبْكَ حِوَارًا أَجَابَتْكَ ٱعْتِبَارًا . وَقَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ : (رُبَّمَا كَانَتِ ٱلْبَلَاغَةُ بِٱلْإِسْتِمَاعِ) فَلِأَنَّ ٱلْمُخَاطَبَ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ ٱلْإِسْتِمَاعَ لَمْ

---

(١) وفي نسخة : عامّة

يقف على المعنى المؤدي الى الخطاب . فالاستماع الحسن عون للبليغ على افهام المعنى

وقد جاء للبلاغة تعريفات أخر منها قول بعض حكماء الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواقع الفرصة ومن البصر بالحجة ان تدع الافصاح بها الى الكناية عنها اذا كان طريق الافصاح وعرًا وكانت الكناية احضر نفعا . قال آخر : ابلغ الكلام ما يؤنس مسمعه . ويؤيس مصنعه . والبليغ من يجتني من الالفاظ انوارها . ومن المعاني ثمارها . ليست البلاغة ان يطال عنان القلم او سنانه . او يبسط رهان القول وميدانه . بل هي ان يبلغ امد المراد بالفاظ اعيان ومعان افراد من حيث لا تزيد على الحاجة ولا اخلال يفضي الى الفاقة . وصف بعضهم البلاغة قال : هي ميدان لا يقطع الا بسوابق الاذهان . ولا يسلك الا ببصائر البيان . يبعث صاحبها بالكلام . ويقوده بالين زمام . حتى كأن الالفاظ تتحاسد في التسابق الى خواطره والمعاني تتغاير في الانثيال على اناماه كقول ابي تمام الطائي :

تغاير الشعر فيه اذ سهرت له　　حتى ظننت قوافيه ستقتتل

وقيل في بليغ : فلان مشرقي المشرق . وحاير في [illegible] . البيان اصغر صفاته . والبلاغة عفو خطراته . كأنه اوحي بالتوفيق الى صدره . وحسن الصواب بين طبعه وفكره . يحز مفاصل الكلام . ويسبق فيها الى درك المرام . كانما جمع الكلام حوله حتى انتقى منه وانتخب . وتناول منه ما طاب . وترك بعد ذلك [illegible] وسواه

وَاَجسَادًا لَا نُفُوسًا . وَقِيلَ فِي آخَرَ : يَرْضَى بِعَفْوِ ٱلطَّبعِ . وَيَقْنَعُ بِمَا خَفَّ عَلَى ٱلسَّمعِ . وَيُوجِزُ فَلَا يُخِلُّ . وَيُطْنِبُ فَلَا يُمِلُّ . فَلِلّهِ فُلَانٌ اَخَذَ بِاَزِمَّةِ ٱلقَوْلِ يَقُودُهَا كَيْفَ اَرَادَ وَيَجْذُبُهَا اَنَّى شَاءَ فَلَا تَعْصِيهِ بَيْنَ ٱلصَّعْبِ وَٱلذَّلُولِ . وَلَا تُسْلِمُهُ عِنْدَ ٱلْحُزُونِ وَٱلسُّهُولِ . كَلَامُهُ يَشْتَدُّ مَرَّةً حَتَّى تَقُولَ : ٱلصَّخْرُ ٱلْاَمْلَسُ . وَيَلِينُ تَارَةً حَتَّى تَقُولَ : اَلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ . يَقُولُ : فَيَصُولُ . وَيُجِيبُ . فَيُصِيبُ . وَيَكْتُبُ فَيُطَبِّقُ ٱلْمَفْصِلَ . وَيَنْسُقُ ٱلدُّرَّ ٱلْمُفَصَّلَ . وَيَرِدُ مَشَارِعَ ٱلْكَلَامِ وَهِيَ صَافِيَةٌ لَمْ تُطْرَقْ . وَجَامَةٌ لَمْ تُرْنَقْ . خَاطِرُهُ ٱلْبَرْقُ اَوْ اَسْرَعُ لَمَعًا . وَٱلسَّيْفُ اَوْ اَحَدُّ قَطْعًا . وَٱلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ جَرْيًا . وَٱلْفَلَكُ اَوْ اَقْوَمُ هَدْيًا . يَسْهُلُ ٱلْكَلَامُ عَلَى لَفْظِهِ وَتَتَزَاحَمُ ٱلْمَعَانِي عَلَى طَبْعِهِ فَيَتَنَاوَلُ ٱلْمَرْمَى ٱلْبَعِيدَ بِقَرِيبِ سَعْيِهِ . وَيَسْتَنْبِطُ ٱلْمَشْرَعَ ٱلْعَمِيقَ بِيَسِيرِ جَرْيِهِ . لِسَانُهُ يَفْلِقُ ٱلصُّخُورَ . وَيُفِيضُ ٱلْبُحُورَ . خَطِيبٌ لَا تَنَالُهُ حُبْسَةٌ وَلَا تَرْتَهِنُهُ لُكْنَةٌ وَلَا تَتَحَيَّفُ بَيَانَهُ عُجْمَةٌ وَلَا تَعْتَرِضُ لِسَانَهُ عُقْدَةٌ يُحْسِنُ ٱلسَّفَارَةَ . وَيَسْتَرْفِي ٱلْعِبَارَةَ . وَيُؤَدِّي ٱلْاَلْفَاظَ . وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْاَغْرَاضَ . قَالَ حَتَّى قَالَ ٱلْكَلَامُ : لَوْ اَعْفَيْتَ . وَكَتَبَ حَتَّى قَالَتِ ٱلْاَقْلَامُ : قَدْ اَحْفَيْتَ

البحث الثالث

في أوصاف البلاغات على السنة اقوام من اهل البلاغات

(عن زهر الاداب للقيرواني)

قَالَ بَعْضٌ مِنْ وُلْدِ عَقَائِلِ هٰذَا ٱلْمَنْثُورِ . وَاِلْفِ فَوَاصِلِ هٰذِهِ

ٱلشُّذُورِ: تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنْ اَهْلِ ٱلصِّنَاعَاتِ فَوَصَفُوا بَلَاغَاتِهِمْ مِنْ طَرِيقِ صِنَاعَاتِهِمْ . (فَقَالَ ٱلْجَوْهَرِيُّ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ نِظَاما مَا ثَقَبَتْهُ يَدُ ٱلْفِكْرَةِ وَنَظَمَتْهُ ٱلْفِطْنَةُ وَوُصِلَ جَوْهَرُ مَعَانِيهِ فِي سُمُوطِ ٱلْفَاظِهِ فَٱحْتَمَلَتْهُ نُحُورُ ٱلرُّوَاةِ . (وَقَالَ ٱلْعَطَّارُ) : اَطْيَبُ ٱلْكَلَامِ مَا عُجِنَ عَنْبَرُ ٱلْفَاظِهِ بِمِسْكِ مَعَانِيهِ فَفَاحَ نَسِيمُ نَشَقِهِ . وَسَطَعَتْ رَائِحَةُ عَبَقِهِ . فَتَعَلَّقَتْ بِهِ ٱلرُّوَاةُ . وَتَعَطَّرَتْ بِهِ ٱلسُّرَاةُ . (وَقَالَ ٱلصَّائِغُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْمَيْتَهُ بِكِيرِ ٱلْفِكْرِ . وَسَبَكْتَهُ بِمَشَاعِلِ ٱلنَّظَرِ . وَخَلَّصْتَهُ مِنْ خَبَثِ ٱلْإِطْنَابِ فَبَرَزَ بُرُوزَ ٱلْإِبْرِيزِ . فِي مَعْنًى وَجِيزٍ . (وَقَالَ ٱلصَّيْرَفِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا نَقَدَتْهُ يَدُ ٱلْبَصِيرَةِ وَجَلَتْهُ عَيْنُ ٱلرَّوِيَّةِ وَوَزَنَتْهُ بِمِعْيَارِ ٱلْفَصَاحَةِ فَلَا نَظَرٌ يُزَيِّفُهُ وَلَا سَمَاعٌ يُبَهْرِجُهُ . (وَقَالَ ٱلْحَدَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا نَصَبْتَ عَلَيْهِ مِنْفَخَةَ ٱلْقَرِيحَةِ وَاَشْعَلْتَ عَلَيْهِ نَارَ ٱلْبَصِيرَةِ ثُمَّ اَخْرَجْتَهُ مِنْ فَحْمِ ٱلْإِفْحَامِ . وَرَقَّقْتَهُ بِفِطِّيسِ ٱلْإِفْهَامِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّارُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْكَمْتَ نَجْرَ مَعْنَاهُ بِقَدُومِ ٱلتَّقْدِيرِ . وَنَشَرْتَهُ بِمِنْشَارِ ٱلتَّدْبِيرِ . فَصَارَ بَابًا لِبَيْتِ ٱلْبَيَانِ . وَعَارِضَةً لِسَقْفِ ٱللِّسَانِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَطُفَتْ رِفَافُ ٱلْفَاظِهِ وَحَسُنَتْ مَطَارِحُ مَعَانِيهِ فَتَنَزَّهَتْ فِي زَرَابِيِّ مَحَاسِنِهِ عُيُونُ ٱلنَّاظِرِينَ . وَاَصَاخَتْ لِنَمَارِقِ بَهْجَتِهِ آذَانُ ٱلسَّامِعِينَ . (وَقَالَ ٱلْمَاتِحُ) : اَبْيَنُ ٱلْكَلَامِ مَا عَلَّقْتَ وَذَمَ ٱلْفَاظِهِ بِبَكَرَةِ مَعَانِيهِ ثُمَّ اَرْسَلْتَهُ فِي قَلِيبِ ٱلْفِطَنِ رَيًّا فَٱمْتَتَحْتَ بِهِ سِقَاءً يَكْشِفُ ٱلشُّبُهَاتِ . وَٱسْتَنْبَطْتَ بِهِ مَعْنًى يُرْوِي مِنْ ظَمَاءِ ٱلْمُشْكِلَاتِ . (وَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ) : ٱلْبَلَاغَةُ رِدَاءٌ فَجُرْبَانُهُ ٱلْبَيَانُ

وَجِيبُهُ ٱلْمَعْرِفَةُ وَكُلَّاهُ ٱلْوَجَازَةُ وَدَخَارِيصُهُ ٱلْإِفْهَامُ وَدُرُوزُهُ ٱلْحَلَاوَةُ وَلَابِسُهُ جَسَدُ ٱللَّفْظِ وَرُوحُ ٱلْمَعْنَى . (وَقَالَ ٱلصَّبَّاغُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ تَنْضُ بَهْجَةَ إِيجَازِهِ . وَلَمْ تَكْشِفْ صِبْغَةُ إِعْجَازِهِ . قَدْ صَقَلَتْهُ يَدُ ٱلرَّوِيَّةِ مِنْ كُمُودِ ٱلْإِشْكَالِ فَرَاعَ كَوَاعِبَ ٱلْآدَابِ . وَأَلِفَ عَذَارَى ٱلْأَلْبَابِ . (وَقَالَ ٱلْحَائِكُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا ٱتَّصَلَتْ لُحْمَةُ أَلْفَاظِهِ بِسَدَى مَعَانِيهِ فَخَرَجَ مُفَوَّفًا مُنَيَّرًا وَمُوَشًّى مُحَبَّرًا . (وَقَالَ ٱلْبَزَّازُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا صَدَقَ رَقْمُ أَلْفَاظِهِ وَحَسُنَ نَشْرُ مَعَانِيهِ فَلَمْ يُسْتَعْجَمْ عَنْكَ نَشْرٌ وَلَمْ يَسْتَبْهِمْ عَلَيْكَ طَيٌّ . (وَقَالَ ٱلرَّائِضُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ حَدِّ ٱلتَّخْلِيعِ إِلَى مَنْزِلَةِ ٱلتَّقْرِيبِ إِلَّا بَعْدَ ٱلرِّيَاضَةِ وَكَانَ كَٱلْمُهْرِ ٱلَّذِي أَطْمَعَ أَوَّلُ رِيَاضَتِهِ فِي تَمَامِ ثَقَافَتِهِ . (وَقَالَ ٱلْجَمَّالُ) : ٱلْبَلِيغُ مَنْ أَخَذَ بِخِطَامِ كَلَامِهِ فَأَنَاخَهُ فِي مَبْرَكِ ٱلْمَعْنَى ثُمَّ جَعَلَ ٱلِٱخْتِصَارَ لَهُ عِقَالًا . وَٱلْإِيجَازَ لَهُ مَجَالًا . فَلَمْ يَنِدَّ عَنِ ٱلْآذَانِ . وَلَمْ يَشُذَّ عَنِ ٱلْأَذْهَانِ . (وَقَالَ ٱلْخَمَّارُ) : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا طَبَخَتْهُ مَرَاجِلُ ٱلْعِلْمِ وَصَفَّاهُ رَاوُوقُ ٱلْفَهْمِ وَضَمَّنَتْهُ دِنَانُ ٱلْحِكْمَةِ فَتَمَشَّتْ فِي ٱلْمَفَاصِلِ عُذُوبَتُهُ وَفِي ٱلْأَفْكَارِ دِقَّتُهُ وَفِي ٱلْعُقُولِ حِدَّتُهُ . (وَقَالَ ٱلْفُقَّاعِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا رَوَّحَتْ أَلْفَاظُهُ غَبَاوَةَ ٱلشَّكِّ وَدَفَعَتْ دِقَّتُهُ فَظَاظَةَ ٱلْجَهْلِ فَطَابَ جُشَاءُ نُطْقِهِ وَعَذُبَ مَصُّ جُرَعِهِ . (وَقَالَ ٱلطَّبِيبُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا إِذَا بَاشَرَ دَوَاءُ بَيَانِهِ سُقْمَ ٱلشُّبْهَةِ ٱسْتَطْلَقَتْ طَبِيعَةُ ٱلْغَبَاوَةِ فَشَفَى مِنْ سُوءِ ٱلتَّفَهُّمِ وَأَوْرَثَ صِحَّةَ ٱلتَّوَهُّمِ . (قَالَ ٱلْكَحَّالُ) : كَمَا أَنَّ ٱلرَّمَدَ قَذَى ٱلْأَبْصَارِ فَٱلشُّبْهَةُ قَذَى ٱلْبَصَائِرِ

فَاكْحَلْ عَيْنَ اللُّكْنَةِ بِمِيلِ الْبَلَاغَةِ وَاجْلُ رَمَصَ الْغَفْلَةِ بِمِرْوَدِ الْيَقْظَةِ . (ثُمَّ قَالَ) : اَجْمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى اَنَّ اَبْلَغَ الْكَلَامِ مَا اِذَا اَشْرَقَتْ شَمْسُهُ انْكَشَفَ لَبْسُهُ وَاِذَا صَدَقَتْ اَنْوَاؤُهُ اَخْضَرَّتْ اَحْمَاؤُهُ

الفصل الثالث

في المعاني

البحث الاوّل

في حقيقة المعاني

(عن كشّاف اصطلاحات الفنون بتصرُّف)

(راجع صفحة ١٠ من علم الادب)

اَلْمَعْنَى لُغَةً اَلْمَقْصُودُ وَفِي الْاِصْطِلَاحِ هُوَ الصُّورَةُ الذِّهْنِيَّةُ مِنْ حَيْثُ اِنَّهُ وُضِعَ بِاِزَائِهَا اللَّفْظُ اَيْ مِنْ حَيْثُ اِنَّهَا تُقْصَدُ مِنْهُ . وَذَلِكَ اِنَّمَا يَكُونُ بِالْوَضْعِ فَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُفْرَدٍ يُسَمَّى مَعْنًى مُفْرَدًا . وَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ سُمِّيَ مَعْنًى مُرَكَّبًا . فَالْاِفْرَادُ وَالتَّرْكِيبُ صِفَتَانِ لِلْاَلْفَاظِ حَقِيقَةً وَيُوصَفُ بِهِمَا الْمَعَانِي تَبَعًا . وَعِلْمُ الْمَعَانِي عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنِ الْخَطَاءِ فِي تَأْدِيَةِ الْمُرَادِ وَتُعْرَفُ اَحْوَالُ اللَّفْظِ الْعَرَبِيِّ الَّتِي بِهَا يُطَابِقُ اللَّفْظُ مُقْتَضَى الْحَالِ وَهُوَ مِنْ اُصُولِ الْعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ يَبْحَثُ عَنِ الْمُرَكَّبَاتِ عَلَى الْاِطْلَاقِ بِاعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ زَائِدَةٍ عَلَى اَصْلِ الْمَعْنَى . قَالَ بَعْضُ اَهْلِ الْمَعَانِي : اَلْكَلَامُ الَّذِي يُوصَفُ

بِالْبَلَاغَةِ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ بِلَفْظِهِ عَلَى مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ اَوِ الْعُرْفِيِّ اَوِ الشَّرْعِيِّ . ثُمَّ تَجِدُ لِذٰلِكَ الْمَعْنَى دَلَالَةً ثَانِيَةً عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ الَّذِي يُرِيدُ الْمُتَكَلِّمُ إِثْبَاتَهُ اَوْ نَفْيَهُ فَهُنَاكَ اَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ اُوَلٌ وَمَعَانٍ ثَوَانٍ . فَالْمَعَانِي الْاُوَلُ هِيَ مَدْلُولَاتُ التَّرَاكِيبِ وَالْاَلْفَاظِ الَّتِي تُسَمَّى فِي عِلْمِ النَّحْوِ اَصْلَ الْمَعْنَى . وَالْمَعَانِي الثَّوَانِي الْاَغْرَاضُ الَّتِي يُسَاقُ لَهَا الْكَلَامُ . وَلِذَا قِيلَ : مُقْتَضَى الْحَالِ هُوَ الْمَعْنَى الثَّانِي . كَرَدِّ الْاِنْكَارِ وَدَفْعِ الشَّكِّ مَثَلًا إِذَا قُلْنَا : إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ . فَالْمَعْنَى الْاَوَّلُ هُوَ الْقِيَامُ الْمُؤَكَّدُ وَالْمَعْنَى الثَّانِي رَدُّ الْاِنْكَارِ وَدَفْعُ الشَّكِّ . وَإِذَا قُلْنَا : هُوَ اَسَدٌ فِي صُورَةِ الْاِنْسَانِ . فَالْمَعْنَى الْاَوَّلُ هُوَ مَدْلُولُ هٰذَا الْكَلَامِ وَالْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ اَنَّهُ شُجَاعٌ . فَالْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ الَّذِي يُرَادُ إِيرَادُهُ فِي الطُّرُقِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمَفْهُومُ مِنْ تِلْكَ الطُّرُقِ هُوَ الْمَعْنَى الْاَوَّلُ . وَتَسْمِيَتُهُ بِالْمَعْنَى الثَّانِي لِكَوْنِ اللَّفْظِ دَالًّا عَلَيْهِ بِوَاسِطَةِ الْمَعْنَى الْاَوَّلِ . فَدَلَالَةُ الْمَعْنَى الْاَوَّلِ عَلَى الثَّانِي عَقْلِيَّةٌ قَطْعًا وَاَمَّا دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى الْاَوَّلِ فَقَدْ تَكُونُ وَضْعِيَّةً وَقَدْ تَكُونُ عَقْلِيَّةً . وَقَدْ تُسَمَّى الْمَعَانِي الْاُوَلُ بِالْخُصُوصِيَّاتِ وَالْكَيْفِيَّاتِ الزَّائِدَةِ عَلَى اَصْلِ الْمَعْنَى وَبِالصُّوَرِ وَالْخَوَاصِّ وَالْمَزَايَا مَجَازًا . ثُمَّ إِنَّهُمْ سَمَّوْا تَرْتِيبَ الْمَعَانِي الْاُوَلِ وَكَذَا الْمَعَانِيَ الْاُوَلَ اَلْفَاظًا . وَفَضِيلَةَ الْكَلَامِ بِاعْتِبَارِ هٰذَا التَّرْتِيبِ لِكَوْنِ الْمَعْنَى الْاَوَّلِ مَحَلَّ الْفَضِيلَةِ لِاَنَّ تَرْتِيبَ الْمَعَانِي الْاَصْلِيَّةِ فِي النَّفْسِ ثُمَّ تَرْتِيبَ الْاَلْفَاظِ فِي النُّطْقِ عَلَى حَذْوِهَا عَلَى وَجْهٍ يَنْتَقِلُ مِنْهَا الذِّهْنُ بِتَوَسُّلِهَا إِلَى الْخَوَاصِّ فِي الْاِفَادَةِ بِلَا إِخْلَالٍ وَلَا تَعْقِيدٍ هُوَ

ٱلْبَلَاغَةُ. فَيَكُونُ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْأُوَلِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَخْصُوصِ مَنْشَأَ ٱلْفَضِيلَةِ وَمَنَاطَ ٱلْبَرَاعَةِ بِلَا شَكٍّ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي تَتَبَيَّنُ بِٱلْأَلْفَاظِ وَلَمْ يَكُنْ لِتَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي سَبِيلٌ إِلَّا بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ فِي ٱلنُّطْقِ تَجَوَّزُوا فَعَبَّرُوا عَنْ تَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ ثُمَّ بِٱلْأَلْفَاظِ بِحَذْفِ ٱلتَّرْتِيبِ . وَإِذَا وَضَعُوا ٱللَّفْظَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تَفْخِيمِهِ كَأَنْ يُقَالَ ٱلْبَلَاغَةُ رَاجِعَةٌ إِلَى ٱللَّفْظِ. أَوْ هُوَ مَحَلُّ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ ٱلِٱتِّصَافَ بِٱلْفَصَاحَةِ وَنَحْوِهَا لَمْ يُرِيدُوا ٱللَّفْظَ ٱلْمَنْطُوقَ وَلٰكِنْ أَرَادُوا مَعْنَى ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي دَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي

البحث الثاني

في صحّة المعاني

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ١١٠و١١١ من علم الادب)

أَمَّا صِحَّةُ ٱلْمَعَانِي فَتَكُونُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: (أَحَدُهَا) إِيضَاحُ تَفْسِيرِهَا حَتَّى لَا تَكُونَ مُشْكِلَةً وَلَا مُجْمَلَةً. (وَٱلثَّانِي) ٱسْتِيفَاءُ تَقْسِيمِهَا حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا وَلَا يَخْرُجَ عَنْهَا مَا هُوَ فِيهَا . (وَٱلثَّالِثُ) صِحَّةُ مُقَابَلَاتِهَا. وَٱلْمُقَابَلَةُ تَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمَعْنَى بِمَا يُوَافِقُهُ وَحَقِيقَةُ هٰذِهِ ٱلْمُقَارَبَةِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ تَصِيرُ مُتَشَاكِلَةً . وَٱلثَّانِي مُقَابَلَتُهُ بِمَا يُضَادُّهُ وَهُوَ حَقِيقَةُ ٱلْمُقَابَلَةِ. وَلَيْسَ لِلْمُقَابَلَةِ إِلَّا أَحَدُ هٰذَيْنِ ٱلْوَجْهَيْنِ: ٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلِٱئْتِلَافِ وَٱلْمُضَادَّةِ مَعَ ٱلِٱخْتِلَافِ . فَأَمَّا فَصَاحَةُ

ٱلْأَلفاظِ فتكونُ بِثلاثةِ أوجهٍ : (أحدها) مجانبة ٱلغريبِ ٱلوحشيّ حتى لا يمجّهُ سمعٌ ولا ينفرَ منهُ طبعٌ . (والثاني) تنكّبُ اللفظِ ٱلمبتذلِ والعدولُ عن ٱلكلامِ ٱلمسترذلِ حتى لا يستسقطهُ خاصيٌّ ولا ينبو عنهُ فهمُ عاميٍّ كما قالَ ٱلجاحظُ في كتابِ ٱلبيانِ : أمَّا أنا فلمْ أرَ قوماً أمثلَ طريقةً في ٱلبلاغةِ من ٱلكتّابِ وذلكَ أنهمْ قدِ ٱلتمسوا منَ ٱلألفاظِ ما لمْ يكنْ متوعراً وحشياً ولا ساقطاً عامياً . (والثالثُ) أنْ يكونَ بينَ ٱلألفاظِ ومعانيها مناسبةٌ ومطابقةٌ . أمَّا ٱلمطابقةُ فهيَ أنْ تكونَ ٱلألفاظُ كٱلقوالبِ لمعانيها فلا تزيدُ عليها ولا تنقصُ عنها . وقالَ بشرُ بنُ ٱلمعتمرِ في وصيّتهِ في ٱلبلاغةِ : إذا لمْ تجدِ ٱللفظةَ واقعةً موقعها ولا صائرةً إلى مستقرّها ولا حالّةً في مركزها بلْ وجدتَّها قلقةً في مكانها نافرةً عنْ موضعها فلا تكرهها على ٱلقرارِ في غيرِ موضعها فإنَّكَ إنْ لمْ تتعاطَ قرضَ ٱلشعرِ ٱلموزونِ ولمْ تتكلّفِ ٱختيارَ ٱلمنثورِ لمْ يعبْكَ بتركِ ذلكَ أحدٌ وإذا أنتَ تكلّفتهما ولمْ تكنْ حاذقاً فهيماً عابكَ منْ أنتَ أقلُّ عيباً منهُ وأزرى عليكَ منْ أنتَ فوقهُ . وأمَّا ٱلمناسبةُ فهيَ أنْ يكونَ ٱلمعنى يليقُ ببعضِ ٱلألفاظِ إمَّا لعرفٍ مستعملٍ أوْ لاتفاقٍ مستحسنٍ حتى إذا ذكرتْ تلكَ ٱلمعاني بغيرِ تلكَ ٱلألفاظِ كانتْ نافرةً عنها وإنْ كانتْ أفصحَ وأوضحَ لاعتيادِ ما سواها . وقالَ بعضُ ٱلبلغاءِ : لا يكونُ ٱلبليغُ بليغاً حتى يكونَ معنى كلامهِ أسبقَ إلى فهمكَ منْ لفظهِ إلى سمعكَ . وأمَّا معاطاةُ ٱلإعرابِ وتجنّبُ ٱللحنِ فإنَّما هوَ منْ

صِفَاتِ ٱلصَّوَابِ . وَٱلْبَلَاغَةُ اَعْلَى مِنْهُ رُتْبَةً وَاَشْرَفُ مَنْزِلَةً وَلَيْسَ لِمَنْ لَحَنَ فِي كَلَامِهِ مَدْخَلٌ فِي ٱلْأُدَبَاءِ فَضْلًا عَنْ اَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِ ٱلْبُلَغَاءِ

البحث الثالث

في انواع المعاني

(ملخص عن زهر الاداب للقيرواني)

(راجع صفحة ١٢ من علم الادب)

قَالَ اَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ٱلْجَاحِظُ : قَالَ بَعْضُ جَهَابِذَةِ ٱلْأَلْفَاظِ وَنُقَّادِ ٱلْمَعَانِي : ٱلْمَعَانِي ٱلْقَائِمَةُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٱلْمُتَصَوَّرَةُ فِي اَذهانِهِمْ ٱلْمُخْتَلِجَةُ فِي نُفُوسِهِمْ ٱلْمُتَّصِلَةُ بِخَوَاطِرِهِمْ وَٱلْحَادِثَةُ عَنْ فِكْرِهِمْ مَسْتُورَةٌ خَفِيَّةٌ وَبَعِيدَةٌ وَحْشِيَّةٌ وَمَحْجُوبَةٌ مَكْنُونَةٌ وَمَوْجُودَةٌ فِي مَعْنَى مَعْدُومَةٍ لَا يَعْرِفُ ٱلْإِنْسَانُ ضَمِيرَ صَاحِبِهِ وَلَا حَاجَةَ اَخِيهِ وَخَلِيطِهِ وَلَا مَعْنَى شَرِيكِهِ وَٱلْمُعَاوِنِ لَهُ عَلَى اَمْرِهِ وَعَلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ مِنْ حَاجَاتِ نَفْسِهِ اِلَّا بِغَيْرِهِ . وَاِنَّمَا يُحْيِي تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ذِكْرُهُمْ لَهَا وَاِخْبَارُهُمْ عَنْهَا وَٱسْتِعْمَالُهُمْ اِيَّاهَا . وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ هِيَ ٱلَّتِي تُقَرِّبُهَا مِنَ ٱلْفَهْمِ وَتُجَلِّيهَا لِلْعَقْلِ وَتَجْعَلُ ٱلْخَفِيَّ مِنْهَا ظَاهِرًا وَٱلْغَائِبَ شَاهِدًا وَٱلْبَعِيدَ قَرِيبًا . وَهِيَ ٱلَّتِي تُلَخِّصُ ٱلْمُلْتَبِسَ وَتَحُلُّ ٱلْمُنْعَقِدَ وَتَجْعَلُ ٱلْمُهْمَلَ مُقَيَّدًا وَٱلْمُقَيَّدَ مُطْلَقًا وَٱلْمَجْهُولَ مَعْرُوفًا وَٱلْوَحْشِيَّ مَأْلُوفًا . وَعَلَى قَدْرِ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ وَصَوَابِ ٱلْاِشَارَةِ وَحُسْنِ ٱلْاِخْتِصَارِ وَدِقَّةِ ٱلْمَدْخَلِ يَكُونُ ظُهُورُ ٱلْمَعنى . وَكَمَا

كَانَتِ ٱلدَّلَالَةُ اَوْضَحَ وَاَفْصَحَ وَكَانَتِ ٱلْاِشَارَةُ اَبْيَنَ وَاَنْوَرَ كَانَتْ اَنْفَعَ وَاَنْجَعَ فِي ٱلْبَيَانِ. ثُمَّ اَعْلَمْ حَفِظَكَ ٱللّٰهُ اَنَّ حُكْمَ ٱلْمَعَانِي خِلَافُ حُكْمِ ٱلْاَلْفَاظِ لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ مَبْسُوطَةٌ اِلَى غَايَةٍ وَمُمْتَدَّةٌ اِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ وَاَسْمَاءُ ٱلْمَعَانِي مَحْصُورَةٌ مَعْدُودَةٌ وَمُحَصَّلَةٌ مَحْدُودَةٌ. وَجَمِيعُ اَصْنَافِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي مِنْ لَفْظٍ اَوْ غَيْرِ لَفْظٍ خَمْسَةُ اَشْيَاءَ لَا تَنْقُصُ وَلَا تَزِيدُ: اَوَّلُهَا ٱللَّفْظُ. ثُمَّ ٱلْاِشَارَةُ. ثُمَّ ٱلْعَقْدُ. ثُمَّ ٱلْخَطُّ. ثُمَّ ٱلْحَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى نِصْبَةً. وَٱلنِّصْبَةُ هِيَ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْاَصْنَافِ وَلَا تَقْصُرُ عَنْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَاتِ. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ ٱلْخَمْسَةِ صُورَةٌ بَائِنَةٌ مِنْ صُورَةِ صَاحِبَتِهَا وَحِلْيَةٌ مُخَالِفَةٌ لِحِلْيَةِ اُخْتِهَا. وَهِيَ ٱلَّتِي تَكْشِفُ لَكَ عَنْ اَعْيَانِ ٱلْمَعَانِي فِي ٱلْجُمْلَةِ وَعَنْ حَقَائِقِهَا فِي ٱلتَّفْسِيرِ وَعَنْ اَجْنَاسِهَا وَاَقْدَارِهَا وَعَنْ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا وَعَنْ طَبَقَاتِهَا فِي ٱلسَّارِّ وَٱلضَّارِّ وَعَمَّا يَكُونُ مِنْهَا لَهْوًا مُبَهْرَجًا وَسَاقِطًا مُطَّرَحًا. وَفِي نَحْوِ قَوْلِ اَبِي عُثْمَانَ (اِنَّ ٱلْمَعَانِيَ غَيْرُ مَقْصُورَةٍ وَلَا مَحْصُورَةٍ) يَقُولُ اَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ لِاَبِي دُلَفَ بْنِ عِيسَى ٱلْعِجْلِيِّ:

وَلَوْ كَانَ يَفْنَى ٱلشِّعْرُ اَفْنَتْهُ مَا قَرَتْ   حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلذَّوَاهِبِ
وَلٰكِنَّهُ فَيْضُ ٱلْعُقُولِ اِذَا ٱنْجَلَتْ   سَحَائِبُ مِنْهُ اُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

وَقَالَ اَبُو ٱلْعَبَّاسِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: لَحْظَةُ ٱلْقَلْبِ اَسْرَعُ مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَاَبْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي اَعْمَاقِ اَوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ. وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ اِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ

إِذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِأَلْفَاظٍ كَوَاسٍ فِي أَحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِإِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ ابْنِ بُرْدٍ : بِمَا فُقْتَ أَهْلَ عَصْرِكَ وَسَبَقْتَ أَهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِأَنِّي لَمْ أَقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ إِلَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ إِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَأَحْكَمْتُ سَبْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ مِنْ مُتَكَلَّفِهَا وَمَا مَلَكَ قِيَادِي قَطُّ ٱلْإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ

البحث الرابع

في الحكم على المعاني

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرّف)

فَائِدَةُ هٰذَا ٱلْفَصْلِ ٱلْإِحَاطَةُ بِأَسَالِيبِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَتَبَايُنِهَا . وَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مُفْتَقِرٌ إِلَى هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَٱلَّذِي يَلِيهِ بِخِلَافِ غَيْرِهِمَا مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولِ ٱلْمَذْكُورَةِ لَا سِيَّمَا مُفَسِّرِي ٱلْأَشْعَارِ فَإِنَّهُمْ بِهِ أَعْنَى . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَصْلَ فِي ٱلْمَعْنَى أَنْ يُحْمَلَ عَلَى ظَاهِرِ لَفْظِهِ وَمَنْ يَذْهَبُ إِلَى ٱلتَّأْوِيلِ يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . فَٱلظَّاهِرُ مِنْ لَفْظِ (ٱلثِّيَابِ) هُوَ مَا يُلْبَسُ وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ ٱلْمُرَادَ هُوَ ٱلْقَلْبُ لَا ٱلْمَلْبُوسُ . وَهٰذَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ

دليل لأنّه عدولٌ عن ظاهرِ اللفظِ . وكذلكَ وردَ عن عيسى بن مريمَ عليهِ السّلامُ أنّه قالَ : إذا اردتَ أنْ تصلّيَ فادخلْ بيتكَ وأغلقْ بابكَ . فالظاهرُ من هذا هوَ البيتُ والبابُ . ومن تأوّلَ ذهبَ إلى أنّه أرادَ أنّكَ تجمعُ عليكَ همَّ قلبكَ وتمنعُ أنْ يخطرَ بهِ سوى أمرِ الصّلاة . فعبّرَ عن القلبِ بالبيتِ وعن منعِ الخواطرِ التي تخطرُ لهُ بإغلاقِ البابِ . وهذا يحتاجُ إلى دليلٍ لأنّهُ عدولٌ عن ظاهرِ اللفظِ . فالمعنى المحمولُ على ظاهرهِ لا يقعُ في تفسيرهِ خلافٌ والمعنى المعدولُ عن ظاهرهِ إلى التأويلِ يقعُ فيهِ الخلافُ إذ بابُ التأويلِ غيرُ محصورٍ . والعلماءُ متفاوتونَ في هذا فإنّهُ قد يأخذُ بعضُهم وجهاً ضعيفاً من التأويلِ فيكسوهُ بعبارتهِ قوّةً تميّزهُ على غيرهِ من الوجوهِ القويّةِ فإنّ السّيفَ بضاربهِ

إنّ السّيوفَ مع الّذينَ قلوبُهم كقلوبهنَّ إذا التقى الجمعانِ
تلقى الحسامَ على جراءةِ حدّهِ مثلَ الجبانِ بكفّ كلّ جبانِ

وهذا الفصلُ الّذي نحنُ بصددِ ذكرهِ هاهنا يرجعُ أكثرهُ إلى التأويلِ لأنّهُ أدقُّ ولا يخلو تأويلُ المعنى من ثلاثةِ أقسامٍ : إمّا أنْ يفهمَ منهُ شيءٌ واحدٌ لا يحتملُ غيرهُ . وإمّا أنْ يحتملَ الشيءَ وغيرهُ . وتلكَ الغيريّةُ إمّا أنْ تكونَ ضدّاً أو لا تكونَ ضدّاً وليسَ لنا قسمٌ رابعٌ . (فالأوّلُ) يقعُ عليهِ أكثرُ الأشعارِ ولا يجري في الدّقّةِ واللّطافةِ مجرى القسمينِ الآخرينِ . (وأمّا القسمُ الثّاني) فإنّهُ قليلُ الوقوعِ جدّاً وهوَ من التأويلاتِ المعنويّةِ . لأنّ

دَلَالَةَ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَضِدِّهِ اَغْرَبُ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَغَيْرِهِ .
فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : اِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ . وَهٰذَا يَشْتَمِلُ عَلَى
مَعْنَيَيْنِ ضِدَّيْنِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ تَفْعَلْ فِعْلاً تَسْتَحِي
مِنْهُ فَٱفْعَلْ مَا شِئْتَ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ
حَيَاءٌ يَنْزَعُكَ عَنْ فِعْلِ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ فَٱفْعَلْ مَا شِئْتَ . وَهٰذَانِ
مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ اَحَدُهُمَا مَدْحٌ وَٱلْآخَرُ ذَمٌّ . وَيَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهْجِ مِنَ
ٱلشِّعْرِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا كَافُورا :

وَاَظْلَمُ اَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُنْعَمَ
عَلَيْهِ يَحْسِدُ ٱلْمُنْعِمَ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُنْعِمَ يَحْسِدُ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ
وَرَدَ قَوْلُهُ اَيْضًا مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُهُ :

فَاِنْ نِلْتُ مَا اَمَّلْتُ مِنْكَ فَرُبَّمَا ... شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعْجِزُ ٱلطَّيْرَ وِرْدُهُ

فَاِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ يَحْتَمِلُ مَدْحًا وَذَمًّا وَاِذَا اُخِذَ بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ
نَظَرٍ اِلَى مَا قَبْلَهُ فَاِنَّهُ يَكُونُ بِٱلذَّمِّ اَوْلَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ لِاَنَّهُ يَتَضَمَّنُ
وَصْفَ نَوَالِهِ بِٱلْبُعْدِ وَٱلشُّذُوذِ . وَصَدْرُ ٱلْبَيْتِ مُفْتَتَحٌ (بِاِنْ) ٱلشَّرْطِيَّةِ وَقَدْ
اُجِيبَ بِلَفْظَةِ (رُبَّ) ٱلَّتِي مَعْنَاهَا ٱلتَّقْلِيلُ اَيْ : لَسْتُ مِنْ نَوَالِكَ عَلَى
يَقِينٍ فَاِنْ نِلْتُهُ فَرُبَّمَا وَصَلْتُ اِلَى مَوْرِدٍ لَا يَصِلُ اِلَيْهِ ٱلطَّيْرُ لِبُعْدِهِ .
وَاِذَا نُظِرَ اِلَى مَا قَبْلَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ دَلَّ عَلَى ٱلْمَدْحِ خَاصَّةً لِارْتِبَاطِهِ
بِٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي قَبْلَهُ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقْصِدُ ٱلْمُتَنَبِّي هٰذَا ٱلْقِسْمَ فِي شِعْرِهِ
كَقَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ اَوَّلُهَا :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ ۞ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ
وَلِلّٰهِ سِرٌّ فِي عُلَاكَ وَإِنَّمَا ۞ كَلَامُ الْعِدَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَيَانِ

ثُمَّ قَالَ :

فَمَا لَكَ تُعْنَى بِالْأَسِنَّةِ وَالْقَنَا ۞ وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ

فَإِنَّ هٰذَا بِالذَّمِّ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْمَدْحِ لِأَنَّهُ يَقُولُ: لَمْ تَبْلُغْ مَا بَلَغْتَهُ بِسَعْيِكَ وَاهْتِمَامِكَ بَلْ بِجَدٍّ وَسَعَادَةٍ. وَهٰذَا لَا فَضْلَ فِيهِ لِأَنَّ السَّعَادَةَ تَنَالُ الْخَامِلَ وَالْجَاهِلَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا. وَأَكْثَرُ مَا كَانَ الْمُتَنَبِّي يَسْتَعْمِلُ هٰذَا الْقِسْمَ فِي قَصَائِدِهِ الْكَافُورِيَّاتِ . . . وَهٰذَا الْقِسْمُ مِنَ الْكَلَامِ يُسَمَّى الْمُوَجَّهَ أَيْ لَهُ وَجْهَانِ وَهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى بَرَاعَةِ الشَّاعِرِ وَحُسْنِ تَأَتِّيهِ. (وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ) فَإِنَّهُ يَكُونُ أَكْثَرَ وُقُوعًا مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي وَهُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ. لِأَنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ كَثِيرُ الْوُقُوعِ. وَالْقِسْمَ الثَّانِي قَلِيلُ الْوُقُوعِ. وَهٰذَا الْقِسْمُ الثَّالِثُ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ: وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ. فَإِنَّ هٰذَا لَهُ وَجْهَانِ مِنَ التَّأْوِيلِ أَحَدُهُمَا الْقَتْلُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَالْآخَرُ هُوَ الْقَتْلُ الْمَجَازِيُّ وَهُوَ الْإِكْبَابُ عَلَى الْمَعَاصِي فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَكَبَّ عَلَى الْمَعَاصِي قَتَلَ نَفْسَهُ فِي الْآخِرَةِ . . . . وَمِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا النَّهْجِ مَا يُحْكَى عَنْ أَفْلَاطُونَ أَنَّهُ قَالَ : تَرْكُ الدَّوَاءِ دَوَاءٌ. فَذَهَبَ بَعْضُ الْأَطِبَّاءِ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ: إِنْ لَطُفَ الْمِزَاجُ وَانْتَهَى إِلَى غَايَةٍ لَا يَحْتَمِلُ الدَّوَاءَ فَتَرْكُهُ حِينَئِذٍ وَالْإِضْرَابُ عَنْهُ دَوَاءٌ. وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِالتَّرْكِ الْوَضْعَ أَيْ : وَضْعُ الدَّوَاءِ عَلَى الدَّاءِ دَوَاءٌ. يُشِيرُ بِذٰلِكَ

إلَى حِذْقِ ٱلطَّبِيبِ فِي اوْقَاتِ عِلَاجِهِ . وَمِثْلُهُ فِي ٱلشِّعْرِ قَوْلُ ٱلفَرَزْدَق :

إِذَا جَعْفَرٌ مَرَّتْ عَلَى هَضْبَةِ ٱلْحِمَى فَقَدْ اَخَذَ ٱلْاَحْيَاءُ مِنْهَا قُبُورَهَا

وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ذَمُّ ٱلْاَحْيَاءِ وَٱلْآخَرُ ذَمُّ ٱلْاَمْوَاتِ . اَمَّا (ذَمُّ ٱلْاَحْيَاءِ) فَهُوَ اَنَّهُمْ خَذَلُوا ٱلْاَمْوَاتَ يُرِيدُ اَنَّهُمْ تَلَاقَوْا قِتَالَهُمْ وَقَوْمًا آخَرِينَ فَفَرَّ ٱلْاَحْيَاءُ عَنْهُمْ وَاَسْلَمُوهُمْ اَوْ اِنَّهُمْ اَسْتَنْجَدُوهُمْ فَلَمْ يُنْجِدُوهُمْ . وَاَمَّا (ذَمُّ ٱلْاَمْوَاتِ) فَهُوَ اَنَّ لَهُمْ مَخَازِيَ وَفَضَائِحَ تُوجِبُ عَارًا وَشَنَارًا فَهُمْ يَعُدُّونَ بِهَا ٱلْاَحْيَاءَ وَيُلْصِقُونَهَا بِهِمْ . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

بِٱلشِّعْرِ طُولٌ اِذَا اَصْطَكَّتْ قَصَائِدُهُ

فِي مَعْشَرٍ وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصَرُ

فَهٰذَا ٱلْبَيْتُ يَحْتَمِلُ تَأْوِيلَيْنِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلشِّعْرَ يَتَّسِعُ مَجَالُهُ بِمَدْحِكَ وَيَضِيقُ بِمَدْحِ غَيْرِكَ . يُرِيدُ بِذٰلِكَ اَنَّ مَآثِرَهُ كَثِيرَةٌ وَمَآثِرَ غَيْرِهِ قَلِيلَةٌ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلشِّعْرَ يَكُونُ ذَا فَخْرٍ وَنَبَاهَةٍ بِمَدْحِكَ وَذَا خُمُولٍ بِمَدْحِ غَيْرِكَ . فَلَفْظَةُ ٱلطُّولِ : يُفْهَمُ مِنْهَا ضِدُّ ٱلْقِصَرِ وَيُفْهَمُ مِنْهَا ٱلْفَخْرُ مِنْ قَوْلِنَا : طَالَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ اَيْ فَخَرَ عَلَيْهِ . وَمِمَّا يَنْتَظِمُ بِهٰذَا ٱلسِّلْكِ قَوْلُ اَبِي كَبِيرٍ ٱلْهُذَلِيِّ :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ ٱلدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ ٱلدَّهْرُ

وَهٰذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ مِنَ ٱلتَّأْوِيلِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ اَرَادَ بِسَعْيِ ٱلدَّهْرِ سُرْعَةَ تَقَضِّي ٱلْاَوْقَاتِ مُدَّةَ ٱلْوِصَالِ . فَلَمَّا ٱنْقَضَى ٱلْوَصْلُ عَادَ ٱلدَّهْرُ اِلَى حَالَتِهِ فِي ٱلسُّكُونِ وَٱلْبُطْءِ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّهُ اَرَادَ بِسَعْيِ

ٱلدَّهْرِ بِٱلنَّمَائِمِ وَٱلْوِشَايَاتِ فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْوَصْلِ سَكَنُوا اَوْ تَرَكُوا ٱلسِّعَايَةَ . وَهٰذَا مِنْ بَابِ وَضْعِ ٱلْمُضَافِ إِلَيْهِ مَكَانَ ٱلْمُضَافِ كَقَوْلِهِ : وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ اَيْ اَهْلَ ٱلْقَرْيَةِ . وَمِنَ ٱلدَّقِيقِ ٱلْمَعْنَى فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي عَضُدِ ٱلدَّوْلَةِ مِنْ جُمْلَةِ قَصِيدَتِهِ ٱلَّتِي اَوَّلُهَا (اَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا) فَقَالَ :

لَوْ فَطِنَتْ خَيْلُهُ لِنَائِلِهِ لَمْ يُرْضِهَا اَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا

وَهٰذَا يُسْتَنْبَطُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ مِقْدَارَ عَطَايَاهُ ٱلنَّفِيسَةِ لَمَا رَضِيَتْ لَهُ بِاَنْ تَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لِاَنَّ عَطَايَاهُ اَنْفَسُ مِنْهَا . (ٱلْآخَرُ) اَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ اَنَّهُ يَهَبُهَا مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لَمَا رَضِيَتْ ذٰلِكَ إِذْ تَكْرَهُ خُرُوجَهَا عَنْ مُلْكِهِ. وَهٰذَانِ ٱلْوَجْهَانِ اَنَا ذَكَرْتُهُمَا وَإِنَّمَا ٱلْمَذْكُورُ مِنْهُمَا اَحَدُهُمَا . وَهٰذَا ٱلَّذِي اَشَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَتَأْوِيلَاتِهَا كَافٍ لِمَنْ عِنْدَهُ ذَوْقٌ وَلَهُ قُوَّةٌ عَلَى حَمْلِهَا عَلَى اَشْبَاهِهَا وَنَظَائِرِهَا

البحث الخامس

في التَّرجيح بين المعاني

(عن المثل السائر باختصار)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ مِيزَانُ ٱلْخَوَاطِرِ ٱلَّذِي يُوزَنُ بِهِ نَقْدُ دِرْهَمِهَا وَدِينَارِهَا بَلِ ٱلْمِحَكُّ ٱلَّذِي يُعْلَمُ مِنْهُ مِقْدَارُ عِيَارِهَا وَلَا يَزِنُ بِهِ إِلَّا ذُو فِكْرَةٍ مُتَّقِدَةٍ وَٱمْحَةٍ مُنْتَقِدَةٍ . فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَمَلَ مِيزَانًا سُمِّيَ صَرَّافًا .

وَلَا كُلُّ مَنْ وَزَنَ بِهِ سُمِّيَ عَرَّافًا . وَالْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَا التَّرْجِيحِ وَالتَّرْجِيحِ الْفِقْهِيِّ أَنَّ هُنَاكَ يُرَجَّحُ بَيْنَ دَلِيلَيِ الْخَصْمَيْنِ فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ وَهٰهُنَا يُرَجَّحُ بَيْنَ جَانِبَيْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فِي أَلْفَاظٍ وَمَعَانٍ خِطَابِيَّةٍ . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّ صَاحِبَ التَّرْجِيحِ الْفِقْهِيِّ يُرَجِّحُ بَيْنَ خَبَرِ التَّوَاتُرِ مَثَلًا وَبَيْنَ خَبَرِ الْآحَادِ أَوْ بَيْنَ الْمُسْنَدِ وَالْمُرْسَلِ أَوْ مَا جَرَى هٰذَا الْمَجْرَى . وَهٰذَا لَا يَعْرِضُ إِلَيْهِ صَاحِبُ عِلْمِ الْبَيَانِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَلٰكِنِ الَّذِي هُوَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُرَجِّحَ بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ أَوْ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ مَجَازَيْنِ وَيَكُونَ نَاظِرًا فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ إِلَى الصِّنَاعَةِ الْخِطَابِيَّةِ . وَرُبَّمَا اتَّفَقَ هُوَ وَصَاحِبُ التَّرْجِيحِ الْفِقْهِيِّ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ كَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ عَامٍّ وَخَاصٍّ أَوْ مَا شَابَهَ ذٰلِكَ . وَكُنَّا قَدْ قَدَّمْنَا الْقَوْلَ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْمَعَانِي وَانْقِسَامِهَا . وَلْنُبَيِّنْ فِي هٰذَا الْفَصْلِ مَوَاضِعَ التَّرْجِيحِ بَيْنَ وُجُوهِ تَأْوِيلَاتِهَا فَنَقُولُ : (أَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ) مِنَ الْمَعَانِي فَلَا تَعَلُّقَ لِلتَّرْجِيحِ بِهِ إِذْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا فَلَيْسَ مِنْ هٰذَا الْبَابِ فِي شَيْءٍ . وَالتَّرْجِيحُ إِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ يَدُلُّ عَلَيْهِمَا لَفْظٌ وَاحِدٌ وَلَا يَخْلُو التَّرْجِيحُ بَيْنَهُمَا مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ حَقِيقَةً فِي أَحَدِهِمَا مَجَازًا فِي الْآخَرِ . أَوْ حَقِيقَةً فِيهِمَا جَمِيعًا أَوْ مَجَازًا فِيهِمَا جَمِيعًا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . وَالتَّرْجِيحُ بَيْنَ الْحَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ الْمَجَازَيْنِ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ . (وَأَمَّا التَّرْجِيحُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ) فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِبَدِيهَةِ النَّظَرِ لِمَكَانِ الِاخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا . وَالشَّيْئَانِ الْمُخْتَلِفَانِ يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ الْمُشْتَبِهَيْنِ . . . .

(وَامَّا مِثَالُ ٱلْمَعْنَيَيْنِ) إِذَا كَانَا حَقِيقَيْنِ فَقَوْلُهُ : ٱلْتَمِسُوا ٱلرِّزْقَ فِي خَبَايَا ٱلْأَرْضِ وَٱلْخَبَايَا جَمْعُ خَبِيَّةٍ وَهُوَ كُلُّ مَا يُخْبَأُ كَائِنًا مَا كَانَ . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ حَقِيقَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ٱلْكُنُوزُ ٱلْمَخْبُوءَةُ فِي بُطُونِ ٱلْأَرْضِ . (وَٱلْآخَرُ) ٱلْحَرْثُ وَٱلْغِرَاسُ . وَجَانِبُ ٱلْحَرْثِ وَٱلْغِرَاسِ اَرْجَحُ لِاَنَّ مَوَاضِعَ ٱلْكُنُوزِ لَا نُعْلَمُ حَتَّى تُلْتَمَسَ وَهُوَ لَا يَأْمُرُ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُ شَيْءٌ مَجْهُولٌ غَيْرُ مَعْلُومٍ فَبَقِيَ ٱلْمُرَادُ بِخَبَايَا ٱلْأَرْضِ مَا يُحْرَثُ وَيُغْرَسُ . (وَامَّا مِثَالُ ٱلْمَجَازَيْنِ) فَقَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

قَدْ بَلَوْنَا اَبَا سَعِيدٍ حَدِيثًا   وَبَلَوْنَا اَبَا سَعِيدٍ قَدِيمَا

وَوَرَدْنَاهُ سَاحِلًا وَقَلِيبًا   وَرَعَيْنَاهُ بَارِضًا وَجَمِيمَا

فَعَلِمْنَا اَنْ لَيْسَ اِلَّا بِشَقِّ ٱلنَّفْسِ صَارَ ٱلْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمَا

فَٱلسَّاحِلُ وَٱلْقَلِيبُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُمَا تَأْوِيلَانِ مَجَازِيَّانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ اَرَادَ بِهِمَا ٱلْكَثِيرَ وَٱلْقَلِيلَ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّهُ اَرَادَ بِهِمَا ٱلسَّبَبَ وَغَيْرَ ٱلسَّبَبِ . فَاِنَّ ٱلسَّاحِلَ لَا يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ اِلَى سَبَبٍ وَٱلْقَلِيبُ يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ اِلَى سَبَبٍ . وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ مَجَازٌ . فَاِنَّ حَقِيقَةَ ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ غَيْرُهُمَا وَٱلْوَجْهُ هُوَ ٱلثَّانِي لِاَنَّهُ هُوَ اَدَلُّ عَلَى بَلَاغَةِ ٱلْقَائِلِ وَمَدْحِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . امَّا بَلَاغَةُ ٱلْقَائِلِ فَٱلسَّلَامَةُ مِنْ هُجْنَةِ ٱلتَّكْرِيرِ بِٱلْمُخَالَفَةِ بَيْنَ صَدْرِ ٱلْبَيْتِ وَعَجُزِهِ . فَاِنَّ عَجُزَهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ لِاَنَّ ٱلْبَارِضَ هُوَ اَوَّلُ ٱلنَّبْتِ حِينَ يَبْدُو فَاِذَا كَثُرَ وَتَكَاثَفَ سُمِّيَ جَمِيمًا . فَكَاَنَّهُ قَالَ : اَخَذْنَا مِنْهُ تَبَرُّعًا وَمَسْئَلَةً وَقَلِيلًا وَكَثِيرًا . وَامَّا مَدْحُ ٱلْمَقُولِ

فِيهِ فَلِتَعْدَادِ حَالَاتِهِ ٱلْأَرْبَعِ فِي تَبَرُّعِهِ وَسُوءَالِهِ وَإِكْثَارِهِ وَإِقْلَالِهِ وَمَا فِي مُعَانَاةِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلْمَشَاقِّ . فَهٰذَا إِمَّا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّرْجِيحِ ٱلْبَلَاغِيِّ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَبَيْنَ ٱلْمَجَازِ وَٱلْمَجَازِ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ

البحث السادس

في الفصل والوصل

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ١٨ من علم الادب)

ٱلْفَصْلُ وَٱلْوَصْلُ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِمَوَاضِعِ ٱلْعَطْفِ وَٱلِاسْتِئْنَافِ وَٱلْهُدَى إِلَى كَيْفِيَّةِ إِيقَاعِ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ فِي مَوَاضِعِهَا. وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَدَّ ٱلْبَلَاغَةَ بِأَنَّهَا مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ لِإِحْرَازِ ٱلْفَضِيلَةِ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا كَمَلَ لِسَائِرِ مَعَانِي ٱلْبَلَاغَةِ . إِعْلَمْ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْعَطْفِ ٱلتَّشْرِيكُ بَيْنَ ٱلْمَعْطُوفِ وَٱلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ . ثُمَّ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْعَاطِفَةِ مَا لَا يُفِيدُ إِلَّا هٰذَا ٱلْقَدْرَ وَهُوَ ٱلْوَاوُ . وَمِنْهَا مَا يُفِيدُ فَائِدَةً زَائِدَةً كَٱلْفَاءِ وَثُمَّ وَأَوْ . وَغَرَضُنَا هَا هُنَا مُتَعَلِّقٌ بِمَا لَا يُفِيدُ إِلَّا ٱلِاشْتِرَاكَ فَنَقُولُ : ٱلْعَطْفُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ كَقَوْلِكَ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ خَلْقُهُ حَسَنٌ وَخُلُقُهُ قَبِيحٌ . فَقَدْ أَشْرَكْتَ بَيْنَهُمَا فِي ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعْنَى لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُقَيِّدًا لِلْمَوْصُوفِ . وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَعْنًى يَتِمُّ ذٰلِكَ ٱلِاشْتِرَاكُ فِيهِ وَحَتَّى يَكُونَا كَٱلنَّظِيرَيْنِ وَٱلشَّرِيكَيْنِ بِحَيْثُ إِذَا عَرَفَ

ٱلسَّامِعُ حَالَةَ ٱلْأَوَّلِ عَسَاهُ يَعْرِفُ حَالَةَ ٱلثَّانِي . يَدُلُّكَ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّكَ إِذَا عَطَفْتَ عَلَى ٱلْأَوَّلِ شَيْئًا لَيْسَ مِنْهُ سَبَبٌ وَلَا هُوَ مِمَّا يُذْكَرُ بِذِكْرِهِ لَمْ يَسْتَقِمْ . فَلَوْ قُلْتَ : (خَرَجْتُ ٱلْيَوْمَ مِنْ دَارِي وَأَحْسَنَ ٱلَّذِي يَقُولُ بَيْتَ كَذَا) قُلْتَ مَا يُضْحِكُ مِنْهُ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قُوَّةِ ٱلْمُفْرَدِ فَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ مَعْنَى إِحْدَى ٱلْجُمْلَتَيْنِ لِذَاتِهِ مُتَعَلِّقًا بِمَعْنَى ٱلْأُخْرَى كَمَا إِذَا كَانَتْ كَالتَّوْكِيدِ لَهَا أَوْ كَالصِّفَةِ فَلَا يَجُوزُ إِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ عَلَيْهِ لِأَنَّ ٱلتَّوْكِيدَ وَٱلصِّفَةَ مُتَعَلِّقَانِ بِٱلْمُؤَكَّدِ وَٱلْمَوْصُوفِ لِذَاتَيْهِمَا . وَٱلتَّعَلُّقُ ٱلذَّاتِيُّ يُغْنِي عَنْ لَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعَلُّقِ. فَمِثَالُ ٱلتَّوْكِيدِ قَوْلُهُ : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ ٱللهَ . وَلَمْ يَقُلْ : (وَيُخَادِعُونَ) لِأَنَّ ٱلْمُخَادَعَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ قَوْلِهِمْ : آمَنَّا مَعَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ . وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ ٱلْإِثْبَاتُ (بِإِنْ وَإِلَّا) عَلَى هٰذَا ٱلْحَدِّ قَوْلُهُ : إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. فَٱلْإِثْبَاتُ فِي قَوْلِهِ تَأْكِيدٌ لِنَفْيِ مَا يُنْفَى . (ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ تَعَلُّقٌ ذَاتِيٌّ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَيَجِبُ تَرْكُ ٱلْعَاطِفِ أَيْضًا لِأَنَّ ٱلْعَطْفَ لِلتَّشْرِيكِ وَلَا تَشْرِيكَ . وَمِنْ هَا هُنَا عَابُوا عَلَى أَبِي تَمَّامٍ قَوْلَهُ :

لَا وَٱلَّذِي عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَى صَبِرٌ وَأَنَّ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

إِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ مَرَارَةِ ٱلنَّوَى وَبَيْنَ كَرَمِ أَبِي ٱلْحُسَيْنِ . وَلِذٰلِكَ لَمْ يُحْسِنْ جَوَازَ ٱلْعَاطِفِ . وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِٱلَّذِي أُخْبِرَ بِهِمَا أَوْ بِٱلَّذِي أُخْبِرَ عَنْهُمَا أَوْ بِهِمَا كِلَيْهِمَا . وَهٰذَا ٱلْأَخِيرُ

هوَ ٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلعطْفِ ومَعْنَى ٱلْمُنَاسَبَةِ أَنْ يَكُونَا مُتَشَابِهَيْنِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ وعَمْرٌو . أَوْ مُتَضَادَّيْنِ تَضَادًّا عَلَى ٱلْخُصُوصِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو قَصِيرٌ . وَكَقَوْلِكَ : ٱلعِلْمُ حَسَنٌ وَٱلْجَهْلُ قَبِيحٌ . فَلَوْ قُلْتَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وعَمْرٌو شَاعِرٌ ٱخْتَلَّ إِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ طُولِ ٱلْقَامَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَإِنْ كَانَ ٱلْمُحَدَّثُ عَنْهُ فِي ٱلْجُمْلَتَيْنِ شَيْئًا وَاحِدًا كَقَوْلِكَ : فُلَانٌ يَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُسِيءُ وَيُحْسِنُ . يَجِبُ إِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ فَإِنَّ ٱلْغَرَضَ جَعْلُهُ فَاعِلًا لِلْأَمْرَيْنِ . فَلَوْ قُلْتَ : يَقُولُ يَفْعَلُ بِلَا عَاطِفٍ لَتُوُهِّمَ أَنَّ ٱلثَّانِيَ رُجُوعٌ عَنِ ٱلْأَوَّلِ . وَإِذَا أَفَادَ ٱلْعَاطِفُ ٱلِاجْتِمَاعَ ٱزْدَادَ ٱلِٱشْتِرَاكُ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَجَبُ مِنْ أَنَّكَ أَحْسَنْتَ وَأَسَأْتَ . وَٱلْعَجَبُ مِنْ أَنَّكَ تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ تَأْتِي مِثْلَهُ . وكَقَوْلِهِ :

لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهِينُونَا وَنُكْرِمَكُمْ   وَأَنْ نَكُفَّ ٱلْأَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا

فَإِنَّ ٱلْمَعْنَى جَعْلُ ٱلْفِعْلَيْنِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ أَيْ لَا تَطْمَعُوا أَنْ تَرَوْا إِكْرَامَنَا إِيَّاكُمْ يُوجَدُ مَعَ إِهَانَتِكُمْ إِيَّانَا . وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَجِبُ إِسْقَاطُ ٱلْعَاطِفِ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ لِٱخْتِلَالِ ٱلْمَعْنَى عِنْدَ إِثْبَاتِهِ كَقَوْلِهِ : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ . فَقَوْلُهُ : (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ) كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ وَهُوَ إِخْبَارٌ مِنْهُ . فَلَوْ أَتَى بِٱلْوَاوِ لَكَانَ إِخْبَارًا عَنِ ٱلْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ وَصَفُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ فَيَخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى . قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : وَإِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ هٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ تَنْزِيلِهِمِ ٱلْكَلَامَ إِذَا جَاءَ بِعَقِبِ مَا يَقْتَضِي سُؤَالًا تَنْزِلَتَهُ إِذَا صُرِّحَ بِذَٰلِكَ ٱلسُّؤَالِ

كَثِيرًا. فَمِنْ لَطِيفِ ذٰلِكَ قَوْلُهُ :

زَعَمَ ٱلْعَوَاذِلُ أَنَّنِي فِي غَمْرَةٍ   صَدَقُوا وَلٰكِنْ غَمْرَتِي لَا تَنْجَلِي

لَمَّا حَكَى عَنِ ٱلْعَوَاذِلِ قَوْلَهُمْ إِنَّهُ فِي غَمْرَةٍ وَكَانَ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَرِّكُ ٱلسَّامِعَ عَلَى أَنْ يَسْأَلَهُ : فَمَا جَوَابُكَ عَنْ ذٰلِكَ . أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَهُ إِذَا كَانَ قَدْ قِيلَ فَقَالَ : أَقُولُ صَدَقُوا . أَنَا كَمَا قَالُوا وَلٰكِنْ لَا مَطْمَعَ لَهُمْ فِي فَلَاحِي . وَلَوْ قَالَ : وَصَدَقُوا لٰكِنْ لَمْ يَضَعْ نَفْسَهُ فِي أَنَّهُ مَسْئُولٌ . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ . وَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَى ٱلْعَاطِفِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ : يُخَادِعُونَ ٱللّٰهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ . وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللّٰهُ : فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ خَبَرٌ

(وَمِمَّا يَجِبُ) ذِكْرُهُ هَا هُنَا ٱلْجُمْلَةُ إِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَإِنَّهَا تَجِيءُ مَعَ ٱلْوَاوِ تَارَةً وَبِدُونِهَا أُخْرَى. فَنَقُولُ ٱلْجُمْلَةُ إِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) وَلَهُ أَحْوَالٌ : (ٱلْأُولَى) أَنْ يُجْمَعَ لَهَا بَيْنَ ٱلْوَاوِ وَضَمِيرِ صَاحِبِ ٱلْحَالِ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ وَمَعَهُ غُلَامُهُ وَلَقِيتُ زَيْدًا وَفَرَسُهُ سَابِقُهُ . وَهٰذِهِ ٱلْوَاوُ تُسَمَّى وَاوَ ٱلْحَالِ . (ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ تَجِيءَ بِٱلضَّمِيرِ مِنْ غَيْرِ وَاوٍ كَقَوْلِكَ : كَلَّمْتُهُ فُوهُ إِلَى فِيَّ . وَهُوَ فِي مَعْنَى مُشَافِهًا وَٱلرَّابِطُ ٱلضَّمِيرُ . (ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ تَجِيءَ بِٱلْوَاوِ مِنْ غَيْرِ ضَمِيرٍ وَهُوَ كَثِيرٌ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ وَٱلْجَيْشُ قَادِمٌ . وَزُرْتَنَا وَٱلشِّتَاءُ خَارِجٌ . قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَٱلطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا   بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَيَجُوزُ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ حَالَيْنِ : مُفْرَدٍ وَجُمْلَةٍ . إِذَا أَجَزْنَا وُقُوعَ حَالَيْنِ

كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ رَاكِبًا وَٱلْحَسَنُ قَادِمٌ . فَٱلْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ ٱلتَّاءِ أَوْ مِنَ ٱلْكَافِ وَٱلْعَامِلُ فِيهَا (لَقِيتُ) أَوْ مِنْ ضَمِيرِ (رَاكِبٍ) وَرَاكِبٌ هُوَ ٱلْعَامِلُ فِيهَا . (ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) ٱلْجُمْلَةُ ٱلْفِعْلِيَّةُ . وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَاضِيًا أَوْ مُضَارِعًا . أَمَّا ٱلْمَاضِي فَلَا بُدَّ مَعَهُ مِنَ ٱلْإِتْيَانِ بِٱلْوَاوِ وَقَدْ أَوْ بِأَحَدِهِمَا كَقَوْلِكَ : تَكَلَّمْتُ وَقَدْ عَجِلْتُ . وَجَاءَ زَيْدٌ قَدْ ضَرَبَ عَمْرًا . وَجِئْتُ وَأَسْرَعْتُ فِي ٱلْمَجِيءِ . وَلَمْ يُجِزِ ٱلْبَصْرِيُّونَ خُلُوَّهُ عَنْهُمَا وَقَالُوا فِي قَوْلِ أَبِي صَخْرٍ ٱلْهُذَلِيِّ :

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ هِزَّةٌ ... كَمَا ٱنْتَفَضَ ٱلْعُصْفُورُ بَلَّلَهُ ٱلْقَطْرُ

إِنَّ (قَدْ) مُقَدَّرَةٌ فِيهَا فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ إِذَا عُرِفَ مَوْضِعُهُ جَازَ حَذْفُهُ .

وَأَمَّا ٱلْمُضَارِعُ فَإِنْ كَانَ مُوجَبًا فَلَا يُؤْتَى مَعَهُ بِٱلْوَاوِ تَقُولُ : جَاءَنِي زَيْدٌ يَضْحَكُ وَجَاءَ عَمْرٌو يُسْرِعُ وَجَلَسَ يُحَدِّثُنَا (بِٱلرَّفْعِ) أَيْ مُحَدِّثًا لَنَا بِتَجَرُّدِهِ عَمَّا يُغَيِّرُ مَعْنَاهُ أَشْبَهَ ٱسْمَ ٱلْفَاعِلِ اذا وقع حَالًا . وَإِنْ كَانَ مَنْفِيًّا جَازَ حَذْفُ ٱلْوَاوِ مُرَاعَاةً لِأَصْلِ ٱلْفِعْلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْإِيجَابُ وَجَازَ إِثْبَاتُهَا لِأَنَّ ٱلْفِعْلَ لَيْسَ هُوَ ٱلْحَالَ . فَإِنَّ مَعْنَى قَوْلِكَ : (جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ) جَلَسَ زَيْدٌ غَيْرَ مُتَكَلِّمٍ . فَجَرَى مَجْرَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْإِسْمِيَّةِ . فَٱلْحَذْفُ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ مَا يَفُوهُ بِبِنْتِ شَفَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . فَقَوْلُهُ : (لَا يَمَسُّنَا) فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى ٱلْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ ٱلْمَرْفُوعِ فِي أَحَلَّنَا . وَٱلْإِثْبَاتُ كَقَوْلِكَ : جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ . وَقَالَ . أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَنَحْوِ . . . ٱ مْعَلِ

اَلْمَاضِي فَقَالُوا : جَاءَ زَيْدٌ مَا ضَرَبَ عَمْرًا . وَجَاءَ زَيْدٌ وَمَا ضَرَبَ عَمْرًا

البحث السابع

في تأكيد الكلام وقصره وتعزيزه بانَّ وانَّما

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ١٩ من علم الادب)

امَّا (اِنَّ) فَلَهَا فَوَائِدُ : (اَلْأُولى) اَنَّهَا تَرْبِطُ اَلْجُمْلَةَ اَلثَّانِيَةَ بِالْأُولَى وَبِسَبَبِهَا يَحْصُلُ اَلتَّأْلِيفُ بَيْنَهُمَا حَتَّى كَانَّ اَلْكَلَامَيْنِ أُفْرِغَا اِفْرَاغًا وَاحِدًا وَلَوْ اَسْقَطْتَهَا كَانَ اَلثَّانِي نَائِبًا عَنِ اَلْاَوَّلِ كَقَوْلِهِ : يَا اَيُّهَا اَلنَّاسُ اَتَّقُوا رَبَّكُمْ اِنَّ زَلْزَلَةَ اَلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . (اَلثَّانِيَةُ) اَنَّكَ تَرَى لِضَمِيرِ اَلشَّأْنِ وَاَلْقِصَّةِ فِي اَلْجُمْلَةِ اَلشَّرْطِيَّةِ مَعَ (اِنَّ) مِنَ اَلْحُسْنِ وَاَللُّطْفِ مَا لَا تَرَاهُ اِذَا هِيَ لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ : اِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اَللهَ لَا يُضِيعُ اَجْرَ اَلْمُحْسِنِينَ . (اَلثَّالِثَةُ) اَنَّهَا تُهَيِّئُ اَلنَّكِرَةَ وَتُصْلِحُهَا لِاَنْ يُحَدَّثَ عَنْهَا وَاِنْ كَانَتِ اَلنَّكِرَةُ مَوْصُوفَةً جَازَ حَذْفُهَا وَلَكِنَّ دُخُولَهَا اَصْلَحُ كَقَوْلِ حَسَّانٍ :

اِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ   لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِالْاِحْسَانِ

(اَلرَّابِعَةُ) اَنَّهَا تُغْنِي عَنِ اَلْخَبَرِ كَمَا اِذَا قِيلَ لَكَ : اَلنَّاسُ اَلْبُوا عَلَيْكُمْ فَهَلْ لَكُمْ اَحَدٌ . فَقُلْتَ : اِنَّ زَيْدًا اَوْ اِنَّ عَمْرًا . اَيْ لَنَا . قَالَ اَلْاَعْشَى :

اِنَّ مَحَلًّا وَاِنَّ مُرْتَحَلًا   وَاِنَّ فِي اَلسَّفْرِ اِذْ مَضَوْا مَهَلًا

(اَلْخَامِسَةُ) قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ إِذَا قُلْتَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . فَإِذَا قُلْتَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ لِقِيَامِهِ سَوَاءٌ كَانَ ٱلْمُنْكِرُ هُوَ ٱلسَّائِلَ أَوِ ٱلْحَاضِرِينَ

(وَأَمَّا إِنَّمَا) فَتَارَةً تَجِيءُ لِلْحَصْرِ بِمَعْنَى أَنَّ هٰذَا ٱلْحُكْمَ لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِ ٱلْمَذْكُورِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ (لَيْسَ إِلَّا) كَقَوْلِهِ : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَقَوْلِهِ : إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ . وَقَوْلِهِ : إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا . وَتَارَةً تَجِيءُ لِبَيَانِ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ ظَاهِرٌ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ سَوَاءٌ كَانَ كَذٰلِكَ أَوْ فِي زَعْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللهِ م تَجَلَّتْ مِنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

مُدَّعِياً أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ . (فَائِدَةٌ) إِذَا دَخَلَ (مَا وَإِلَّا) عَلَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَنْصُوبِ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلذِّكْرِ مَا ٱتَّصَلَ (بِإِلَّا) مُتَأَخِّرًا عَنْهُ . فَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ عَمْرًا إِلَّا زَيْدٌ . فَٱلْمَقْصُودُ ٱلْمَرْفُوعُ . وَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا . فَٱلْمَقْصُودُ ٱلْمَنْصُوبُ . وَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا . فَٱلِاخْتِصَاصُ بِٱلضَّارِبِ . وَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ إِلَّا زَيْدًا عَمْرٌو . فَٱلِاخْتِصَاصُ بِٱلْمَضْرُوبِ . وَإِذَا قُلْتَ : لَمْ أَكْسُ إِلَّا زَيْدًا جُبَّةً . فَٱلْمَعْنَى تَخْصِيصُ كُسْوَةِ ٱلْجُبَّةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِزَيْدٍ . وَكَذٰلِكَ ٱلْحُكْمُ حَيْثُ يَكُونُ يَدُلُّ أَحَدُ ٱلْمَفْعُولَيْنِ جَارًّا وَمَجْرُورًا كَقَوْلِ ٱلسَّيِّدِ ٱلْحِمْيَرِيِّ :

لَوْ خُيِّرَ ٱلْمِنْبَرُ فُرْسَانَهُ مَا ٱخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسَا

وَكَذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ وَٱلْفِعْلِ وَٱلْفَاعِلِ كَقَوْلِكَ : مَا

زَيْدٌ إِلَّا قَائِمٌ وَمَا قَائِمٌ إِلَّا زَيْدٌ. وَأَمَّا (إِنَّمَا) فَالِاخْتِصَاصُ فِيهَا يَقَعُ مَعَ الْمُتَأَخِّرِ. فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّمَا ضَرَبَ زَيْدًا عَمْرٌو. فَالِاخْتِصَاصُ فِي الضَّارِبِ. وَقَوْلُهُ: (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فَالْغَرَضُ بَيَانُ الْمَرْفُوعِ وَهُوَ أَنَّ الْخَاشِينَ هُمُ الْعُلَمَاءُ. وَلَوْ قُدِّمَ الْمَرْفُوعُ لَصَارَ الْمَقْصُودُ بَيَانَ الْمَخْشِيِّ مِنْهُ فَالْأَوَّلُ أَتَمُّ. وَمِنْهُ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ:

أَنَا الذَّائِدُ الْحَامِي الذِّمَارَ وَإِنَّمَا ... يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِكُمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي

فَإِنَّ غَرَضَهُ أَنْ يَحْصُرَ الْمُدَافِعَ بِأَنَّهُ هُوَ لَا الْمُدَافَعُ عَنْهُ. وَلَوْ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا أُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِكُمْ. تَوَجَّهَ التَّخْصِيصُ إِلَى الْمُدَافَعِ عَنْهُ. إِذَا أَدْخَلْتَ عَلَيْهِمَا (إِنَّمَا) فَإِنْ قَدَّمْتَ الْخَبَرَ فَالِاخْتِصَاصُ لِلْمُبْتَدَإِ. وَإِنْ لَمْ تُقَدِّمْهُ فَلِلْخَبَرِ. فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّمَا هٰذَا لَكَ فَالِاخْتِصَاصُ فِي (لَكَ) بِدَلِيلِ أَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ: لَا لِغَيْرِكَ. وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّمَا لَكَ هٰذَا. فَالِاخْتِصَاصُ فِي هٰذَا بِدَلِيلِ أَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ لَا ذَاكَ. ثُمَّ قَدْ يَجْتَمِعُ مَعَهُ حَرْفُ النَّفْيِ إِمَّا مُتَأَخِّرًا كَقَوْلِكَ: إِنَّمَا يَجِيءُ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو. وَقَالَ لَبِيدٌ:

وَإِذَا جُوزِيتَ قَرْضًا فَاجْزِهِ ... إِنَّمَا يَجْزِي الْفَتَى لَيْسَ الْجَمَلْ

وَإِمَّا مُقَدَّمًا عَلَيْهِ كَقَوْلِكَ: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ وَإِنَّمَا جَاءَنِي عَمْرٌو. فَهَاهُنَا لَوْ لَمْ تَقُلْ: (إِنَّمَا). وَقُلْتَ: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ وَجَاءَنِي عَمْرٌو. لَكَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُمَا جَاءَا جَمِيعًا. وَإِذَا أَدْخَلْتَهَا كَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ غَلِطَ فِي الْجَائِي أَنَّهُ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو. وَاعْلَمْ أَنَّ أَقْوَى مَا يَكُونُ إِنَّمَا إِذَا كَانَ لَا يُرَادُ بِالْكَلَامِ الَّذِي بَعْدَهَا نَفْسُ مَعْنَاهَا

وَلٰـكِنَّ ٱلتَّعرِيضَ بِأَمرٍ هُوَ مُقتَضَاهُ . وَهٰذَا ٱلْغَرَضُ لَا يَحْصُلُ بِدُونِ (إِنَّمَا) لِأَنَّ مِنْ إِثْبَاتِهَا تَضْمِينَ ٱلْـكَلَامِ مَعْنَى ٱلنَّفْيِ بَعْدَ ٱلْإِثْبَاتِ . فَإِذَا أَسقَطتَّ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ٱلإِثْبَاتُ ٱلْحُكْمِ لِلْمَذْكُورِينَ فَلَا يَـدُلُّ عَلَى نَفْيٍ غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنْ يُذْكَرَ فِي مَعْرِضِ مَدْحِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلتَّيَقُّظِ وَٱلْـكَرَمِ وَأَمْثَالِهِمَا كَمَا يُقَالُ : كَذٰلِكَ يَفْعَلُ ٱلْعَاقِلُ وَهٰـكَذَا يَفْعَلُ ٱلْـكَرِيمُ

البحث الثامن

في التقديم والتأخير

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع علم الادب صفحة ١٩)

إِذَا قُدِّمَ ٱلشَّيْءُ عَلَى غَيْرِهِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ كَمَا إِذَا قُدِّمَ ٱلْخَبَرُ عَلَى ٱلْمُبْتَدَإِ . وَإِمَّا أَن يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ وَلٰـكِن أَنْتَقَلَ ٱلشَّيْءُ مِنْ حُكْمٍ إِلَى آخَرَ . كَمَا إِذَا جِئْتَ إِلَى ٱسْمَيْنِ جَازَ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبْتَدَأً فَجَعَلْتَ أَحَدَهُمَا مُبْتَدَأً كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ ٱلْمُنْطَلِقُ وَٱلْمُنْطَلِقُ زَيْدٌ . قَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ : كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ ٱلَّذِي بَيَانُهُ أَهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يُهِمَّانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ . وَمِثَالُهُ إِنَّ ٱلنَّاسَ إِذَا تَعَلَّقَ غَرَضُهُمْ بِقَتْلِ خَارِجِيٍّ مُفْسِـدٍ وَلَا يَعْلَمُونَ مَنْ صَدَرَ ٱلْقَتْلُ مِنْهُ وَأَرَادَ مُرِيدٌ ٱلْإِخْبَارَ بِذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذِكْرَ ٱلْخَارِجِيِّ فَيَقُولُ : قَتَلَ ٱلْخَارِجِيَّ زَيْدٌ . وَلَا يَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ ٱلْخَارِجِيَّ . لِأَنَّهُ يَعْلَمُ

اَنَّ قَتْلَ ٱلْخَارِجِيِّ هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِيهِمْ . وَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ قَتْلٌ مِنْ رَجُلٍ يَبْعُدُ فِي ٱعْتِقَادِ ٱلنَّاسِ وُقُوعُ ٱلْقَتْلِ مِنْ مِثْلِهِ قَدَّمَ ٱلْمُخْبِرُ ذِكْرَ ٱلْفَاعِلِ فَيَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا . لِأَعْتِقَادِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْمَذْكُورِ خِلَافَ ذٰلِكَ (اه) . وَلْنَذْكُرْ مِنْهُ ثَلَاثَةَ مَوَاضِعَ يُعْرَفُ بِهَا مَا لَمْ يُذْكَرْ :

(ٱلْأَوَّلُ ٱلِٱسْتِفْهَامُ) فَإِذَا اَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلْفِعْلِ وَقُلْتَ : اَضَرَبْتَ زَيْدًا . كَانَ ٱلشَّكُّ فِي وُجُودِ ٱلْفِعْلِ مُحَقَّقًا وَٱلشَّكُّ فِي تَعْيِينِ ٱلْفَاعِلِ وَهٰكَذَا حُكْمُ ٱلنَّكِرَةِ . فَإِذَا قُلْتَ : اَجَاءَكَ رَجُلٌ فَإِنَّ ٱلْمَقْصُودَ هَلْ وُجِدَ ٱلْمَجِيءُ مِنْ رَجُلٍ . فَإِذَا قُلْتَ : اَرَجُلٌ جَاءَكَ كَانَ ذٰلِكَ سُؤَالًا عَنْ جِنْسِ مَنْ جَاءَ بَعْدَ ٱلْحُكْمِ بِوُجُودِ ٱلْمَجِيءِ مِنْ إِنْسَانٍ . وَقِسْ عَلَيْهِ ٱلْخَبَرَ فِي قَوْلِكَ : ضَرَبْتُ زَيْدًا وَزَيْدًا ضَرَبْتُ . وَجَاءَنِي رَجُلٌ تَمِيمِيٌّ . وَرَجُلٌ تَمِيمِيٌّ جَاءَنِي . ثُمَّ ٱلِٱسْتِفْهَامُ قَدْ يَجِيءُ لِلْإِنْكَارِ : وَهُوَ إِمَّا لِلتَّقْرِيرِ وَٱلتَّوْبِيخِ وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ : اَاَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا . وَإِمَّا لِإِنْكَارِ اَنَّهُ ٱلْفَاعِلُ مَعَ تَحْقِيقِ ٱلْفِعْلِ كَقَوْلِكَ لِمَنِ ٱنْتَحَلَ شِعْرًا : اَاَنْتَ قُلْتَ هٰذَا . وَإِنْ كَانَ ٱلْفِعْلُ مُضَارِعًا فَإِنْ اَدْخَلْتَ حَرْفَ ٱلِٱسْتِفْهَامِ عَلَيْهِ كَانَ إِمَّا لِإِنْكَارِ وُجُودِهِ كَقَوْلِهِ : اَنُلْزِمُكُمُوهَا وَاَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . اَوْ لِإِنْكَارِ اَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى ٱلْفِعْلِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

اَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَاَنْيَابِ اَغْوَالِ

اَوْ لِإِزَالَةِ طَمَعِ مَنْ طَمِعَ فِي اَمْرٍ لَا يَكُونُ فَيُجَهِّلُهُ فِي طَمَعِهِ كَقَوْلِكَ : اَيَرْضَى عَنْكَ فُلَانٌ وَاَنْتَ عَلَى مَا يَكْرَهُ . اَوْ لِتَعْنِيفِ مَنْ يُضِيعُ ٱلْحَقَّ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

أَ أَتْرُكُ إِنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتَهُ إِنِّي إِذًا لَلَئِيمُ

أَوْ لِتَقْدِيمِ ٱلْفِعْلِ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَرْكَبُ ٱلْخَطَرَ : أَتَرْكَبُ فِي هٰذَا ٱلْوَقْتِ . وَإِنْ أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلِاسْمِ فَهُوَ لِإِنْكَارِ صُدُورِ ٱلْفِعْلِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْفَاعِلِ إِمَّا لِاسْتِحْقَارِ كَقَوْلِكَ : أَأَنْتَ تَمْنَعُنِي . أَوْ لِلتَّعْظِيمِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَسْأَلُ ٱلنَّاسَ . أَوْ لِلْمُبَالَغَةِ إِمَّا فِي كَرَمِهِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَمْنَعُ سَائِلَهُ . وَإِمَّا فِي خَسَاسَتِهِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَسْمَحُ بِمِثْلِ هٰذَا . وَقَدْ يَكُونُ لِبَيَانِ ٱسْتِحَالَةِ فِعْلٍ ظُنَّ مُمْكِنًا كَقَوْلِهِ : أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ . وَكَذٰلِكَ إِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : أَغَيْرَ ٱللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا وَأَغَيْرَ ٱللّٰهِ تَدْعُونَ . وَأَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ . بَنَوْا كُفْرَهُمْ عَلَى أَنَّ ٱلْبَشَرَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ أَنْ يُتَّبَعَ وَيُطَاعَ

(فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلنَّفْيِ) إِذَا أَدْخَلْتَ ٱلنَّفْيَ عَلَى ٱلْفِعْلِ فَقُلْتَ : مَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَقَدْ نَفَيْتَ عَنْ زَيْدٍ ضَرْبًا وَاقِعًا بِزَيْدٍ وَهٰذَا لَا يَقْتَضِي كَوْنَ زَيْدٍ مَضْرُوبًا . وَإِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلِاسْمِ فَقُلْتَ : مَا أَنَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . اقْتَضَى مِنْ بَابِ دَلِيلِ ٱلْخِطَابِ كَوْنُ زَيْدٍ مَضْرُوبًا وَعَلَيْهِ قَوْلُ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا ٱلشِّعْرَ كُلَّهُ وَلٰكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

وَكَذٰلِكَ (حُكْمُ ٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ وَحُكْمُ ٱلْمَفْعُولِ) . فَإِذَا قُلْتَ : مَا أَمَرْتُكَ بِهٰذَا . لَمْ يَقْتَضِ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَمَرْتَهُ بِشَيْءٍ غَيْرِ هذا . وَإِذَا قُلْتَ : مَا بِهٰذَا أَمَرْتُكَ . اقْتَضَاهُ . وَإِذَا قَدَّمْتَ صِفَةَ ٱلْعُمُومِ عَلَى ٱلسَّلْبِ وَقُلْتَ : كُلُّ ذٰلِكَ لَمْ أَفْعَلْهُ بِرَفْعِ (كُلّ) كَانَ نَفْيًا عَامًّا

وَيُنَاقِضُهُ ٱلْإِثْبَاتُ ٱلْخَاصُّ . فَلَوْ فَعَلْتَ بَعْضَهُ كُنْتَ كَاذِبًا . وَإِنْ قَدَّمْتَ ٱلسَّلْبَ وَقُلْتَ : لَمْ أَفْعَلْ كُلَّ ذٰلِكَ . كَانَ نَفْيًا لِلْعُمُومِ وَلَا يُنَافِي ٱلْإِثْبَاتَ ٱلْخَاصَّ فَلَوْ فَعَلْتَ بَعْضَهُ لَمْ تَكُنْ كَاذِبًا . (اَلثَّالِثُ فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمُثْبَتِ) مَا تَقَدَّمَ فِي ٱلْإِسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ قَائِمٌ هَاهُنَا فَإِذَا قَدَّمْتَ ٱلْإِسْمَ وَقُلْتَ : زَيْدٌ فَعَلَ وَأَنَا فَعَلْتُ . فَٱلْقَصْدُ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ إِمَّا لِتَخْصِيصِ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ بِهِ كَقَوْلِكَ : أَنَا شَفَعْتُ فِي شَأْنِهِ مُدَّعِيًا ٱلْإِنْفِرَادَ بِذٰلِكَ . أَوْ لِتَأْكِيدِ إِثْبَاتِ ٱلْفِعْلِ لَهُ لَا لِلْحَصْرِ كَقَوْلِكَ : هُوَ يُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . لِيَتَمَكَّنَ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ أَنَّ ذٰلِكَ دَأْبُهُ دُونَ نَفْيِهِ عَنْ غَيْرِهِ كَقَوْلِ دُرْنَا بِنْتِ عَشْعَشَةَ :

هُمَا يَلْبَسَانِ ٱلْمَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَةٍ ... شَحِيحَانِ مَا ٱسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا

وَٱلسَّبَبُ فِي هٰذَا ٱلتَّأْكِيدِ إِذَا قُلْتَ مَثَلًا : (زَيْدٌ) . فَقَدْ أَشْعَرْتَ بِأَنَّكَ تُرِيدُ ٱلْحَدِيثَ عَنْهُ فَيَحْصُلُ لِلسَّامِعِ تَشَوُّقٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِ . فَإِذَا ذَكَرْتَهُ قَبِلَتْهُ ٱلنَّفْسُ قَبُولَ ٱلصَّدِيقِ صَدِيقَهُ فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَبْلَغَ فِي ٱلتَّحْقِيقِ وَنَفْيِ ٱلشَّكِّ وَٱلشُّبْهَةِ . وَلِهٰذَا تَقُولُ لِمَنْ تَعِدُهُ : أَنَا أُعْطِيكَ . أَنَا أَكْفِيكَ . أَنَا أَقُومُ بِهٰذَا ٱلْأَمْرِ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِ مَنْ سَبَقَ لَهُ وَعْدٌ أَنْ يَعْتَرِضَهُ ٱلشَّكُّ فِي وَفَائِهِ . وَلِذٰلِكَ يُقَالُ فِي ٱلْمَدْحِ : أَنْتَ تُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . أَنْتَ تَجُودُ حِينَ لَا يَجُودُ أَحَدٌ . وَمِنْ هَاهُنَا تُعْرَفُ ٱلْفَخَامَةُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلَّتِي فِيهَا ضَمِيرُ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ كَقَوْلِهِ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . وَكَقَوْلِهِ : إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ . (وَإِنَّهَا) فِيهَا مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ : فَإِنَّ

الأبصار لا تعمى وإنّ الكافرين لا يفلحون . وهذا الكلام في الخبر المنفيّ . فإذا قلت . أنت لا تحسن هذا . كان أبلغ من أن تقول : لا تحسن هذا . فالأوّل لمن هو أشدّ إعجاباً بنفسه وأكثر دعوى بأنه يحسن . واعلم أنه قد يكون تقديم الاسم كاللازم وهو : (كمثل) في نحو قوله :

يا عاذلي دعني من عذلك ❊ مثلي لا يقبل من مثلك

وقول المتنبي :

مثلك يثني الحزن عن صوبه ❊ ويسترد الدمع عن غربه

وكقول الناس : مثلك يرعى الحق والحرمة . وما أشبه ذلك مما لا يقصد فيه الانسان سوى الذي أضيف إليه وجيء به للمبالغة . والمعنى إنّ من كان مثله في الحال والصفة كان من مقتضى القياس أن يفعل ما ذكر فكيف به . وقد عبّر المتنبي عن هذا المعنى فقال :

ولم أقل مثلك أعني به ❊ سواك يا فرداً بلا مشبه

وكذلك حكم (غير) إذا سلك فيه هذا المسلك كقول المتنبي :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع ❊ إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

أي لست ممن ينخدع ويغترّ . ولو لم يقدّم (مثلا وغيرا) في هذه الصور لم يرد هذا المعنى

(أما مواضع التقديم والتأخير) فقد يحسن التقديم في مواضع :

(الأوّل) أن تكون الحاجة إلى ذكره أشدّ كقولك : قطع اللص الأمير . (الثاني) أن يكون ذلك أليق بما قبله من الكلام أو

بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِهِ: وَتَغْشِي وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ. فَإِنَّهُ أَشْكَلُ بِمَا بَعْدَهُ. وَهُوَ قَوْلُهُ: إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ. وَبِمَا قَبْلَهُ وَهُوَ: مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ. (اَلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ أَعْرَفَ أَوْ أَشَدَّ تَعَلُّقًا بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ قَامَ. وَقَامَ زَيْدٌ. وَزَيْدٌ ٱلطَّوِيلُ. (اَلرَّابِعُ) أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلَّتِي لَهَا صَدْرُ ٱلْكَلَامِ كَحُرُوفِ ٱلْإِسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ فَإِنَّ ٱلْإِسْتِفْهَامَ طَلَبُ فَهْمِ ٱلشَّيْءِ وَهُوَ حَالَةٌ إِضَافِيَّةٌ فَلَا تَسْتَقِلُّ بِٱلْمَفْهُومِيَّةِ فَيَشْتَدُّ ٱتِّصَالُهُ بِمَا بَعْدَهُ. (اَلْخَامِسُ) تَقْدِيمُ ٱلْكُلِّيِّ عَلَى جُزْئِيَّاتِهِ. فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ أَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ أَعْرَفَ فَإِنَّ ٱلْوُجُودَ لَمَّا كَانَ أَعَمَّ ٱلْأُمُورِ كَانَ أَعْرَفَهَا عِنْدَ ٱلْعَقْلِ. (اَلسَّادِسُ) تَقْدِيمُ ٱلدَّلِيلِ عَلَى ٱلْمَدْلُولِ

وَأَمَّا ٱلتَّأْخِيرُ فَيَحْسُنُ فِي مَوَاضِعَ: (اَلْأَوَّلُ) تَمَامُ ٱلْإِسْمِ كَٱلصِّلَةِ وَٱلْمُضَافِ إِلَيْهِ. (اَلثَّانِي) تَوَابِعُ ٱلْأَسْمَاءِ. (اَلثَّالِثُ) ٱلْفَاعِلُ. (اَلرَّابِعُ) ٱلْمُضْمَرُ وَهُوَ إِنْ كَانَ مُتَأَخِّرًا لَفْظًا وَتَقْدِيرًا كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ زَيْدٌ غُلَامَهُ. أَوْ مُؤَخَّرًا فِي ٱللَّفْظِ مُقَدَّمًا فِي ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِهِ: وَإِذَا ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ. أَوْ بِٱلْعَكْسِ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ غُلَامَهُ زَيْدٌ. جَازَ. وَإِنْ تَقَدَّمَ لَفْظًا وَمَعْنًى لَمْ يَجُزْ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ غُلَامُهُ زَيْدًا. (اَلْخَامِسُ) مَا يُفْضِي إِلَى ٱللَّبْسِ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ مُوسَى عِيسَى. وَأَكْرَمَ هٰذَا هٰذَا. فَيَجِبُ فِيهِ تَقْدِيمُ ٱلْفَاعِلِ. (اَلسَّادِسُ) ٱلْعَامِلُ ٱلَّذِي يَضْعُفُ عَمَلُهُ كَٱلصِّفَةِ ٱلْمُشَبَّهَةِ وَٱلتَّمْيِيزِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ حَرْفٌ أَوْ مَعْنًى كَقَوْلِكَ: هُوَ حَسَنٌ وَجْهًا. وَكَرِيمٌ أَبًا. وَتَصَبَّبَ عَرَقًا. وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ دِرْهَمًا وَإِنَّ

زَيدًا قَائِمٌ . وَفِي ٱلدَّارِ سَعْدٌ جَالِسٌ . وَلَا يَجُوزُ ٱلْفَصْلُ بَيْنَ ٱلْعَامِلِ وَٱلْمَعْمُولِ بِمَا لَيْسَ مِنْهُ فَلَا تَقُولُ : كَانَتْ زَيدًا ٱلْحُمَّى تَأْخُذُ . إِذَا رَفَعْتَ ٱلْحُمَّى بِكَانَتْ لِلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلْعَامِلِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ . فَإِنْ أَضْمَرْتَ ٱلْحُمَّى فِي كَانَتْ صَحَّتِ ٱلْمَسْئَلَةُ

البحث التاسع

في الحذف والاضمار

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٢٠ من علم الادب)

اِعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَفْعَالَ ٱلْمُتَعَدِّيَةَ ٱلَّتِي يُتْرَكُ ذِكْرُ مَفْعُولَاتِهَا عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مَفْعُولٌ مُعَيَّنٌ فَقَدْ يُتْرَكُ مَفْعُولُهُ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا وَيُجْعَلُ حَالُهُ كَحَالِ غَيْرِ ٱلْمُتَعَدِّي كَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَضِرُّ وَيَنْفَعُ . وَٱلْمَقْصُودُ إِثْبَاتُ ٱلْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِحَدِيثِ ٱلْمَفْعُولِ فَكَأَنَّكَ قُلْتَ : بِحَيْثُ يَكُونُ مِنْهُ حَلٌّ وَعَقْدٌ وَأَمْرٌ وَنَهْيٌ وَضَرٌّ وَنَفْعٌ . وَبِٱلْجُمْلَةِ مَتَى كَانَ ٱلْغَرَضُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ فَقَطْ فَلَا تُعَدِّ ٱلْفِعْلَ فَإِنْ تَعْدِيَتَهُ تَنْقُضُ ٱلْغَرَضَ . أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ : فُلَانٌ يُعْطِي ٱلدَّنَانِيرَ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بَيَانَ جِنْسِ مَا تَنَاوَلَهُ ٱلْإِعْطَاءُ لَا بَيَانَ حَالِ كَوْنِهِ مُعْطِيًا . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ لَهُ مَفْعُولٌ مَعْلُومٌ إِلَّا أَنَّهُ يُحْذَفُ مِنَ ٱللَّفْظِ لِأَغْرَاضٍ : (الأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْمُرَادُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ وَأَنَّ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلَ دَأْبُهُ لَا بَيَانَ

ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِ طُفَيْلٍ :

جَزَى ٱللّٰهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

هُمُ خَلَطُونَا بِٱلنُّفُوسِ وَأَلْجَأُوا ... إِلَى حُجُرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظَلَّتِ

وَٱلْأَصْلُ أَنْ يَقُولَ : لَمَلَّتْنَا وَأَلْجَأُونَا وَأَدْفَأَتْنَا وَأَظَلَّتْنَا فَحَذَفَ ٱلْمَفْعُولَ ٱلْمُعَيَّنَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَأَنَّهُ قَدْ أُبْهِمَ وَلَمْ يُقْصَدْ قَصْدَ شَيْءٍ يَقَعُ عَلَيْهِ كَمَا تَقُولُ : قَدْ مَلَّ فُلَانٌ . تُرِيدُ قَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ ٱلْمَلَالُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَخُصَّ شَيْئًا بَلْ لَا تُرِيدُ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ ٱلْمَلَالَ مِنْ صِفَتِهِ . فَكَذٰلِكَ ٱلشَّاعِرُ جَعَلَ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافَ مِنْ ذَاتِهِمْ وَلَوْ أَضَافَ إِلَى مَفْعُولٍ مُعَيَّنٍ لَبَطَلَ هٰذَا ٱلْغَرَضُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ٱلْمَقْصُودُ ذِكْرَهُ إِلَّا إِنَّكَ لَا تَذْكُرُهُ إِيهَامًا لِأَنَّكَ لَا تَقْصِدُ ذِكْرَهُ كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ ... أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ

ٱلْمَعْنَى أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ مَحَاسِنَهُ وَأَنْ يَسْمَعَ وَاعٍ أَخْبَارَهُ . وَلٰكِنَّهُ تَغَافَلَ عَنْ ذٰلِكَ إِيذَانًا بِأَنَّ فَضَائِلَهُ يَكْفِي فِيهَا أَنْ يَقَعَ عَلَيْهَا بَصَرٌ وَيَعِيَهَا سَمْعٌ حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّهُ ٱلْمُنْفَرِدُ بِٱلْفَضَائِلِ فَلَيْسَ لِحُسَّادِهِ وَعِدَاهُ أَشْجَى مِنْ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ هَا هُنَا مُبْصِرًا وَسَامِعًا . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُحْذَفَ لِكَوْنِهِ بَيِّنًا كَقَوْلِهِمْ : أَصْغَيْتُ إِلَيْكَ . أَيْ أُذُنِي . وَأَغْضَيْتُ عَلَيْكَ . أَيْ جَفْنِي

(فَصْلٌ فِي حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ) قَدْ يَحْسُنُ حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ حَيْثُ يَكُونُ ٱلْغَرَضُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ فِي ٱسْتِحْقَاقِ ٱلْوَصْفِ بِمَا جُعِلَ وَصْفًا لَهُ

إِلَى حَيْثُ يُعْلَمُ بِٱلضَّرُورَةِ أَنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ إِلَّا لَهُ سَوَاءٌ كَانَ فِي نَفْسِهِ كَذٰلِكَ أَوْ بِحَسَبِ دَعْوَى ٱلشَّاعِرِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُبَالَغَةِ فَذِكْرُهُ يُبْطِلُ هٰذَا ٱلْغَرَضَ. وَلِهٰذَا قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : مَا مِنِ ٱسْمٍ يُحْذَفُ فِي ٱلْحَالَةِ يَنْبَغِي أَنْ يُحْذَفَ فِيهَا إِلَّا وَحَذْفُهُ أَحْسَنُ مِنْ ذِكْرِهِ فَمِنْ حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

لَا يُبْعِدِ ٱللّٰهُ ٱلتَّلَبُّبَ م وَٱلْغَارَاتِ إِذْ قَالَ ٱلْخَمِيسُ نَعَمْ

أَيْ هٰذِهِ نَعَمْ . قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : وَمِنَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَطَّرِدُ فِيهَا حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ بِٱلْقَطْعِ وَٱلِٱسْتِئْنَافِ أَنَّهُمْ يَبْدَأُونَ بِذِكْرِ ٱلرَّجُلِ وَيُقَدِّمُونَ بَعْضَ أَمْرِهِ ثُمَّ يَدَعُونَ ٱلْكَلَامَ ٱلْأَوَّلَ فَيَسْتَأْنِفُونَ كَلَامًا آخَرَ إِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ أَتَوْا فِي أَكْثَرِ ٱلْأَمْرِ بِخَبَرٍ مِنْ غَيْرِ مُبْتَدَإٍ مِثَالُ ذٰلِكَ :

وَعَلِمْتُ أَنِّي يَوْمَ ذَا كَ مُنَازِلٌ كَعْبًا وَنَهْدَا

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلْحَدِيدَ م تَنَمَّرُوا حَلَقًا وَقِدَّا

وَقَوْلُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

هُمُ حَلُّوا مِنَ ٱلشَّرَفِ ٱلْمُعَلَّى وَمِنْ حَسَبِ ٱلْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا

أُسَاةُ مَكَارِمٍ وَأُسَاةُ كَلْمٍ دِمَاؤُهُمْ مِنَ ٱلْكَلَبِ ٱلشِّفَاءُ

وَأَمْثِلَتُهُ كَثِيرَةٌ . وَمِنْ حَذْفِ ٱلْخَبَرِ قَوْلُهُ : لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ أَيْ لَوْلَا أَنْتُمْ مُضِلُّونَا . وَقَوْلُ عُمَرَ : لَوْلَا عَلِيٌّ لَهَلَكَ عُمَرُ . أَيْ لَوْلَا عَلِيٌّ حَاضِرٌ أَوْ مُفْتٍ . وَمِمَّا يَحْتَمِلُ ٱلْأَمْرَيْنِ قَوْلُهُ : طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ . وَقَوْلُهُ : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

ٱلْإِضْمَارُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱلتَّفْسِيرِ كَقَوْلِكَ : أَكْرَمَنِي وَأَكْرَمْتُ عَبْدَ ٱللّٰهِ أَيْ

أكرمني عبدُ اللهِ وأكرمتُ عبدَ اللهِ. ومما يشبهُ ذلك مفعولُ المشيئةِ إذا جاءت بعد (لو). فإن كان مفعولها عظيمًا أو غريبًا فالأولى ذكرُهُ كقولِهِ:

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

فَإِنَّ بُكَاءَ الإِنسانِ دمًا عجيبٌ. وإن لم يكن كذلك فالأولى حذفُهُ كقولِهِ: وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى. والتقديرُ: ولو شاءَ اللهُ أن يجمعَهم على الهدى لجمعَهم. واعلم أنَّهُ قد تُترَكُ الكنايةُ إلى التصريحِ لما فيهِ من زيادةِ الفخامةِ كقولِ البحتريِّ:

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي السُّؤْ دُدِ وَالْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ مِثْلَا

المعنى قد طلبنا لك مثلًا. ثمَّ حذفَ لأنَّ هذا المدحَ إنَّما يتمُّ بنفي المثلِ فلو قال: قد طلبنا لك مثلًا في السُّؤددِ والمجدِ فلم نجدْ لكان قد أوقعَ نفيَ الوجودِ على ضميرِ (المثلِ) فلم يكن فيهِ من المبالغةِ ما إذا أوقعَهُ على صريحِ المثلِ. فإنَّ الكنايةَ لا تبلغُ مبلغَ الصريحِ. وعلى ذلك قولُ الشاعرِ:

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيءٌ نَغَّصَ الموتُ ذا الغِنى والفقيرا

البحث العاشر

في جوامع الكلم

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

إنَّ الكَلِمَ جمعُ كلمةٍ. والجوامعَ جمعُ جامعةٍ. والجامعةُ اسمُ فاعلةٍ من جمعت فهي جامعةٌ. كما يقالُ في المذكَّرِ جمعَ فهو جامعٌ

وَٱلْمُرَادُ بِجَوَامِعِ ٱلْـكَلِمِ ٱلْكَلِمُ ٱلْجَوَامِعُ لِلْمَعَانِي. وَهُوَ عِنْدِي يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) مِنْهُمَا هُوَ مَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ وَنَبَّهْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ سَابِقٌ وَهُوَ أَنَّ لَنَا أَلْفَاظًا تَتَضَمَّنُ مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا لَا تَتَضَمَّنُهُ أَخَوَاتُهَا مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي مَكَانِهَا . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْمَجَازِ . وَمِنْهُ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ . وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فِي أَقْوَالِ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُفْلِقِينَ . وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ ٱلْأَشْعَارَ قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا وَحَفِظْتُ مَا حَفِظْتُ مِنْهَا وَكُنْتُ إِذَا مَرَّرْتُ بِنَظَرِي فِي دِيوَانٍ مِنَ ٱلدَّوَاوِينِ وَيَلُوحُ لِي فِيهِ مِثْلُ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ أَجِدُ لَهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ وَطَرَبًا كَطَرَبِ ٱلْأَلْحَانِ . وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاظِمِينَ وَٱلنَّاثِرِينَ يَمُرُّ عَلَى ذٰلِكَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهُ سِوَى أَنَّهُ يَسْتَحْسِنُهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِيمَا نَظَرْتُ أَنَا فِيهِ وَيَظُنُّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ أَنَافَ عَلَى قَفًا ... مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ ٱلْوَغَى حَمَّالِ

سَبَقَ ٱلْمَشِيبَ إِلَيْهِ حَتَّى ٱبْتَزَّهُ ... وَطَنُ ٱلنُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ

فَقَوْلُهُ : (وَطَنُ ٱلنُّهَى) مِنَ ٱلْـكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَا يُجَاءُ بِمِثْلِهَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ وَيَدٌ ... تُمْضِي ٱلْأُمُورَ وَنَفْسٌ لَهْوُهَا ٱلتَّعَبُ

فَقَوْلُهُ : (قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ) مِنَ ٱلْـكَلِمَاتِ ٱلْجَوَامِعِ . وَمُرَادُهُ بِذٰلِكَ أَنَّ قَلْبَهُ لَا تَمْلَأُهُ ٱلْأَفْكَارُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ عَالٍ

عليها يصف بذلك عدم احتفاله بالفوادح وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث افكارا تستغرق القلوب وهذه عبارة عجيبة لا يؤتى بمثلها مما يسد مسدها . (واما) ما يأتي على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي :

سقى الله اوطارا لنا ومآربا تقطع من اقرانها ما تقطعا
ليال تنسيني الليالي حسابها بلهنية اقضي بها الحول اجمعا
سوى عزة لا اعرف اليوم باسمه واعمل فيه اللهو مرأى ومسمعا

فقوله : (لا اعرف اليوم باسمه) من الكلمات الجامعة اي انني قد شغلت باللذات عن معرفة الليالي والايام ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله : (لا اعرف اليوم باسمه) . (واما القسم الثاني) من جوامع الكلم فالمراد به الايجاز الذي يدل به بالالفاظ القليلة على المعاني الكثيرة اي تكون الالفاظ جامعة المعاني المقصودة على ايجازها واختصارها . وسيأتي في باب الايجاز منه ما فيه كفاية ومقنع . (فان قيل) : فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتهما فانهما بالنظر سواء . (قلت في الجواب) : ان الايجاز هو ان يؤتى بالفاظ دالة على معنى من غير ان تزيد على ذلك المعنى ولا يشترط في تلك الالفاظ انها لا نظير لها فانها تكون قد اتصفت بوصف آخر خارج عن وصف الايجاز . وحينئذ يكون ايجازا او زيادة . واما هذا القسم الآخر فانه الفاظ افراد في حسنها لا نظير لها . فتارة تكون موجزة وتارة لا تكون

مُوجَزَةً . وَلَيسَ ٱلْغَرضُ مِنهَا ٱلْإِيجَازَ وَإِنَّمَا ٱلْغَرَضُ مَكَانُهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِيهِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَولِ أَبِي تَمَّام : (وَطَنَ ٱلنُّهَى) فَإِنَّ ذٰلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَاشَكَّ أَنَّ ٱلرَّأْسَ أَوجَزُ لِأَنَّ ٱلرَّأْسَ لَفظَةٌ وَاحِدَةٌ . وَوَطَنَ ٱلنُّهَى لَفظَتَانِ . إِلَّا إِنَّ (وَطَنَ ٱلنُّهَى) أَحسَنُ فِي ٱلتَّعبِيرِ عَنِ ٱلرَّأْسِ . فَبَانَ بِهٰذَا أَنَّ أَحَدَ هٰذَينِ ٱلقِسمَينِ غَيرُ ٱلْآخَرِ

البحث الحادي عشر

في الانسجام

(عن شرح بديعية العميان لابن جابر وبديعية الحموي)

(راجع صفحة ٢١ من علم الادب)

اَلْإِنسِجَامُ لُغَةً جَرَيَانُ ٱلْمَاءِ وَعِندَ أَهلِ ٱلْبَلَاغَةِ هُوَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلنَّاظِمُ أَوِ ٱلنَّاثِرُ بِكَلَامٍ خَالٍ مِنَ ٱلتَّعقِيدِ ٱللَّفظِيِّ وَٱلْمَعنَوِيِّ بَسِيطًا مَفهُومًا دَقِيقَ ٱلْأَلفَاظِ جَلِيلَ ٱلْمَعنَى لَا تَكَلُّفَ فِيهِ وَلَا تَعَسُّفَ يَتَحَدَّرُ كَتَحَدُّرِ ٱلْمَاءِ ٱلْمُنسَجِمِ فَيَكَادُ لِسُهُولَةِ تَركِيبِهِ وَعُذُوبَةِ أَلفَاظِهِ أَنْ يَسِيلَ رِقَّةً . وَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَنْ هُوَ مَطبُوعٌ عَلَى سَلَامَةِ ٱلذَّوقِ وَتَوَقُّدِ ٱلْفِكرَةِ وَبَرَاعَةِ ٱلْإِنشَاءِ وَحُسْنِ ٱلْأَسَالِيبِ . فَإِنْ كَانَ مَصنُوعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِيهِ غَالِبًا مَا يُظهِرُ صِنَاعَتَهُ مَعَ مُقَابَلَتِهِ بِغَيرِهِ مِنْ نَفسِ صَانِعِهِ . وَإِنَّ فُحُولَ هٰذَا ٱلْمَيدَانِ مَا أَثقَلُوا كَاهِلَ سُهُولَتِهِ بِنَوعٍ مِنْ أَنوَاعِ ٱلْبَدِيعِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ عَفوًا مِنْ غَيرِ قَصدٍ . وَعَلَى هٰذَا أَجمَعَ عُلَمَاءُ ٱلْبَدِيعِ فِي حَدِّ هٰذَا ٱلنَّوعِ فَإِنَّهُم قَرَّرُوا : أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا فِي ٱلتَّصَنُّعِ خَالِيًا مِنَ ٱلْأَنوَاعِ ٱلْبَدِيعِيَّةِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ

فِي ضِمْنِ ٱلسُّهُولَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ. وَإِنْ كَانَ ٱلِٱنْسِجَامُ فِي ٱلنَّثْرِ تَكُونُ غَالِبُ فِقْرَاتِهِ مَوْزُونَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِقُوَّةِ ٱنْسِجَامِهِ. وَإِنْ كَانَ فِي ٱلنَّظْمِ فَتَكَادُ ٱلْأَبْيَاتُ أَنْ تَسِيلَ رِقَّةً وَعُذُوبَةً. وَرُبَّمَا دَخَلَتْ فِي ٱلْمُطْرِبِ وَٱلْمُرْقِصِ

البحث الثاني عشر

في القول في النظم

(عن صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٤ من عام الادب)

اَلنَّظْمُ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَاخِي مَعَانِي ٱلنَّحْوِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْكَلَامِ. وَذٰلِكَ أَنْ تَضَعَ كَلَامَكَ ٱلْوَضْعَ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ عِلْمُ ٱلنَّحْوِ بِأَنْ تَنْظُرَ فِي كُلِّ بَابٍ إِلَى قَوَانِينِهِ وَٱلْفُرُوقِ ٱلَّتِي بَيْنَ مَعَانِي ٱخْتِلَافِ صِيَغِهِ وَتَضَعَ ٱلْحُرُوفَ مَوَاضِعَهَا وَتُرَاعِيَ شَرَائِطَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَمَوَاضِعَ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ وَمَوَاضِعَ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ عَلَى ٱخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَعْتَبِرَ ٱلْإِصَابَةَ فِي طَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلتَّمْثِيلِ. وَقَدِ ٱطَّبَقَ ٱلْعُلَمَاءُ عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِ ٱلنَّظْمِ وَأَنْ لَا فَضْلَ مَعَ عَدَمِهِ وَلَوْ بَلَغَ ٱلْكَلَامُ فِي غَرَابَةِ مَعْنَاهُ إِلَى مَا بَلَغَ. وَإِنَّ سَبَبَ فَسَادِهِ تَرْكُ ٱلْعَمَلِ بِقَرَائِنِ ٱلنَّحْوِ وَٱسْتِعْمَالُ شَيْءٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. ثُمَّ ٱلْجُمَلُ ٱلْكَثِيرَةُ إِذَا نُظِمَتْ نَظْمًا وَاحِدًا فَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَتَعَلَّقَ ٱلْبَعْضُ بِٱلْبَعْضِ فَلَا يَحْتَاجُ وَاضِعُهُ إِلَى فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ بَلْ هُوَ كَمَنْ عَمَدَ إِلَى ٱللَّآلِئِ

يَنظِمُهَا فِي سِلكٍ . وَمِثَالُهُ قَوْلُ ٱلْجَاحِظِ : جَنَّبَكَ ٱللهُ ٱلشُّبْهَةَ وَعَصَمَكَ مِنَ ٱلْحَيْرَةِ وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلْمَعْرُوفِ نَسَبًا وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلصِّدْقِ سَبَبًا . وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلنُّعْمَانِ : يُفَاخِرُكَ ٱبْنُ أَبِي جَفْنَةٍ وَإِنَّ لَقَفَاكَ خَيْرٌ مِنْ وَجْهِهِ وَلَشِمَالُكَ خَيْرٌ مِنْ يَمِينِهِ وَلَأَخْمَصُكَ خَيْرٌ مِنْ رَأْسِهِ وَلَخَطَاؤُكَ خَيْرٌ مِنْ صَوَابِهِ وَلَخَدَمُكَ خَيْرٌ مِنْ قَوْمِهِ . وَهٰذَا ٱلنَّظْمُ لَا يَسْتَحِقُّ ٱلْفَضْلَ إِلَّا بِسَلَامَةِ مَعْنَاهُ وَسَلَامَةِ أَلْفَاظِهِ إِذْ لَيْسَ فِيهِ مَعْنًى دَقِيقٌ لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا بِثَاقِبِ ٱلْفِكْرِ . وَرُبَّمَا ظُنَّ بِٱلْكَلَامِ أَنَّهُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ وَلَا يَكُونُ مِنْهُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ تَكُونَ ٱلْجُمَلُ ٱلْمَذْكُورَةُ يَتَعَلَّقُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَهُنَالِكَ تَظْهَرُ قُوَّةُ ٱلطَّبْعِ وَجُودَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَاسْتِقَامَةُ ٱلذِّهْنِ . ثُمَّ لَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَابِ قَانُونٌ يُحْفَظُ فَإِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى وُجُوهٍ شَتَّى :

(فَمِنْهَا ٱلْإِيجَازُ) وَهُوَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنِ ٱلْغَرَضِ بِأَقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ ٱلْحُرُوفِ وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) إِيجَازُ قِصَرٍ وَهُوَ تَقْلِيلُ ٱللَّفْظِ وَتَكْثِيرُ ٱلْمَعْنَى . (وَٱلثَّانِي) إِيجَازُ حَذْفٍ وَهُوَ ٱلِاسْتِغْنَاءُ بِٱلْمَذْكُورِ عَمَّا لَمْ يُذْكَرْ . (وَمِنْهَا ٱلتَّأْكِيدُ) وَهُوَ تَقْوِيَةُ ٱلْمَعْنَى وَتَقْرِيرُهُ إِمَّا بِإِظْهَارِ ٱلْبُرْهَانِ كَقَوْلِ قَابُوسَ :

يَا ذَا ٱلَّذِي بِصُرُوفِ ٱلدَّهْرِ عَيَّرَنَا	هَلْ عَانَدَ ٱلدَّهْرُ إِلَّا مَنْ لَهُ خَطَرُ
أَمَا تَرَى ٱلْبَحْرَ يَعْلُو فَوْقَهُ جِيَفٌ	وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ ٱلدُّرَرُ
وَفِي ٱلسَّمَاءِ نُجُومٌ غَيْرُ ذِي عَدَدٍ	وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ

(أَوْ بِٱلْعَزِيمَةِ) كَقَوْلِهِ : فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ .

(أَوْ بِٱلتَّكْرَارِ) كَقَوْلِهِمْ : ٱللهَ ٱللهَ وَٱلْأَسَدَ ٱلْأَسَدَ

الفصل الرابع

في البيان

البحث الاوّل

في تحديد البيان على وجه الاجمال

(من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغرر الخصائص للوطواط بتصرّف)

(راجع صفحة ٢٧ و٢٨ من علم الادب)

ٱلْبَيَانُ ٱسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ عَلَى بَيَانِ ٱلْمَعْنَى وَهَتَكَ لَكَ ٱلْحُجُبَ دُونَ ٱلضَّمِيرِ حَتَّى يُفْضِيَ ٱلسَّامِعُ اِلَى حَقِيقَتِهِ وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِهِ كَائِنًا مَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ وَمِنْ اَيِّ جِنْسٍ كَانَ ذٰلِكَ ٱلدَّلِيلُ. لِاَنَّ مَدَارَ ٱلْاَمْرِ وَٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي يَجْرِي اِلَيْهَا ٱلْقَائِلُ وَٱلسَّامِعُ اِنَّمَا هُوَ ٱلْفَهْمُ وَٱلْاِفْهَامُ فَبِاَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ ٱلْاِفْهَامَ وَاَوْضَحْتَ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَذٰلِكَ هُوَ ٱلْبَيَانُ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعِ . وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى ٱلْبَرْمَكِيِّ : مَا ٱلْبَيَانُ . قَالَ : اَنْ يَكُونَ ٱلِاسْمُ يُحِيطُ بِمَعْنَاكَ وَيَكْشِفُ عَنْ مَغْزَاكَ وَيُخْرِجُهُ مِنَ ٱلشِّرْكَةِ وَلَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِٱلْفِكْرَةِ وَيَكُونَ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ بَعِيدًا مِنَ ٱلصَّنْعَةِ بَرِيئًا مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأْوِيلِ . وَقَالُوا : ٱلْبَيَانُ بَصَرٌ وَٱلْعِيُّ عَمًى كَمَا اَنَّ ٱلْعِلْمَ بَصَرٌ وَٱلْجَهْلَ عَمًى وَٱلْبَيَانُ مِنْ نَتَائِجِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعِيُّ مِنْ نَتَائِجِ ٱلْجَهْلِ . وَقَالُوا : حَيَاةُ ٱلْمُرُوءَةِ ٱلصِّدْقُ وَحَيَاةُ ٱلرُّوحِ ٱلْعَفَافُ وَحَيَاةُ ٱلْحِلْمِ ٱلْعِلْمُ وَحَيَاةُ ٱلْعِلْمِ

اَلْبَيَانُ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلتَّوْأَمِ : ٱلرُّوحُ عِمَادُ ٱلْبَدَنِ وَٱلْعِلْمُ عِمَادُ ٱلرُّوحِ وَٱلْبَيَانُ عِمَادُ ٱلْعِلْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى حَدِّ ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَنَقَّصُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . (وَفِي كُتُبِ ٱلْحُكَمَاءِ) : ٱلْبَيَانُ هُوَ أَنْ يُحْسِنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي تَهْجِسُ فِي ٱلضَّمِيرِ فَيَحْتَاجُ إِلَى نَقْلِ صُوَرِهَا ٱلْمُتَخَيَّلَةِ أَوِ ٱلْمَعْقُولَةِ إِلَى ضَمِيرِ مَنْ يُخَاطِبُهُ . وَقَالَ آخَرُ : خَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقُّنُهُ وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللِّسَانِ تَعَاهُدُهُ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْقُلُوبِ وَصَيْقَلُ ٱلْعُقُولِ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱللِّسَانِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ

البحث الثاني

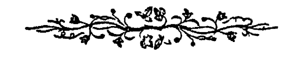
في تعريف علم البيان

(عن الكشّاف للتهانوي وكشف الظنون للحاجّ خلفا)

(راجع صفحة ٢٧ من علم الادب)

اَلْبَيَانُ لُغَةً ٱلْكَشْفُ وَٱلتَّوْضِيحُ وَٱلظُّهُورُ وَهُوَ فِي ٱلْاِصْطِلَاحِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْفَصِيحِ ٱلْمُعْبِرِ عَمَّا فِي ٱلضَّمِيرِ . وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى ٱلْإِثْبَاتِ بِٱلدَّلِيلِ . وَقِيلَ : ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْبَيَانِ وَٱلتِّبْيَانِ بِأَنَّ ٱلْبَيَانَ هُوَ إِظْهَارُ ٱلْمُرَادِ . وَٱلتِّبْيَانُ يَحْتَوِي عَلَى كَدِّ ٱلْخَاطِرِ وَإِعْمَالِ ٱلْقَلْبِ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا قِيلَ : ٱلتِّبْيَانُ بَيَانٌ مَعَ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ .

وَٱلْبَيَانُ عِنْدَ ٱلْبُلَغَـاءِ : هُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ إِيرَادُ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِتَرَاكِيبَ مُخْتَلِفَةٍ فِي وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ بِأَنْ يَكُونَ دَلَالَةُ بَعْضِهَا أَجْلَى مِنْ بَعْضٍ . وَمَوْضُوعُهُ ٱللَّفْظُ ٱلْبَلِيغُ مِنْ حَيْثُ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَغَرَضُهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلْإِفَادَةِ بِٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَفَهْمِ مَدْلُولَاتِهَا . وَغَايَتُهُ ٱلِاحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ فِي تَعْيِينِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا عَقْلِيَّةٌ كَأَقْسَامِ ٱلدَّلَالَةِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْعِلَاقَاتِ . وَبَعْضُهَا وِجْدَانِيَّةٌ ذَوْقِيَّةٌ كَوُجُوهِ ٱلتَّشْبِيهَـاتِ وَأَقْسَامِ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَكَيْفِيَّةِ حُسْنِهَا . وَإِنَّمَا ٱخْتَارُوا فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وُضُوحَ ٱلدَّلَالَـةِ لِأَنَّ بَحْثَهُمْ لَمَّا ٱقْتَصَرَ عَلَى ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلتَّضَمُّنِيَّـةَ وَٱلِالْتِزَامِيَّةَ وَكَانَتْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَةُ خَفِيَّـةً سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱللُّزُومُ بِحَسَبِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلطَّبَائِعِ فَوَجَبَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنْهَا بِلَفْظٍ أَوْضَحَ . مَثَلًا : إِذَا كَانَ ٱلْمَرْئِيُّ دَقِيقًا فِي ٱلْغَايَةِ تَحْتَاجُ ٱلْحَاسَّةُ فِي إِبْصَارِهَا إِلَى شُعَاعٍ قَوِيٍّ بِخِـلَافِ ٱلْمَرْئِيِّ إِذَا كَانَ جَلِيلًا . وَكَذَا ٱلْحَالُ فِي ٱلرُّؤْيَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلْفَهْمَ وَٱلْإِدْرَاكَ . وَٱلْحَاصِلُ أَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ دِقَّةُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا مِنَ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَٱلْكِنَايَاتِ مَعَ وُضُوحِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّالَّةِ عَلَيْهَا



البحث الثالث

في الحقيقة والمجاز

(من المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هٰذَا ٱلفَصلُ مُهِمٌّ كَبِيرٌ مِنْ مُهِمَّاتِ عِلْمِ ٱلبَيَانِ لَا بَلْ هُوَ عِلْمُ ٱلبَيَانِ بِاجمَعِهِ . فَانَّ فِي تَصْرِيفِ ٱلعِبَارَاتِ عَلَى ٱلأُسْلُوبِ ٱلمَجَازِيِّ فَوَائِدَ كَثِيرَةً . وَٱلكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلمَوْضِعِ عَلَى جُمْلَتِهَا دُونَ تَفْصِيلِهَا . فَامَّا ٱلحَقِيقَةُ فَهِيَ ٱللَّفظُ ٱلدَّالُّ عَلَى مَوْضُوعِهِ ٱلاَصْلِيِّ . وَامَّا ٱلمَجَازُ فَهُوَ مَا أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ ٱلمَعْنَى ٱلمَوْضُوعِ لَهُ مِنْ اَصْلِ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ جَازَ مِنْ هٰذَا ٱلمَوْضِعِ اِلَى هٰذَا ٱلمَوْضِعِ اِذَا تَخَطَّاهُ اِلَيْهِ . فَٱلمَجَازُ اِذًا اَسْمٌ لِلْمَكَانِ ٱلَّذِي يُجَازُ فِيهِ كَٱلمَعَاجِ وَٱلمَزَارِ وَاَشْبَاهِهِمَا . وَحَقِيقَتُهُ هِيَ ٱلاِنْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ اِلَى مَكَانٍ . فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلاَلفَاظِ مِنْ مَحَلٍّ اِلَى مَحَلٍّ كَقَوْلِنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . فَانَّ زَيْدًا اِنْسَانٌ وَٱلاَسَدَ هُوَ هٰذَا ٱلحَيَوَانُ ٱلمَعْرُوفُ . وَقَدْ جُزْنَا مِنَ ٱلاِنْسَانِيَّةِ اِلَى ٱلاَسَدِيَّةِ . اَيْ عَبَرْنَا مِنْ هٰذِهِ اِلَى هٰذِهِ لِوُصْلَةٍ بَيْنَهُمَا وَتِلْكَ ٱلوُصْلَةُ هِيَ صِفَةُ ٱلشَّجَاعَةِ . وَقَدْ يَكُونُ ٱلعُبُورُ لِغَيْرِ وُصْلَةٍ . وَذٰلِكَ هُوَ ٱلاِتِّسَاعُ كَقَوْلِهِمْ فِي كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : قَالَ ٱلاَسَدُ . قَالَ ٱلثَّعْلَبُ . فَانَّ ٱلقَوْلَ لَا وُصْلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَيْنِ بِحَالٍ مِنَ ٱلاَحْوَالِ . وَاِنَّمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِمَا ٱتِّسَاعًا مَحْضًا لَا غَيْرُ . . . . وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ اِلَى اَنَّ ٱلكَلَامَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ لَا مَجَازَ فِيهِ . وَذَهَبَ آخَرُونَ : اِلَى اَنَّهُ كُلَّهُ مَجَازٌ لَاحَقِيقَةَ فِيهِ . وَكِلَا هٰذَيْنِ

ٱلْمَذْهَبَيْنِ فَاسِدٌ عِنْدِي . وَسَأُجِيبُ ٱلْخَصْمَ عَمَّا ٱدَّعَاهُ فِيهِمَا فَأَقُولُ : مَحَلُّ ٱلنِّزَاعِ هُوَ إِنَّ ٱللُّغَةَ كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا كُلَّهَا مَجَازٌ . وَلَا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ قَوْلِكَ إِنَّهَا كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا مَجَازٌ . فَإِنَّ كِلَا ٱلطَّرَفَيْنِ عِنْدِي سَوَاءٌ . لِأَنَّ مُنْكِرَهُمَا غَيْرُ مُسَلِّمٍ لَهُمَا . وَأَنَا بِصَدَدِ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ فِي ٱللُّغَةِ حَقِيقَةً وَمَجَازًا . وَٱلْحَقِيقَةُ ٱللُّغَوِيَّةُ هِيَ حَقِيقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي وَلَيْسَتْ بِٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي هِيَ ذَاتُ ٱلشَّيْءِ أَيْ نَفْسُهُ وَعَيْنُهُ . فَٱلْحَقِيقَةُ ٱللَّفْظِيَّةُ إِذًا هِيَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي أَصْلِ ٱللُّغَةِ . وَٱلْمَجَازُ هُوَ نَقْلُ ٱلْمَعْنَى عَنِ ٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ إِلَى لَفْظٍ آخَرَ غَيْرِهِ . وَتَقْرِيرُ ذٰلِكَ بِأَنْ أَقُولَ : ٱلْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَفْتَقِرُ إِلَى أَسْمَاءٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَيْهَا لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهَا بِٱسْمِهِ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّفَاهُمِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ . وَهٰذَا يَقَعُ ضَرُورَةً لَا بُدَّ مِنْهَا . فَٱلِٱسْمُ ٱلْمَوْضُوعُ بِإِزَاءِ ٱلْمُسَمَّى هُوَ حَقِيقَةٌ لَهُ فَإِذَا نُقِلَ إِلَى غَيْرِهِ صَارَ مَجَازًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَا إِذَا قُلْنَا : شَمْسٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْكَوْكَبَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْكَثِيرَ ٱلضَّوْءِ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . وَكَذٰلِكَ إِذَا قُلْنَا : بَحْرٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْمَاءَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْمُجْتَمِعَ ٱلَّذِي طَعْمُهُ مِلْحٌ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . فَإِذَا نَقَلْنَا ٱلشَّمْسَ إِلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَلِيحِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ لَهُ ذٰلِكَ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . وَكَذٰلِكَ إِذَا نَقَلْنَا ٱلْبَحْرَ إِلَى ٱلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ ذٰلِكَ لَهُ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . (فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْمَلِيحَ يُقَالُ لَهُ شَمْسٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ بَحْرٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . (فَٱلْجَوَابُ) عَنْ ذٰلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا)

نَظَرِيٌّ وَٱلآخَرُ وَضعِيٌّ. (امَّا ٱلنَّظَرِيُّ) فَهُوَ انَّ ٱلالفَاظَ اِنَّمَا جُعِلَتْ ادِلَّةً عَلَى اِفْهَامِ ٱلْمَعَانِي وَلَوْ كَانَ مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ صَحِيحًا لَكَانَ ٱلبَحْرُ يُطْلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلْمَاءِ ٱلعَظِيمِ ٱلملْحِ وَعَلَى ٱلرَّجُلِ ٱلجَوَادِ بِٱلاشْتِرَاكِ. وَكَذٰلِكَ ٱلشَّمْسُ ايضًا فَاِنَّهَا كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلكَوْكَبِ ٱلعَظِيمِ ٱلكَثِيرِ ٱلضَّوْءِ وَعَلَى هٰذَا ٱلوَجْهِ ٱلمَلِيحِ بِٱلاشْتِرَاكِ. وَحِينَئِذٍ فَاِذَا وَرَدَ احَدُ هٰذَيْنِ ٱللَفْظَيْنِ مُطْلَقًا بِغَيْرِ قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهُ فَلَا يُفْهَمُ ٱلْمُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مِنْ احدِ ٱلمعْنَيَيْنِ ٱلْمُشْتَرَكَيْنِ ٱلْمُنْدَرِجَيْنِ تَحْتَهُ وَنَحْنُ نَرَى ٱلاَمْرَ بِخِلَافِ ذٰلِكَ فَاِنَّا اِذَا قُلْنَا: شَمْسٌ اوْ بَحْرٌ. وَاطْلَقْنَا ٱلقَوْلَ لَا يُفْهَمُ مِنْ ذٰلِكَ وَجْهٌ مَلِيحٌ وَلَا رَجُلٌ جَوَادٌ. وَاِنَّمَا يُفْهَمُ مِنْهُ ذٰلِكَ ٱلكَوْكَبُ ٱلْمَعْلُومُ وَذٰلِكَ ٱلمَاءُ ٱلْمَعْلُومُ لاغَيْرُ فَبَطَلَ اِذًا مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ بِمَا بَيَّنَّاهُ وَاوْضَحْنَاهُ. (فَاِنْ قُلْتَ) : اِنَّ ٱلْعُرْفَ يُخَالِفُ مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ فَاِنَّ مِنَ ٱلاَلْفَاظِ مَا اِذَا اُطْلِقَ لَمْ يَذْهَبِ ٱلفَهْمُ مِنْهُ اِلَّا اِلَى ٱلمجَازِ دُونَ ٱلحَقِيقَةِ. (قُلْتُ فِي ٱلجَوَابِ): هٰذَا شَيْءٌ ذَهَبَ اِلَيْهِ بَعْضُهُمْ وَلَيْسَ ٱلاَمْرُ كَمَا ذَهَبُوا اِلَيْهِ. لِاَنَّهُ اِنْ كَانَ اِطْلَاقُ ٱللَّفْظِ فِيهِ بَيْنَ عَامَّةِ ٱلنَّاسِ فَهٰؤُلاءِ لَا يَفْهَمُونَ اِلَّا ٱلْمَعْنَى ٱلمجَازِيَّ. لِاَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا اصْلَ وَضْعِ ٱلكَلِمَةِ. وَامَّا خَاصَّةُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ اصْلَ ٱلوَضْعِ فَاِنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ عِنْدَ اِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ اِلَّا ٱلحَقِيقَةَ لَا غَيْرُ . . . (وَامَّا ٱلوَجْهُ ٱلوَضْعِيُّ) فَهُوَ انَّ ٱلْمَرْجِعَ فِي هٰذَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ اِلَى اَصْلِ ٱللُّغَةِ ٱلَّتِي هِيَ وَضْعُ ٱلاَسْمَاءِ عَلَى ٱلْمُسَمَّيَاتِ وَلَمْ يُوجَدْ فِيهَا انَّ ٱلوَجْهَ ٱلمَلِيحَ يُسَمَّى شَمْسًا وَلَا انَّ ٱلرَّجُلَ ٱلجَوَادَ يُسَمَّى بَحْرًا . وَاِنَّمَا اهْلُ

ٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ تَوَسَّعُوا فِي ٱلْأَسَالِيبِ ٱلْمَعْنَوِيَةِ فَنَقَلُوا ٱلْحَقِيقَةَ إِلَى ٱلْمَجَازِ وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ وَاضِعِ ٱللُّغَةِ فِي أَصْلِ ٱلْوَضْعِ وَلِهٰذَا ٱخْتَصَّ كُلٌّ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ ٱخْتَرَعَهُ فِي ٱلتَّوَسُّعَاتِ ٱلْمَجَازِيَّـةِ . هٰذَا ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ قَدِ ٱخْتَرَعَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ . فَمِنْ ذٰلِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَبَّرَ عَنِ ٱلْفَرَسِ بِقَوْلِهِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) . وَلَمْ يُسْمَعْ ذٰلِكَ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ . . . وَوَاضِعُ ٱللُّغَةِ مَا ذَكَرَ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ فَعَلِمْنَا حِينَئِذٍ أَنَّ مِنَ ٱللُّغَـةِ حَقِيقَةً بِوَضْعِهِ وَمَجَازًا بِتَوَسُّعَاتِ أَهْلِ ٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَفِي زَمَانِنَا هٰذَا قَدْ يَخْتَرِعُونَ أَشْيَاءَ مِنَ ٱلْمَجَازِ عَلَى حُكْمِ ٱلِٱسْتِعَـارَةِ لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ . وَلَوْ كَانَ هٰذَا مَوْقُوفًا مِنْ جِهَةِ وَاضِعِ ٱللُّغَـةِ لَمَا ٱخْتَرَعَهُ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا زِيدَ فِيهِ وَلَا نَقَصَ مِنْهُ . وَأَمَّا ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ فَهُوَ أَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ جَارِيَةٌ عَلَى ٱلْعُمُومِ فِي نَظَائِرِ . أَلَا تَرَى إِذَا قُلْنَا : فُلَانٌ عَالِمٌ . صَدَقَ عَلَى كُلِّ ذِي عِلْمٍ . بِخِلَافِ (وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ) . لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِلَّا فِي بَعْضِ ٱلْجَمَادَاتِ دُونَ بَعْضٍ إِذِ ٱلْمُرَادُ أَهْلُ ٱلْقَرْيَةِ لِأَنَّهُمْ مِمَّنْ يَصِحُّ ٱلسُّؤَالُ لَهُمْ . وَلَا يَجُـوزُ أَنْ يُقَالَ : وَٱسْأَلِ ٱلْحَجَرَ وَٱلتُّرَابَ . وَقَدْ يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ : وَٱسْأَلِ ٱلرَّبْعَ وَٱلطَّلَلَ . (وَٱعْلَمْ) أَنَّ كُلَّ مَجَازٍ فَلَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ ٱسْمُ ٱلْمَجَازِ إِلَّا عَنْ حَقِيقَةٍ مَوْضُوعَةٍ لَهُ إِذِ ٱلْمَجَازُ هُوَ ٱسْمٌ لِلْمَوْضُوعِ ٱلَّذِي يُنْتَقَلُ فِيهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ إِلَى غَيْرِهَا . وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَجَازٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ نُقِلَ عَنْهَا إِلَى حَالَةِ ٱلْمَجَازِيَةِ فَكَذٰلِكَ لَيْسَ مِنْ ضَرُورَةِ كُلِّ حَقِيقَةٍ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَجَازٌ . فَإِنَّ

مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ مَا لَا مَجَازَ لَهُ كَأَسْمَاءِ ٱلْأَعْلَامِ لِأَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلذَّوَاتِ لَا لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصِّفَاتِ

وَكَذٰلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَجَازَ أَوْلَى بِٱلِٱسْتِعْمَالِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْأَصْلُ أَوْلَى مِنْهُ حَيْثُ هُوَ فَرْعٌ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخِطَابِيِّ هُوَ إِثْبَاتُ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ بِٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّصْوِيرِ حَتَّى يَكَادَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عِيَانًا . أَلَا تُرَى أَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . هِيَ قَوْلُنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لٰكِنْ فُرِقَ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فِي ٱلتَّصْوِيرِ وَٱلتَّخْيِيلِ وَإِثْبَاتِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ . لِأَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لَا يَتَخَيَّلُ مِنْهُ ٱلسَّامِعُ سِوَى أَنَّهُ رَجُلٌ جَرِيءٌ مِقْدَامٌ . فَإِذَا قُلْنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . يُخَيَّلُ عِنْدَ ذٰلِكَ صُورَةُ ٱلْأَسَدِ وَهَيْئَتُهُ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلْقُوَّةِ وَدَقِّ ٱلْفَرَائِسِ . وَقَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) هُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ : مَانِعُ ٱلْأَوَابِدِ عَنِ ٱلذَّهَابِ وَٱلْإِفْلَاتِ . وَٱلْقَيْدُ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْمَنْعِ عَنِ ٱلتَّصَرُّفِ لِأَنَّكَ تُشَاهِدُ مَا فِي ٱلْقَيْدِ مِنَ ٱلْمَنْعِ فَلَا تَشُكُّ فِيهِ . وَكَقَوْلِهِمْ : هٰذَا مِيزَانُ ٱلْقِيَاسِ أَيْ تَعْدِيلُهُ . وَٱلْمَجَازُ أَبْلَغُ لِأَنَّ ٱلْمِيزَانَ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلتَّعْدِيلَ حَتَّى تُعَايِنَهُ وَلِلْعِيَانِ فَضْلٌ عَلَى مَا سِوَاهُ . وَكَذٰلِكَ : ٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ أَيْ حَقِيقَةُ تَقْوِيمِهِ . وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . وَأَعْجَبُ مَا فِي ٱلْعِبَارَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ أَنَّهَا تَنْقُلُ ٱلسَّامِعَ عَنْ خُلُقِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ حَتَّى إِنَّهَا يَسْمَحُ بِهَا ٱلْبَخِيلُ

وَيُشَجِّعُ بِهَا ٱلْجَبَانُ وَيُحْكَمُ بِهَا ٱلطَّائِشُ ٱلْمُتَسَرِّعُ وَيَجِدُ ٱلْمُخَاطَبُ بِهَا عِنْدَ سَمَاعِهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ حَتَّى إِذَا قُطِعَ عِنْدَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ أَفَاقَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ بَذْلِ مَالٍ . أَوْ تَرْكِ عُقُوبَةٍ . أَوْ إِقْدَامٍ عَلَى أَمْرٍ مَهُولٍ وَهٰذَا هُوَ فَحْوَى ٱلسِّحْرِ ٱلْحَلَالِ ٱلْمُسْتَغْنِي مِنْ إِلْقَاءِ ٱلْعَصَا وَٱلْحِبَالِ . (وَٱعْلَمْ) أَنَّهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كَلَامٌ يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ مَعْنَاهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ بِٱخْتِلَافِ لَفْظِهِ فَٱنْظُرْ فَإِنْ كَانَ لَا مَزِيَّةَ لِمَعْنَاهُ فِي حَمْلِهِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا هِيَ ٱلْأَصْلُ وَٱلْمَجَازُ هُوَ ٱلْفَرْعُ وَلَا يُعْدَلُ عَنِ ٱلْأَصْلِ إِلَى ٱلْفَرْعِ إِلَّا لِفَائِدَةٍ

البحث الرابع

في الاستعارة

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هِيَ ٱدِّعَاءُ مَعْنَى ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلشَّيْءِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ مِنَ ٱلْبَيْنِ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هُوَ جَعْلُ ٱلشَّيْءِ لِلشَّيْءِ لِأَجْلِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ أَسَدًا تَعْنِي ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ . وَٱلثَّانِي كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ ٱلشَّمَالِ زِمَامُهَا

أَثْبَتَ ٱلْيَدَ لِلشِّمَالِ مُبَالَغَةً فِي تَشْبِيهِهَا بِٱلْقَادِرِ فِي ٱلتَّصَرُّفِ فِيهِ.
وَحَدَّ ٱلرُّمَّانِيُّ ٱلْاسْتِعَارَةَ فَقَالَ: هِيَ تَعْلِيقُ ٱلْعِبَارَةِ عَلَى غَيْرِ مَا وُضِعَتْ لَهُ فِي أَصْلِ ٱللُّغَةِ عَلَى سَبِيلِ ٱلنَّقْلِ لِلْإِبَانَةِ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: هِيَ ٱسْتِعَارَةُ ٱلْكَلِمَةِ مِنْ شَيْءٍ قَدْ عُرِفَ بِهَا إِلَى شَيْءٍ لَمْ يُعْرَفْ بِهَا.
وَذَكَرَ ٱلْخَفَاجِيُّ كَلَامَ ٱلرُّمَّانِيِّ وَقَالَ: وَتَفْسِيرُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ أَنَّ قَوْلَهُ مَثَلًا: (وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا). ٱسْتِعَارَةٌ لِأَنَّ ٱلْاشْتِعَالَ لِلنَّارِ وَلَمْ تُوضَعْ فِي أَصْلِ ٱللُّغَةِ لِلشَّيْبِ فَلَمَّا نُقِلَ إِلَيْهِ بَانَ ٱلْمَعْنَى لِمَا ٱكْتَسَبَهُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ. لِأَنَّ ٱلشَّيْبَ لَمَّا كَانَ نَافِذًا فِي ٱلرَّأْسِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يُحِيلَهُ إِلَى غَيْرِ لَوْنِهِ ٱلْأَوَّلِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي تَسْرِي فِي ٱلْخَشَبِ حَتَّى تُحِيلَهُ إِلَى غَيْرِ حَالَتِهِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ. فَهٰذَا مِنْ نَقْلِ ٱلْعِبَارَةِ عَنِ ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلْوَضْعِ لِلْبَيَانِ وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَوْضَحَ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ لِأَجْلِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْعَارِضِ فِيهَا. لِأَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ لَوْ قَامَتْ مَقَامَهَا لَكَانَتْ أَوْلَى بِهَا لِأَنَّهَا ٱلْأَصْلُ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى ٱلْمُتَأَمِّلِ أَنَّ قَوْلَهُ: (وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا). أَبْلَغُ مِنْ: كَثُرَ شَيْبُ ٱلرَّأْسِ. وَهُوَ حَقِيقَةُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى. وَقَوْلُهُ: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ). أَحْسَنُ وَأَبْلَغُ فِي مَا قُصِدَ لَهُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ شِدَّةِ ٱلْأَمْرِ. وَإِنْ كَانَ ٱلْمَعْنَيَانِ وَاحِدًا. أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْجِدِّ فِي أَمْرِهِ: شَمِّرْ عَنْ سَاقِكَ. فَيَكُونُ هٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنْكَ أَوْكَدَ فِي نَفْسِهِ مِنْ قَوْلِكَ: جِدَّ فِي أَمْرِكَ. وَقَالَ دُرَيْدُ بْنُ ٱلصِّمَّةِ:

كَمِيشُ ٱلْإِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ صَبُورٌ عَلَى ٱلضَّرَّاءِ طَلَّاعُ أَنْجُدِ

وَقَالَ ٱلْهذلِيُّ :

وَكُنتُ إِذَا جَارٌ دَعَا بِغُمُومِهِ   أُشَمِّرُ حَتَّى يَنْصِفَ ٱلسَّاقَ مِئْزَرِي

وَلَا بُدَّ لِلِاسْتِعَارَةِ مِنْ حَقِيقَةٍ هِيَ أَصْلُهَا وَهِيَ : مُسْتَعَارٌ مِنْهُ . وَمُسْتَعَارٌ بِهِ . وَمُسْتَعَارٌ لَهُ . فَٱلنَّارُ فِي قَوْلِهِ : (ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) . مُسْتَعَارٌ مِنْهَا . وَٱلِاشْتِعَالُ مُسْتَعَارٌ . وَٱلشَّيْبُ مُسْتَعَارٌ لَهُ . وَأَمَّا قَوْلُنَا : (مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ) . فَٱعْلَمْ أَنَّا إِذَا طَرَحْنَاهُ كَقَوْلِنَا : رَأَيْتُ أَسَدًا . وَأَرَدْنَا ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ فَهُوَ ٱسْتِعَارَةٌ بِٱلِاتِّفَاقِ وَإِنْ ذَكَرْنَا مَعَهُ ٱلْمُشَبَّهَ وَقُلْنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . فَٱلْمُخْتَارُ أَنَّهُ لَيْسَ بِٱسْتِعَارَةٍ إِذْ فِي ٱللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِأَسَدٍ فَلَمْ تَحْصُلِ ٱلْمُبَالَغَةُ . وَإِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ ٱلْأَسَدُ . فَهُوَ أَبْعَدُ عَنِ ٱلِاسْتِعَارَةِ فَإِنَّ ٱلْأَوَّلَ خَرَجَ بِٱلتَّنْكِيرِ مِنْ أَنْ يَحْسُنَ فِيهِ كَافُ ٱلتَّشْبِيهِ . فَإِنَّ قَوْلَكَ : زَيْدٌ كَأَسَدٍ . كَلَامٌ نَازِلٌ بِخِلَافِ ٱلثَّانِي . قَالَ ضِيَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْأَثِيرِ : وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرُ ٱلْأَدَاةِ قَدْ خَلَطُوهُ بِٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَذٰلِكَ خَطَأٌ مَحْضٌ . وَسَأُوضِحُ وَجْهَ ٱلْخَطَإِ فِيهِ وَأُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فَأَقُولُ : إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُظْهَرَ ٱلْأَدَاةِ فَلَا حَاجَةَ لِبَيَانِ ذِكْرِهِ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ فِيهِ وَلٰكِنْ نَذْكُرُ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ فَنَقُولُ : إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ وَٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ تَشْبِيهٌ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ قِيلَ فِيهِ : زَيْدٌ أَسَدٌ . أَيْ كَٱلْأَسَدِ . فَأَدَاةُ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ مُضْمَرَةٌ مُقَدَّرَةٌ . وَإِذَا أُظْهِرَتْ حَسُنَ ظُهُورُهَا وَلَمْ تَقْدَحْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي أُظْهِرَتْ فِيهِ وَلَمْ تُزِلْ عَنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ وَهٰذَا بِخِلَافِ مَا إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ دُونَ ٱلْمَنْقُولِ فَإِنَّهُ لَا يَحْسُنُ

فِيهِ ظُهُورُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ وَإِذَا أُظْهِرَتْ اَزَالَتْ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ مُتَّصِفًا بِهِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْفَصَاحَةِ... فَٱلْفَرْقُ إِذًا بَيْنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ وَبَيْنَ ٱلِاسْتِعَارَةِ اَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ يَحْسُنُ إِظْهَارُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ وَٱلِاسْتِعَارَةُ لَايَحْسُنُ ذٰلِكَ فِيهَا . وَٱلِاسْتِعَارَةُ اَخَصُّ مِنَ ٱلْمَجَازِ إِذْ قَصْدُ ٱلْمُبَالَغَةِ شَرْطٌ فِي ٱلِاسْتِعَارَةِ دُونَ ٱلْمَجَازِ . وَاَيْضًا فَكُلُّ اسْتِعَارَةٍ مِنَ ٱلْبَدِيعِ وَلَيْسَ كُلُّ مَجَازٍ مِنْهُ وَٱلْحَقُّ اَنَّ ٱلْمَعْنَى يُعَارُ اَوَّلًا ثُمَّ بِوَاسِطَتِهِ يُعَارُ ٱللَّفْظُ . وَلَا تَحْسُنُ ٱلِاسْتِعَارَةُ إِلَّا حَيْثُ كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ مُقَرَّرًا بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ اَوَّلًا فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَوْ قُلْتَ : رَاَيْتُ نَخْلَةً اَوْ خَامَةً . وَاَنْتَ تُرِيدُ مُؤْمِنًا إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ : مَثَلُ ٱلْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ ٱلنَّخْلَةِ اَوْ مَثَلِ ٱلْخَامَةِ . لَكُنْتَ كَٱلْمُلْغِزِ ٱلتَّارِكِ لِمَا يُفْهَمُ وَكُلَّمَا زَادَ ٱلتَّشْبِيهُ خَفَاءً زَادَتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حُسْنًا بِحَيْثُ يَكُونُ اَلْطَفَ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ. وَرُبَّمَا جُمِعَ بَيْنَ عِدَّةِ ٱسْتِعَارَاتٍ إِلْحَاقًا لِلشَّكْلِ بِٱلشَّكْلِ لِإِتْمَامِ ٱلتَّشْبِيهِ فَتَزِيدُ ٱلِاسْتِعَارَةُ بِهِ حُسْنًا كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي صِفَةِ ٱللَّيْلِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وَاَرْدَفَ اَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَٱعْلَمْ اَنَّهُ لَا بُدَّ اَيْضًا مِنْ مَعْنًى يَشْتَرِكُ بَيْنَ ٱلْمُسْتَعَارِ وَٱلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمُشْتَرَكُ بَيْنَ قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ مَثَلًا وَمَانِعِ ٱلْأَوَابِدِ هُوَ ٱلْحَبْسُ وَعَدَمُ ٱلِانْفِلَاتِ . وَبَيْنَ مِيزَانِ ٱلْقِيَاسِ وَتَعْدِيلِ حُصُولِ ٱلِاسْتِقَامَةِ هُوَ ٱرْتِفَاعُ ٱلْحَيْفِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى اَحَدِ ٱلْجَانِبَيْنِ . وَهٰكَذَا جَمِيعُ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَٱلْمَجَازَاتِ

البحث الخامس

فيما تدخلهُ الاستعارة وما لا تدخلهُ

(عن صناعة الترسل ايضاً)

اَلْأَعْلَامُ لَا يَدْخُلُهَا ٱلْإِسْتِعَارَةُ لِمَا تَقَدَّمَ فِي ٱلمَجَازِ . وَامَّا ٱلْفِعْلُ فَٱلِإسْتِعَارَةُ تَقَعُ اوَّلًا فِي ٱلْمَصْدَرِ ثُمَّ تَقَعُ بِوَاسِطَةِ ذٰلِكَ فِي ٱلْفِعْلِ . فَإِذَا قُلْتَ : نَطَقَتِ ٱلْحَالُ بِكَذَا . فَهٰذَا إِنَّمَا يَصِحُّ لِأَنَّكَ وَجَدْتَ ٱلْحَالَ مُشَابِهَةً لِلنُّطْقِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلشَّيْءِ فَلَا جَرَمَ ٱسْتَعَرْتَ ٱلنُّطْقَ لِتِلْكَ ٱلْحَالَةِ ثُمَّ نَقَلْتَهُ إِلَى ٱلْفِعْلِ . وَٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَقَّةُ فِي ذٰلِكَ كَٱلْفِعْلِ . فَظَهَرَ انَّ ٱلِإسْتِعَارَةَ إِنَّمَا تَقَعُ وُقُوعًا اوَّلِيًّا فِي اسْمَاءِ ٱلْأَجْنَاسِ . ثُمَّ ٱلْفِعْلُ إِذَا كَانَ مُسْتَعَارًا فَٱسْتِعَارَتُهُ إِمَّا مِنْ جِهَةِ فَاعِلِهِ كَقَوْلِهِ : نَطَقَتِ ٱلْحَالُ بِكَذَا اوْ لَعِبَتْ بِهِ ٱلْهُمُومُ . وَكَقَوْلِ جَرِيرٍ :

يَخْشَى ٱلرَّوَامِسَ رَبْعُهَا فَتُجِدُّهُ ... بَعْدَ ٱلْبِلَى وَتُمِيتُهُ ٱلْأَمْطَارُ

اوْ مِنْ جِهَةِ مَفْعُولِهِ كَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزّ :

جُمِعَ ٱلْحَقُّ لَنَا فِي إِمَامٍ ... قَتَلَ ٱلْجَوْرَ وَاحْيَا ٱلسَّمَاحَا

اوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْفَاعِلِ وَٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ ابْصَارَهُمْ . وَيَتَّصِلُ بِهٰذَا تَرْشِيحُ ٱلِإسْتِعَارَةِ وَتَجْرِيدُهَا . امَّا تَرْشِيحُهَا فَهُوَ انْ تَنْظُرَ فِيهَا إِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ وَتُرَاعِيَ جَانِبَهُ وَتُولِيَهُ مَا تَسْتَدْعِيهِ وَتَضُمَّ إِلَيْهِ مَا تَقْتَضِيهِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَصَدْرٍ ارَاحَ ٱللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ ... تَضَاعَفَ فِيهِ ٱلْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

ٱلْمُسْتَعَارُ فِيهِ وَهُوَ ٱلْإِزَاحَةُ مَنظُورٌ إِلَيْهِ فِي لَفْظِ ٱلْعَازِبِ . وَأَمَّا تَجْرِيدُهَا فَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ مَنْظُورًا إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ : فَأَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . فَإِنَّ ٱلْإِذَاقَةَ وَقَعَتْ عِبَارَةً عَمَّا يُدْرَكُ مِنْ أَثَرِ ٱلضَّرَرِ وَٱلْأَلَمِ تَشْبِيهًا لَهُ بِمَا يُدْرَكُ مِنْ طَعْمِ ٱلْمُرِّ. ٱلشَّبَعُ وَٱللِّبَاسُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَغْشَى مِنْهُمَا وَيُلَابِسُ فَكَأَنَّهُ قَالَ : فَأَذَاقَهَا مَا غَشِيَهَا مِنْ أَلَمِ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . وَكَقَوْلِ زُهَيْرٍ :

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي ٱلسِّلَاحِ مُقَذَّفٍ ... لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

فَلَوْ نَظَرَ إِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ لَقَالَ : لَدَى أَسَدٍ دَامِي أَوْ دَامِي ٱلْبَرَاثِنِ مَثَلًا. وَنَظَرَ زُهَيْرٌ فِي آخِرِ ٱلْبَيْتِ إِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ . وَمِنْهُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ :

غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا ... غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ ٱلْمَالِ

إِسْتَعَارَ ٱلرِّدَاءَ لِلْمَعْرُوفِ لِأَنَّهُ يَصُونُ عِرْضَ صَاحِبِهِ صَوْنَ ٱلرِّدَاءِ لِمَا يُلْقَى عَلَيْهِ . وَوَصَفَهُ بِٱلْغَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ وَصْفُ ٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّوَالِ لَا وَصْفُ ٱلرِّدَاءِ

وَيَقْرُبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلِٱسْتِعَارَةُ بِٱلْكِنَايَةِ وَهُوَ أَنْ لَا يُصَرِّحَ بِذِكْرِ ٱلْمُسْتَعَارِ بَلْ يَذْكُرُ بَعْضَ لَوَازِمِهِ تَنْبِيهًا بِهِ كَقَوْلِهِ : شُجَاعٌ يَفْتَرِسُ أَقْرَانَهُ وَعَالِمٌ يَغْتَرِفُ مِنْهُ ٱلنَّاسُ. وَكَقَوْلِ أَبِي ذُؤَيْبٍ :

وَإِذَا ٱلْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ ٱلشُّجَاعَ أَسَدٌ وَٱلْعَالِمَ بَحْرٌ وَٱلْمَنِيَّةَ سَبُعٌ . وَهٰذَا وَإِنْ كَانَ يُشْبِهُ ٱلِٱسْتِعَارَةَ ٱلْمُجَرَّدَةَ إِلَّا أَنَّهُ أَغْرَبُ وَأَعْجَبُ. وَيَقْرُبُ مِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ ٱلزِّمَاحِ فَإِنَّهُ   يُطِيعُ ٱلْعَوَالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

أَرَادَ أَنْ يَقُولَ : مَنْ لَمْ يَرْضَ بِأَحْكَامِ ٱلصُّلْحِ رَضِيَ بِأَحْكَامِ ٱلْحَرْبِ أَيْ أَشْرَعُوا ٱلأَسِنَّةَ وَأَخَّرُوا ٱلزِّمَاحَ . وَقَدْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْمُمَاثَلَةَ أَيْضًا . وَقَدْ يُنْزِلُونَ ٱلِاسْتِعَارَةَ مَنْزِلَةَ ٱلْحَقِيقَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ يَسْتَعِيرُونَ ٱلْوَصْفَ ٱلْمَحْسُوسَ لِلشَّيْءِ ٱلْمَعْقُولِ . وَيَجْعَلُونَ كَأَنَّ تِلْكَ ٱلصِّفَةَ ثَابِتَةٌ لِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَأَنَّ ٱلِاسْتِعَارَةَ لَمْ تُوجَدْ أَصْلًا . مِثَالُهُ ٱسْتِعَارَتُهُمُ ٱلْعُلُوَّ لِزِيَادَةِ ٱلرَّجُلِ عَلَى غَيْرِهِ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْرِ وَٱلسُّلْطَانِ ثُمَّ وَضْعُهُمُ ٱلْكَلَامَ وَضْعَ مَنْ يَذْكُرُ عُلُوًّا مَكَانِيًّا . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ ٱلْحَسُودُ   بِأَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي ٱلسَّمَاءِ

وَكَقَوْلِهِ أَيْضًا :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا   تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

البحث السادس

في اقسام الاستعارة

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٣٢ من علم الادب)

هِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يُعْتَمَدَ نَفْسُ ٱلتَّشْبِيهِ وَهُوَ أَنْ يَشْتَرِكَ شَيْئَانِ فِي وَصْفٍ وَأَحَدُهُمَا أَنْقَصُ مِنَ ٱلْآخَرِ . فَيُعْطَى ٱلنَّاقِصُ

اَسْمَ ٱلزَّائِدِ مُبَالَغَةً فِي تَحْقِيقِ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ لَهُ كَقَوْلِكَ: رَاَيْتُ اَسَدًا. وَاَنتَ تَعْنِي رَجُلًا شُجَاعًا. (وَٱلثَّانِي) تُعْتَمَدُ لَوَازِمُهُ عِنْدَمَا يَكُونُ جِهَةُ ٱلِاشْتِرَاكِ وَصْفًا وَاِنَّمَا ثَبَتَ كَمَالُهُ فِي ٱلْمُسْتَعَارِ فِي وَاسِطَةِ شَيْءٍ آخَرَ فَتُثْبِتُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ لِلْمُسْتَعَارِ لَهُ مُبَالَغَةً فِي اِثْبَاتِ ٱلْمُشْتَرَكِ. كَقَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًّا:

اِذَا هَزَّهُ فِي عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ نَوَاجِذُ اَفْوَاهِ ٱلْمَنَايَا ٱلضَّوَاحِكُ

لَمَّا شَبَّهَ ٱلْمَنَايَا عِنْدَ هَزَّةِ ٱلسَّيْفِ بِٱلسُّرُورِ وَكَمَالُ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ اِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلضَّحِكِ ٱلَّذِي يَتَهَلَّلُ بِهِ ٱلنَّوَاجِذُ اَثْبَتَهُ تَحْقِيقًا لِلْوَصْفِ ٱلْمَقْصُودِ وَاِلَّا فَلَيْسَ لِلْمَنَايَا مَا يُنْقَلُ اِلَيْهِ اَسْمُ ٱلنَّوَاجِذِ. وَهٰكَذَا ٱلْكَلَامُ فِي قَوْلِ ٱلْحَمَاسِيِّ:

سَقَاهُ ٱلرَّدَى سَيْفٌ اِذَا سُلَّ اَوْمَضَتْ اِلَيْهِ ثَنَايَا ٱلْمَوْتِ مِنْ كُلِّ مَرْقَبِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ مُرْخَى ٱلْعِنَانِ وَمُلْقَى ٱلزِّمَامِ.

وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقِسْمَيْنِ اَنَّكَ اِنْ رَجَعْتَ فِي ٱلْاَوَّلِ اِلَى ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمَقْصَدُ مِنْ كُلِّ ٱسْتِعَارَةٍ مُقَيَّدَةٍ وَجَدْتَهُ يَأْتِيكَ عَفْوًا كَقَوْلِكَ: رَاَيْتُ رَجُلًا كَٱلْاَسَدِ اَوْ مِثْلَهُ اَوْ شِبْهَهُ. وَاِنْ رُمْتَهُ فِي ٱلثَّانِي لَا يُؤَاتِيكَ تِلْكَ ٱلْمُؤَاتَاةَ اِذْ لَا وَجْهَ اَنْ تَقُولَ: شَيْءٌ مِثْلُ ٱلْيَدِ لِلشِّمَالِ. وَاِنَّمَا تَهَيَّاَ لَكَ ٱلتَّشْبِيهُ بَعْدَ اَنْ تَخْرُقَ اِلَيْهِ سِتْرًا اَوْ تَعْمَلَ تَأَمُّلًا وَفِكْرًا. وَفِي اِغْفَالِ هٰذَا ٱلْاَصْلِ وُقُوعٌ فِي ٱلتَّشْبِيهِ. وَذٰلِكَ اَنَّ مَنْ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ اَنَّ كُلَّ ٱسْمٍ يُسْتَعَارُ فَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ يُمْكِنُ ٱلْاِشَارَةُ اِلَيْهِ تَتَنَاوَلُهُ فِي حَالَةِ ٱلْمَجَازِ كَمَا تَتَنَاوَلُ مُسَمَّاهُ فِي حَالَةِ

ٱلْحَقِيقَةِ . ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قَوْلِهِ : وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي . وَقَوْلِهِ : تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا . أرْتَبَكَ فِي ٱلشَّكِّ وَحَامَ حَوْلَ ٱلظَّاهِرِ وَوَقَعَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ . فَفِي مَعْرِفَةِ هٰذَا إِخْلَاصٌ مِنْ ذٰلِكَ ٱلتَّشْبِيهِ وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱسْتِعَارَةً تَخْيِيلِيَّةً وَهُوَ كَإِثْبَاتِ ٱلْجَنَاحِ لِلذُّلِّ فِي قَوْلِهِ : وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . إِذَا عُرِفَ هٰذَا فَٱلنَّوْعُ ٱلْأَوَّلُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَحْسُوسِ . وَذٰلِكَ إِمَّا أَنْ يَشْتَرِكَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَخْتَلِفَا فِي ٱلصِّفَاتِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلطَّيَرَانِ لِغَيْرِ ذِي جَنَاحٍ فِي ٱلسُّرْعَةِ . فَإِنَّ ٱلطَّيَرَانَ وَٱلْعَدْوَ يَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَهِيَ ٱلْحَرَكَةُ ٱلْمَكَانِيَّةُ إِلَّا أَنَّ ٱلطَّيَرَانَ أَسْرَعُ . أَوْ بِأَنْ يَخْتَلِفَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَشْتَرِكَا فِي صِفَةٍ إِمَّا مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِمْ : رَأَيْتُ شَمْسًا . وَيُرِيدُونَ إِنْسَانًا يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ . وَكَقَوْلِهِ : وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . فَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلنَّارُ . وَٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلشَّيْبُ . وَٱلْجَامِعُ ٱلِٱنْبِسَاطُ وَلٰكِنَّهُ فِي ٱلنَّارِ أَقْوَى . وَإِمَّا غَيْرِ مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِ : إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ . ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلرِّيحُ وَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلْمَرْءُ وَٱلْجَامِعُ ٱلْمَنْعُ مِنْ ظُهُورِ ٱلنَّتِيجَةِ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يُسْتَعَارَ شَيْءٌ مَعْقُولٌ لِشَيْءٍ مَعْقُولٍ لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي وَصْفٍ عَدَمِيٍّ أَوْ ثُبُوتِيٍّ وَأَحَدُهُمَا أَكْمَلُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ فَيُنَزَّلُ ٱلنَّاقِصُ مَنْزِلَةَ ٱلْكَامِلِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْعَدَمِ لِلْوُجُودِ إِذَا ٱشْتَرَكَا فِي عَدَمِ ٱلْفَائِدَةِ أَوِ ٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْوُجُودِ لِلْعَدَمِ إِذَا بَقِيَتْ آثَارُهُ ٱلْمَطْلُوبَةُ مِنْهُ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَهْلِ بِٱلْمَوْتِ لِٱشْتِرَاكِ ٱلْمَوْصُوفِ بِهِمَا فِي عَدَمِ ٱلْإِدْرَاكِ وَٱلْعَقْلِ . وَكَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ لَقِيَ ٱلْمَوْتَ إِذَا لَقِيَ

ٱلشَّدَائِدَ لِأَشْتِرَاكِهِمَا فِي ٱلْمَكْرُوهِيَّةِ . وَقَوْلِهِ : وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَٱلسُّكُوتُ وَٱلزَّوَالُ أَمْرَانِ مَعْقُولَانِ . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَعْقُولِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلنُّورِ ٱلَّذِي هُوَ مَحْسُوسٌ وَٱسْتِعَارَةِ ٱلْقِسْطَاسِ لِلْعَدْلِ . وَكَقَوْلِهِ : بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ . فَٱلْقَذْفُ وَٱلدَّمْغُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ : فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . وَقَوْلِهِ : أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . ٱلْوَادِي وَٱلْهَيَمَانُ مُسْتَعَارَانِ . (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱسْمُ ٱلْمَعْقُولِ لِلْمَحْسُوسِ عَلَى ٱلتَّأْوِيلِ ٱلْمَذْكُورِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَقَوْلِهِ : إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ . فَٱلشَّهِيقُ وَٱلْغَيْظُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ : حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا

البحث السابع

في جيد الاستعارة ورديئها ومتوسطها

(عن كتاب الصناعتين وصناعة الترسل)

قَالَ مُحَمَّدٌ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ بْنِ سِنَانٍ ٱلْخَفَاجِيُّ : وَقَدِ ٱخْتَارَ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ بِشْرٍ ٱلْآمِدِيُّ مِنْ جُمْلَةِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ قَوْلَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ‍ ‍ ‍ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَقَالَ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلِٱسْتِعَارَةَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَ وَصْفَ أَحْوَالِ ٱللَّيْلِ فَذَكَرَ ٱمْتِدَادَ وَسْطِهِ وَتَثَاقُلَ صَدْرِهِ لِلذَّهَابِ وَٱلِٱنْبِعَاثِ وَتَرَادُفَ أَعْجَازِهِ وَأَوَاخِرِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَقَالَ ٱلْخَفَاجِيُّ :

وَهٰذَا ٱلَّـذِي ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ لَا أَرْضَى بِهِ غَايَةَ ٱلرِّضَى وَلَوْ كُنْتُ أَسْكُنُ إِلَى تَقْلِيدِ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَقَـلَّدْتُهُ لِحُسْنِ نَظَرِهِ وَصِحَّةِ فِكْرِهِ وَهُوَ عِنْدِي مِنَ ٱلْوَسَطِ لَيْسَ مِنْ جَيِّدِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ وَلَا مِنْ رَدِيئِهَا . وَإِنَّمَا قُلْتُ ذٰلِكَ لِأَنَّ أَبَا ٱلْقَاسِمِ قَدْ أَفْصَحَ بِأَنَّ ٱمْرَءَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا جَعَـلَ لِلَّيْلِ وَسَطًا وَعَجُزًا ٱسْتَعَارَ لَهُ ٱسْمَ ٱلصُّلْبِ وَجَعَلَهُ مُتَمَطِّيًا مِنْ أَجْلِ ٱمْتِدَادِهِ وَجَعَلَ ٱلْـكَلْكَلَ مِنْ أَجْلِ نُهُوضِهِ وَكُلُّ هٰذَا إِنَّمَا يَحْسُنُ بَعْضُهُ لِأَجْلِ بَعْضٍ . فَذِكْرُ ٱلصُّلْبِ إِنَّمَا حَسُنَ لِأَجْلِ ٱلْعَجُزِ . وَٱلتَّمَطِّي لِأَجْلِ ٱلصُّلْبِ . وَٱلْـكَلْكَلُ لِمَجْمُوعِ ذٰلِكَ . وَهٰذِهِ ٱلْاِسْتِعَارَةُ ٱلْمَبْنِيَّةُ عَلَى غَيْرِهَا فَلِذٰلِكَ لَمْ أَرَ أَنْ تُجْعَلَ مِنْ أَبْلَغِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَكَانَتِ ٱسْتِعَارَةُ طُفَيْلٍ ٱلْغَنَوِيِّ فِي قَوْلِهِ :

وَجَعَلْتُ رَحْلِي فَوْقَ نَاجِيهِ ... يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنَامِهَا ٱلرَّحْلُ

أَوْفَقَ وَأَوْضَحَ . لِأَنَّهَا غَنِيَّةٌ بِنَفْسِهَا غَيْرُ مُفْتَقِرَةٍ إِلَى مُقَدِّمَةٍ حِلْيَتُهَا . (وَقَالَ) وَقَدْ كُنْتُ مَثَّلْتُ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلْمَذْمُومَةِ بِبَيْتَيْنِ أَحَدُهُمَا قَوْلُ ٱبْنِ نُبَاتَةَ :

حَتَّى إِذَا بَهَرُوا ٱلْأَبَاطِحَ وَٱلثَّرَى ... نَظَرُوا إِلَيْكَ بِأَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ

فَنَظَرَ أَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ مِنْ أَشْبَهِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَأَلْيَقِهَا . لِأَنَّ ٱلنُّوَّارَ يُشْبِهُ ٱلْعُيُونَ إِذَا كَانَ مُقَابِلًا لِمَنْ يَمُرُّ بِهِ كَأَنَّهُ مُنَاظِرٌ إِلَيْهِ . وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي بَيْتُ أَبِي تَمَّام :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ ٱلدِّينِ وَٱسْتَتَرَتْ ... بِٱلْأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ ٱلشِّرْكِ فَٱصْطُلِمَا

وَقُرَّةُ عَيْنِ ٱلدِّينِ وَٱسْتِتَارُ عُيُونَ ٱلشِّرْكِ مِنْ أَقْبَحِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ

لِعدم الشَّبه الَّذي لأجلهِ جعل للشِّرك عُيوناً . ومن تأمَّل هذين البيتين لا يفهم معنى الاستعارة لأنَّ النُّوَّار والشِّرك لا عيون لهما على الحقيقة . وقد قبحت استعارة العيون لاحدهما وحسنت للآخر . والعلَّة فيه أنَّ النُّوَّار يشبه العيون . والدِّين والشِّرك ليس فيهما ما يشبهها ولا يقاربها . ومن احسن الاستعارات كقول الشَّريف الرَّضيّ :

رَسا النَّسيمُ بواديكمْ ولا برحتْ　　حواملُ المزنِ في اجداثكمْ تضعُ

ولا يزال جنينُ النَّبتِ يُرضعهُ　　على قبوركمُ العرَّاصةُ الهمعُ

لأنَّ المزن تحمل الماء وإذا حملت تضعهُ فاستعارة الحمل لها والوضع المعروفين من اقرب شيء واشبههِ . وكذلك جنين النَّبت لأنَّ الجنين المستور مأخوذ من الجنَّة . واذا كان النَّبت مستوراً والغيث يسقيه كان ذلك بمنزلة الرَّضاع

وامثال المحاسن في ذلك والمساوئ كثيرة وقد اخذ القول في هذا الباب حقَّهُ . مع أنَّ اقوال العلماء بهذا الفنّ فيه اكثر من ذلك



البحث الثامن

في ما جاء من الاستعارات في كلام العرب

(عن كتاب الصناعتين للعسكري وسر العربيّة للثعالبي)

وَأَمَّا مَا جَاءَ فِي قَوْلِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ فَكَثِيرٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : هٰذَا رَأْسُ ٱلْأَمْرِ وَوَجْهُهُ وَرَأْسُ ٱلْمَالِ . وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ فِي جَنْبِ غَيْرِهِ يَسِيرٌ . وَيَقُولُونَ : هٰذَا جَنَاحُ ٱلْحَرْبِ وَقَلْبُهَا وَجَنَاحُ ٱلطَّرِيقِ . وَهٰؤُلَاءِ رُؤُوسُ ٱلْقَوْمِ وَجَمَاجِمُهُمْ وَعُيُونُهُمْ . وَفُلَانٌ ظَهْرُ فُلَانٍ وَلِسَانُ قَوْمِهِ وَنَابُهُمْ وَعَضُدُهُمْ . وَهٰذَا كَلَامٌ لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ . وَفِي ٱلْعَرَبِ : ٱلْجَمَاجِمُ . وَٱلْقَبَائِلُ . وَٱلْأَفْخَاذُ . وَٱلْبُطُونُ . وَخَرَجَ عَلَيْنَا عُنُقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَهُ عِنْدِي يَدٌ بَيْضَاءُ . وَهٰذِهِ عَيْنُ ٱلْمَاءِ . وَحَاجِبُ ٱلشَّمْسِ . وَلِسَانُ ٱلنَّارِ . وَهٰذَا أَنْفُ ٱلْجَبَلِ . وَبَطْنُ ٱلْوَادِي . وَكَبِدُ ٱلسَّمَاءِ . وَسَاقُ ٱلشَّجَرَةِ . وَيَقُولُونَ فِي ٱلتَّفَرُّقِ : ٱنْشَقَّتْ عَصَاهُمْ . وَشَالَتْ نَعَامَتُهُمْ . وَمَرُّوا بَيْنَ سَمْعِ ٱلْأَرْضِ وَبَصَرِهَا . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ٱشْتِدَادِ ٱلْأَمْرِ : كَشَفَتِ ٱلْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا . أَبْدَى ٱلشَّرُّ نَاجِذَيْهِ . حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ . دَارَتْ رَحَى ٱلْحَرْبِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ : ٱفْتَرَّ ٱلصُّبْحُ عَنْ نَوَاجِذِهِ . ضَرَبَ بِعَمُودِهِ . سُلَّ سَيْفُ ٱلصُّبْحِ مِنْ غِمْدِ ٱلظَّلَامِ . نَعَرَ ٱلصُّبْحُ فِي قَفَا ٱللَّيْلِ . بَاحَ ٱلصَّبَاحُ بِسِرِّهِ . وَهِيَ نِطَاقُ ٱلْجَوْزَاءِ . ٱنْحَطَّ قِنْدِيلُ ٱلثُّرَيَّا . ذَرَّ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ . ٱرْتَفَعَ ٱلنَّهَارُ . تَرَجَّلَتِ ٱلشَّمْسُ بِجَمَرَاتِ ٱلظَّهِيرَةِ . بَقَّلَ وَجْهُ ٱلنَّهَارِ . خَفَقَتْ رَايَاتُ ٱلظَّلَامِ .

نوّرت حدائق الجوّ . شاب رأس الليل . لبست الشمس جلبابها . قام خطيب الرعد . خفق قلب البرق . انحلّ عقد السماء . وهى عقد الانداء . انقطع شريان الغمام . تنفّس الربيع . تعطّر النسيم . تبرّجت الارض . قوي سلطان الحرّ . آن ان يجيش مرجله . ويثور قسطله . انحسر قناع الصيف . جاشت جيوش الخريف . حلّت الشمس الميزان . وعدل الزمان . دبّت عقارب البرد . اقدم الشتاء كلكله . شابت مفارق الجبال . يوم عبوس قمطرير . كشّر عن ناب الزمهرير .

وكقولهم في محاسن الكلام : الادب غذاء الروح . الشباب باكورة الحياة . النار فاكهة الشتاء . العيال سوس المال . النبيذ كيمياء الفرح . الوحدة قبر الحيّ . الصبر مفتاح الفرج . الدَّين داء الكرام . النمّام جسر الشرّ . الارجاف زند الفتنة . الشكر نسيم النعيم . الربيع شباب الزمان . الولد ريحانة الروح . الشمس قطيفة المساكين . الطيب لسان المروءة . ويسمّون النبات نوًا . قال : وجفّ انواء السحاب . اي جفّ البقل . ويقولون للمطر سماء . قال الشاعر :

اذا سقط السماء بارض قوم رعيناها وان كانوا غضابا

ويقولون : ضحكت الارض اذا انبتت لانها تبدي عن حسن النبات كما يفترّ الضاحك عن الثغر . ويقال : ضحكت الظلمة . والنور يضاحك الشمس . قال الاعشى :

يضاحك الشمس منه كوكب مشرق مؤزّر لعميم النبت مكتهل

وَيقُولُونَ : ضَحِكَ ٱلسَّحابُ بِٱلبَرْقِ وَحَنَّ بِٱلرَّعْدِ وَبَكَى بِٱلقَطْرِ . وَيقُولُونَ : لَقِيتُ مِنْ فُلَانٍ عَرَقَ ٱلقِرْبَةِ اَيْ شِدَّةً وَمَشَقَّةً . (وَاَصْلُ هٰذَا اَنَّ حَامِلَ ٱلقِرْبَةِ يَتْعَبُ مِنْ ثِقْلِهَا حَتَّى يَعْرَقَ) . وَيقُولُونَ اَيْضًا : لَقِيتُ مِنْهُ عَرَقَ ٱلجَبِينِ . وَٱلعَرَبُ تَقُولُ : بِاَرْضِ فُلَانٍ شَجَرٌ قَدْ صَاحَ . وَذٰلِكَ اِذَا طَالَ فَتَبَيَّنَ لِلنَّاظِرِ بِطُولِهِ وَدَلَّ عَلَى نَفْسِهِ لِاَنَّ ٱلصَّائِحَ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ بِصَوْتِهِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلعَجَّاجِ :

كَٱلكَرْمِ اِذْ نَادَى مِنَ ٱلكَافُورِ

وَمِمَّا جَاءَ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلبَابِ فِي ٱلقُرْآنِ وَكَلَامِ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مَا نَصُّهُ : ٱلبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِٱلمَنْطِقِ . وَقَوْلُهُ : اُذْكُرُوا هَادِمَ ٱللَّذَّاتِ . وَقَوْلُهُ : اِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . وَقَوْلُهُ : اَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ ٱلجُوعِ وَٱلخَوْفِ . وَقَوْلُهُ : اَشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . وَقَوْلُهُ : وَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ ٱلعَذَابِ . وَقَوْلُهُ : لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلغَضَبُ . وَقَالَ عَلِيٌّ : ٱلسَّفَرُ مِيزَانُ ٱلقَوْمِ . وَقَالَ : وَاَمَا وَقَدِ ٱتَّسَعَ نِطَاقُ ٱلاِسْلَامِ . وَلَهُ قَوْلُهُ لِٱبْنِ عَبَّاسٍ : اَرْغِبْ رَاغِبَهُمْ وَاَحْلِلْ عُقْدَةَ ٱلخَوْفِ عَنْهُمْ . وَقَوْلُهُ : ٱلعِلْمُ قُفْلٌ مِفْتَاحُهُ ٱلمَسْئَلَةُ . وَقَوْلُهُ : ٱلحِلْمُ وَٱلاَنَاةُ تَوْاَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ ٱلهِمَّةِ . وَقَالَ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ يَصِفُ ٱلدُّنْيَا : اِنَّ ٱمْرَءًا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا فِي فَرْحَةٍ اِلَّا اَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا تَرْحَةً وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْنًا اِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْرًا . وَلَمْ تُطِلَّهُ فِيهَا غَابَةُ رَخَاءٍ اِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ . وَلَمْ يُمْسِ مِنْهَا فِي جَنَاحِ آمِنٍ اِلَّا اَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ . وَقَالَ اَبُو بَكْرٍ : اِنَّ ٱلمَلِكَ اِذَا مَلَكَ زَهَّدَهُ ٱللهُ

فِي مَالِهِ وَرَغْبَةُ فِيمَا فِي يَدِ غَيْرِهِ وَأَشْرَبَ قَلْبَهُ ٱلْإِشْفَاقَ . فَهُوَ يَحْسِدُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَيَسْخَطُ عَلَى ٱلْكَثِيرِ جَزْلُ ٱلظَّاهِرِ حَزِينُ ٱلْبَاطِنِ . فَإِذَا وَجَبَتْ نَفْسُهُ وَنَفِرَ عُمْرُهُ وَضَحَى ظِلُّهُ حَاسَبَهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَشَدَّ حِسَابَهُ وَأَقَلَّ عَفْوَهُ . وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ إِلَى مَرَازِبَةِ فَارِسَ : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي قَصَّرَ خِدْمَتَكُمْ وَفَرَّقَ كَلِمَتَكُمْ . وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ : دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ سَمِينِ ٱلْأَمَانَةِ أَعْجَفِ ٱلْخِيَانَةِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ وَهْبٍ : ٱلرَّأْيُ لِأَصْحَابِهِ لَا خَيْرَ فِي ٱلرَّأْيِ ٱلْفَطِيرِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْقَضِيبِ . فَلَمَّا بَايَعُوهُ قَالَ : دَعُوا ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ فَإِنَّ غُبُوبَهُ يَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ مَحَلِّهِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : إِنَّكَ لَحَسَنُ ٱلْكِدْنَةِ . قَالَ : عِنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللهِ عِنْدِي . وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلْحِلْمُ دِعَامَةُ ٱلْعَقْلِ . وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ لِرَجُلٍ : رَحِمَ ٱللهُ أَبَاكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَقْرِي ٱلْعَيْنَ جَمَالًا وَٱلْأُذُنَ بَيَانًا . وَقِيلَ لِرُؤْبَةَ : كَيْفَ تَرَكْتَ مَا وَرَاءَكَ . قَالَ : ٱلتُّرَابُ يَابِسٌ وَٱلْمَالُ عَابِسٌ . وَقَالَ ٱلْمَنْصُورُ لِبَعْضِهِمْ : بَلَغَنِي أَنَّكَ بَخِيلٌ : قَالَ مَا أَجْمُدُ فِي حَقٍّ وَلَا أَذُوبُ فِي بَاطِلٍ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلْمَوْصِلِيُّ : قُلْتُ لِلْعَبَّاسِ ٱبْنِ ٱلْحُسَيْنِ : إِنِّي لَأُحِبُّكَ . قَالَ : رَائِدُ ذٰلِكَ عِنْدِي . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلِاسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : ٱلشُّكْرُ كُفُوُ ٱلنِّعْمَةِ . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : خَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ حِنْدِسٍ قَدْ أَلْقَتْ عَلَى ٱلْأَرْضِ أَكْرَاعَهَا فَمَحَتْ صُورَةَ ٱلْأَبْدَانِ فَمَا كُنَّا نَتَعَارَفُ إِلَّا بِٱلْآذَانِ . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِآخَرَ : يَسَارُ ٱلنَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ يَسَارِ ٱلْمَالِ وَرُبَّ شَبْعَانَ مِنَ ٱلنِّعَمِ غَرْثَانَ مِنَ ٱلْكَرَمِ . وَقَالَ آخَرُ فِي حَرْبٍ : جَعَلُوا ٱلْحَرْبَ

اَرْشِيَةَ ٱلْمَوْتِ وَٱسْتَقَوْا بِهَا اَرْوَاحَ ٱلْعَدُوِّ . وَقَالَ آخَرُ : فُلَانٌ اَمْلَسُ لَيْسَ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وَقَالَ اَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ شَتَمَهُ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَأْمُونِ : رَاَيْتُهُ يَسْتَمْلِي مَا يَلْقَانِي بِهِ مِنْ عَيْنَيْكَ. وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : اَيُّ طَعَامٍ اَطْيَبُ . قَالَ : ٱلْجُوعُ اَبْصَرُ . وَمَدَحَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا قَالَ : كَانَ يَفْتَحُ مِنَ ٱلرَّأْيِ اَبْوَابًا مُنْسَدَّةً وَيَغْسِلُ مِنَ ٱلْعَارِ وُجُوهًا مُسْوَدَّةً . اِذَا عَرَضَتْ لَهُ زِينَةُ ٱلدُّنْيَا هَجَّنَتْهَا صُورَةُ ٱلْحَمْدِ عِنْدَهُ وَاِنَّ لِلْمَصَانِعِ لَغَارَةً عَلَى اَمْوَالِهِ كَغَارَةِ سُيُوفِهِ عَلَى اَعْدَائِهِ . وَمَدَحَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : اُولَائِكَ غُرَرٌ تُضِيءُ فِي ظُلَمِ ٱلْاُمُورِ ٱلْمُشْكِلَةِ قَدْ صَغَتْ آذَانُ ٱلْمَجْدِ اِلَيْهِمْ . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ يَمْدَحُ رَجُلًا : اِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ اَنَّ ٱللّٰهَ مَادَّتُهُ . وَمَدَحَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : لِسَانُهُ اَحْلَى مِنَ ٱلشَّهْدِ وَقَلْبُهُ سِجْنُ ٱلْحِقْدِ. اِنْ اَسَأْتَ اِلَيْهِ اَحْسَنَ وَكَاَنَّهُ ٱلْمُسِيءُ . وَاِذَا اَجْرَمْتَ غَفَرَ وَكَاَنَّهُ ٱلْمُجْرِمُ . اِشْتَرَى بِٱلْمَعْرُوفِ عِرْضَهُ مِنَ ٱلْاَذَى فَهُوَ وَاِنْ كَانَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا بِاَسْرِهَا فَوَهَبَهَا رَاَى بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ حُقُوقًا لَا يَسْتَعْذِبُ ٱلْخَنَى وَلَا يَسْتَحْسِنُ غَيْرَ ٱلْوَفَاءِ. وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ : لَا تُدَنِّسْ شِعْرَكَ بِعِرْضِ فُلَانٍ فَاِنَّهُ سَمِينُ ٱلْمَالِ مَهْزُولُ ٱلْمَعْرُوفِ مِنَ ٱلْمَرْزُوقِينَ فُجَاءَةً قَصِيرُ عُمْرِ ٱلْغِنَى طَوِيلُ حَيَاةِ ٱلْفَقْرِ . وَسَاَلَ اَعْرَابِيٌّ فَقِيلَ لَهُ : عَلَيْكَ بِٱلصَّيَارِفِ . فَقَالَ : هُنَاكَ وَرَارَةُ ٱللُّؤْمِ . وَذَكَرَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : اُولَائِكَ قَوْمٌ قَدْ سَلَخَتْ اَقْفَاءَهُمْ بِٱلْهِجَاءِ وَدَبَغَتْ جُلُودَهُمْ بِٱللَّوْمِ . فَلِبَاسُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلْمَلَامَةُ وَزَادُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ٱلنَّدَامَةُ . وَذَمَّ اَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : هُمْ اَقَلُّ ذُنُوبًا اِلَى اَعْدَائِهِمْ

وَاكْثَرُ تَجَرُّمًا عَلَى اَصْدِقَائِهِمْ . يَصُومُونَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيُفْطِرُونَ عَلَى ٱلْفَحْشَاءِ . وَذَمَّ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : ذَاكَ رَجُلٌ تَغْدُو اِلَيْهِ مَوَاكِبُ ٱلضَّلَالَةِ وَتَرْجِعُ مِنْ عِنْدِهِ بُذُورُ ٱلْآثَامِ مُعْدِمٌ مِمَّا يُحِبُّ مُثْرٍ مِمَّا يُكْرَهُ . وَقَالَ آخَرُ : مَا رَاَيْتُ دَمْعَةً تَرَقْرَقُ فِي عَيْنٍ وَتَجْرِي عَلَى خَدٍّ اَحَرَّ مِنْ عَبْرَةٍ اَمْطَرَتْهَا عَيْنَاهُ وَاَعْشَبَ لَهَا قَلْبِي . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ وَذَكَرَ زُهَّادًا : فَازَ قَوْمٌ اَدَّبَتْهُمُ ٱلْحِكْمَةُ وَاَحْكَمَتْهُمُ ٱلتَّجَارِبُ وَلَمْ تَغْرُرْهُمُ ٱلسَّلَامَةُ ٱلْمُنْطَوِيَةُ عَلَى ٱلْهَلَكَةِ . وَرَحَلَ عَنْهُمُ ٱلتَّسْوِيفُ ٱلَّذِي قَطَعَ بِهِ ٱلنَّاسُ مَسَافَةَ آجَالِهِمْ وَاَحْسَنُوا ٱلْمَقَالَ وَشَفَعُوهُ بِٱلْفِعَالِ تَرَكُوا ٱلنَّعِيمَ لِيَتَنَعَّمُوا . لَهُمْ عَبَرَاتٌ مُتَدَافِعَةٌ لَا يَرَاهُمْ اِلَّا فِي وَجْهٍ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَجِيهٍ . وَوَصَفَ اَعْرَابِيٌّ وَالِيًا فَقَالَ : كَانَ اِذَا وُلِّيَ لَمْ يُطَابِقْ بَيْنَ جُفُونِهِ وَاَرْسَلَ ٱلْعُيُونَ عَلَى عُيُونِهِ . فَهُوَ شَاهِدٌ مَعَهُمْ غَائِبٌ عَنْهُمْ فَٱلْمُحْسِنُ آمِنٌ وَٱلْمُسِيءُ خَائِفٌ . وَذَكَرَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : كَانَ ٱلْفَهْمُ مِنْهُ ذَا اُذُنَيْنِ وَٱلْجَوَابُ مِنْهُ ذَا لِسَانَيْنِ . لَمْ اَرَ اَحَدًا كَانَ اَرْتَقَ لِخَلَلِ ٱلسَّرَّاءِ مِنْهُ كَانَ بَعِيدَ مَسَافَةِ ٱلرَّأْيِ يَرْمِي بِطَرْفِهِ حَيْثُ اَشَارَ ٱلْكَرَمُ . وَمَا زَالَ يَتَحَسَّى مَرَارَةَ ٱلْاِخْوَانِ وَيُسِيغُهُمُ ٱلْعَذْبَ . وَوَصَفَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمَهُ فَقَالَ : اِذَا ٱصْطَفُّوا تَحْتَ ٱلْقَتَامِ سَفَرَتْ بَيْنَهُمُ ٱلسِّهَامُ بِوُقُوفِ ٱلْحِمَامِ . وَاِذَا تَصَافَحُوا بِٱلسُّيُوفِ فَغَرَتِ ٱلْمَنَايَا بِاَفْوَاهِهَا . فَكَمْ مِنْ يَوْمٍ عَارِمٍ قَدْ اَحْسَنُوا اَدَبَهُ وَحَرْبٍ عَبُوسٍ قَدْ ضَاحَكَتْهَا اَسِنَّتُهُمْ وَخَطْبٍ قَدْ ذَلَّلُوا مَنَاكِبَهُ . اِنَّمَا كَانُوا كَٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي لَا يَنْكَشِ غِمَارُهُ وَلَا يُنْهَنَهُ تَيَّارُهُ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : لِمَ لَا تَشْرَبُ ٱلنَّبِيذَ . فَقَالَ : لَا اَشْرَبُ مَا يَشْرَبُ عَقْلِي .

وَقَالَ آخَرُ : اَلْخَطُّ مَرْكَبُ ٱلْبَيَانِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اَلْقَلَمُ لِسَانُ ٱلْبَيَانِ . وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأَطِبَّاءِ يَقُولُ : اَلْمَاءُ مَطِيَّةُ ٱلطَّعَامِ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِكَاتِبِهِ : لَا تُكَدِّرْ مَاءَ مَعْرُوفِي بِٱلْمَنِّ فَإِنَّ ٱعْتِدَادَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ يَعْقِلُ لِسَانَ ٱلشُّكْرِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي مَنْثُورِ ٱلْكَلَامِ وَفِيمَا أَوْرَدْنَاهُ كِفَايَةٌ . وَأَمَّا ٱلْاَسْتِعَارَةُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى

البحث التاسع

في مراعاة النظير

(من شرح بديعية العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٣١ من علم الادب)

يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّنَاسُبَ وَٱلِٱئْتِلَافَ وَٱلتَّوْفِيقَ وَٱلْمُؤَاخَاةَ . وَهُوَ فِي ٱصْطِلَاحِ ٱلْبَدِيعِيِّينَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ أَمْرٍ وَمَا يُنَاسِبُهُ لَا عَلَى جِهَةِ ٱلتَّضَادِّ . وَهُوَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ . (ٱلْأَوَّلُ) يُذْكَرُ فِيهِ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فَقَطْ كَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَشَّابِ لِلْخَلِيفَةِ ٱلْمُسْتَضِيءِ :

وَرَدَ ٱلْوَرَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَٱرْتَوَوْا ... وَوَقَفْتُ دُونَ ٱلْوِرْدِ وِقْفَةَ حَائِمِ

ظَمْآنَ أَطْلُبُ خِفَّةً مِنْ زَحْمَةٍ ... وَٱلْوِرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحُمِ

فَٱنْظُرْ حُسْنَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ كَيْفَ جَرَيَا كَٱلْمَاءِ فِي طَلَاوَتِهِ . وَوَقَعَا مِنَ ٱلْقُلُوبِ كَٱلشَّهْدِ فِي حَلَاوَتِهِ . مَعَ أَنَّ نَاظِمَهُمَا مَا خَرَجَ عَنْ وَصْفِ ٱلْمَاءِ كَلَامُهُ . وَلَا تَعَدَّى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى نِظَامُهُ . فَأَوْدَعَهُمَا فِي عَشْرِ مَوَاضِعَ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ . فِيهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لَيْسَ لَهُ مِنْ نَظِيرٍ . لٰكِنَّهُ مَا سَلِمَ

مَلِيحٌ مِنْ عَيْبٍ. وَلَا خَلَا مِنْ مَرْفُوعِ رَيْبٍ. فَمَعَ هٰذِهِ ٱلْمَحَاسِنِ ٱلظَّرِيفَةِ مَا سَلِمَ ٱلْبَيْتَانِ مِنْ عَيْبِ ٱلْقَافِيَةِ. فَقَدْ غَيَّرَ ٱلنَّاظِمُ كَسْرَةَ ٱلدَّخِيلِ عَلَى ٱلضَّمَّةِ. وَجَاءَ فِي ذٰلِكَ بِمَا عَابَهُ كُلُّ أَدِيبٍ وَذَمَّهُ. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلسَّلَامِيِّ:

وَٱلنَّقْعُ ثَوْبٌ بِٱلنُّسُورِ مُطَرَّزٌ ... وَٱلْأَرْضُ فَرْشٌ بِٱلْجِيَادِ مُخَمَّلُ

وَسُطُورُ خَيْلِكَ إِنَّمَا أَلِفَاتُهَا ... سُمْرٌ تُنَقَّطُ بِٱلدِّمَاءِ وَتُشْكِلُ

نَاسَبَ بَيْنَ ٱلثَّوْبِ وَٱلتَّطْرِيزِ وَٱلْخَمْلِ وَبَيْنَ ٱلسُّطُورِ وَٱلْأَلِفَاتِ وَٱلنَّقْطِ وَٱلشَّكْلِ

(تَنْبِيهٌ) وَلَوْ ذُكِرَ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا لَا يُنَاسِبُهُ كَانَ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ عَيْبًا. كَقَوْلِ أَبِي نُوَّاسٍ:

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا ... مَبْرُورَةً لَا تُكَذَّبْ

بِرَبِّ زَمْزَمَ وَٱلْحَوْ ... ضِ وَٱلصَّفَا وَٱلْمُحَصَّبْ

عَابُوا عَلَيْهِ ذِكْرَ ٱلْحَوْضِ مَعَ زَمْزَمٍ وَٱلصَّفَا وَٱلْمُحَصَّبِ. وَإِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ ذِكْرُهُ مَعَهَا. وَإِنَّمَا يُنَاسِبُ ذِكْرُ ٱلْحَوْضِ مَعَ ٱلْمِيزَانِ وَٱلصِّرَاطِ وَشِبْهِهِمَا مِمَّا هُوَ مَنُوطٌ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ

(تَنْبِيهٌ ثَانٍ) لَوْ جَاءَ ٱلْكَاتِبُ بِمُتَنَاسِبَيْنِ فَأَفْرَدَ أَحَدَهُمَا وَثَنَّى ٱلْآخَرَ أَوْ جَمَعَهُ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ كَانَ عَيْبًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

أَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَمَاتُوا ... أَمَا وَٱللّٰهِ مَا مَاتُوا لِتَبْقَى

وَمَا لَكَ فَٱعْلَمَنْ فِيهَا بَقَاءٌ ... إِذَا ٱسْتَكْمَلْتَ آجَالًا وَرِزْقَا

فَجَمَعَ (ٱلْأَجَلَ) وَأَفْرَدَ (ٱلرِّزْقَ) مَعَ أَنَّهُمَا مُتَنَاسِبَانِ. (ٱلثَّانِي) أَنْ يُذْكَرَ شَيْءٌ أَوْ أَشْيَاءُ كُلٌّ وَاحِدٍ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فِي جُمَلٍ مُسْتَوِيَةٍ

ٱلْمِقْدَارِ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّفْوِيفَ لِشَبَهِهِ بِٱلثَّوْبِ ٱلْمُفَوَّفِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ خُطُوطٌ مُسْتَوِيَةٌ وَتَشْبِيهُ ٱلْجُمَلِ بِٱسْتِوَاءِ تِلْكَ ٱلْخُطُوطِ . وَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْجُمَلُ طِوَالًا كُلُّهَا أَوْ مُتَوَسِّطَةً . وَكُلُّهَا إِمَّا أَنْ يَكُونَ آخِرُهَا فِي بَعْضِ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْمُدْمَجَةُ . وَإِمَّا أَنْ يُوَافِقَ آخِرُهَا آخِرَ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْغَيْرُ ٱلْمُدْمَجَةِ وَهُوَ ٱلْأَحْسَنُ . فَمِنْ قَوْلِ ٱبْنِ عُنَيْنٍ :

دَعَتْ فِي أَعَالِي ٱلسُّغْدِ يَوْمًا حَمَامَةٌ ... عَلَى فَنَنٍ مِنْ كُلِّ رَيَّانَ كَٱلْيَمِّ

فَهَاجَتْ مَشُوقًا وَٱسْتَفَزَّتْ مُتَيَّمًا ... وَأَبْكَتْ غَرِيبًا وَٱسْتَخَفَّتْ أَخَا عِلْمِ

(ٱلسُّغْدُ مَوْضِعٌ بِسَمَرْقَنْدَ قَدِ ٱتُّخِذَ لِلنَّزَاهَةِ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْحُسْنِ) . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي مَدْحٍ :

وَٱلدَّهْرُ يُقْبِلُ أَنْ تُقْبِلْ وَيُعْرِضُ إِنْ ... تُعْرِضْ وَغَيْرُ ٱلَّذِي قَدْ رُمْتَ لَمْ يَرُمِ

إِنْ قُلْتَ يَسْمَعْ وَإِنْ تَأْمُرْ يُطِعْ وَمَتَى ... فَعَلْتَ تُسْعَدْ وَإِنْ لَاحَظْتَ تُحْتَرَمِ

وَقَدْ بَلَغَ بِهَا ٱلْمُتَنَبِّي إِلَى أَرْبَعَ عَشْرَةَ جُمْلَةً لٰكِنْ بِغَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ فَثَقُلَتْ وَخَرَجَتْ عَنْ سِلْكِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهِيَ قَوْلُهُ :

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ ... زِدْ هَشِّ بَشِّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

(ٱلثَّالِثُ) مِنْ مُرَاعَاةِ ٱلنَّظِيرِ أَنْ تَذْكُرَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ وَتَخْتِمَ ٱلْكَلَامَ بِشَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا يُلَائِمُ وَاحِدًا مِمَّا تَقَدَّمَ . وَٱلْآخَرُ يُلَائِمُ ٱلْآخَرَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ تَنَاسُبَ ٱلْأَطْرَافِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ : لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ . وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . فَٱللَّطِيفُ يُنَاسِبُ مَا لَا يُدْرَكُ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَفَاءِ . وَٱلْخَبِيرُ يُنَاسِبُ مَنْ هُوَ مُدْرِكٌ لِلطَّائِفِ

ٱلأَشْيَاءِ . (الرَّابِعُ) اَنْ تَذْكُرَ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ تَذْكُرَ مَعَهُ لَفْظًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ اَمْرَيْنِ: اَحَدُهُمَا يُلاَئِمُ ٱلأَوَّلَ وَٱلآخَرُ لاَ يُلاَئِمُهُ فَيَتَوَهَّمُ ٱلسَّامِعُ اَنَّهُ مُرَادِفُ ٱلْمُلاَئِمِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ اِيهَامَ ٱلتَّنْظِيرِ. كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ: ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . فَيُتَوَهَّمُ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْمُرَادَ بِٱلنَّجْمِ ٱلنَّبَاتُ لاَ ٱلْكَوْكَبُ لِعَطْفِ ٱلشَّجَرِ عَلَيْهِ

البحث العاشر

في المجاز المرسل

(عن السكاكي والدسوقي والثعالبي باختصار)

(راجع صفحة ٣٣ من علم الادب)

اِنَّ عَلاَقَةَ ٱلْمَجَازِ ٱلْمُصَحِّحَةَ لَهُ اِمَّا اَنْ تَكُونَ مُشَابَهَةَ ٱلْمَنْقُولِ اِلَيْهِ بِٱلْمَنْقُولِ عَنْهُ فِي شَيْءٍ فَيُسَمَّى ٱلْمَجَازُ ٱسْتِعَارَةً كَمَا مَرَّ . وَاِمَّا اَنْ تَكُونَ عَلاَقَةُ ٱلْمَجَازِ غَيْرَ ٱلْمُشَابَهَةِ فَيُسَمَّى مُرْسَلاً كَلَفْظِ ٱلْيَدِ اِذَا ٱسْتُعْمِلَ فِي ٱلنِّعْمَةِ وَٱلْقُدْرَةِ كَمَا يُقَالُ : جَلَّتْ اَيَادِيهِ عِنْدِي . اَيْ كَثُرَتْ نِعْمَتُهُ لَدَيَّ. وَٱتَّسَعَتِ ٱلْيَدُ فِي ٱلْبَلَدِ . وَٱلْيَدُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلْعُضْوُ ٱلْمَخْصُوصُ وَٱلْعَلاَقَةُ كَوْنُ ذٰلِكَ ٱلْعُضْوِ مَصْدَرًا لِلنِّعْمَةِ فَاِنَّهَا تَصِلُ اِلَى ٱلْمُنْعَمِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْيَدِ فَتَكُونُ ٱلْجَارِحَةُ ٱلْمَخْصُوصَةُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلْفَاعِلِيَّةِ لَهَا. وَاَيضًا بِٱلْيَدِ تَظْهَرُ ٱلنِّعْمَةُ فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلصُّورِيَّةِ لَهَا . وَاِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ لِلْقُدْرَةِ فَلِاَنَّ اَكْثَرَ مَا يَظْهَرُ سُلْطَانُ ٱلْقُدْرَةِ فِي ٱلْيَدِ وَبِهَا تَكُونُ ٱلأَفْعَالُ ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْقُدْرَةِ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلضَّرْبِ

وَٱلْقَطْعِ وَٱلْأَخْذِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . وَأَنْوَاعُ ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا عَائِدَةٌ إِلَى (ٱلتَّضَمُّنِ) وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ . (فَمِنَ ٱلنُّقْصَانِ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ جُزْئِهِ وَإِطْلَاقُ ٱلْخَاصِّ لِلْعَامِّ . وَهٰذَا مِنْ سُنَنِ ٱلْعَرَبِ فَإِنَّهُمْ يَقْتَصِرُونَ عَلَى بَعْضِ ٱلشَّيْءِ وَهُمْ يُرِيدُونَ كُلَّهُ فَيَقُولُونَ : قَعَدَ عَلَى ظَهْرِ رَاحِلَتِهِ . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

ٱلْوَاطِئِينَ عَلَى صُدُورِ نِعَالِهِمْ

وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

أَوْ يَرْبِطُ بَعْضَ ٱلنُّفُوسِ حِمَامُهَا

وَفِي ٱلْقُرْآنِ : قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ . وَٱلْمُرَادُ يَغُضُّوا أَبْصَارَهُمْ كُلَّهَا . (وَكَذٰلِكَ) يَصِفُونَ ٱلْبَعْضَ بِصِفَةِ ٱلْكُلِّ كَقَوْلِهِ : نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ . فَٱلْخَطَأُ صِفَةُ ٱلْكُلِّ وَصَفَ بِهِ ٱلنَّاصِيَةَ . وَمِثْلُ ذٰلِكَ إِطْلَاقُهُمْ لَفْظَ (بَعْضٍ) مُرَادًا بِهِ ٱلْكُلُّ كَقَوْلِهِ : لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَيْ كُلَّهُ . وَمِنْ سُنَنِ ٱلْعَرَبِ أَنْ تُقِيمَ ٱلْوَاحِدَ مَقَامَ ٱلْجَمْعِ فَيَقُولُونَ : قَرَرْنَا بِهِ عَيْنًا . أَيْ أَعْيُنًا . وَكَقَوْلِهِ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ . وَٱلتَّفْرِيقُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ ٱثْنَيْنِ . وَٱلتَّقْدِيرُ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ سُنَّةُ ٱلْعَرَبِ أَنْ يَقُولُوا لِلرَّجُلِ ٱلْعَظِيمِ وَٱلْمَلِكِ ٱلْكَبِيرِ : ٱنْظُرُوا فِي أَمْرِي . وَلِأَنَّ ٱلسَّادَةَ وَٱلْمُلُوكَ يَقُولُونَ : نَحْنُ فَعَلْنَا وَإِنَّا أَمَرْنَا . فَعَلَى قَضِيَّةِ هٰذَا ٱلِٱبْتِدَاءِ يُخَاطَبُونَ فِي ٱلْجَوَابِ . (وَمِنَ ٱلزِّيَادَةِ) وَهُوَ عَكْسُ مَا قَبْلَهُ إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْعَامِّ لِلْخَاصِّ وَمِنْهُ بَابُ ٱلتَّخْصِيصِ بِأَسْرِهِ وَإِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْكُلِّ عَلَى ٱلْجُزْءِ نَحْوُ : يَجْعَلُونَ

اَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ • يُرِيدُ ٱلْأَنَامِلَ وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ ٱلْأَصَابِعِ • وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْمُبَالَغَةُ كَأَنَّهُ جَعَلَ جَمِيعَ ٱلْأَصَابِعِ فِي ٱلْأُذُنِ لِئَلَّا يَسْمَعَ شَيْئًا مِنَ ٱلصَّاعِقَةِ • (وَمِنْ سُنَنِهِمْ) اَيْضًا ٱلْإِتْيَانُ بِٱلْجَمْعِ وَيُرِيدُونَ بِهِ ٱلْوَاحِدَ كَقَوْلِهِ : مَا كَانَ لَهُمْ اَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ • وَإِنَّمَا اَرَادَ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ • وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ : اُفْعُلَا ذٰلِكَ • وَٱلْمُخَاطَبُ وَاحِدٌ • وَكَقَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ • وَهُوَ خِطَابٌ لِخَازِنِ ٱلنَّارِ وَحْدَهُ • وَكَمَا قَالَ ٱلْأَعْشَى :

وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ ٱلْعَشِيَّاتِ وَٱلضُّحَى   وَلَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ وَٱللهَ فَٱعْبُدَا

وَيُقَالُ إِنَّهُ اَرَادَ : وَٱللهَ فَٱعْبُدَنْ • فَقَلَبَ ٱلنُّونَ ٱلْخَفِيفَةَ اَلِفًا • وَكَذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ • (وَمِنْ اَنْوَاعِ) ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِي ٱلْمَجَازِ ٱلْمُرْسَلِ مَا يَقُودُ إِلَى (ٱلِاسْتِلْزَامِ) وَهُوَ مَا ٱقْتَضَى مَعْنَاهُ مَعْنًى آخَرَ لِأَجْلِ عَلَاقَتِهِ • (فَمِنْ ذٰلِكَ) إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْمَلْزُومِ عَلَى ٱللَّازِمِ وَٱللَّازِمِ عَلَى ٱلْمَلْزُومِ نَحْوُ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ • اَيْ هَلْ يَفْعَلُ • اَطْلَقَ ٱلِاسْتِطَاعَةَ عَلَى ٱلْفِعْلِ لِأَنَّهَا لَازِمَةٌ لَهُ • وَكَقَوْلِهِ : يُرْسِلُ ٱلسَّمَاءَ مِدْرَارًا • اَيِ ٱلْمَطَرَ • لِأَنَّهُ مِنْهَا يَنْزِلُ • (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ سَبَبِهِ • كَقَوْلِهِ : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ • اَيِ ٱلْقَبُولَ وَٱلْعَمَلَ بِهِ لِأَنَّهُ يَتَسَبَّبُ عَنِ ٱلسَّمْعِ • وَكَقَوْلِهِ : رَعَيْنَا ٱلْغَيْثَ • اَيِ ٱلنَّبَاتَ ٱلَّذِي سَبَبُهُ ٱلْغَيْثُ • (وَعَكْسُهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مُسَبَّبِهِ نَحْوُ : اَمْطَرَتِ ٱلسَّمَاءُ نَبَاتًا • اَيْ غَيْثًا يَكُونُ ٱلنَّبَاتُ مُسَبَّبًا عَنْهُ • وَكَقَوْلِهِ : يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقًا • اَيْ مَطَرًا وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِهِ • (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا كَانَ

عَلَيْهِ نَحْوُ : آتُوا ٱلْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ . أَيِ ٱلَّذِينَ كَانُوا يَتَامَى لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْتَوْنَ أَمْوَالَهُمْ حَتَّى يَبْلُغُوا وَلَا يُتْمَ بَعْدَ ٱلْبُلُوغِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ نَحْوُ : إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا أَيْ عِنَبًا . يُعْصَرُ فَيَؤُولُ إِلَى ٱلْخَمْرِ . وَكَقَوْلِهِ : وَلَا يَلِدُوا إِلَّا كَفَّارًا . أَيْ صَائِرًا إِلَى ٱلْكُفْرِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَحَلِّهِ نَحْوُ : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ أَيْ أَهْلَ نَادِيهِ . أَيْ مَجْلِسِهِ . وَكَقَوْلِهِ : أَسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا . أَيْ أَهْلَهَا . (وَمِنْهُ عَكْسُهُ) أَيْ إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْحَالِّ عَلَى ٱلْمَحَلِّ . نَحْوُ : حَلُّوا فِي رَحْمَةِ ٱللهِ أَيْ فِي ٱلْجَنَّةِ لِأَنَّهَا مَحَلُّ ٱلرَّحْمَةِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ آلَتِهِ نَحْوُ : وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ . أَيِ ٱجْعَلْ لِي ثَنَاءً حَسَنًا وَٱللِّسَانُ آلَةُ ٱلصِّدْقِ وَٱلثَّنَاءِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ ضِدِّهِ نَحْوُ : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أَيْ أَنْذِرْهُمْ وَهَدِّدْهُمْ . وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ لِلرَّجُلِ تَسْتَجْهِلُهُ : يَا عَاقِلُ . وَلِلْمَرْأَةِ تَسْتَقْبِحُهَا : يَا قَمَرُ . (وَكَذٰلِكَ) يَقْلِبُونَ ٱلْمَعْنَى نَحْوُ : عَرَضْتُ ٱلنَّاقَةَ عَلَى ٱلْحَوْضِ . يُرِيدُونَ ٱلْحَوْضَ عَلَى ٱلنَّاقَةِ . (وَمِنْهُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِمَا يَقَعُ فِيهِ أَوْ يَكُونُ مِنْهُ نَحْوُ : يَوْمٌ عَاصِفٌ . أَيْ عَاصِفُ ٱلرِّيحِ . وَلَيْلٌ نَائِمٌ وَسَاهِرٌ وَصَائِمٌ أَيْ يُنَامُ فِيهِ وَيُسْهَرُ وَيُصَامُ . (وَمِنْهُ) إِضَافَةُ ٱلْفِعْلِ إِلَى مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ تَشْبِيهًا . كَقَوْلِهِ : جِدَارٌ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ . وَلَا إِرَادَةَ لِلْجِدَارِ . وَلٰكِنَّهُ تَوَسَّعَ ٱلْعَرَبُ فِي ٱلْمَجَازِ فَعَبَّرُوا عَنِ ٱلْجَمَادِ بِفِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ كَمَا قَالَ ٱلرَّاجِزُ :

إِمْتَلَأَ ٱلْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي

اي كفاني وليس للحوض قول. ومثله قول الراعي الشاعر النصراني :

في مهمهٍ فلقت به هاماتها   فلق الفؤوس إذا اردن تصولا

والعرب تسمي التهيؤ للفعل والاحتياج اليه ارادة. وكذلك يأتون بلفظ الماضي وهو مستقبل وبلفظ المستقبل وهو ماض كقوله : لم تقتلون انبياء الله اي لم قتلتم . وكما قال الشاعر :

فادركت من قد كان قبلي ولم ادع   لمن كان بعدي في القصائد مصنفا

اي لمن يكون بعدي . ومثله قوله : وكان الله غفورا . اي كان ويكون وهو كائن الآن جل ثناؤه . وكذلك يأتون بالمفعول بلفظ الفاعل فيقولون : سر كاتم اي مكتوم . ومكان عامر اي معمور . وماء دافق اي مدفوق . وعيشة راضية اي مرضية . وحرم آمن اي مأمون . وقال جرير :

ان البلية من تمل كلامه   فانقع فؤادك من حديث الوامق

اي من حديث الموموق . ويعكسون هذا العمل ويستعملون الفاعل بلفظ المفعول كقوله : كان وعده مأتيا اي آتيا . وكقوله : حجاب مستور اي ساتر . ويقيمون الاسم والمصدر مقام الفاعل والمفعول . فتقول العرب : رجل عدل اي عادل . ورضى اي مرضي . وبنو فلان لنا سلم اي مسالمون . وحرب اي محاربون . (وكذلك) يحملون اللفظ على المعنى في تذكير المؤنث وتأنيث المذكر فيتركون حكم ظاهر اللفظ ويحملونه على معناه كما يقولون : ثلاثة انفس . والنفس مؤنثة وانما حملوه على معنى الانسان او معنى الشخص

قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا عِنْدَنَا إِلَّا ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ   مِثْلَ ٱلنُّجُومِ تَلَأْلَأَتْ فِي ٱلْحِنْدِسِ

وَكَمَا ذَكَّرَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَفَّ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ فِي قَوْلِهِ :

أَرَى رَجُلًا مِنْهُمْ أَسِيفًا كَأَنَّمَا   يَضُمُّ إِلَى كَشْحَيْهِ كَفًّا مُخَضَّبَا

فَحَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلْعُضْوِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ . وَكَمَا قَالَ ٱلْآخَرُ :

يَا أَيُّهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ   سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هٰذِهِ ٱلصَّوْتُ

أَيْ مَا هٰذِهِ ٱلْجَلَبَةُ . وَفِي ٱلْقُرْآنِ : وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا . وَلَمْ يَقُلْ : مَيْتَةً لِأَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ٱلْمَكَانِ . وَقَالَ : ٱلسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ . فَذَكَّرَ ٱلسَّمَاءَ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لِأَنَّهُ حَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلسَّقْفِ . وَكُلُّ مَا عَلَاكَ وَأَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ

البحث الحادي عشر

في القول عن الكناية

(عن كتاب صناعة الترسل والمثل السائر)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَللَّفْظَةُ إِذَا أُطْلِقَتْ وَكَانَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَصْلِيُّ غَيْرَ مَعْنَاهَا فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا مَقْصُودًا أَيْضًا لِيَكُونَ دَالًّا عَلَى ذٰلِكَ ٱلْغَرَضِ ٱلْأَصْلِيِّ . وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذٰلِكَ . فَٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْكِنَايَةُ وَيُقَالُ لَهُ : ٱلْإِرْدَافُ . وَٱلثَّانِي ٱلْمَجَازُ . فَٱلْكِنَايَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا يَذْكُرُهُ بِٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي ٱللُّغَةِ وَلٰكِنْ يَجِيءُ إِلَى مَعْنًى هُوَ تَالِيهِ وَرِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ

فَيُومِئُ بِهِ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ ٱلسِّتْرِ . يُقَالُ : كَنَيْتُ ٱلشَّيْءَ إِذَا سَتَرْتَهُ . وَأُجْرِيَ هٰذَا ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي يُسْتَرُ فِيهَا ٱلْمَجَازُ بِٱلْحَقِيقَةِ فَتَكُونُ دَالَّةً عَلَى ٱلسَّاتِرِ وَعَلَى ٱلْمَسْتُورِ مَعًا . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَسْتُورَ فِيهَا هُوَ ٱلْمَجَازُ لِأَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ تُفْهَمُ أَوَّلًا وَيَتَسَارَعُ ٱلْفَهْمُ إِلَيْهَا قَبْلَ ٱلْمَجَازِ . لِأَنَّ دَلَالَةَ ٱللَّفْظِ عَلَيْهَا دَلَالَةٌ وَضْعِيَّةٌ . وَأَمَّا ٱلْمَجَازُ فَإِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْهُ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا يُفْهَمُ بِٱلنَّظَرِ وَٱلْفِكْرَةِ وَبِهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ . فَٱلْحَقِيقَةُ أَظْهَرُ وَٱلْمَجَازُ أَخْفَى وَهُوَ مَسْتُورٌ بِٱلْحَقِيقَةِ . وَقَدْ تَأَوَّلْتُ ٱلْكِنَايَةَ بِغَيْرِ هٰذَا وَهِيَ أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ ٱلْكُنْيَةِ ٱلَّتِي يُقَالُ فِيهَا : أَبُو فُلَانٍ . فَإِنَّا إِذَا نَادَيْنَا رَجُلًا ٱسْمُهُ عَبْدُ ٱللّٰهِ وَلَهُ وَلَدٌ ٱسْمُهُ مُحَمَّدٌ فَقُلْنَا : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ . كَانَ ذٰلِكَ مِثْلَ قَوْلِنَا : يَا عَبْدَ ٱللّٰهِ . فَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَكِلَاهُمَا وَاقِعٌ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْكِنَايَةِ فَإِنَّا إِذَا شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى جَانِبِ ٱلْمَجَازِ . وَإِنْ شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ . إِلَّا إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ ٱلْوَصْفِ ٱلْجَامِعِ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَلْحَقَ بِٱلْكِنَايَةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا وَمِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : هُوَ طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ وَكَثِيرُ رَمَادِ ٱلْقِدْرِ . يَعْنُونَ بِهِ أَنَّهُ طَوِيلُ ٱلْقَامَةِ كَثِيرُ ٱلْقِرَى فَلَمْ يَذْكُرِ ٱلْمُرَادَ بِلَفْظِهِ ٱلْخَاصِّ بِهِ وَلٰكِنْ تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ بِذِكْرِ مَعْنًى آخَرَ هُوَ رِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ . أَلَا تُرَى أَنَّ ٱلْقَامَةَ إِذَا طَالَتْ طَالَ ٱلنِّجَادُ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْقِرَى كَثُرَ رَمَادُ ٱلْقِدْرِ .

وَكَقَوْلِ ٱلْحَضْرَمِيِّ :

قَدْ كَانَ يُعْجِبُ بَعْضَهُنَّ بَرَاعَتِي حَتَّى رَأَيْنَ تَنَحْنُحِي وَسُعَالِي

كَنَى عَنْ كِبَرِ ٱلسِّنِّ بِتَوَابِعِهِ وَهِيَ ٱلتَّنَحْنُحُ وَٱلسُّعَالُ . وَٱلْكِنَايَةُ تَكُونُ فِي ٱلْمُثْبَتِ كَمَا ذَكَرْنَا وَقَدْ تَكُونُ فِي ٱلْاثْبَاتِ . وَهِيَ مَا إِذَا حَاوَلُوا إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي لِشَيْءٍ فَيَتْرُكُونَ ٱلتَّصْرِيحَ بِإِثْبَاتِهِ لَهُ وَيُثْبِتُونَهُ لِمَا لَهُ بِهِ تَعَلُّقٌ كَقَوْلِهِمْ : ٱلْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ وَٱلْكَرَمُ بَيْنَ بُرْدَيْهِ . وَقَوْلِهِ :

إِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ وَٱلسَّمَاحَةَ وَٱلنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ٱبْنِ ٱلْحَشْرَجِ

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ ٱلْحَكَمِ يَمْدَحُ يَزِيدَ بْنَ ٱلْمُهَلَّبِ وَهُوَ فِي حَبْسِ ٱلْحَجَّاجِ :

أَصْبَحَ فِي قَيْدِكَ ٱلسَّمَاحَةُ م وَٱلْمَجْدُ وَفَضْلُ ٱلصَّلَاحِ وَٱلْحَسَبُ

وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ : مَكَانُ ٱلْقَيْدِ هٰهُنَا هُوَ مَكَانُ ٱلْقُبَّةِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْمُتَقَدِّمِ . وَقَدْ يَجْتَمِعُ بِٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ كِنَايَاتَانِ : ٱلْغَرَضُ مِنْهُمَا وَاحِدٌ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا أَصْلٌ بِنَفْسِهَا كَقَوْلِهِ :

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي جَبَانُ ٱلْكَلْبِ مَهْزُولُ ٱلْفَصِيلِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ جُزْءٌ مِنَ ٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَا تَأْتِي إِلَّا عَلَى حُكْمِ ٱلِاسْتِعَارَةِ خَاصَّةً لِأَنَّ ٱلِاسْتِعَارَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمُسْتَعَارِ لَهُ . وَكَذٰلِكَ ٱلْكِنَايَةُ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمَكْنِيِّ عَنْهُ وَنِسْبَتُهَا إِلَى ٱلِاسْتِعَارَةِ نِسْبَةُ خَاصٍّ إِلَى عَامٍّ . فَيُقَالُ : كُلُّ كِنَايَةٍ ٱسْتِعَارَةٌ . وَلَيْسَ كُلُّ ٱسْتِعَارَةٍ كِنَايَةً . وَيُفْرَقُ بَيْنَهُمَا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ : أَنَّ ٱلِاسْتِعَارَةَ لَفْظُهَا صَرِيحٌ . وَٱلصَّرِيحُ

هُوَ مَا دَلَّ عَلَيهِ ظَاهِرُ لَفظِهِ وَٱلْكِنَايَةُ ضِدُّ ٱلصَّرِيحِ لِأَنَّهَا عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفظِ . وَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ فُرُوقٍ اَحدُهَا : ٱلْخُصُوصُ وَٱلْعُمُومُ . وَٱلْآخَرُ ٱلصَّرِيحُ . وَٱلْآخَرُ ٱلْحَمْلُ عَلَى جَانِبِ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ فِي بَابِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ اَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ ٱلْمَجَازِ . وَعَلَى ذٰلِكَ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْكِنَايَةِ اِلَى ٱلْمَجَازِ نِسْبَةَ جُزْءِ ٱلْجُزْءِ وَخَاصِّ ٱلْخَاصِّ وَقَدْ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَجُوزُ اَنْ يَكُونَ كِنَايَةً وَيَجُوزُ اَنْ يَكُونَ ٱسْتِعَارَةً . وَذٰلِكَ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلنَّظَرِ اِلَيْهِ فِي مُفْرَدِهِ وَٱلنَّظَرِ اِلَى مَا بَعْدَهُ كَقَوْلِ نَصرِ بْنِ سَيَّارٍ فِي اَبْيَاتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلَّتِي يُحَرِّضُ بِهَا بَنِي أُمَيَّةَ عِنْدَ خُرُوجِ اَبِي مُسْلِمٍ :

اَرَى خَلَلَ ٱلرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ وَيُوشِكُ اَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ

البحث الثاني عشر

في التعريض

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٣٧ من علم الادب)

قَدْ تَكَلَّمَ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ فِي ٱلتَّعْرِيضِ فَوَجَدتُّهُمْ قَدْ خَلَطُوا ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْكِنَايَةِ وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَهُمَا وَلَا حَدُّوا كُلًّا مِنْهُمَا بِحَدٍّ يَفْصِلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ . بَلْ اَوْرَدُوا لَهُمَا اَمْثِلَةً مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَاَدْخَلُوا اَحَدَهُمَا فِي ٱلْآخَرِ . فَذَكَرُوا لِلْكِنَايَةِ اَمْثِلَةً مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ وَلِلتَّعْرِيضِ اَمْثِلَةً مِنَ ٱلْكِنَايَةِ . فَمِمَّنْ فَعَلَ ذٰلِكَ ٱلْغَانِمِيُّ وَٱبْنُ سِنَانٍ وَٱلْخَفَاجِيُّ وَٱلْعَسْكَرِيُّ . وَسَاَذْكُرُ مَا عِنْدِي فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَاُمَيِّزُ اَحَدَهُمَا

عَنِ ٱلآخَرِ لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى ٱنْفِرَادِهِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ إِذَا وَرَدَتْ تَجَاذَبَهَا جَانِبَا حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ . وَجَازَ حَمْلُهَا عَلَى ٱلْجَانِبَيْنِ مَعًا فَيَصِحُّ بِكُلٍّ مِنْهُمَا ٱلْمَعْنَى وَلَا يَخْتَلُّ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ فِي أَصْلِ ٱلْوَضْعِ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيْرَهُ . يُقَالُ : كَنَيْتُ بِكَذَا عَنْ كَذَا . فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ وَعَلَى مَا أَرَدْتَهُ مِنْ غَيْرِهِ . وَأَمَّا ٱلتَّعْرِيضُ فَهُوَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى ٱلشَّيْءِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ لَا بِٱلْوَضْعِ ٱلْحَقِيقِيِّ وَلَا ٱلْمَجَازِيِّ . فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ لِمَنْ تَتَوَقَّعُ صِلَتَهُ وَمَعْرُوفَهُ بِغَيْرِ طَلَبٍ : إِنِّي لَمُحْتَاجٌ وَلَيْسَ فِي يَدِي شَيْءٌ وَأَنَا عُرْيَانٌ وَٱلْبَرْدُ قَدْ آذَانِي . فَإِنَّ هٰذَا وَأَشْبَاهَهُ تَعْرِيضٌ بِٱلطَّلَبِ وَلَيْسَ هٰذَا ٱللَّفْظُ مَوْضُوعًا فِي مُقَابَلَةِ ٱلطَّلَبِ لَا حَقِيقَةً بَلْ مَجَازًا . إِنَّمَا دُلَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ بِخِلَافِ دَلَالَةِ ٱلْكِنَايَةِ فَإِنَّهَا لَفْظِيَّةٌ وَضْعِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَجَازِ . وَإِنَّمَا سُمِّيَ ٱلتَّعْرِيضُ تَعْرِيضًا لِأَنَّ ٱلْمَعْنَى فِيهِ يُفْهَمُ مِنْ عَرْضِهِ أَيْ مِنْ جَانِبِهِ . وَمِنْ لَطِيفِ ٱلتَّعْرِيضَاتِ ٱلْأَدَبِيَّةِ مَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ : أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ فَدَخَلَ عُثْمَانُ ٱبْنُ عَفَّانَ . فَقَالَ عُمَرُ : أَيَّةُ سَاعَةٍ هٰذِهِ . يُرِيدُ ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْإِنْكَارِ عَلَيْهِ لِتَأَخُّرِهِ عَنِ ٱلْمَجِيءِ إِلَى ٱلصَّلَاةِ . وَهُوَ مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ ٱلْمُعْرِبِ عَنِ ٱلْأَدَبِ . وَمِنْ أَمْثِلَتِهِ ٱلشِّعْرِيَّةِ قَوْلُ ٱلْحَجَّاجِ يُعَرِّضُ بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلْأُمَرَاءِ :

لَسْتُ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمْ وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ

البحث الثالث عشر

في ما ورد من الكنايات عن العرب

(عن كتاب الكناية للثعالبي وكتاب الصناعتين للعسكري)

اِعلَمْ انَّ ٱلعَرَبَ يَلتجئُونَ إِلَى ٱلكِنَايَةِ إِذَا مَا ارادُوا ٱلتَّعرِيضَ عَمَّا يُستَقبَحُ ذِكرُهُ فَيَكنُونَ عَنِ ٱلأَعوَرِ بِٱلمُمَتَّعِ . وَعَنِ ٱلَّذِي فِي عَينَيهِ نُكتَةُ بَيَاضٍ بِٱلمُكَوكَبِ . وَعَمَّن فِي وَجهِهِ اثَرُ ضَربَةٍ بِٱلمُشَطَّبِ . وَلِبَعضِهِم فِي أَبرَصَ :

لَخُو لَخمٍ أَعَارَكَ مِنهُ ثَوبًا هَنِيئًا بِٱلقَمِيصِ ٱلمُستَجَدِّ

ارَادَ بِاخِي لَخمٍ جَذِيمَةَ ٱلأَبرَصَ . وَلِصَاحِبٍ فِي ٱلجَرَبِ :

أَبَا ٱلعَلَاءِ هِلَالُ ٱلهَزلِ وَٱلجِدِّ كَيفَ ٱلنُّجُومُ ٱلَّتِي يَطلُعنَ فِي ٱلجِلدِ

وَيُكَنَّى عَنِ ٱلحَولِ بِٱلتَّأَخُّرِ . قَالَ ٱلدُّؤَلِيُّ :

بِيضُ ٱلمَطَابِخِ لَا تَشكُو إِمَاؤُهُمُ طَبخَ ٱلقُدُورِ وَلَا غَسلَ ٱلمَنَادِيلِ

قَالَ آخَرُ :

ثِيَابُ طَبَّاخٍ إِذَا ٱتَّسَخَت أَنقَى بَيَاضًا مِنَ ٱلقَرَاطِيسِ

وَقَالَ أَبُو بَكرٍ ٱلخُوَارَزمِيُّ :

فَتًى مُختَصِرُ ٱلمَأكُو لِ وَٱلمَشرُوبِ وَٱلعِطرِ
نَقِيُّ ٱلكَأسِ وَٱلقَصعَةِ م وَٱلمِندِيلِ وَٱلقِدرِ

وَيَكنُونَ عَنِ ٱلجَاهِلِ بِأَنَّهُ مِنَ ٱلمُستَرِيحِينَ . وَيُروَى انَّ خِلَافًا وَقَعَ بَينَ بَعضِ ٱلخُلَفَاءِ وَبَينَ نَدِيمٍ لَهُ فِي مَسأَلَةٍ . فَٱتَّفَقَا عَلَى رَأيِ بَعضِ أَهلِ ٱلعِلمِ فَأُحضِرَ . فَوَجَدَ ٱلخَلِيفَةَ مُخطِئًا فَقَالَ : ٱلقَائِلُونَ

بِقَوْلِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَكْثَرُ (يُرِيدُ ٱلْجُهَّالَ) . وَإِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ أَحْمَقَ قِيلَ : نَعْتُهُ لَا يَنْصَرِفُ . وَكَانَ قَابُوسُ بْنُ وَشْمَكِيرَ إِذَا وَصَفَ رَجُلًا بِٱلْبَلَهِ قَالَ : هُوَ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ خَفِيفٌ عَلَى ٱلْقَلْبِ يُرِيدُونَ مَقْلُوبًا وَهُوَ ٱلثَّقِيلُ . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ ٱلْعَلَوِيُّ ٱلْأُطْرُوشُ إِذَا خَاطَبَهُ أَحَدٌ فَلَمْ يَسْمَعْ قَالَ لَهُ : ٱرْفَعْ صَوْتَكَ فَإِنَّ بِأُذُنِي بَعْضَ مَا بِرُوحِكَ . وَنَظَرَ ٱلْبَدِيعُ ٱلْهَمَذَانِيُّ إِلَى رَجُلٍ طَوِيلٍ بَارِدٍ فَقَالَ : قَدْ أَقْبَلَ لَيْلُ ٱلشِّتَاءِ . وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ وَقَدِ ٱقْشَعَرَّ . فَقَالَ : مَا تَجِدُ فَدَيْتُكَ . قَالَ : أَجِدُكَ (يَعْنِي ٱلْبَرْدَ) . وَإِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ كَذُوبًا قِيلَ : ٱلْفَاخِتَةُ عِنْدَهُ أَبُو ذَرٍّ (يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ بِٱلْفَاخِتَةِ فِي ٱلْكَذِبِ وَبِأَبِي ذَرٍّ فِي ٱلصِّدْقِ). وَيَقُولُونَ أَيْضًا : فُلَانٌ يَلْطِمُ عَيْنَ مِيزَانٍ. (وَمِيزَانٌ رَجُلٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْكَذِبِ). وَإِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ لُوطِيًّا قِيلَ : هُوَ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ لُوطٍ . وَإِذَا كَانَ مُلْحِدًا قِيلَ : قَدْ عَبَرَ (يُرِيدُونَ جِسْرَ ٱلْإِيمَانِ) . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : هَلْ عَبَرْتَ . قَالَ : فِي ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ وُلِدْتُ . وَإِنْ كَانَ يُسِيءُ ٱلْأَدَبَ فِي ٱلْمُؤَاكَلَةِ قِيلَ : تُسَافِرُ يَدُهُ عَلَى ٱلْخِوَانِ وَيَرْعَى أَرْضَ ٱلْجِيرَانِ . فَإِنْ كَانَ خَفِيفَ ٱلْيَدِ فِي ٱلطَّرِّ وَٱلسَّرِقَةِ . قَالُوا : هُوَ أَحَدُ يَدِ ٱلْقَمِيصِ (وَيَدُ ٱلْقَمِيصِ ٱلْكُمُّ وَٱلسَّارِقُ يُقَصِّرُهُ لِيَكُونَ أَقْدَرَ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنْ سَرِقَةٍ) . فَإِذَا كَانَ قَمِلَ ٱلثَّوْبِ قِيلَ : فُلَانٌ يَعْرِضُ ٱلصَّيْدَ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ :

وُحُوشُهُ تَرْتَعُ فِي جَنْبِهِ وَظُفْرُهُ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ

وَإِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ يَتَشَاعَرُ وَلَيْسَ يُجِيدُ قَالُوا: هُوَ نَبِيٌّ فِي ٱلشِّعْرِ. قَالَ بَعْضُهُمْ:

يَا نَبِيَّ ٱللهِ فِي ٱلشِّعْرِ م وَيَا مَنْ فِيهِ يُكْرَمْ
أَنْتَ مِنْ أَشْعَرِ خَلْقِ ٱللهِ م مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ

وَيُقَالُ: فُلَانٌ رَابِعُ ٱلشُّعَرَاءِ. إِذَا كَانَ مُتَخَلِّفًا مُنْحَطَّ ٱلطَّبَقَةِ لِقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

أَلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَسْمَعَهْ
وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَصْفَعَهْ

وَسُئِلَ حَائِكٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ فَقَالَ: كُسْوَةُ ٱلْأَحْيَاءِ وَجِهَازُ ٱلْمَوْتَى. وَيَكْنُونَ عَنِ ٱلْقَرَوِيِّ بِأَخْضَرِ ٱلْأَسْنَانِ مِنْ كَثْرَةِ أَكْلِ ٱلْبَقْلِ. وَسُئِلَ حَجَّامٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ. فَقَالَ: أَكْتُبُ بِٱلْحَدِيدِ وَأَخْتِمُ بِٱلزُّجَاجِ. وَفِيهِ قِيلَ:

يَا ٱبْنَ ٱلَّذِي عَاشَ غَيْرَ مُضْطَهَدٍ بِرَحْمَةِ ٱللهِ أَيُّمَا رَجُلِ
أَبُوكَ أَوْهَى ٱلنِّجَادُ عَاتِقَهُ كَمْ مِنْ كَمِيٍّ أَدْمَى وَكَمْ بَطَلِ
لَهُ رِقَابُ ٱلْمُلُوكِ خَاضِعَةٌ مِنْ بَيْنِ حَافٍ وَبَيْنِ مُنْتَعِلِ
يَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ دَمِهِ لَمْ يُمْسِ مِنْ ثَأْرٍ عَلَى وَجَلِ (١)

وَيُقَالُ عَمَّنْ يُكْثِرُ ٱلْأَسْفَارَ: فُلَانٌ لَا يَضَعُ ٱلْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ. وَجَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ. فَإِنَّهُ

(١) راجع الجزء الثالث من مجاني الادب صفحة ١٥١

كَنَى عَنِ ٱلْغِيبَةِ بِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ ٱلْإِنْسَانِ . وَهٰذَا شَدِيدُ ٱلْمُنَاسَبَةِ لِأَنَّ ٱلْغِيبَةَ إِنَّمَا هِيَ ذِكْرُ مَثَالِبِ ٱلنَّاسِ وَتَمْزِيقُ أَعْرَاضِهِمْ وَتَمْزِيقُ ٱلْعِرْضِ مُمَاثِلٌ لِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ مَنْ يَغْتَابُهُ . وَمِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ قَوْلُهُمْ : لَبِسَ لِفُلَانٍ جِلْدَ ٱلنَّمِرِ وَجِلْدَ ٱلْأَرْقَمِ . كِنَايَةً عَنِ ٱلْعَدَاوَةِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ كِنَايَةً عَنْ تَغْيِيرِ ٱلْمَوَدَّةِ . وَمِنْ ظَرِيفِ ٱلْكِنَايَاتِ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْجَمَّازِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : أَيُّ ٱلْبُقُولِ أَحَبُّ إِلَيْكَ . فَقَالَ : بَقْلَةُ ٱلذِّئْبِ (يَعْنِي ٱللَّحْمَ) . وَرَأَى رَجُلٌ مَنْ أَضَافُوهُ يُطِيلُونَ ٱلْغِنَاءَ وَلَا يَأْتُونَ بِٱلْأَكْلِ فَقَالَ :

خَلِيلَيَّ دَاوَيْتُمَا ظَاهِرًا فَمَنْ ذَا يُدَاوِي جَوًى بَاطِنَا

فَعَلِمُوا أَنَّهُ جَائِعٌ . وَأُخْبِرَ عَنِ ٱلْجَاحِظِ أَنَّهُ أَكَلَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ فَالُوذَجَةً فَأَمَرَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ أَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْجَاحِظِ مَا رَقَّ مِنَ ٱلْجَامِ . فَأَسْرَعَ فِي ٱلْأَكْلِ حَتَّى نَظَّفَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : يَا أَبَا عُثْمَانَ قَدْ تَقَشَّعَتْ سَمَاؤُكَ . فَقَالَ : أَصْلَحَكَ ٱللهُ لِأَنَّ غَيْمَهَا كَانَ رَقِيقًا . وَكَذٰلِكَ يُقِيمُونَ وَصْفَ ٱلشَّيْءِ مَقَامَ ٱسْمِهِ كَمَا قَالَ : حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . يَعْنِي ٱلسَّفِينَةَ فَوَضَعَ صِفَتَهَا مَوْضِعَ تَسْمِيَتِهَا . وَقَالَ : إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ . يَعْنِي ٱلْخَيْلَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ :

سَأَلَتْ قُتَيْبَةُ عَنْ أَبِيهَا صَحْبَهُ فِي ٱلرَّوْحِ هَلْ رَكِبَ ٱلْأَغَرَّ ٱلْأَشْقَرَا

يَعْنِي هَلْ قُتِلَ . وَٱلْأَغَرُّ ٱلْأَشْقَرُ وَصْفُ ٱلدَّمِ فَأَقَامَهُ مَقَامَ ٱسْمِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ :

شِمْتُ بَرْقَ ٱلْوَزِيرِ فَٱنْهَلَّ حَتَّى ... لَمْ اَجِدْ مَهْرَبًا اِلَى ٱلْاَقْدَامِ
فَكَاَنِّي وَقَدْ تَقَاصَرَ بَاعِي ... خَابِطٌ فِي عُبَابِ اَخْضَرَ طَامِي

يَعْنِي ٱلْبَحْرَ. وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ لِٱبْنِ ٱلْقَبَعْثَرِيِّ : لَاَحْمِلَنَّكَ عَلَى ٱلْاَدْهَمِ . يَعْنِي ٱلْقَتْلَ. فَتَجَاهَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ : مِثْلُ ٱلْاَمِيرِ يَحْمِلُ عَلَى ٱلْاَدْهَمِ وَٱلْاَشْهَبِ . يُرِيدُ ٱلْخَيْلَ . وَمِنْ ذٰلِكَ : اَنَّ ٱلْمَنْصُورَ كَانَ فِي بُسْتَانٍ لَهُ وَهُوَ فِي اَيَّامِ مُحَارَبَتِهِ اِبْرَاهِيمَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْحَسَنِ وَنَظَرَ اِلَى شَجَرَةِ خِلَافٍ فَقَالَ لِلرَّبِيعِ : مَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ . فَقَالَ : طَاعَةٌ يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . فَتَفَاءَلَ ٱلْمَنْصُورُ بِهِ وَعَجِبَ مِنْ ذَكَائِهِ . وَمِثْلُ ذٰلِكَ : اَنَّ رَجُلًا مَرَّ فِي صَحْنِ دَارِ ٱلرَّشِيدِ وَمَعَهُ حُزْمَةُ خَيْزُرَانٍ . فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ لِلْفَضْلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ : مَا ذَاكَ . فَقَالَ : عُرُوقُ ٱلرِّمَاحِ يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وَكَرِهَ اَنْ يَقُولَ ٱلْخَيْزُرَانَ لِمُوَافَقَتِهِ ٱسْمَ وَالِدَةِ ٱلرَّشِيدِ . وَمِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُمْ : فُلَانٌ نَقِيُّ ٱلثَّوْبِ . يُرِيدُونَ بِهِ اَنَّهُ لَا عَيْبَ فِيهِ وَلَيْسَ بِمَوْضُوعٍ نَقَاءَ ٱلثَّوْبِ ٱلْبَرَاءَ مِنَ ٱلْعَيْبِ وَاِنَّمَا ٱسْتُعْمِلَ فِيهِ تَمْثِيلًا . وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ :

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ ... وَاَوْجُهُهُمْ عِنْدَ ٱلْمَشَاهِدِ غُرَّاتُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : فُلَانٌ طَاهِرُ ٱلثَّوْبِ . يُرِيدُونَ اَنَّهُ لَيْسَ بِخَائِنٍ وَلَا غَادِرٍ . وَفُلَانٌ دَنِسُ ٱلثَّوْبِ اِذَا كَانَ غَادِرًا فَاجِرًا. وَقَوْلُهُمْ : طَيِّبُ ٱلْحُجْزَةِ اَيْ عَفِيفٌ . قَالَ ٱلنَّابِغَةُ يَمْدَحُ بَنِي غَسَّانَ ٱلنَّصَارَى :

رِقَاقُ ٱلنِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ ... يُحَيُّونَ بِٱلرَّيْحَانِ يَوْمَ ٱلسَّبَاسِبِ

وَقَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ : اِذَا قَالَتِ ٱلْعَرَبُ : ٱلثَّوْبَ وَٱلْاِزَارَ . فَاِنَّهُمْ

يريدون البدن . ويقولون : فلانٌ اوسعُ بني أُمية ثوبًا . اي اكثرهم معروفًا . وفلانٌ غمرُ الرداء اذا كان كثير المعروف . قال كثيرٌ :

غمرُ الرداء اذا تبسم ضاحكًا   غلقت لضحكته رقابُ المالِ

وكذلك قولهم : فلانٌ رحبُ الذراع . ومن الكنايات اللطيفة ما ذكرها الأدباء في الشيب والكبر . فيقولون : عرضت لفلان فترةٌ . عرض له ما يمحو ذنوبه ويكفّر سيئاته . اقمر ليلهُ نوّر غصنُ شبابه . فضض الزمانُ ابنوسهُ . وجاءه النذيرُ . وقرع ناجذ الحلم . وارتاض بلجام الدهر . ادرك زمان الحنكة . رفض غرّة الصبى ولبّى داعي الحجى . ومن كناياتهم عن الموت : استأثر الله به . اسعدهُ الله بجواره . نقلهُ الى دار رضوانه ومحلّ غفرانه . انتقل الى جوار ربه وانقلب الى محلّ عفوه . اختار له النقلة من دار البوار الى دار الابرار

البحث الرابع عشر

في المبالغة

(عن بديعية الحموي وكتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الادب)

المبالغة نوعٌ معدودٌ من محاسن فنّ الكتابة عند الجمهور واستدلّوا على ذلك بقول من قال : احسنُ الشعر اكذبهُ . وبقول النابغة الذبياني : اشعرُ الناس من استجيد كذبهُ . ومنهم من لم يعد

ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمَشَى فِي ذٰلِكَ عَلَى مَذْهَبِ حَسَّانِ ٱبْنِ ثَابِتٍ فَإِنَّهُ قَالَ :

وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى ٱلْأَنَامِ فَإِنْ كَيْسًا وَإِنْ حُمُقَا
وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

وَعِنْدَ أَهْلِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ أَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ غَيْرِ ٱلتَّهْوِيلِ عَلَى ٱلسَّامِعِ وَلَمْ يَفِرَّ ٱلنَّاظِمُ إِلَى ٱلتَّخْيِيمِ عَلَيْهَا إِلَّا بِعَجْزِهِ وَقُصُورِ هِمَّتِهِ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُبْتَكَرَةِ . لِأَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ كَٱلْٱسْتِرَاحَةِ مِنَ ٱلشَّاعِرِ إِذَا أَعْيَاهُ إِيرَادُ ٱلْمَعَانِي ٱلْغَرِيبَةِ فَيَشْغَلُ ٱلْأَسْمَاعَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ وَتَهْوِيلٌ . وَقَالُوا : رُبَّمَا إِنَّهَا أَحَالَتِ ٱلْمَعَانِيَ فَأَخْرَجَتْهَا عَنْ حَدِّ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُمْكِنِ إِلَى حَدِّ ٱلِٱمْتِنَاعِ . وَٱلْمُبَالَغَةُ تُعَابُ فِي بَابِهَا إِذَا خَرَجَتْ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ إِلَى ٱلِٱسْتِحَالَةِ وَأَتَى ٱلْكَلَامُ عَلَى حَدِّهَا فِي مَوْضِعِهِ . وَٱلَّذِي أَقُولُهُ : إِنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ مَحَاسِنِ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ وَلَمْ يَسْتَطْرِدْ فِي حَلَبَاتِ سَبْقِهَا إِلَّا فُحُولُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَلَوْ سَلَّمْنَا إِلَى مَنْ يَهْضِمُ جَانِبَهَا وَلَمْ يَعُدَّهَا مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ بَطَلَتْ بَلَاغَةُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَٱنْحَطَّتْ رُتْبَةُ ٱلتَّشْبِيهِ . وَتَسْمِيَةُ ٱلْمُبَالَغَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى قُدَامَةَ . وَمِنْهُمْ مَنْ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ ٱلتَّبْلِيغَ . وَسَمَّاهُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْإِفْرَاطَ فِي ٱلصِّفَةِ . وَهٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةُ طَابَقَتِ ٱلْمُسَمَّى . وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ رَغِبُوا فِي تَسْمِيَةِ قُدَامَةَ لِخِفَّتِهَا . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي ٱلْمُبَالَغَةَ شَرَكَهُ قَوْمٌ مَعَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ ٱلْفَرْقِ وَهُوَ مِثْلُ ٱلصُّبْحِ ظَاهِرٌ . (وَٱلْمُبَالَغَةُ) فِي ٱلِٱصْطِلَاحِ هِيَ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ

عَادَةً . (وَٱلْإِغْرَاقُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً . (وَٱلْغُلُوُّ)وَصْفُهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُهُ.وَيَأْتِي ٱلْـكَلَامُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلثَّلَاثَةِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ تَقَرَّرَ أَوَّلًا أَنَّ ٱلْمُبَالَغَــةَ نَوْعُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ . وَحَدَّ قُدَامَةُ ٱلْمُبَالَغَةَ فَقَالَ : هِيَ أَنْ يَذْكُرَ ٱلْمُتَكَلِّمُ حَالًا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ لَوْ وُقِفَ عِنْدَهَا لَأَجْزَأَتْ فَلَا يَقِفُ حَتَّى يَزِيدَ فِي مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مَا يَكُونُ أَبْلَغَ مِنْ مَعْنَى قَصْدِهِ كَقَوْلِ عُمَيْرِ بْنِ كَرِيمٍ ٱلتَّغْلِبِيِّ :

وَنُـكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا ... وَنُتْبِعُهُ ٱلْـكَرَامَةَ حَيْثُ مَالَا

وَقَالَ : إِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ مِنْ أَحْسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ . فَإِنَّ ٱلشَّاعِرَ بَلَغَ فِيهِ إِلَى أَقْصَى مَا يُمْـكِنُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ وَتَوَصَّلَ إِلَى أَكْثَرِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَتَعَطَّاهُ . وَلَخَّصَ بَعْضُهُمْ عِبَارَةَ ٱلْحَدِّ ٱلَّذِي حَدَّهُ قُدَامَةُ وَقَالَ : ٱلْمَعْنَى إِذَا زَادَ عَلَى ٱلتَّمَامِ سُمِّيَ مُبَالَغَــةً . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : ٱلْمُبَالَغَةُ بُلُوغُ ٱلشَّاعِرِ أَقْصَى مَا يُمْـكِنُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ . قُلْتُ عَلَى هٰذَا ٱلتَّقْرِيرِ : فَجُلُّ ٱلْقَصْدِ فِي ٱلْمُبَالَغَةِ ٱلْإِمْـكَانُ وَٱلْخُرُوجُ مِنَ ٱلْمُسْتَحِيــلِ . وَٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ فِيهَا أَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ إِذَا بَعُدَتْ عَنِ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُـلُوِّ . وَإِنْ كَانَ ٱلْإِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ ضَرْبَيْنِ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ وَنَوْعَيْنِ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ . فَقَدْ شَرَطَ عُلَمَاؤُهُ أَنَّ ٱلنَّوْعَ لَا يَتَجَاوَزُ حَدَّهُ بِحَيْثُ يَزُولُ ٱلِٱلْتِبَاسُ وَيُعْجِبُنِي مِنْ أَمْثِلَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ ... دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهْ

فَالْمَعْنَى تَمَّ لِلنَّاظِمِ لَمَّا انْتَهَى فِي بَيْتِهِ إِلَى قَوْلِهِ : دُجَى اللَّيْلِ وَلَكِنْ زَادَ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ وَأَبْدَعُ وَأَغْرَبُ فِي قَوْلِهِ : حَتَّى تَظَلَّمَ الْجَزْعَ ثَاقِبُهْ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ جَوَادٍ :

وَأَصْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ ۞ وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

قَالَ ذَكِيُّ الدِّينِ بْنُ أَبِي الْأَصْبَعِ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ التَّحْبِيرِ : أَبْلَغُ شِعْرٍ سَمِعْتُهُ فِي بَابِ الْمُبَالَغَةِ قَوْلُ شَاعِرِ الْحَمَاسَةِ إِذْ بَالَغَ فِي مَدْحِ مَمْدُوحِهِ بِقَوْلِهِ :

رَهَنْتُ يَدِي بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ ۞ وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ

وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ ۞ وَلَكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فَانْظُرْ مَا أَحْلَى احْتِرَاسَهُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ . وَانْظُرْ كَيْفَ أَظْهَرَ عُذْرَهُ فِي عَجْزِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ بِأَنْ قَالَ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ . ثُمَّ أَخْرَجَ بَقِيَّةَ الْبَيْتِ لِلْمُبَالَغَةِ مُخْرَجَ الْمَثَلِ السَّائِرِ حَيْثُ قَالَ : وَلَكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ . وَمِنْ هُنَا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً ۞ حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَمِنْ حَسَنِ الْمُبَالَغَةِ قَوْلُ الْحَكَمِ الْحَضْرَمِيِّ :

وَأَقْبَحُ مِنْ قِرْدٍ وَأَبْخَلُ بِالْقِرَى ۞ مِنَ الْكَلْبِ أَمْسَى وَهُوَ غَرْثَانُ أَعْجَفُ

فَالْكَلْبُ بَخِيلٌ عَلَى مَا ظَفِرَ بِهِ وَهُوَ أَشَدُّ بُخْلًا إِذَا كَانَ جَائِعًا أَعْجَفَ

أَمَّا (الْإِغْرَاقُ) فَهُوَ فَوْقَ الْمُبَالَغَةِ وَلَكِنَّهُ دُونَ الْغُلُوِّ . وَهُوَ

فِي ٱلِاصْطِلَاحِ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً وَقَلَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا . وَغَالِبُ ٱلنَّاسِ عِنْدَهُمُ ٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلْإِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ نَوْعٌ وَاحِدٌ مَعَ أَنَّهَا تَخْتَلِفُ كَمَا سَبَقَ . وَكُلٌّ مِنَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لَا يُعَدُّ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ إِلَّا إِذَا ٱقْتَرَنَ بِمَا يُقَرِّبُهُ إِلَى ٱلْقَبُولِ (كَقَدْ) لِلِاحْتِمَالِ . (وَلَوْلَا) لِلِامْتِنَاعِ . (وَكَادَ) لِلْمُقَارَبَةِ . وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّقْرِيبِ . وَمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلصَّحِيحِ إِلَّا مَقْرُونًا بِمَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَابِ ٱلِاسْتِحَالَةِ وَيُدْخِلُهُ فِي بَابِ ٱلْإِمْكَانِ مِثْلُ : (كَادَ وَلَوْ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا كَقَوْلِهِ : يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ ٱلْأَبْصَارَ . إِذْ لَا يَسْتَحِيلُ فِي ٱلْعَقْلِ أَنَّ ٱلْبَرْقَ يَخْطَفُ ٱلْأَبْصَارَ وَلٰكِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَادَةً . وَمَا زَادَ عَلَى وَجْهِ ٱلْإِغْرَاقِ هُنَا جَمَالًا إِلَّا بِتَقْرِيبِهِ (بِكَادَ) . وَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ بِهَا هُوَ ٱلَّذِي صَرَفَهُ إِلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَقُلِبَتْ مِنَ ٱلِامْتِنَاعِ إِلَى ٱلْإِمْكَانِ . وَمِنْ شَوَاهِدِ تَقْرِيبِ نَوْعِ ٱلْإِغْرَاقِ (بِلَوْ) قَوْلُ زُهَيْرٍ :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

فَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ أَيْضًا بِٱمْتِنَاعِ قُعُودِ ٱلْقَوْمِ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُسْتَفَادِ (بِلَوْ) هُوَ ٱلَّذِي أَظْهَرَ بَهْجَةَ شَمْسِهَا فِي بَابِ ٱلْإِغْرَاقِ وَرُبَّمَا جَاءَ دُونَ ذٰلِكَ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي رَجُلٍ طَوِيلِ ٱلْأَنْفِ :

لَكَ أَنْفٌ يَا ٱبْنَ حَرْبٍ أَنِفَتْ مِنْهُ ٱلْأُنُوفُ
أَنْتَ فِي ٱلْبَيْتِ وَعِرْنِينُكَ م فِي ٱلسُّوقِ يَطُوفُ

وَكَقَوْلِ ٱلطِّرِمَّاحِ يَهْجُو تَمِيمًا :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ اَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا ... وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ ٱلْمَكَارِمِ ضَلَّتِ

وَلَوْ اَنَّ بُرْغُوثًا عَلَى ظَهْرِ نَمْلَةٍ ... يَكُرُّ عَلَى صَفَّيْ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ

وَلَوْ اَنَّ اُمَّ ٱلْعَنْكَبُوتِ بَنَتْ لَهَا ... مَظَلَّتَهَا يَوْمَ ٱلنَّدَى لَٱسْتَظَلَّتِ

وَلَوْ جُمِعَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ جُمُوعَهَا ... عَلَى ذُرْوَةٍ مِنْ خَالَةٍ لَٱسْتَقَلَّتِ

اَمَّا (ٱلْغُلُوُّ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَٱلْإِغْرَاقِ فَاِنَّهُ ٱلْإِفْرَاطُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُسْتَحِيلِ وُقُوعُهُ عَقْلًا وَعَادَةً وَهُوَ يَنْقَسِمُ اِلَى قِسْمَيْنِ : مَقْبُولٍ وَغَيْرِ مَقْبُولٍ . فَٱلْمَقْبُولُ لَا بُدَّ اَنْ يُقَرِّبَهُ ٱلنَّاظِمُ اِلَى ٱلْقَبُولِ بِاَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ ٱللَّهُمَّ اِلَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْغُلُوُّ فِي مَدِيحِ نَبِيٍّ فَلَا غُلُوَّ . وَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ ٱلْغُلُوِّ اَنْ يَسْبِكَهُ فِي قَوَالِبِ ٱلتَّخَيُّلَاتِ ٱلْحَسَنَةِ ٱلَّتِي يَدْعُو ٱلْعَقْلُ اِلَى قَبُولِهَا فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ . فَاِنَّ اِضَاءَةَ ٱلزَّيْتِ مِنْ غَيْرِ مَسِّ نَارٍ مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلًا وَلٰكِنَّ لَفْظَةَ (يَكَادُ) قَرَّبَتْهُ فَصَارَ مَقْبُولًا . وَمِنْهُ قَوْلُ اَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ :

تَكَادُ قِسِيُّهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ... تُمَكِّنُ فِي قُلُوبِهِمِ ٱلنِّبَالَا

تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ ... تَجِدُّ اِلَى رِقَابِهِمِ ٱنْسِلَالَا

وَيُعْجِبُنِي هُنَا قَوْلُ ٱبْنِ حَمْدِيسَ ٱلصِّقِلِّيِّ فِي وَصْفِ فَرَسٍ :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً مِنْ ظِلِّهِ ... لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ ٱلْحَطِيمِ اِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

وَمِنَ ٱلْغُلُوِّ ٱلْمَقْبُولِ بِغَيْرِ اَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي مَمْدُوحِهِ :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهِ عِثْيَرًا ... لَوْ تَبْتَغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَأَمْكَنَا *

وَٱنْعِقَادُ ٱلْغُبَارِ فِي ٱلْهَوَاءِ حَتَّى يُمْكِنَ ٱلْمَشْيُ عَلَيْهِ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا وَعَادَةً اِلَّا اِنَّهُ تَخَيُّلٌ مَقْبُولٌ

وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمُتَوَكِّلِ :

وَلَوَ اَنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا ... فِي وُسْعِهِ لَسَعَى اِلَيْكَ ٱلْمِنْبَرُ

وَامَّا ٱلَّذِي هُوَ غَيْرُ مَقْبُولٍ فَكَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ فِي ٱلْخَمْرَةِ :

فَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا ... اِلَى مَوْضِعِ ٱلْاَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا قِفِي

مَخَافَةَ اَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا ... فَيَطْلَعَ نُدْمَانِي عَلَى سِرِّيَ ٱلْخَفِي

قَالُوا : اِنَّ سَطْوَةَ شُعَاعِ ٱلْخَمْرِ بِحَيْثُ يَصِيرُ جِسْمُهُ شَفَّافًا يُظْهِرُ لِنَدِيمِهِ مَا فِي بَاطِنِهِ لَا يُمْكِنُ عَقْلًا وَلَا عَادَةً . قُلْتُ : وَمَرَاتِبُ ٱلْغُلُوِّ تَتَفَاوَتُ اِلَى اَنْ تَؤُولَ بِقَائِلِهَا اِلَى ٱلْكُفْرِ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

تَتَقَاصَرُ ٱلْاَفْهَامُ عَنْ اِدْرَاكِهِ ... مِثْلَ ٱلَّذِي ٱلْاَفْلَاكُ فِيهِ وَٱلدُّنَى

وَكَقَوْلِهِ :

كَاَنِّي دَحَوْتُ ٱلْاَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا ... كَاَنِّي بَنَى ٱلْاِسْكَنْدَرُ ٱلسَّدَّ مِنْ عَزْمِي

فَهٰذَا ٱلْغُلُوُّ يُؤَدِّي اِلَى سَخَافَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قُبْحِ ٱلتَّرْكِيبِ وَلَوْلَا ٱلْاِطَالَةُ لَاَوْرَدْتُ كَثِيرًا مِنْ نَظْمِ ٱلَّذِينَ يَتَسَاهَلُونَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ كَاَبِي

---

* معنى هذا البيت ان سنابك الخيل وهي اطراف الحوافر عقدت على هذا الممدوح عثيرًا وهو الغبار حتى لو اراد ان يمشي عليهِ عنقًا لامكن . والعنق هو المشي السريع

نُوَاس وَابْنِ هَانِئٍ الاندلسيّ والمتنبي وابي العلاء المعرّي وغيرهم من المتاخرين كابن النبيه ومن جرى مجراه. وفي ما قدمنا كفاية

البحث الخامس عشر

في التكرير

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٤٢ من علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ هٰذَا النَّوعَ مِنْ مَقَاتِلِ عِلمِ البَيَانِ وَهُوَ دَقِيقُ المَأخذ وَحَدُّهُ هُوَ دَلَالَةُ اللَّفظِ عَلَى المَعْنَى مُرَدَّدًا . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحدُهُمَا يُوجَدُ فِي اللَّفظِ وَالمَعْنَى وَالآخَرُ يُوجَدُ فِي المَعْنَى دُونَ اللَّفظِ فَامَّا الَّذِي يُوجَدُ فِي اللَّفظِ وَالمَعْنَى فَكَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : اَسرِعْ اَسرِعْ . وَامَّا الَّذِي يُوجَدُ فِي المَعنَى دُونَ اللَّفظِ فَكَقَوْلِكَ : اَطِعْنِي وَلَا تَعصِنِي . فَاِنَّ الامرَ بِالطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ المَعْصِيَةِ. وَكُلٌّ مِنْ هٰذَيْنِ القِسْمَيْنِ يَنْقَسِمُ اِلَى مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . وَمَقْصُودِي مِنَ المُفِيدِ اَنْ يَأْتِيَ لِمَعْنًى وَغَيْرِ المُفِيدِ اَنْ يَأْتِيَ لِغَيْرِ مَعْنًى . وَاعْلَمْ اَنَّ المُفِيدَ مِنَ التَّكْرِيرِ يَأْتِي فِي الكَلَامِ تَأْكِيدًا وَتَشْدِيدًا مِنْ اَمرِهِ. وَاِنَّمَا يُفعَلُ ذٰلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى العِنَايَةِ بِالشَّيْءِ الَّذِي كَرَّرْتَ فِيهِ كَلَامَكَ اِمَّا مُبَالَغَةً فِي مَدْحِهِ اَوْ فِي ذَمِّهِ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ. وَلَا يَأْتِي اِلَّا فِي اَحَدِ طَرَفَيِ الشَّيْءِ المَقْصُودِ بِالذِّكْرِ. وَالوَسَطُ عَارٍ مِنْهُ لِاَنَّ اَحَدَ الطَّرَفَيْنِ هُوَ المَقْصُودُ بِالمُبَالَغَةِ اِمَّا بِمَدْحٍ اَوْ ذَمٍّ اَوْ غَيْرِهِمَا وَالوَسَطُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ المُبَالَغَةِ . وَغَيْرُ المُفِيدِ لَا يَأْتِي فِي الكَلَامِ اِلَّا عِيًّا وَخَطَلًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَيهِ

(فَأَمَّا ٱلْأَوَّلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) فَإِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ضَرْبَيْنِ : مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . (فَٱلْأَوَّلُ ٱلْمُفِيدُ) وَهُوَ فَرْعَانِ : (ٱلْأَوَّلُ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمَقْصُودُ بِهِ غَرَضَانِ مُخْتَلِفَانِ . فَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُهُ : بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . فَكَرَّرَ (ٱلرَّحْمَانَ ٱلرَّحِيمَ) مَرَّتَيْنِ . وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَوَّلَ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلدُّنْيَا كَٱلْخَلْقِ وَٱلْعِنَايَةِ . وَٱلثَّانِي يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلْآخِرَةِ إِشَارَةً لِرَحْمَتِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلضَّرْبِ ٱلْأَوَّلِ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمُرَادُ بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ كَقَوْلِهِ : فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . وَٱلتَّكْرِيرُ دَلَالَةُ ٱلتَّعَجُّبِ مِنْ تَقْرِيرِهِ وَإِصَابَتِهِ ٱلْغَرَضَ . وَهٰذَا كَمَا يُقَالُ : قَتَلَهُ ٱللهُ مَا أَشْجَعَهُ أَوْ مَا أَشْجَعَهُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

أَلَا يَا أَسْلَمِي ثُمَّ أَسْلَمِي ثُمَّتَ أَسْلَمِي

وَهٰذَا مُبَالَغَةٌ فِي ٱلدُّعَاءِ لَهَا بِٱلسَّلَامَةِ . وَكُلُّ هٰذَا يُجَاءُ بِهِ لِتَقْرِيرِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَإِثْبَاتِهِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قِسْمًا يَكُونُ ٱلْمَعْنَى مُضَافًا إِلَى نَفْسِهِ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱللَّفْظِ . وَذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱسْتُعْمِلَ فِي فَصِيحِ ٱلْكَلَامِ فَمِنْهُ قَوْلُهُ : وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ . وَٱلرِّجْزُ هُوَ ٱلْعَذَابُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

نَهُوضٌ بِثِقْلِ ٱلْعِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ ٱلْخُطُوبُ وَجَلَّتِ

وَالثِّقْلُ هُوَ الْعِبءُ وَالْعِبءُ هُوَ الثِّقْلُ . وَرُبَّمَا اَشْكَلَ هٰذَا الْمَوْضُوعُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَعَاطَى هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ وَظَنُّوهُ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ الْفَائِدَةُ فِيهِ هِيَ التَّأْكِيدُ لِلْمَعْنَى الْمَقْصُودِ وَالْمُبَالَغَةُ فِيهِ . اَمَّا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : (عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ) اَيْ عَذَابٌ مُضَاعَفٌ مِنْ عَذَابٍ . وَاَمَا بَيْتُ اَبِي تَمَّامٍ فَاِنَّهُ تَضَمَّنَ الْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ الْمَمْدُوحِ بِحَمْلِهِ لِلْاَنْقَالِ . وَهٰذَا الْمَوْضِعُ لَمْ يُنَبِّهْ عَلَيْهِ اَحَدٌ سِوَايَ . وَلَرُبَّمَا اُدْخِلَ فِي التَّكْرِيرِ مِنْ هٰذَا النَّوْعِ مَا لَيْسَ مِنْهُ . فَمِنْهُ قَوْلُهُ : ثُمَّ اِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَاَصْلَحُوا اِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . فَلَمَّا تَكَرَّرَ اِنَّ رَبَّكَ مَرَّتَيْنِ عُلِمَ اَنَّ ذٰلِكَ اَدَلُّ عَلَى الْمَغْفِرَةِ . . . وَهٰذِهِ الْاَقْوَالُ يُظَنُّ اَنَّهَا مِنْ بَابِ التَّكْرِيرِ وَلَيْسَتْ كَذٰلِكَ . وَقَدْ اَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهَا فَرَاَيْتُهَا خَارِجَةً عَنْ حُكْمِ التَّكْرِيرِ وَذَاكَ اِنَّهُ اِذَا طَالَ الْفَصْلُ مِنَ الْكَلَامِ وَكَانَ اَوَّلُهُ يَفْتَقِرُ اِلَى تَمَامٍ وَلَا يُفْهَمُ اِلَّا بِهِ فَالْاَوْلَى فِي بَابِ الْفَصَاحَةِ اَنْ يُعَادَ اللَّفْظُ الْاَوَّلُ مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَكُونَ مُقَارِنًا لِتَمَامِ الْفَصْلِ كَيْ لَا يَجِيءَ الْكَلَامُ مَنْثُورًا لَا سِيَّمَا فِي (اِنَّ وَاَخَوَاتِهَا) . فَاِذَا وَرَدَتْ (اِنَّ) وَكَانَ بَيْنَ اسْمِهَا وَخَبَرِهَا فُسْحَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الْكَلَامِ فَاِعَادَةُ (اِنَّ) اَحْسَنُ فِي حُكْمِ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ مِنْ شُعَرَاءِ الْحَمَاسَةِ :

اَاَبْجِنَا وَقَيْدًا وَاشْتِيَاقًا وَغُرْبَةً ... وَنَأْيَ حَبِيبٍ اِنَّ ذَا لَعَظِيمُ
وَاِنَّ امْرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَى مِثْلِ مَا قَاسَيْتُهُ لَكَرِيمُ

فإنّه لمّا طال الكلام بين اسم (إنّ) وخبرها أُعيدت (إنّ) مرّة ثانية لأنّ تقدير الكلام : وإنّ امرءا دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريم . لكن بين الاسم والخبر مدى طويل فإذا لم تعد (إنّ) مرّة ثانية لم يأت على الكلام بهجة . وهذا لا يتنبّه لاستعماله إلّا الفصحاء إمّا طبعا وإمّا علما . وكذلك يجري الأمر إذا كان خبر (إنّ) عاملا في معمول يطول ذكره فإنّ إعادة الخبر ثانية هو الأحسن . وعلى هذا جاء قوله في سورة يوسف إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت إنّي رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . فلمّا قال : إنّي رأيت ثم طال الفصل كان الأحسن أن يعيد لفظ (الرؤية) فيقول : رأيتهم لي ساجدين .

ومن باب (التكرير في اللفظ والمعنى) الدالّ على معنى واحد قوله : وقال الذي آمن يا قوم اتّبعوني أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنّ هذه الدنيا متاع وإنّ الآخرة هي دار القرار . فإنّه إنّما كرّر نداء قومه هاهنا لزيادة التنبيه لهم والإيقاظ عن سنة الغفلة ولأنّهم قومه وعشيرته فيتحزّن لهم ويتلطّف بهم فيستدعي بذلك أن يتزلوا على نصيحته . وهذا في التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز وأشدّ موقعا من الاختصار . وممّا ورد من هذا النوع شعرا قول بعض شعراء الحماسة :

إلى معدن العزّ المؤثّل والندى   هناك هناك الفضل والخلق الجزل

فقوله : هناك هناك من التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز

لِأَنَّهُ فِي مَعرِضِ مَدحٍ فَهُوَ يُقَرِّرُ فِي نَفسِ ٱلسَّامِعِ مَا عِندَ ٱلْمَمدُوحِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَوصَافِ ٱلْمَذْكُورَةِ مُشِيرًا إِلَيهَا كَأَنَّهُ قَالَ : أَدُلُّكُمْ عَلَى مَعدِنِ كَذَا وَكَذَا وَمَقَرِّهِ وَمَفَادِهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْمُسَاوِرِ ٱبْنِ هِنْدٍ :

جَزَى ٱللهُ عَنِّي غَالِبًا مِنْ عَشِيرَةٍ إِذَا حَدَثَانُ ٱلدَّهْرِ نَابَتْ نَوَائِبُهْ
فَكَمْ دَفَعُوا مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ تَلَاحَمَتْ عَلَيَّ وَمَوْجٍ قَدْ عَلَتْنِي غَوَارِبُهْ

فَصَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَعَجُزُهُ يَدُلَّانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لِأَنَّ تَلَاحُمَ ٱلْكُرَبِ عَلَيْهِ كَتَعَالِي ٱلْمَوْجِ مِنْ فَوْقِهِ . وَإِنَّمَا نَوَّعَ ذٰلِكَ لِأَنَّهُ مَقَامُ مَدْحٍ وَإِطْرَاءٍ أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَصِفُ إِحْسَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ حِدْثَانِ دَهْرِهِ فِي ٱلتَّكْرِيرِ . وَفِي قُبَالَتِهِ لَوْ كَانَ ٱلْقَائِلُ هَاجِيًا فَإِنَّ ٱلْهِجَاءَ فِي هٰذَا كَٱلْمَدْحِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) وَهُوَ غَيْرُ ٱلْمُفِيدِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مَرْوَانَ ٱلْأَصْغَرِ :

سَقَى ٱللهُ نَجْدًا وَٱلسَّلَامُ عَلَى نَجْدِ وَيَا حَبَّذَا نَجْدٌ عَلَى ٱلْقُرْبِ وَٱلْبُعْدِ
نَظَرْتُ إِلَى نَجْدٍ وَبَغْدَادُ دُونَهَا لَعَلِّي أَرَى نَجْدًا وَهَيْهَاتَ مِنْ نَجْدِ

وَهٰذَا مِنَ ٱلْعِيِّ ٱلضَّعِيفِ فَإِنَّهُ كَرَّرَ ذِكْرَ نَجْدٍ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ ثَلَاثًا . وَفِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي ثَلَاثًا . وَمُرَادُهُ فِي ٱلْأَوَّلِ ٱلثَّنَاءُ عَلَى نَجْدٍ . وَفِي ٱلثَّانِي أَنَّهُ تَلَفَّتَ إِلَيْهِ نَاظِرًا مِنْ بَغْدَادَ وَذٰلِكَ مَرْمًى بَعِيدٌ . ٱلْمَعْنَى لَا يَحْتَاجُ إِلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلتَّكْرِيرِ . أَمَّا ٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ فَيُحْمَلُ عَلَى ٱلْجَائِزِ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِأَنَّهُ مَقَامُ تَشَوُّقٍ وَتَحَرُّقٍ وَمَوْجِدَةٍ بِفِرَاقِ نَجْدٍ . وَلَمَّا كَانَ كَذٰلِكَ أُجِيزَ فِيهِ ٱلتَّكْرِيرُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ

يُسَوِّغَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلْوَارِدَ فِي ٱلْبَيْتَيْنِ مَعًا مِنْ غَيْرِ اَنْ يَأْتِيَ بِهٰذَا ٱلتَّكْرِيرِ ٱلْمُتَتَابِعِ سِتَّ مَرَّاتٍ . وَعَلَى هٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ وَرَدَ قَوْلُ اَبِي نُوَاس :

اَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا   وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ ٱلتَّرَحُّلِ خَامِسُ

وَمُرَادُهُ مِنْ ذٰلِكَ اَنَّهُمْ اَقَامُوا بِهَا اَرْبَعَةَ اَيَّامٍ . وَيَا عَجَبًا لَهُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلسَّخِيفِ ٱلدَّالِّ عَلَى ٱلْعِيِّ ٱلْفَاحِشِ فِي ضِمْنِ اَبْيَاتٍ عَجِيبَةِ ٱلْحُسْنِ تَتَقَدَّمُ هٰذَا ٱلْبَيْتَ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ اَيْضًا قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَلَمْ اَرَ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي   لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمِ مَقَامُ

فَهٰذَا هُوَ ٱلتَّكْرِيرُ ٱلْفَاحِشُ ٱلَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ٱلْكَلَامِ نَقْصًا . اَلَا تَرَى اَنَّهُ يَقُولُ : لَمْ اَرَ مِثْلَ جِيرَانِي فِي سُوءِ ٱلْجِوَارِ وَلَا مِثْلِي فِي مُصَابَرَتِهِمْ وَمُقَامِي عِنْدَهُمْ . اِلَّا اَنَّهُ قَدْ كَرَّرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْبَيْتِ مَرَّتَيْنِ . وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ جَاءَ قَوْلُهُ :

وَقَلْقَلْتُ بِٱلْهَمِّ ٱلَّذِي قَلْقَلَ ٱلْحَشَى   قَلَاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلَاقِلُ

(وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ) فَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : مُفِيدٌ وَغَيْرُ مُفِيدٍ . (اَلضَّرْبُ ٱلْاَوَّلُ) ٱلْمُفِيدُ وَهُوَ فَرْعَانِ : (اَلْاَوَّلُ) اِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَهُوَ مَوْضِعٌ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ مُشْكِلٌ لِاَنَّهُ يَسْبِقُ اِلَى ٱلْوَهْمِ اَنَّهُ تَكْرِيرٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَهُوَ لَيْسَ كَذٰلِكَ . . . بَلْ يُقْصَدُ بِهِ ٱلتَّأْكِيدُ وَٱلتَّقْرِيرُ وَٱلتَّنَصُّلُ عَمَّا يُرْمَى بِهِ ٱلْمُتَكَلِّمُ . وَمِمَّا

يَنْتَظِمُ بِهَذَا ٱلسِّلْكِ أَنْ يَكُونَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ أَحَدُهُمَا خَاصٌّ وَٱلْآخَرُ عَامٌّ كَقَوْلِهِ : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱللهِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ . فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ دَاخِلٌ تَحْتَ ٱلدُّعَاءِ إِلَى ٱلْخَيْرِ . لِأَنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ خَاصٌّ وَٱلْخَيْرَ عَامٌّ فَكُلُّ أَمْرٍ بِٱلْمَعْرُوفِ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ خَيْرٍ أَمْرًا بِٱلْمَعْرُوفِ . وَذَاكَ أَنَّ ٱلْخَيْرَ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جُمْلَتِهَا ٱلْأَمْرُ بِٱلْمَعْرُوفِ . فَفَائِدَةُ ٱلتَّكْرِيرِ هٰهُنَا أَنَّهُ ذَكَرَ ٱلْخَاصَّ بَعْدَ ٱلْعَامِّ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ . وَكَقَوْلِهِ : حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى . وَكَقَوْلِهِ : فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . وَكَقَوْلِهِ : إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا . فَإِنَّ ٱلْجِبَالَ دَاخِلَةٌ فِي جُمْلَةِ ٱلْأَرْضِ . لٰكِنَّ لَفْظَ ٱلْأَرْضِ عَامٌّ وَٱلْجِبَالِ خَاصٌّ . وَفَائِدَتُهُ هٰهُنَا تَعْظِيمُ شَأْنِ ٱلْأَمَانَةِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهَا وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا . . . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْبَلِيغِ وَيُظَنُّ أَنْ لَا فَائِدَةَ فِيهِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَقَدْ سَبَقَ مِثَالُ ذٰلِكَ فِي أَوَّلِ هٰذَا ٱلْبَابِ كَقَوْلِكَ : أَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ تَثْبِيتُ ٱلطَّاعَةِ فِي نَفْسِ ٱلْمُخَاطَبِ . وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ كَٱلْكَلَامِ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ مِنْ تَكْرِيرِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى إِذَا كَانَ ٱلْغَرَضُ بِهِ شَيْئًا وَاحِدًا . وَلَا نَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِتَأْكِيدِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ كَقَوْلِهِ : إِنَّ مِنْ أَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَرَّرَ

ٱلعفوَ وَٱلصَّفْحَ وَٱلْمَغفِرَةَ وَٱلْجَميعُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ لِلزِّيَادَةِ فِي تَحْسِينِ عَفْوِ ٱلْوَالِدِ عَنْ وَلَدِهِ . وَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ يُنْظَرُ فِي ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَكُونُ ٱلتَّكْرِيرُ فِيهِ أَوْجَزَ مِنْ لَمْحَةِ ٱلْإِيجَازِ وَأَوْلَى بِٱلْاسْتِعْمَالِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنْهُ شِعْرًا قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي أَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

نَزَلْتُ عَلَى آلِ ٱلْمُهَلَّبِ شَاتِيًا بَعِيدًا عَنِ ٱلْأَوْطَانِ فِي زَمَنِ ٱلْمَحْلِ
فَمَا زَالَ بِي إِكْرَامُهُمْ وَٱفْتِقَادُهُمْ وَإِحْسَانُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمْ أَهْلِي

فَإِنَّ ٱلْإِكْرَامَ وَٱلْإِفْتِقَادَ دَاخِلَانِ تَحْتَ ٱلْإِحْسَانِ وَإِنَّمَا كَرَّرَ ذٰلِكَ لِلتَّنْوِيهِ بِذِكْرِ ٱلصَّنِيعِ وَٱلْإِيجَابِ لِحَقِّهِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) فِي تَكْرِيرِ ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ وَهُوَ غَيْرُ ٱلْمُفِيدِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

قَسَمَ ٱلزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ ٱلصَّبَا وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا أَثْلَاثَا

فَإِنَّ رِيحَ ٱلصَّبَا هِيَ رِيحُ ٱلْقَبُولِ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ قَدْ خَبَطَ فِيهِ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ خَبْطًا كَثِيرًا وَٱلْأَكْثَرُ مِنْهُمْ أَجَازَهُ . فَقَالُوا : إِذَا كَانَتِ ٱلْأَلْفَاظُ مُتَغَايِرَةً وَٱلْمَعْنَى ٱلْمُعَبَّرُ عَنْهُ وَاحِدًا فَلَيْسَ ٱسْتِعْمَالُ ذٰلِكَ بِمَعِيبٍ . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فِيهِ نَظَرٌ وَٱلَّذِي عِنْدِي فِيهِ أَنَّ ٱلنَّاثِرَ يُعَابُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِهِ مُطْلَقًا إِذَا أَتَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلنَّاظِمُ فَإِنَّهُ يُعَابُ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ . أَمَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ صُدُورُ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَمَا وَالَاهَا . وَأَمَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي لَا يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ ٱلْأَعْجَازُ مِنَ ٱلْأَبْيَاتِ لِمَكَانِ ٱلْقَافِيَةِ . وَإِنَّمَا جَازَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَكُنْ عَيْبًا لِأَنَّهُ قَافِيَةٌ

وَالشَّاعِرُ مُضْطَرٌّ اِلَيْهَا وَالْمُضْطَرُّ يَحِلُّ لَهُ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ كَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ فِي قَصِيدَتِهِ اللاَّمِيَّةِ الَّتِي مَطْلَعُهَا :

اَلَا انْعَمْ صَبَاحًا اَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي

فَقَالَ :

وَهَلْ يَنْعَمَنْ اِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ ... قَلِيلُ الْهُمُومِ لَا يَبِيتُ بِاَوْجَالِ

وَاِذَا كَانَ قَلِيلَ الْهُمُومِ فَاِنَّهُ لَا يَبِيتُ بِاَوْجَالٍ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلْمَعْنَى اِلَّا اَنَّهُ لَيْسَ بِعَيْبٍ لِاَنَّهُ قَافِيَةٌ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ الْحُطَيْئَةِ :

قَالَتْ اِمَامَةُ لَا تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا ... اِنَّ الْعَزَاءَ وَاِنَّ الصَّبْرَ قَدْ غَلَبَا

هَلَّا الْتَمَسْتِ لَنَا اِنْ كُنْتِ صَادِقَةً ... مَا لَا نَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ اَوْ نَشَبَا

فَالْبَيْتُ الْاَوَّلُ مَعِيبٌ لِاَنَّهُ كَرَّرَ الْعَزَاءَ وَالصَّبْرَ اِذْ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَلَمْ يَرِدَا قَافِيَةً لِاَنَّ الْقَافِيَةَ هِيَ الْبَاءُ . وَاَمَّا الْبَيْتُ الثَّانِي فَلَيْسَ بِمَعِيبٍ لِاَنَّ التَّكْرِيرَ جَاءَ فِي النَّشَبِ وَهُوَ قَافِيَةٌ

البحث السادس عشر

في حقيقة التشبيه وتحديده

(عن خزانة الادب للحموي وعن كتاب الصناعتين)

(راجع صفحة ٤٨ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ اَصْحَابَ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ اَطْلَقُوا اَعِنَّةَ الْكَلَامِ فِي مَيَادِينِ حُدُودِ التَّشْبِيهِ وَتَقَادِيرِهَا وَهُوَ عِنْدَهُمُ الدَّلَالَةُ عَلَى مُشَارَكَةِ اَمْرٍ لِاَمْرٍ فِي مَعْنًى . وَقَالَ الرُّمَّانِيُّ : اَلتَّشْبِيهُ هُوَ الْعَقْدُ عَلَى اَحَدِ الشَّيْئَيْنِ

يَسُدُّ اَحَدُهُما مَسَدَّ ٱلآخَرِ فِي حَالٍ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلعَامُّ ٱلَّذِي يَدْخُلُ تَحْتَهُ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْبَلِيغُ وَغَيْرُهُ . وَٱلتَّشْبِيهُ ٱلْبَلِيغُ هُوَ اِخْرَاجُ ٱلْاَغْمَضِ اِلى ٱلْاَوْضَحِ مَعَ حُسْنِ ٱلتَّأْلِيفِ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى ٱشْتِرَاكِ شَيْئَيْنِ فِي وَصْفٍ هُوَ مِنْ اَوْصَافِ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلعُمْدَةِ : ٱلتَّشْبِيهُ صِفَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا قَارَبَهُ وَشَاكَلَهُ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ لِاَنَّهُ لَوْ نَاسَبَهُ مُنَاسَبَةً كُلِّيَّةً كَانَ اِيَّاهُ . اَلَا تَرَى اِلى قَوْلِهِمْ : خَدٌّ كَالْوَرْدِ اِنَّمَا مُرَادُهُمْ اِحْمِرَارُ اَوْرَاقِهِ وَطَرَاوَتُهَا لَا مَا سِوَى ذٰلِكَ مِنْ صُفْرَةِ وَسَطِهِ وَخُضْرَةِ كَمَائِمِهِ (اه) . وَقِيلَ : ٱلتَّشْبِيهُ اِلْحَاقُ اَدْنَى ٱلشَّيْئَيْنِ بِاَعْلَاهُمَا فِي صِفَةٍ اشْتَرَكَا فِي اَصْلِهَا وَٱخْتَلَفَا فِي كَيْفِيَّتِهَا قُوَّةً وَضُعْفًا . قُلْتُ : وَهٰذَا حَدٌّ مُفِيدٌ . وَاَوْرَدَ ٱبْنُ اَبِي ٱلْاِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ تَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ حَدًّا زَادَ فِي حُسْنِهِ عَلَى ٱلْحَدِّ وَهُوَ : اَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ تَشْبِيهَانِ (ٱلْاَوَّلُ) مِنْهُمَا تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُتَّفِقَيْنِ بِاَنْفُسِهِمَا كَتَشْبِيهِ ٱلْجَوْهَرِ بِٱلْجَوْهَرِ مِثْلُ قَوْلِكَ : مَاءُ ٱلنِّيلِ كَمَاءِ ٱلْفُرَاتِ . وَتَشْبِيهِ ٱلْعَرَضِ بِٱلْعَرَضِ كَقَوْلِكَ : حُمْرَةُ ٱلْخَدِّ كَحُمْرَةِ ٱلْوَرْدِ . وَتَشْبِيهِ ٱلْجِسْمِ بِٱلْجِسْمِ كَقَوْلِكَ : ٱلزَّبَرْجَدُ مِثْلُ ٱلزُّمُرُّدِ . (وَٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ بِٱلذَّاتِ يَجْمَعُهُمَا مَعْنًى وَاحِدٌ مُشْتَرَكٌ . كَقَوْلِكَ : حَاتِمٌ كَٱلْغَمَامِ وَعَنْتَرَةُ كَٱلضِّرْغَامِ . وَتَشْبِيهُ ٱلْاِتِّفَاقِ وَهُوَ ٱلْاَوَّلُ تَشْبِيهٌ حَقِيقِيٌّ . وَتَشْبِيهُ ٱلْاِخْتِلَافِ وَهُوَ ٱلثَّانِي تَشْبِيهٌ مَجَازِيٌّ وَٱلْمُرَادُ ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلتَّشْبِيهُ رُكْنٌ مِنْ اَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ لِاِخْرَاجِهِ ٱلْخَفِيَّ اِلَى ٱلْجَلِيِّ وَاِدْنَائِهِ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْقَرِيبِ . وَهُوَ حُكْمٌ اِضَافِيٌّ لَا يُوجَدُ اِلَّا بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِخِلَافِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ وَلَيْسَ ٱلْحُكْمُ

أَنَّهُ إِذَا صَحَّتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حَسُنَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَإِنَّ ٱلْمُشَابَهَةَ إِذَا قُرِنَتْ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِٱلِاسْتِعَارَةِ قَبُحَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَا تَقُولُ: كَأَنَّكَ أَوْقَعْتَنِي فِي ظُلْمَةٍ إِذَا أَوْقَعَكَ فِي شُبْهَةٍ . وَفَهِمْتُ ٱلْمَسْأَلَةَ فَكَأَنَّهُ ٱنْشَرَحَ صَدْرِي أَوْ كَأَنَّ نُورًا حَصَلَ فِي قَلْبِي. لِتَمَكُّنِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا صَارَتْ حَقِيقِيَّةً

البحث السابع عشر

في اركان التشبيه ومحاسنه وفوائده

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

وَٱعْلَمْ أَنَّ لِلتَّشْبِيهِ أَدَوَاتٍ كَنَحْوِ وَكَأَنَّ وَشِبْهٍ وَمِثْلٍ . فَرُبَّمَا ظَهَرَتْ وَرُبَّمَا أُضْمِرَتْ . (وَمِنَ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْأَدَاةُ) مَا قِيلَ فِي وَصْفِ حَالِ ٱلْمُنَافِقِينَ : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

خُلُقٌ مِنْهُمُ تَرَدَّدَ فِيهِمْ   وَلِيَتْهُ عِصَابَةٌ عَنْ عِصَابَهْ
كَٱلْحُسَامِ ٱلْجُرَازِ يَبْقَى عَلَى ٱلدَّهْـ   ـرِ وَيُفْنِي فِي كُلِّ حِينٍ قِرَابَهْ

وَمِنَ ٱللَّطِيفِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

لَا جَزَى ٱللهُ دَمْعَ عَيْنَيَّ خَيْرًا   وَجَزَى ٱللهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي
نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا   وَوَجَدْتُ ٱللِّسَانَ ذَا كِتْمَانِ
كُنْتُ مِثْلَ ٱلْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيٌّ   فَٱسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِٱلْعُنْوَانِ

(وَمِنَ ٱلْمضمرِ ٱلأَداةِ) قَوْلُهُ : وَجَعَلْنَا ٱللَّيلَ لِبَاسًا . فَشَبَّهَ ٱللَّيلَ بِٱللِّبَاسِ . وَذَاكَ أَنَّهُ يَسْتُرُ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَنْ أَرَادَ هَرَبًا مِنْ عَدُوٍّ أَوْ ثَبَاتًا لِعَدُوٍّ أَوْ إِخْفَاءً لِمَا لَا يُحِبُّ ٱلِٱطِّلَاعَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلأَمْثَالِ مِثْلُهُ : ٱللَّيلُ جُنَّةُ ٱلْهَارِبِ . وَمِمَّا وَرَدَ شِعْرًا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَإِذَا ٱهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْرًا وَإِذَا ٱهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلَا
وَإِذَا ٱلأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا وَإِذَا ٱلأَرْضُ أَمْحَلَتْ كَانَ وَبْلَا

وَكُلُّ ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضمرِ ٱلأَدَاةِ . وَإِنَّ هٰذَا ٱلتَّشْبِيهَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلأَدَاةِ وَأَوْجَزُ . أَمَّا كَوْنُهُ أَبْلَغَ فَلِجَعْلِ ٱلْمُشَبَّهِ مُشَبَّهًا بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةِ أَدَاةٍ فَيَكُونُ هُوَ إِيَّاهُ . فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ أَسَدٌ . كُنْتَ قَدْ جَعَلْتَهُ أَسَدًا مِنْ غَيْرِ إِظْهَارِ أَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَأَمَّا كَوْنُهُ أَوْجَزَ فَلِحَذْفِ أَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ مِنْهُ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ ٱلْقِسْمَيْنِ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ وَٱلْمُضمرِ كِلَيْهِمَا فِي فَضِيلَةِ ٱلْبَيَانِ سَوَاءٌ فَإِنَّ ٱلْغَرَضَ ٱلْمَقْصُودَ مِنْ قَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . أَنْ يَتَبَيَّنَ حَالُ زَيْدٍ فِي ٱتِّصَافِهِ بِشَهَامَةِ ٱلنَّفْسِ وَقُوَّةِ ٱلْبَطْشِ وَجَرَاءَةِ ٱلإِقْدَامِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُ . إِلَّا أَنَّا لَمْ نَجِدْ شَيْئًا نَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ سِوَى أَنْ جَعَلْنَاهُ شَبِيهًا بِٱلأَسَدِ حَيْثُ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ مُخْتَصَّةً بِهِ . فَصَارَ مَا قَصَدْنَاهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَكْشَفَ وَأَبْيَنَ مِنْ أَنْ لَوْ قُلْنَا : زَيْدٌ شَهْمٌ شُجَاعٌ قَوِيُّ ٱلْبَطْشِ جَرِيءُ ٱلْجَنَانِ وَأَشْبَاهُ ذٰلِكَ . لِمَا قَدْ عُرِفَ وَعُهِدَ مِنِ ٱجْتِمَاعِ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ فِي ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَعْنِي ٱلأَسَدَ . وَأَمَّا زَيْدٌ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ فَلَيْسَ مَعْرُوفًا بِهَا

وَإِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِيهِ . وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ أَيضًا يَخْتَصُّ بِفَضِيلَةِ ٱلْإِيجَازِ وَإِنْ كَانَ ٱلْمُضْمَرُ أَوْجَزَ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ لِأَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ أَوْ كَٱلْأَسَدِ . يَسُدُّ مَسَدَّ قَوْلِنَا : زَيْدٌ مِنْ حَالِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ . وَهُوَ مِنَ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلشِّدَّةِ عَلَى كَذَا وَكَذَا مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ . فَٱلتَّشْبِيهُ إِذًا يَجْمَعُ صِفَاتٍ ثَلَاثَةً هِيَ : ٱلْمُبَالَغَةُ . وَٱلْبَيَانُ . وَٱلْإِيجَازُ كَمَا أَرَيْتُكَ . إِلَّا أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ بَيْنِ أَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ مُسْتَوْعَرُ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ مَقْتَلٌ مِنْ مَقَاتِلِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ حَمْلَ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمَاثَلَةِ إِمَّا صُورَةً وَإِمَّا مَعْنًى يَعِزُّ صَوَابُهُ وَتَعْسُرُ ٱلْإِجَادَةُ فِيهِ . وَقَلَّمَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا عَثَرَ كَمَا فَعَلَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ مِنْ أُدَبَاءِ ٱلْعِرَاقِ وَٱبْنُ وَكِيعٍ مِنْ أُدَبَاءِ مِصْرَ . فَإِنَّهُمَا أَكْثَرَا مِنْ ذٰلِكَ لَاسِيَّمَا فِي وَصْفِ ٱلرِّيَاضِ وَٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَزْهَارِ وَٱلثِّمَارِ . لَاجَرَمَ أَنَّهُمَا أَتَيَا بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ ٱلَّذِي لَا يَثْبُتُ عَلَى مِحَكِّ ٱلصَّوَابِ فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ . وَأَمَّا فَائِدَةُ ٱلتَّشْبِيهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهِيَ : أَنَّكَ إِذَا امْثَلْتَ ٱلشَّيْءَ بِٱلشَّيْءِ فَإِنَّمَا تَقْصِدُ فِيهِ إِثْبَاتَ ٱلْخَالِ فِي ٱلنَّفْسِ بِصُورَةِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَوْ بِمَعْنَاهُ وَذٰلِكَ أَوْكَدُ فِي طَرَفَي ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ أَوِ ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهُ . أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا أَشْبَهْتَ صُورَةً بِصُورَةٍ هِيَ أَحْسَنُ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا حَسَنًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّرْغِيبِ فِيهَا . وَكَذٰلِكَ إِذَا أَشْبَهْتَهَا بِصُورَةِ شَيْءٍ أَقْبَحَ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا قَبِيحًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . وَلْنَضْرِبْ لَهُ مِثَالًا يُوضِحُهُ فَنَقُولُ : قَدْ وَرَدَ عَنِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْعَسَلِ وَذَمِّهِ بَيْتٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ :

تقولُ هذا مُجاجُ النَّحلِ تمدحُهُ ... وإنْ تَعِبْ قلتَ ذا قَيْءُ الزنابيرِ

ألا ترى كيفَ مدحَ وذمَّ الشيءَ الواحدَ بتصريفِ التشبيهِ المجازيِّ المُضمرِ الأداةِ الذي خيَّلَ بهِ إلى السامعِ خيالاً يحسِّنُ الشيءَ عندَهُ تارةً ويُقبِّحُهُ أخرى. ولولا التوصُّلُ بطريقِ التشبيهِ على هذا الوجهِ لمَا أمكنَهُ ذلكَ. وهذا المثالُ كافٍ فيما أردناهُ. واعلمْ أنَّ مِنْ محاسنِ التشبيهِ أنْ يجيءَ مصدريًّا كقولِنا: أقدمَ إقدامَ الأسدِ وفاضَ فيضَ البحرِ. وهوَ أحسنُ ما استُعمِلَ في بابِ التشبيهِ. كقولِ أبي نوَّاسٍ في وصفِ الخمرِ:

وإذا ما مزجوها ... وثبتْ وثبَ الجرادْ

وإذا ما شربوها ... أخذتْ أخذَ الرُّقادْ

وقيلَ: إنَّ مِنْ شرطِ بلاغةِ التشبيهِ أنْ يُشبَّهَ الشيءُ بما هوَ أكبرُ منهُ وأعظمُ. والقولُ السديدُ في ذلكَ هوَ ما أذكرُهُ: وهوَ أنَّ إطلاقَ مَنْ أطلقَ قولَهُ في أنَّ مِنْ شروطِ بلاغةِ التشبيهِ أنْ يُشبَّهَ الأصغرُ بالأكبرِ قولٌ غيرُ حاصرٍ للغرضِ المقصودِ. لأنَّ التشبيهَ يأتي تارةً في معرضِ المدحِ وتارةً في معرضِ الذمِّ. وتارةً في غيرِ معرضِ مدحٍ ولا ذمٍّ. وإنَّما يأتي قصداً للإبانةِ والإيضاحِ. ولا يكونُ تشبيهُ أصغرَ بأكبرَ كما ذهبَ إليهِ مَنْ ذهبَ. بلِ القولُ الجامعُ في ذلكَ أنْ يقالَ: إنَّ التشبيهَ لا يُعمَدُ إليهِ إلَّا لضربٍ مِنَ المبالغةِ فإمَّا أنْ يكونَ مدحاً أوْ ذمًّا أوْ بياناً أوْ إيضاحاً ولا يخرجُ عنْ هذهِ المعاني الثلاثةِ. وإذا كانَ الأمرُ

كَذٰلِكَ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تَقْدِيرِ لَفْظَةِ اَفْعَلَ(يُرِيدُ اَفْعَلَ ٱلتَّفْضِيلِ). فَاِنْ لَمْ تُقَدَّرْ فِيهِ لَفْظَةُ (اَفْعَلَ) فَلَيْسَ بِتَشْبِيهٍ بَلِيغٍ . اَلَا تَرَى اَنَّا نَقُولُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ: زَيْدٌ اَسَدٌ. فَقَدْ شَبَّهْنَا زَيْدًا بِٱلْاَسَدِ ٱلَّذِي هُوَ اَشْجَعُ مِنْهُ. فَاِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ اَشْجَعَ مِنْ زَيْدٍ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ وَاِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا اِذْ لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْاَدَاةِ كَقَوْلِهِ : وَلَهُ ٱلْجَوَارِي ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْاَعْلَامِ . وَهٰذَا تَشْبِيهُ كَبِيرٍ بِمَا هُوَ اَكْبَرُ مِنْهُ. لِاَنَّ خَلْقَ ٱلسُّفُنِ ٱلْبَحْرِيَّةِ كَبِيرٌ وَخَلْقَ ٱلْجِبَالِ اَكْبَرُ مِنْهُ . وَمِثْلُهُ : اِذَا شُبِّهَ شَيْءٌ حَسَنٌ بِشَيْءٍ حَسَنٍ فَاِنَّهُ اِذَا لَمْ يُشَبَّهْ بِمَا هُوَ اَحْسَنُ مِنْهُ فَلَيْسَ هُوَ بِوَارِدٍ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهٰكَذَا: اِنْ شُبِّهَ قَبِيحٌ بِقَبِيحٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَقْبَحَ وَاِنْ قُصِدَ ٱلْبَيَانُ وَٱلْاِيضَاحُ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَبْيَنَ وَاَوْضَحَ . فَتَقْدِيرُ لَفْظَةِ (اَفْعَلَ) لَا بُدَّ مِنْهُ فِيمَا يُقْصَدُ بِهِ بَلَاغَةُ ٱلتَّشْبِيهِ وَاِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا فَٱعْلَمْ ذٰلِكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن العاشر

في اقسام التشبيه

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

(اَلتَّشْبِيهُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَقْسَامٍ) : اَلْاَوَّلُ تَشْبِيهُ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ لِاشْتِرَاكِهِمَا اِمَّا فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلْاُولَى وَهِيَ مُدْرَكَاتُ ٱلسَّمْعِ

وَٱلْبَصَرِ وَٱلذَّوْقِ وَٱلشَّمِّ وَٱللَّمْسِ . كَتَشْبِيهِ ٱلْخَدِّ بِٱلْوَرْدِ . وَٱلْوَجْهِ بِٱلنَّهَارِ . وَٱلْفَوَاكِهِ ٱلْحُلْوَةِ بِٱلسُّكَّرِ وَٱلْعَسَلِ . وَرَائِحَةِ بَعْضِ ٱلرَّيَاحِينِ بِٱلْكَافُورِ وَٱلْمِسْكِ . وَٱللَّيِّنِ ٱلنَّاعِمِ بِٱلْخَزِّ . وَٱلْخَشِنِ بِٱلْمِسْحِ . أَوْ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلثَّانِيَةِ وَهِيَ : ٱلْأَشْكَالُ ٱلْمُسْتَقِيمَةُ وَٱلْمُسْتَدِيرَةُ وَٱلْمَقَادِيرُ وَٱلْحَرَكَاتُ كَتَشْبِيهِ ٱلْمُسْتَوِي ٱلْمُنْتَصِبِ بِٱلرُّمْحِ . وَٱلْقَدِّ ٱللَّطِيفِ بِٱلْغُصْنِ . وَٱلشَّيْءِ ٱلْمُسْتَدِيرِ بِٱلْكُرَةِ وَٱلْحَلْقَةِ . وَعِظَمِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْجَبَلِ . وَٱلذَّاهِبِ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ بِنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ . أَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلْجُسْمَانِيَّةِ كَٱلصَّلَابَةِ وَٱلرَّخَاوَةِ . أَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ كَٱلْغَرَائِزِ وَٱلْأَخْلَاقِ . أَوْ فِي حَالَةٍ إِضَافِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : هٰذِهِ حُجَّةٌ كَٱلشَّمْسِ . وَٱلْجَامِعُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُزِيلٌ لِلْحِجَابِ وَكَقَوْلِكَ : ٱلْفَاظُهُ كَٱلْمَاءِ فِي ٱلسَّلَاسَةِ . وَكَٱلنَّسِيمِ فِي ٱلرِّقَّةِ . وَكَٱلْعَسَلِ فِي ٱلْحَلَاوَةِ . وَٱلْجَامِعُ سُرْعَةُ وُصُولِهِ إِلَى ٱلنَّفْسِ وَٱهْتِزَازُهَا بِهِ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ كَقَوْلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ ٱلْخُرْشُبِ ٱلْأَنْمَارِيَّةِ حِينَ وَصَفَتْ بَنِيهَا : هُمْ كَٱلْحَلْقَةِ ٱلْمُفْرَغَةِ لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفَاهَا . فَإِنَّهُ لَا يَفْهَمُ ٱلْمَقْصُودَ إِلَّا مَنْ لَهُ ذِهْنٌ يَتَرَفَّعُ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْعَامَّةِ بِخِلَافِ مَا سَبَقَ . وَمِنَ ٱلْفَرْقِ ٱلظَّاهِرِ بَيْنَهُمَا أَنَّ جَعْلَ ٱلْفَرْعِ أَصْلًا وَٱلْأَصْلِ فَرْعًا يَجِيءُ فِيمَا تَقَدَّمَ مَجِيئًا وَاسِعًا كَقَوْلِهِمْ فِي ٱلنُّجُومِ : كَأَنَّهُمْ مَصَابِيحُ . وَفِي ٱلْمَصَابِيحِ : كَأَنَّهَا نُجُومٌ . وَإِنْ حَاوَلْتَ ذٰلِكَ فِي ٱلثَّانِي لَمْ يَكَدْ يَنْقَادُ ٱنْقِيَادَ ٱلْأَوَّلِ . (ٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَعْقُولِ كَتَشْبِيهِ ٱلْوُجُودِ ٱلْعَارِي عَنِ ٱلْفَوَائِدِ بِٱلْعَدَمِ وَتَشْبِيهِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي تَبْقَى بَعْدَ عَدَمِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْوُجُودِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رُبَّ حَيٍّ كَمَيِّتٍ لَيْسَ فِيهِ أَمَلٌ يُرْتَجَى لِنَفْعٍ وَضُرِّ
وَعِظَامٍ تَحْتَ ٱلتُّرَابِ وَفَوْقَ ٱلْأَرْضِ مِنْهَا آثَارُ حَمْدٍ وَشُكْرِ

(ٱلثَّالِثُ) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَحْسُوسِ كَقَوْلِهِ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ. وَكَقَوْلِهِ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. (ٱلرَّابِعُ) تَشْبِيهُ ٱلْمَحْسُوسِ بِٱلْمَعْقُولِ وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّ ٱلْعُلُومَ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ ٱلْحَوَاسِّ وَمُنْتَهِيَةٌ إِلَيْهَا وَلِذٰلِكَ قِيلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا. فَإِذَا كَانَ ٱلْمَحْسُوسُ أَصْلًا لِلْمَعْقُولِ فَتَشْبِيهُهُ بِهِ يَكُونُ جَعْلًا لِلْفَرْعِ أَصْلًا وَٱلْأَصْلِ فَرْعًا. وَلِذٰلِكَ لَوْ حَاوَلَ مُحَاوِلٌ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ ٱلشَّمْسِ بِٱلظُّهُورِ وَٱلْمِسْكِ بِٱلثَّنَاءِ فَقَالَ: ٱلشَّمْسُ كَٱلْحُجَّةِ فِي ٱلظُّهُورِ. وَٱلْمِسْكُ كَٱلثَّنَاءِ فِي ٱلطِّيبِ. كَانَ سَخِيفًا مِنَ ٱلْقَوْلِ. فَأَمَّا مَا جَاءَ فِي ٱلْأَشْعَارِ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِٱلْمَعْقُولِ فَوَجْهُهُ أَنْ يُقَدَّرَ ٱلْمَعْقُولُ مَحْسُوسًا وَيُجْعَلَ كَٱلْأَصْلِ ٱلْمَحْسُوسِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُبَالَغَةِ فَيَصِحُّ ٱلتَّشْبِيهُ حِينَئِذٍ. وَذٰلِكَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

وَكَأَنَّ ٱلنُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ٱبْتِدَاعُ

فَإِنَّهُ لَمَّا شَاعَ وَصْفُ ٱلسُّنَّةِ بِٱلْبَيَاضِ وَٱلْإِشْرَاقِ عَلَى مَا قِيلَ: أَتَيْتُكُمْ بِٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا. وَٱشْتَهَرَتِ ٱلْبِدْعَةُ وَكُلُّ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ بِٱلظُّلْمَةِ تَخَيَّلَ ٱلشَّاعِرُ أَنَّ ٱلسُّنَنَ كَأَنَّهَا مِنَ ٱلْأَجْنَاسِ ٱلَّتِي لَهَا إِشْرَاقٌ وَنُورٌ وَأَنَّ ٱلْبِدَعَ نَوْعٌ مِنَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلَّتِي لَهَا ٱخْتِصَاصٌ بِٱلسَّوَادِ وَٱلظُّلْمَةِ. فَصَارَ ذٰلِكَ عِنْدَهُ كَتَشْبِيهِ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ فَجَازَ لَهُ ٱلتَّشْبِيهُ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَخَيُّلِ مَا لَيْسَ بِمُتَلَوِّنٍ مُتَلَوِّنًا. ثُمَّ

يُتَخَيَّلُ اَصْلًا فَيُشَبَّهُ بِهِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّأْوِيلُ فِي قَوْلِ اَبِي طَالِبٍ ٱلرَّقِّيِّ :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَٱلظَّلَامُ كَأَنَّهُ   يَوْمُ ٱلنَّوَى وَفُؤَادُ مَنْ لَمْ يَرْفُقِ

فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْاَوْقَاتُ ٱلَّتِي تَحْدُثُ فِيهَا ٱلْمَكَارِهُ تُوصَفُ بِٱلسَّوَادِ (يُقَالُ: ٱسْوَدَّتِ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ). جَعَلَ يَوْمَ ٱلنَّوَى كَأَنَّهُ اَشْهَرُ وَاَعْرَفُ بِٱلسَّوَادِ مِنَ ٱلظَّلَامِ فَعَرَّفَهُ بِهِ وَشَبَّهَهُ. ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ فُؤَادَ مَنْ لَا يَرْفُقُ تَظَرُّفًا. وَٱلْقَلْبُ ٱلْقَاسِي يُوصَفُ بِشِدَّةِ ٱلسَّوَادِ. فَصَارَ هٰذَا ٱلْقَلْبُ اَصْلًا عِنْدَهُ فِي ٱلسَّوَادِ فَقِسْ عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ حِينَ اَهْدَى لِلْقَاضِي اَبِي ٱلْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْجُرْجَانِيِّ عِطْرًا :

يَا اَيُّهَا ٱلْقَاضِي ٱلَّذِي نَفْسِي لَهُ   فِي قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَهْ

اَهْدَيْتُ عِطْرًا مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ   فَكَأَنَّمَا اُهْدِي لَهُ اَخْلَاقَهْ

وَٱلْعَادَةُ تَشْبِيهُ ٱلثَّنَاءِ بِٱلْعِطْرِ وَهُوَ عَكَسَ ٱلْاَمْرَ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ كَمَا بَيَّنَّا. وَقُلْتُ فِي تَشْبِيهِ حِصْنٍ :

كَأَنَّهُ وَكَأَنَّ ٱلْجَوَّ يَكْنُفُهُ   وَهْمٌ تُمَثِّلُهُ فِي طَيِّهَا ٱلْفِكَرُ

لِأَنَّهُ لَمَّا ٱرْتَفَعَ ٱلْحِصْنُ فِي ٱلْجَوِّ حَتَّى صَارَ كَٱلْوَهْمِ فَيَكُونُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِمَا تُخُيِّلَ اَنَّهُ مَحْسُوسٌ لِإِظْلَامِهِ فِي ٱلْعَيْنِ اَوْ فُرِضَ لَهُ ٱلْخَفَاءُ حَتَّى صَارَ يُشْبِهُ مَعْقُولًا بِمَعْقُولٍ. وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ تَشْبِيهُ ٱلْوُجُودِ بِٱلتَّخَيُّلِ ٱلَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فِي ٱلْاَعْيَانِ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَمْرِ بَيْنَ ٱلرَّمَادِ بِبَحْرٍ مِنَ ٱلْمِسْكِ مَوْجُهُ ٱلذَّهَبُ. وَذٰلِكَ اِنَّمَا يَتِمُّ اِذَا فَرَضَ ٱلْمُتَخَيِّلُ اُمُورًا كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَوْجُودٌ فِي ٱلْاَعْيَانِ. فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱلتَّشْبِيهُ حَسَنًا لَطِيفًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي ٱلنَّرْجِسِ :

كَأَنَّ عُيُونَ ٱلنَّرْجِسِ ٱلْغَضِّ بَيْنَنَا   مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

وَكَقَوْلِ آخَرَ فِي تَشْبِيهِ ٱلشَّقَائِقِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ ٱلشَّقِيـقِ م   إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ

أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ   نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

أَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي   وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فَإِنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا أَنْيَابَ ٱلْأَغْوَالِ بَلِ ٱعْتَقَدُوا أَنَّهَا فِي غَايَةِ ٱلْحِدَّةِ فَحَسُنَ ٱلتَّشْبِيهُ . وَعَلَيْهِ جَاءَ قَوْلُهُ: طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ. لِتَنَاهِي رُؤُوسِ ٱلشَّيَاطِينِ فِي ٱلْكَرَاهَةِ وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي قُبْحِ ٱلشَّيْطَانِ وَكَرَاهِيَتِهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلْوَجْهَ ٱلْقَبِيحَ . وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي خَيْرِ ٱلْمَلَكِ وَأَنَّهُ لَا شَرَّ فِيهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلصُّوَرَ ٱلْحَسَنَةَ كَمَا قَالَ : مَا هٰذَا بَشَرٌ إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ ٱلْمُشَابَهَةُ قَدْ يَكُونُ مُقَيَّدًا بِٱلِٱنْتِسَابِ إِلَى ٱلشَّيْءِ وَذٰلِكَ إِمَّا إِلَى ٱلْمَعْقُولِ بِهِ وَهُوَ ٱلْجَارُّ وَٱلْمَجْرُورُ كَقَوْلِهِمْ لِمَنْ يَفْعَلُ مَا لَا يُفِيدُ : كَٱلرَّاقِمِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَإِمَّا إِلَى ٱلْحَالِ كَقَوْلِهِمْ : كَٱلْحَادِي وَلَيْسَ لَهُ بَعِيرٌ (ٱلْوَاوُ لِلْحَالِ). وَإِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ كَقَوْلِهِمْ : هُوَ كَمَنْ يَجْمَعُ ٱلسَّيْفَيْنِ فِي غِمْدٍ وَكَمُبْتَغِي ٱلصَّيْدَ فِي عِرِّيسَةِ ٱلْأَسَدِ . وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا كَٱلدِّيَارِ وَأَهْلِهَا   بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدَوْا بَلَاقِعُ

فَإِنَّهُ لَمْ يُشَبِّهِ ٱلنَّاسَ بِٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا شَبَّهَ وُجُودَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهِمْ بِحُلُولِهِمِ ٱلدِّيَارَ وَوَشْكِ رَحِيلِهِمْ مِنْهَا . وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْمُقَدَّمَاتُ

اكثر كان التشبيه اوغل في كونه عقليًّا كقوله : إنَّما مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ انزلناهُ مِنَ السَّماءِ فاختلطَ بهِ نباتُ الارضِ مِمَّا يأكلُ النَّاسُ والانعامُ حتَّى اِذا اخذتِ الارضُ زخرفها وازَّيَّنت وظنَّ اهلُها انَّهم قادرونَ عليها اتاها امرُنا ليلًا او نهارًا فجعلناها حصيدًا كان لم تغنَ بالامسِ . فانَّ التَّشبيهَ منتزعٌ مِن مجموعِ هذه الجملِ مِن غيرِ ان يمكنَ فصلُ بعضِها مِن بعضٍ . فانَّكَ لو حذفتَ منها جملةً واحدةً من ايِّ موضعٍ كانَ اخلَّ ذلكَ بالمقصودِ مِنَ التَّشبيهِ . ثمَّ ما بهِ المشابهةُ اِن كانَ مركَّبًا فانَّهُ على قسمَيْنِ : (الاوَّلُ) ما لا يمكنُ افرادُ احدِ اجزائهِ بالذِّكرِ كقولهِ :

كأنَّ سُهيلًا والنُّجومُ وراءهُ صُفوفُ صلاةٍ قامَ فيها اِمامُها

فانَّهُ لا يمكنُ اِفرادُ اجزاءِ هذا التَّشبيهِ اِذ لو قلتَ : كأنَّ سهيلًا اِمامٌ وكأنَّ النُّجومَ صفوفُ صلاةٍ . ذهبت فائدةُ هذا التَّشبيهِ . (الثَّاني) ما يمكنُ اِفرادُهُ بالذِّكرِ ويكونُ اِذا ازيلَ منهُ التَّركيبُ صحيحَ التَّشبيهِ في طرفيهِ اِلَّا انَّ المعنى مُغيَّرٌ كقولِ ابي طالبٍ الرَّقيِّ :

وكأنَّ اجرامَ النُّجومِ لوامعًا دُرَرٌ نُثِرْنَ على بِساطٍ ازرقِ

فلو قلتَ : كأنَّ النُّجومَ دُررٌ وكأنَّ السَّماءَ بساطٌ ازرقُ وجدتَ التَّشبيهَ مقبولًا . ولكنَّ المقصودَ من الهيئةِ المشبَّهِ بها قد زالَ . وربَّما كانَ التَّشبيهُ في امورٍ كثيرةٍ ولا يتقيَّدُ بعضُها ببعضٍ . واِنَّما يكونُ بعضُها مضمومًا اِلى البعضِ وكلٌّ واحدٍ منها منفردٌ بنفسهِ

كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَالْأَسَدِ بَأْساً وَٱلْبَحْرِ جُوداً وَٱلسَّيْفِ مَضَاءً وَٱلْبَدْرِ بَهَاءً. وَكَقَوْلِكَ: هُوَ يَصْفُو وَيَكْدُرُ وَيَحْلُو وَيَمُرُّ. وَلَهُ خَاصَّتَانِ (إِحْدَاهُمَا) أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِيهِ ٱلتَّرْتِيبُ. (وَٱلثَّانِيَةُ) إِذَا أُسْقِطَ ٱلْبَعْضُ لَا يَتَغَيَّرُ حُكْمُ ٱلْبَاقِي. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً ... لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَفِيهِ نَظَرٌ

البحث التاسع عشر

في التشابيه المستعملة عند العرب

(من كتاب الصناعتين للعسكري وعن البديعيات)

أَمَّا ٱلطَّرِيقَةُ ٱلْمَسْلُوكَةُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلنَّهْجُ ٱلْقَاصِدُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فَتَشْبِيهُ ٱلْجَوَادِ بِٱلْبَحْرِ وَٱلْمَطَرِ. وَٱلشُّجَاعِ بِٱلْأَسَدِ. وَٱلْحَسَنِ بِٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ. وَٱلْفَهِمِ ٱلْمَاضِي بِٱلسَّيْفِ. وَٱلْعَالِي ٱلرُّتْبَةِ بِٱلنَّجْمِ. وَٱلْحَلِيمِ ٱلرَّزِينِ بِٱلْجَبَلِ. وَٱلْحَيِيِّ بِٱلْبِكْرِ. ثُمَّ يُشَبِّهُونَ ٱللَّئِيمَ بِٱلْكَلْبِ. وَٱلْجَبَانَ بِٱلصِّفْرِدِ. وَٱلطَّائِشَ بِٱلْفَرَاشِ. وَٱلذَّلِيلَ بِٱلنَّقَدِ وَٱلنَّعْلِ. وَٱلنَّفِعَ بِٱلْوَتَدِ. وَٱلْقَاسِيَ بِٱلْحَدِيدِ وَٱلصَّخْرِ. وَٱلْبَلِيدَ بِٱلْجَمَادِ. وَشُهِرَ قَوْمٌ بِخِصَالٍ مَحْمُودَةٍ فَصَارُوا فِيهَا أَعْلَاماً فَجَرَوْا مَجْرَى مَا قَدَّمْنَاهُ كَٱلسَّمَوْءَلِ فِي ٱلْوَفَاءِ. وَحَاتِمٍ فِي ٱلسَّخَاءِ. وَٱلْأَحْنَفِ فِي ٱلْحِلْمِ. وَسَحْبَانَ فِي ٱلْبَلَاغَةِ. وَقُسٍّ فِي ٱلْخَطَابَةِ. وَلُقْمَانَ فِي ٱلْحِكْمَةِ. وَشُهِرَ آخَرُونَ بِأَضْدَادِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالِ فَشُبِّهَ بِهِمْ فِي حَالِ ٱلذَّمِّ كَبَاقِلٍ فِي ٱلْعِيِّ. وَهَبَنَّقَةَ فِي ٱلْحُمْقِ. وَٱلْكُسَعِيِّ فِي ٱلنَّدَامَةِ. وَمَادِرٍ فِي ٱلْبُخْلِ

وَٱلتَّشْبِيهُ يَزِيدُ ٱلْمَعْنَى وُضُوحًا وَيُكْسِبُهُ تَأْكِيدًا . وَقَدْ يَأْتِي تَارَةً لِبَيَانِ إِمْكَانِ وُجُودِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱدِّعَاءِ مَا لَا يَكُونُ إِمْكَانُهُ بَيِّنًا . كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

فَإِنْ تَفُقِ ٱلْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ... فَإِنَّ ٱلْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ ٱلْغَزَالِ

وَيَكُونُ لِبَيَانِ مِقْدَارِ ٱلشَّيْءِ كَمَا إِذَا حَاوَلْتَ نَفْيَ ٱلْفَائِدَةِ مِنْ فِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ قُلْتَ : هُوَ كَٱلْقَابِضِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَقَدْ أَطْبَقَ جَمِيعُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ عَلَى فَوَائِدِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَلَمْ يَسْتَغْنِ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْهُ . وَقَدْ جَاءَ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَأَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ كُلِّ جِيلٍ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَمَوْقِعِهِ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِكُلِّ لِسَانٍ . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : ٱلدُّنْيَا كَٱلْمَاءِ كُلَّمَا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ شُرْبًا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ عَطَشًا . وَقَالَ : صُحْبَةُ ٱلْأَشْرَارِ تُورِثُ ٱلشَّرَّ كَٱلرِّيحِ إِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلْمُنْتِنِ حَمَلَتْ نَتَنًا . وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلطِّيبِ حَمَلَتْ طِيبًا . وَقَالَ : مَنْ أَنْعَمَ لِمَنْ لَا يَشْكُرُ كَانَ كَمَنْ نَثَرَ بَذْرَهُ فِي ٱلسِّبَاخِ . وَقَدْ نَظَمْتُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى :

أَلَا إِنَّمَا ٱلنُّعْمَى تُجَازَى بِمِثْلِهَا ... إِذَا كَانَ مُسْدَاهَا إِلَى مَاجِدٍ حَرِي

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ إِلَى غَيْرِ مَاجِدٍ ... فَقَدْ ذَهَبَتْ فِي غَيْرِ حَمْدٍ وَلَا شُكْرِ

إِذَا ٱلْمَرْءُ أَلْقَى فِي ٱلسِّبَاخِ بُذُورَهُ ... أَضَاعَ فَلَمْ يَرْجِعْ بِزَرْعٍ وَلَا بَذْرِ

وَقَالَ أَيْضًا : لَا يَخْفَى فَضْلُ ذِي ٱلْعِلْمِ وَإِنْ أَخْفَاهُ كَٱلْمِسْكِ يُخْبَأُ وَيُسْتَرُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذٰلِكَ رَائِحَتَهُ أَنْ تَفُوحَ . أَخَذَهُ ٱلصَّاحِبُ فَكَتَبَ : أَنْتَ أَدَامَ ٱللهُ عِزَّكَ . وَإِنْ طَوَيْتَ عَنَّا خَبَرَكَ . وَجَعَلْتَ وَطَنَكَ وَطَرَكَ .

فَأَنْبَاؤُكَ تَأْتِينَا كَمَا وَشَى بِٱلْمِسْكِ رَيَاهُ . وَنَمَّ عَلَى ٱلصَّبَاحِ مُحَيَّاهُ .
وَقَالَ : ٱلرَّجُلُ ذُو ٱلْمُرُوءَةِ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَالٍ . كَٱلْأَسَدِ يُهَابُ وَإِنْ كَانَ رَابِضًا . وَٱلرَّجُلُ ٱلَّذِي لَا مُرُوءَةَ لَهُ يُهَانُ وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا . كَٱلْكَلْبِ يَهُونُ عَلَى ٱلنَّاسِ وَإِنْ طُوِّقَ . وَقَالَ : لَا يَجِبُ لِلْمُذْنِبِ أَنْ يُفْحَصَ عَنْ أَمْرِهِ لِقُبْحِ مَا يَنْكَشِفُ مِنْهُ كَٱلشَّيْءِ ٱلْمُنْتِنِ كُلَّمَا أُثِيرَ ٱزْدَادَ نَتْنًا . وَقَالَ أَيْضًا : مَنْ يَصْنَعِ ٱلْمَعْرُوفَ لِعَاجِلِ ٱلْجَزَاءِ فَهُوَ كَمُلْقِي ٱلْحَبِّ لِلطَّيْرِ لَا لِيَنْفَعَهَا بَلْ لِيَصِيدَهَا بِهِ . وَقَالَ أَيْضًا : ٱلْمَالُ إِذَا ٱجْتَمَعَ وَلَمْ يُصْرَفْ فِي ٱلْحُقُوقِ أَسْرَعَ إِلَيْهِ ٱلْهَلَاكُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ كَٱلْمَاءِ إِذَا ٱجْتَمَعَ فِي مَوْضِعٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلنُّفُوذِ تَفَجَّرَ مِنْ جَوَانِبِهِ فَضَاعَ . وَقَالَ أَيْضًا : يَبْقَى ٱلصَّالِحُ مِنَ ٱلرِّجَالِ صَالِحًا حَتَّى يُصَاحِبَ فَاسِدًا فَإِذَا صَاحَبَهُ فَسَدَ مِثْلُ مِيَاهِ ٱلْأَنْهَارِ تَكُونُ عَذْبَةً حَتَّى تُخَالِطَ مَاءَ ٱلْبَحْرِ فَإِذَا خَالَطَتْهُ مَلُحَتْ . وَمِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلْحَسَنَةِ قَوْلُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ : ٱلْأَدَبُ عِنْدَ ٱلْأَحْمَقِ كَٱلْمَاءِ ٱلْعَذْبِ فِي أُصُولِ ٱلْحَنْظَلِ كُلَّمَا ٱزْدَادَ رِيًّا ٱزْدَادَ مَرَارَةً . وَمِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْبَدِيعَةِ قَوْلُ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلْمَرْءُ إِلَّا كَٱلشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ
وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ ... وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

ثُمَّ قَالَ :

وَأَصْبَحْتُ مِثْلَ ٱلسَّيْفِ أَخْلَقَ جَفْنَهُ ... تَقَادُمُ عَهْدِ ٱلْقَيْنِ وَٱلنَّصْلُ قَاطِعُ

وَكَقَوْلِ صَالِحِ بْنِ جَنَاحٍ ٱلْعَبْسِيِّ :

أَلَا إِنَّمَا ٱلْإِنْسَانُ غِمْدٌ لِقَلْبِهِ ... وَلَا خَيْرَ فِي غِمْدٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ نَصْلُ

وَقَالَ مُتَمِّمٌ :

وَبَعْضُ ٱلرِّجَالِ نَخْـلَةٌ لَاجَنَى لَهَا ... وَلَاظِلَّ إِلَّا أَنْ يُعَدَّ مِنَ ٱلنَّخْلِ

وَقَالَ ٱلْأَخْطَلُ ٱلنَّصْرَانِيُّ :

وَإِذَا ٱفْتَقَرْتَ إِلَى ٱلذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ... ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ ٱلْأَعْمَالِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي ٱلنُّعْمَانِ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْأَنَامُ كَوَاكِبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَمِنْ بَدِيعِ تَشَابِيهِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

وَإِنِّي وَإِسْمَاعِيلَ يَوْمَ وَدَاعِهِ ... فَكَٱلْغِمْدِ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ فَارَقَهُ ٱلنَّصْلُ

وَكَقَوْلِ بَدِيعِ ٱلزَّمَانِ ٱلْهَمَذَانِيِّ :

قَدْ كَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ ٱلْغَيْثِ مُنْسَكِبًا ... لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلْمُحَيَّا يُمْطِرُ ٱلذَّهَبَا

وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ ... وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدْ وَٱلْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وَلِلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ ظَبْيٍ :

أَغْنَاهُ حُسْنُ ٱلْجِيدِ عَنْ لُبْسِ ٱلْحُلِي ... وَعَادَةُ ٱلْعُرْيِ عَنِ ٱلتَّفَضُّلِ

كَأَنَّهُ مُضَمَّخٌ بِصَنْدَلِ

وَكَقَوْلِهِ فِي سُرْعَةِ ٱلْأَوْبَةِ وَتَقْلِيلِ ٱللُّبْثِ :

وَمَا أَنَا غَيْرُ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ ... يَعُودُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ ٱمْتِسَاكَا

وَلَهُ قَوْلُهُ :

وَأَنْتَ حُسَامُ ٱلْمُلْكِ وَٱللّٰهُ ضَارِبٌ ... وَأَنْتَ لِوَاءُ ٱلدِّينِ وَٱللّٰهُ عَاقِدُ

وَلَهُ أَيضًا وَهُوَ مِنْ جِنْسِ ٱلْإِبْدَاعِ :

مَلِكٌ سِنَانُ قَنَاتِهِ وَبَنَانُهُ ... يَتَبَارَيَانِ دَمًا وَعُرْفًا سَاكِبَا
كَٱلْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ ٱلْتَفَتَّ رَأَيْتَهُ ... يُهْدِي إِلَى عَيْنَيْكَ نُورًا ثَاقِبَا
كَٱلشَّمْسِ فِي كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْءُهَا ... يَغْشَى ٱلْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبَا
كَٱلْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا ... جُودًا وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا

وَكَثِيرًا مَا يَتَلَطَّفُ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَيُشَبِّهُونَ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةٍ . وَرُبَّمَا شَبَّهُوا شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةً بِثَلَاثَةٍ وَأَرْبَعَةً بِأَرْبَعَةٍ . وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ :

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ ... وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

وَكَقَوْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

كَأَنَّ مُثَارَ ٱلنَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا ... وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وَلِٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فِي تَشْبِيهِ حُبَابِ ٱلرَّاحِ :

يَجُولُ حُبَابُ ٱلرَّاحِ فِي جَنَبَاتِهَا ... كَمَا جَالَ دَمْعٌ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

وَلِآخَرَ قَدْ شَبَّهَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ بِأَرْبَعَةٍ :

لِلّٰهِ طِرْسٌ عَنْ سُطُورٍ جَادَهَا ... م ٱلْفِكْرُ ٱلسَّلِيمُ بِصَوْبِ مِسْكٍ أَذْفَرِ
فَكَأَنَّمَا هُوَ رَوْضَةٌ أَوْ جَدْوَلٌ ... أَوْ سِمْطُ دُرٍّ أَوْ قِلَادَةُ عَنْبَرِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلتَّمْثِيلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ تَشْبِيهًا وَاحِدًا مُقَيَّدًا بِقُيُودٍ وَيُظَنُّ أَنَّهَا تَشْبِيهَاتٌ مَجْمُوعَةٌ كَقَوْلِهِ :

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ ... فَلَمَّا رَجَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

فَإِنَّ مُجَرَّدَ قَوْلِهِ : أَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ لَيْسَ تَشْبِيهًا مُسْتَقِلًّا

بِذَاتِهِ.لِاَنَّ مَقْصُودَ ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَصِفَ ٱبْتِدَاءَ مُطْمِعٍ اَدَّى اِلَى ٱنْتِهَاءِ مُؤْيِسٍ . وَذٰلِكَ لَا يَتِمُّ اِلَّا بِجُمْلَةٍ فَاِنَّ تَأْدِيَةَ ٱلشَّيْءِ اِلَى غَيْرِهِ حُكْمٌ زَائِدٌ عَلَى ذَاتِهِ

وَٱعْلَمْ اَنَّ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ضَرْبًا يُسَمَّى ٱلطَّرْدَ وَٱلْعَكْسَ.وَهُوَ اَنْ يُجْعَلَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ مُشَبَّهًا وَٱلْمُشَبَّهُ مُشَبَّهًا بِهِ.وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ: غَلَبَةَ ٱلْفُرُوعِ عَلَى ٱلْأُصُولِ.وَلَا تَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ اِلَّا وَٱلْغَرَضُ بِهِ ٱلْمُبَالَغَةُ. كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَبَدَا ٱلصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ ... وَجْهُ ٱلْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

فَجَعَلَ ٱلْاَصْلَ فَرْعًا وَٱلْفَرْعَ اَصْلًا . وَهٰذَا اَبْلَغُ وَاَحْسَنُ وَاَمْدَحُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ . لِاَنَّ تَشْبِيهَ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ اَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُسْتَنْكَرُ . وَاِنَّمَا ٱلَّذِي يُسْتَنْكَرُ تَشْبِيهُ ٱلصَّبَاحِ بِٱلْوَجْهِ

البحث العشرون

في معايب التشبيه

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

وَاِذْ ذَكَرْنَا اَقْسَامَ ٱلتَّشْبِيهِ وَبَيَّنَّا ٱلْمَحْمُودَ مِنْهَا ٱلَّذِي يَنْبَغِي اِقْتِفَاءُ اَثَرِهِ وَٱتِّبَاعُ مَذْهَبِهِ فَلْنُتْبِعْهُ بِضِدِّهِ مِمَّا يَنْبَغِي ٱجْتِنَابُهُ وَٱلْاِضْرَابُ عَنْهُ. عَلَى اَنَّهُ قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ بِاَنَّ حَدَّ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ اَنْ يُثْبَتَ لِلْمُشَبَّهِ حُكْمٌ مِنْ اَحْكَامِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ . فَاِذَا لَمْ يَكُنْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَوْ كَانَ بَيْنَ ٱلْمُشَبَّهِ وَٱلْمُشَبَّهِ بِهِ بُعْدٌ فَذٰلِكَ ٱلَّذِي يُطْرَحُ وَلَا يُسْتَعْمَلُ . وَٱلَّذِي يَرِدُ مِنْهُ مُضْمَرَ ٱلْاَدَاةِ لَا يَكُونُ اِلَّا فِي ٱلتَّوَسُّعِ . كَقَوْلِ اَبِي نُوَاس :

مَا لِرِجْلِ ٱلْمَالِ أَمسَتْ   تَشْتَكِي مِنْكَ ٱلكَلَالَا

فَجَعَلَ لِلْمَالِ رِجْلًا وَذٰلِكَ تَشْبِيهٌ بَعِيدٌ. وَمِنْ أَقْبَحِ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّام :

وَتَعَلَّمَ ٱلنَّاسُ ٱلسَّخَاءَ مُجَزَّأً   وَذَهَبْتَ أَنْتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ

وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلإِهَابَ وَمَا بَقِي   مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ

وَٱلْقُبْحُ ٱلْفَاحِشُ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَكُلُّ هٰذَا ٱلتَّعَسُّفُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ دَنْدَنَةٌ حَولَ مَعْنًى لَيسَ بِطَائِلٍ. فَإِنَّ غَرَضَهُ أَنْ يَقُولَ: ذَهَبْتَ بِٱلأَعْلَى وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلأَدْنَى. أَوْ: ذَهَبْتَ بِٱلْجَيِّدِ وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلرَّدِيءَ.

وَأَمَّا (ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُظْهَرُ ٱلأَدَاةِ) فَهٰذِهِ أَمْثَالٌ أَوْرَدتُّهَا لِتَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَى أَشْبَاهِهِ فَإِنَّ لِذِكْرِ ٱلْمِثَالِ فَائِدَةً لَا تَكُونُ لِذِكْرِ ٱلْحَدِّ وَحْدَهُ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

عَلَا حَاجِبَيْكَ ٱلشَّيْبُ حَتَّى كَأَنَّهُ   ظِبَاءٌ جَرَتْ مِنْهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلآخَرِ يَصِفُ ٱلسِّهَامَ فَشَبَّهَهَا بِأَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ. وَذٰلِكَ مِنْ أَبْعَدِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ :

كَسَاهَا رَطِيبُ ٱلرِّيشِ فَٱعْتَدَلَتْ لَهُ   قِدَاحٌ كَأَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ ٱلْفَوَارِقِ

وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلفَرَزْدَقِ :

يَمْشُونَ فِي حَلَقِ ٱلْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ   جُرْبُ ٱلْجِمَالِ بِهَا ٱلْكَحِيلُ ٱلْمُشْعَلُ

فَشَبَّهَ ٱلرِّجَالَ فِي دُرُوعِ ٱلزَّرَدِ بِٱلْجِمَالِ ٱلْجُرْبِ. وَهٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ ٱلسَّخِيفِ فَضْلًا عَنْ أَنْ لَا مُقَارَبَةَ بَيْنَهُمَا فِي ٱللَّوْنِ. وَمِنَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وجَرَى عَلَى ٱلوَرَقِ ٱلنَّجيعُ ٱلقَانِي ... فَكَأَنَّهُ ٱلنَّارَنْجُ فِي ٱلأَغْصَانِ

وَهٰذَا تَشْبِيهٌ يُنْكِرُهُ اهلُ ٱلتَّجْسِيمِ . وَقَدْ عَدُّوا مِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلَّتِي هِيَ غَيْرُ بَلِيغَةٍ قَوْلَ ٱلشَّاعِرِ فِي وَصْفِ ٱلرَّوْضِ :

كَأَنَّ شَقَائِقَ ٱلنُّعْمَانِ فِيهِ ... ثِيَابٌ قَدْ رَوِينَ مِنَ ٱلدِّمَاءِ

فَهٰذَا وَإِنْ كَانَ تَشْبِيهًا مُصِيبًا فَإِنَّ فِيهِ بَشَاعَةَ كَثْرَةِ ٱلدِّمَاءِ ٱلَّتِي تَعَافُ ٱلأَنْفُسُ ٱللَّطِيفَةُ رُؤْيَتَهَا . وَفِي اقْوَالِ ٱلعَرَبِ تَشَابِيهُ تَمُجُّهَا ٱلأَذْوَاقُ ٱلصَّحِيحَةُ وَتَنْفِرُ مِنْهَا ٱلطِّبَاعُ ٱلسَّلِيمَةُ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ وَقَدْ عَابَهُ ٱلأَصْمَعِيُّ بَيْنَ يَدَيِ ٱلرَّشِيدِ :

نَظَرَتْ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا ... نَظَرَ ٱلمَرِيضِ إِلَى وُجُوهِ ٱلعُوَّدِ

قَالَ ٱلأَصْمَعِيُّ : قَدْ يُكْرَهُ تَشْبِيهُ ٱلمَمْدُوحِ بِٱلمَرِيضِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ابِي مِحْجَنٍ ٱلثَّقَفِيِّ فِي قَيْنَةٍ :

وَتُرَجِّعُ ٱلعُودَ احْيَانًا وَتَخْفِضُهُ ... كَمَا يَطِيرُ ذُبَابُ ٱلرَّوْضَةِ ٱلغَرِدُ

فَإِنَّ ٱلقَيْنَةَ لَمْ تَرْضَ انْ تُشَبِّهَ نَفْسَهَا بِٱلذُّبَابِ . وَلِذٰلِكَ رَغِبَ ٱلمُوَلَّدُونَ عَنْ تَشَابِيهِ ٱلعَرَبِ لِأَنَّهَا مَعَ عَقَادَةِ ٱلتَّرْكِيبِ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ كَبِيرِ امْرٍ فَخَالَفُوهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ إِلَى مَا هُوَ ٱلْيَقُ بِٱلوَقْتِ وَامَسُّ بِاهْلِهِ

البحث الحادي والعشرون

في المذهب الكلامي

(من شرح بديعيّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَلْمَذْهَبُ ٱلْكَلَامِيُّ عِنْدَ اَهْلِ ٱلْبَيَانِ هُوَ اِيرَادُ حُجَّةٍ لِلْمَطْلُوبِ عَلَى طَرِيقَةِ اَهْلِ ٱلْكَلَامِ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ بَعْدَ تَسْلِيمِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ مُقَدَّمَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْمَطْلُوبِ . وَقِيلَ : هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْبَلِيغُ فِي صِحَّةِ دَعْوَاهُ وَاِبْطَالِ دَعْوَى خَصْمِهِ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَصِحُّ نِسْبَتُهَا اِلَى عِلْمِ ٱلْكَلَامِ . اِذْ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ اِثْبَاتِ اُصُولِ ٱلدِّينِ بِٱلْبَرَاهِينِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلْقَاطِعَةِ . وَمِنْ اَوْضَحِ ٱلشَّوَاهِدِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : لَوْ كَانَ فِي ٱلْاَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ آلِهَةٌ اِلَّا ٱللهُ لَفَسَدَتَا . فَهٰذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ . وَتَمَامُ ٱلدَّلِيلِ اَنْ تَقُولَ لٰكِنَّهُمَا لَمْ تَفْسُدَا فَلَيْسَ اِذًا فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرَ ٱللهِ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَعْرَابِيٍّ لِرَجُلٍ : اِنِّي لَمْ اَرُدَّ وَجْهِي عَنِ ٱلطَّلَبِ اِلَيْكَ فَصُنْ نَفْسَكَ عَنْ رَدِّي وَضَعْنِي مِنْ كَرَمِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ يَعْتَذِرُ اِلَى ٱلنُّعْمَانِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ اَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ ٱلْوَاشِي اَغَشُّ وَاَكْذَبُ

وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ ٱمْرَءًا لِيَ جَانِبٌ ... مِنَ ٱلْاَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ

مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا مَدَحْتُهُمْ ... أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ ٱصْطَنَعْتَهُمْ ... فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدْحِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا

يَقُولُ لِهٰذَا ٱلْمَلِكِ : أَنْتَ أَحْسَنْتَ إِلَى قَوْمٍ فَمَدَحُوكَ . وَأَنَا أَحْسَنَ إِلَيَّ قَوْمٌ فَمَدَحْتُهُمْ . فَكَمَا أَنَّ مَدْحَ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ لَكَ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا فَكَذَا مَدْحِي لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا . قَالَ ٱبْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ : وَمِنْ شَوَاهِدِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ ... وَنَفْسٌ يُعَاصِيهَا ٱلْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى ... إِذَا قَلَّ مِنْ أَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

يَقُولُ : لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ تَأْمُرُ بِٱلْخَيْرِ . وَنَفْسٌ أَمَّارَةٌ تَأْمُرُ بِٱلسُّوءِ . وَٱلْإِنْسَانُ يُعَاصِي ٱلْأَمَّارَةَ مَرَّةً وَيُطِيعُهَا أُخْرَى . وَأَنْتَ إِذَا أَمَرَتْكَ ٱلْأَمَّارَةُ بِتَرْكِ ٱلنَّدَى شَفَعَتِ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ إِلَيْهَا فِي ٱلنَّدَى فِي ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا ٱلشَّفِيعُ فِي ٱلنَّدَى مِنَ ٱلنُّفُوسِ . فَأَنْتَ أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ قِيَاسَ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْكَلَامِيِّ إِمَّا حَمْلِيٌّ . وَإِمَّا شَرْطِيٌّ . فَٱلْأَقْيِسَةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ قَدِ ٱسْتَنْبَطُوهَا عَلَى صُوَرٍ : مِنْهَا مَا يُرْوَى أَنَّ أَبَا دُلَفَ قَصَدَهُ شَاعِرٌ تَمِيمِيٌّ . فَقَالَ لَهُ : مِمَّنْ أَنْتَ . فَقَالَ مِنْ تَمِيمٍ . فَقَالَ أَبُو دُلَفَ :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا ... وَلَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ ٱلْهِدَايَةِ ضَلَّتِ

فَقَالَ لَهُ ٱلتَّمِيمِيُّ : نَعَمْ بِتِلْكَ ٱلْهِدَايَةِ جِئْتُ إِلَيْكَ . فَأَفْحَمَهُ بِدَلِيلٍ حَمْلِيٍّ أَلْزَمَهُ فِيهِ أَنَّ ٱلْمَجِيءَ إِلَيْهِ ضَلَالٌ . وَلَعَمْرِي إِنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلشَّرْطِيَّ

اَوْضَحُ دَلَالَةً فِي هٰذَا ٱلْبَابِ مِنْ غَيْرِهِ وَاَعْذَبُ فِي ٱلذَّوْقِ وَاَسْهَلُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ. فَاِنَّهُ جُمْلَةٌ وَاقِعَةٌ بَعْدَ (لَوْ) وَجَوَابِهَا. وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ عَلَى اَصْطِلَاحِهِمْ مُقَدَّمَةٌ شَرْطِيَّةٌ مُتَّصِلَةٌ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ ٱلْحُكْمِ كَمَا جَاءَ : لَوْ تَعْلَمُونَ مَا اَعْلَمُ (يُرِيدُ اُمُورَ ٱلْآخِرَةِ) لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا . وَتَمَامُ ٱلدَّلِيلِ اَنْ يُقَالَ : لٰكِنَّكُمْ ضَحِكْتُمْ كَثِيرًا وَبَكَيْتُمْ قَلِيلًا فَلَمْ تَعْلَمُوا مَا اَعْلَمُ

وَلَقَدْ زَادُوا عَلَى هٰذَيْنِ ٱلْقِيَاسَيْنِ ٱلْقِيَاسَ ٱلْفِقْهِيَّ وَذٰلِكَ اَنْ يُقَاسَ فَرْعٌ عَلَى اَصْلٍ بِجَامِعٍ بَيْنَهُمَا فَيَلْزَمُ لِلتَّسَاوِي فِي ٱلْحُكْمِ . كَمَا يُحْكَى اَنَّ ٱلْوَلِيدَ قَالَ لِبَعْضِهِمْ : اَنْشِدْ مِنْ قَوْلِكَ فِي ٱلْخَمْرِ . فَاَنْشَدَهُ :

كُمَيْتٍ اِذَا شُجَّتْ وَفِي ٱلْكَأْسِ وِرْدُهَا
لَهَا فِي عِظَامِ ٱلشَّارِبِينَ دَبِيبُ

تُرِيكَ ٱلْقَذَى مِنْ دُونِهَا وَهْيَ دُونَهُ
لِوَجْهِ اَخِيهَا فِي ٱلْاِنَاءِ قُطُوبُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْوَلِيدُ : شَرِبْتَهَا وَرَبِّ ٱلْكَعْبَةِ . فَقَالَ : لَئِنْ كَانَ وَصْفِي لَهَا رَابَكَ لَقَدْ رَابَنِي مَعْرِفَتُكَ بِهَا . (يَقُولُ) : كَمَا اَنَّ مَعْرِفَتِي بِوَصْفِهَا رَابَتْكَ كَذٰلِكَ مَعْرِفَتُكَ بِهَا رَابَتْنِي



الفصل الخامس

في محاسن الانشاء ومعايبه

البحث الاوّل

في تمييز الكلام جيّده من رديئه ونادره من بارده

(عن كتاب الصناعتين للعسكري باختصار)

(راجع صفحة ٥١ من علم الادب)

اَلْكَلَامُ اَيَّدَكَ ٱللّٰهُ يَحْسُنُ بِسَلَاسَتِهِ وَسُهُولَتِهِ وَنَصَاعَتِهِ وَتَحْسِينِ لَفْظِهِ وَاِصَابَةِ مَعْنَاهُ وَجُودَةِ مَقَاطِعِهِ وَلِينِ مَعَاطِفِهِ وَٱسْتِوَاء تَقَاسِيمِهِ وَتَعَادُلِ اَطْرَافِهِ وَتَشَبُّهِ اَعْجَازِهِ بِهَوَادِيهِ وَمُوَافَقَةِ مَآخِيرِهِ لِمَبَادِئِهِ مَعَ قِلَّةِ ضَرُورَاتِهِ بَلْ عَدَمِهَا اَصْلًا حَتَّى لَا يَكُونَ لَهَا فِي ٱلْاَلْفَاظِ اَثَرٌ . فَتَجِدُ ٱلْمَنْظُومَ مِثْلَ ٱلْمَنْثُورِ فِي سُهُولَةِ مَطْلَعِهِ وَجُودَةِ مَقْطَعِهِ وَحُسْنِ رَصْفِهِ وَتَأْلِيفِهِ وَكَمَالِ صَوْغِهِ وَتَرْكِيبِهِ . فَاِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ كَذٰلِكَ كَانَ بِٱلْقَبُولِ حَقِيقًا وَبِٱلتَّحَفُّظِ خَلِيقًا كَقَوْلِ ٱلْاَوَّلِ :

هُمُ ٱلْأُولَى وَهَبُوا لِلْمَجْدِ اَنْفُسَهُمْ ... فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا اِذَا حُمِدُوا

وَقَوْلِ مَعْنِ بْنِ اَوْسٍ :

لَعَمْرُكَ مَا اَهْدَيْتُ كَفِّي لِرِيبَةٍ ... وَلَا حَمَلَتْنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي

وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا ... وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي

وَاَعْلَمُ اَنِّي لَمْ تُصِبْنِي مُصِيبَةٌ ... مِنَ ٱلدَّهْرِ اِلَّا قَدْ اَصَابَتْ فَتًى قَبْلِي

وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيِيتُ لِمُنْكَرٍ ... مِنَ ٱلْأَمْرِ لَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي
وَلَا مُؤْثِرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ ... وَأُوثِرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ ٱلْغِنَى ... إِذَا كَانَتِ ٱلْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ ٱلْفَقْرِ

وَقَالَ ٱلْآخَرُ :

ذَرِينِي أَسِيرُ فِي ٱلْبِلَادَ لَعَلَّنِي ... أُصِيبُ غِنًى فِيهِ لَدَى ٱلْحَقِّ مُجْمَلُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَسْطِعْ دِفَاعًا لِحَادِثٍ ... تَجِيءُ بِهِ ٱلْأَيَّامُ فَٱلصَّبْرُ أَجْمَلُ
أَلَيْسَ كَثِيرًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْحُقُوقِ مُعَوَّلُ

وَمِمَّا هُوَ فَصِيحٌ فِي لَفْظِهِ جَيِّدٌ فِي وَصْفِهِ قَوْلُ ٱلشَّنْفَرَى :

أُطِيلُ مِطَالَ ٱلْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ ... وَأَضْرِبُ عَنْهُ ٱلْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ
وَلَوْلَا ٱجْتِنَابُ ٱلْعَارِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ ... يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلٰكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُنِي ... عَلَى ٱلضَّيْمِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ

وَقَوْلُ آخَرَ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى ٱلْقَذَى ... ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمَا إِنْ قَتَلْنَاهُمْ بِأَكْثَرَ مِنْهُمُ ... وَلٰكِنْ بِأَوْفَى لِلطِّعَانِ وَأَكْرَمَا

وَقَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَيْتِ نَظِيرٌ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ : نَظِيرُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حُجْرٍ :

وَلَسْتُ بِجَائِي ٍ ابَدًا طَعَامًا   حِذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

وَهٰذَا وَإِنْ كَانَ نَظِيرَهُ فِي ٱلتَّأْلِيفِ فَإِنَّهُ دُونَهُ لِمَا تَكَرَّرَ فِيهِ مِنْ لَفْظِ غَدٍ . فَإِنْ كَانَ ٱلْكَلَامُ قَدْ جَمَعَ ٱلْعُذُوبَةَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلسُّهُولَةَ وَٱلرَّصَانَةَ مَعَ ٱلسَّلَاسَةِ وَٱلنَّصَاعَةِ . وَٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلرَّوْنَقِ وَٱلطُّلَاوَةِ . وَسَلِمَ مِنْ سَخَفِ ٱلتَّأْلِيفِ . وَبَعُدَ مِنْ سَمَاجَةِ ٱلتَّرْكِيبِ . وَرَدَ عَلَى ٱلْفَهْمِ ٱلثَّاقِبِ فَقَبِلَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ . وَعَلَى ٱلسَّمْعِ ٱلْمُصِيبِ ٱسْتَوْعَبَهُ وَلَمْ يَمُجَّهُ . وَٱلنَّفْسُ تَقْبَلُ ٱللَّطِيفَ وَتَنْبُو عَنِ ٱلْغَلِيظِ وَتَقْلَقُ مِنَ ٱلْجَاسِي ٱلْبَشِعِ . وَجَمِيعُ جَوَارِحِ ٱلْبَدَنِ وَحَوَاسِّهِ يَسْكُنُ إِلَى مَا يُوَافِقُهُ وَيَنْفِرُ عَمَّا يُضَادُّهُ وَيُخَالِفُهُ . وَٱلْعَيْنُ تَأْلَفُ ٱلْحَسَنَ وَتَقْذَى بِٱلْقَبِيحِ . وَٱلْأَنْفُ يَرْتَاحُ لِلطَّيِّبِ وَيَنْفِرُ لِلْمُنْتِنِ . وَٱلْفَمُ يَلْتَذُّ بِٱلْحُلْوِ وَيَمُجُّ ٱلْمُرَّ . وَٱلسَّمْعُ يَتَشَوَّقُ لِلصَّوَابِ ٱلرَّائِعِ وَيَنْزَوِي عَنِ ٱلْجَهِيرِ ٱلْهَائِلِ . وَٱلْيَدُ تَنْعَمُ بِٱللَّيِّنِ وَتَتَأَذَّى بِٱلْخَشِنِ . وَٱلْفَهْمُ يَأْنَسُ مِنَ ٱلْكَلَامِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَسْكُنُ إِلَى ٱلْمَأْلُوفِ وَيُصْغِي إِلَى ٱلصَّوَابِ وَيَهْرُبُ مِنَ ٱلْمُحَالِ وَيَنْقَبِضُ عَنِ ٱلْوَخِمِ وَيَتَأَخَّرُ عَنِ ٱلْجَافِي ٱلْغَلِيظِ . وَلَا يَقْبَلُ ٱلْكَلَامَ ٱلْمُضْطَرِبَ إِلَّا ٱلْفَهْمُ ٱلْمُضْطَرِبُ وَٱلرَّوِيَّةُ ٱلْفَاسِدَةُ . وَلَيْسَ ٱلشَّأْنُ فِي إِيرَادِ ٱلْمَعَانِي لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ يَعْرِفُهَا ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ وَٱلْقَرَوِيُّ وَٱلْبَدَوِيُّ وَإِنَّمَا هُوَ فِي جُودَةِ ٱللَّفْظِ وَصَفَائِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ وَنَزَاهَتِهِ وَنَقَائِهِ وَكَثْرَةِ طُلَاوَتِهِ وَمَائِهِ مَعَ صِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَٱلتَّرْكِيبِ وَٱلْخُلُوِّ مِنْ اَوَدِ ٱلنَّظْمِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَلَيْسَ يُطْلَبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا اَنْ يَكُونَ صَوَابًا . وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱللَّفْظِ بِذٰلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ نُعُوتِهِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ . اَلَا تَرَى

إِلَى قَوْلِ حَبِيبٍ :

مُسْتَسْلِمٌ لِلّٰهِ سَائِسُ أُمَّــةٍ بِذَوِي تَجَهْضُمِهَا لَهُ ٱسْتِسْلَامُ

فِيهِ صَوَابُ ٱللَّفْظِ وَلَيْسَ هُوَ بِحَسَنٍ وَلَا مَقْبُولٍ . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَدَارَ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ أَنَّ ٱلْخُطَبَ ٱلرَّائِعَةَ وَٱلْأَشْعَارَ ٱلرَّائِقَةَ مَا عُمِلَتْ لِإِفْهَامِ ٱلْمَعَانِي فَقَطْ لِأَنَّ ٱلرَّدِيءَ مِنَ ٱلْأَلْفَــاظِ يَقُومُ مَقَامَ جَيِّدِهَا فِي ٱلْإِفْهَامِ وَإِنَّمَا يَدُلُّ حُسْنُ ٱلْـكَلَامِ وَإِحْكَامُ صَنْعَتِــهِ وَرَوْنَقُ أَلْفَاظِهِ وَجَوْدَةُ مَطَالِعِهِ وَحُسْنُ مَقَاطِعِهِ وَبَدِيعُ مَبَادِئِهِ وَغَرِيبُ مَبَانِيهِ عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ وَفَهْمِ مُنْشِئِهِ . وَأَكْثَرُ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافِ تَرْجِعُ إِلَى ٱلْأَلْفَاظِ دُونَ ٱلْمَعَانِي . وَتَوَخِّي صَوَابِ ٱلْمَعْنَى أَحْسَنُ مِنْ تَوَخِّي هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ . فَلِهٰذَا تَأَنَّقَ ٱلْـكَاتِبُ فِي ٱلرِّسَالَةِ وَٱلْخَطِيبُ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَٱلشَّاعِرُ فِي ٱلْقَصِيدَةِ وَهُمْ يُبَالِغُونَ فِي تَجْوِيدِهَا . وَيَغْلُونَ فِي تَرْتِيبِهَا لِيَــدُلُّوا عَلَى بَرَاعَتِهِمْ وَحِذْقِهِمْ بِصِنَاعَتِهِمْ . وَلَوْ كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلْمَعَانِي لَطَرَحُوا أَكْثَرَ ذٰلِكَ فَرَبِحُوا كَدًّا كَثِيرًا وَأَسْقَطُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَعَبًا طَوِيلًا . وَلِهٰذَا دَلِيلٌ آخَرُ : أَنَّ ٱلْـكَلَامَ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ حُلْوًا عَذْبًا وَسَلِسًا سَهْلًا وَمَعْنَاهُ وَسَطًا دَخَلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْجَيِّدِ وَجَرَى مَعَ ٱلرَّائِعِ ٱلنَّادِرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَــةٍ وَمَسَّحَ بِٱلْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ ٱلْمَهَارِي رِحَالُنَا وَلَمْ يَنْظُرِ ٱلْغَادِي ٱلَّذِي هُوَ رَائِحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْأَبَاطِحُ

وَلَيْسَ تَحْتَ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ كَبِيرُ مَعْنًى وَهِيَ رَائِقَةٌ مُعْجِبَةٌ . وَإِنَّمَا

هِيَ : وَلَمَّا قَضَيْنَا ٱلْحَجَّ وَمَسَّحْنَا ٱلْأَرْكَانَ وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَازِيلِ ٱلْإِبِلِ وَلَمْ يَنْتَظِرْ بَعْضُنَا بَعْضًا جَعَلْنَا نَتَحَدَّثُ وَتَسِيرُ بِنَا ٱلْإِبِلُ فِي بُطُونِ ٱلْأَوْدِيَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْمَعْنَى صَوَابًا وَٱللَّفْظُ بَارِدًا وَفَاتِرًا وَٱلْفَاتِرُ شَرٌّ مِنَ ٱلْبَارِدِ كَانَ مُسْتَهْجَنًا مَلْفُوظًا وَمَذْمُومًا مَرْدُودًا . وَٱلْبَارِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَقَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وَجَارَاتُهَا   مَا قَطَّرَ ٱلْفَارِسَ إِلَّا أَنَا

شَكَكْتُ بِٱلرُّمْحِ سَرَابِيلَهُ   وَٱلْخَيْلُ تَعْدُو زِيَمًا حَوْلَنَا

وَقَوْلِ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ :

مَاتَ وَٱللّٰهِ سَعِيدُ بْنُ وَهْبِ   رَحِمَ ٱللّٰهُ سَعِيدَ بْنَ وَهْبِ

يَا أَبَا عُثْمَانَ أَبْكَيْتَ عَيْنِي   يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمَعَانِي إِذَا ٱسْتُكْرِهَتْ قَهْرًا وَفِي ٱلْأَلْفَاظِ إِذَا جَرَتْ قَسْرًا . وَلَا خَيْرَ فِيمَا أُجِيدَ لَفْظُهُ إِذَا سَخُفَ مَعْنَاهُ . وَلَا فِي غَرَابَةِ ٱلْمَعْنَى إِلَّا إِذَا شَرُفَ لَفْظُهُ مَعَ وُضُوحِ ٱلْمَغْزَى وَظُهُورِ ٱلْمَقْصَدِ . وَقَدْ غَلَبَ ٱلْجَهْلُ عَلَى قَوْمٍ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ بِكَدٍّ وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَزَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِئَةً غَرِيبَةً . وَيَسْتَحْقِرُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا وَسَهْلًا حُلْوًا . وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱلسَّهْلَ أَمْنَعُ جَانِبًا وَأَعَزُّ مَطْلَبًا وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا وَأَعْذَبُ مُسْتَمَعًا وَلِهٰذَا قِيلَ : أَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّهْلُ ٱلْمُمْتَنِعُ . وَوَصَفَ ٱلْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عَمْرَو ٱبْنَ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ . وَمِنْ بَلَاغَتِهِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَ كُتُبِهِ فَإِذَا رَامَهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ . حَدَّثَنَا ٱلْحَسَنُ بْنُ

مُخَلَّدٍ قَالَ: أَنْشَدَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ لِخَالِهِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ:

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سِيلَ لَمْ م يَبْذُلْ وَإِنْ عُوتِبَ لَمْ يُعْتِبِ
صَبٌّ بِعِصْيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي لَا تَشْرَبِ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ: هٰذَا الشِّعْرُ الْحَسَنُ الْمَعْنَى السَّهْلُ اللَّفْظِ الْعَذْبُ الْمُسْتَمَعِ الْقَلِيلُ النَّظِيرِ الْعَزِيزُ التَّشْبِيهِ الْمُطْمِعُ الْمُمْتَنِعُ الْبَعِيدُ مَعَ قُرْبِهِ الصَّعْبُ فِي سُهُولَتِهِ. (قَالَ) فَجَعَلْنَا نَقُولُ: هٰذَا الْكَلَامُ أَحْسَنُ مِنْ شِعْرِهِ. وَمِنَ الْكَلَامِ الْمَطْبُوعِ السَّهْلِ مَا وَقَّعَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى: قَدْ بَلَّغْتُكَ أَقْصَى طِلْبَتِكَ وَأَنَلْتُكَ غَايَةَ بُغْيَتِكَ وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ تَسْتَقِلُّ كَثِيرِي لَكَ وَتَسْتَقْبِحُ حَسَنِي فِيكَ. فَأَنْتَ كَمَا قَالَ رُؤْبَةُ:

كَالْحُوتِ لَا يَكْفِيهِ شَيْءٌ يَلْهَمُهْ يُصْبِحُ ظَمْآنَ وَفِي الْبَحْرِ فَمُهْ

وَمِنَ الْمَنْظُومِ الْمُطْمِعِ قَوْلُ الْبُحْتُرِيِّ:

أَيُّهَا الرَّاغِبُ الَّذِي طَلَبَ الْجُو دَ فَأَبْلَى كُومَ الْمَطَايَا وَأَنْضَى
رِدْ حِيَاضَ الْإِمَامِ تَلْقَ نَوَالًا يَسَعُ الرَّاغِبِينَ طُولًا وَعَرْضَا
هُوَ أَنْدَى مِنَ الْغَمَامِ وَأَوْحَى وَقَعَاتٍ مِنَ الْحُسَامِ وَأَمْضَى
يَتَوَخَّى الْإِحْسَانَ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُطِيعُ الْإِلٰهَ بَسْطًا وَقَبْضَا
فَضَّلَ اللّٰهُ جَعْفَرًا بِخِلَالٍ جَعَلَتْ حُبَّهُ عَلَى النَّاسِ فَرْضَا
وَأَرَى الْمَجْدَ بَيْنَ عَارِفَةٍ مِنْكَ م تُرَجَّى وَعَزْمَةٍ مِنْكَ تُمْضَى

وَقَوْلُهُ:

خَلَقَ اللّٰهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ الدُّنْيَا م سَدَادًا وَقَيِّمَ الدِّينِ رُشْدَا
أَكْرَمُ النَّاسِ شِيمَةً وَأَتَمُّ م النَّاسِ حِلْمًا وَأَكْثَرُ النَّاسِ رِفْدَا

هُوَ بَحْرُ ٱلسَّمَاحِ وَٱلْجُودِ فَٱزْدَدْ   مِنْهُ قُرْبًا تَزْدَدْ مِنَ ٱلْفَقْرِ بُعْدَا
يَا ثِمَالَ ٱلدُّنْيَا عَطَاءً وَبَذْلًا   وَكَمَالَ ٱلدُّنْيَا سَنَاءً وَمَجْدَا
اِبْقَ عُمْرَ ٱلزَّمَانِ حَتَّى نُؤَدِّي   شُكْرَ اِحْسَانِكَ ٱلَّذِي لَا يُؤَدَّى

وَامَّا ٱلْجَزْلُ ٱلْمُخْتَارُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهُوَ ٱلَّذِي تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ اِذَا سَمِعَتْهُ وَلَا تَسْتَعْمِلُهُ فِي مُحَاوَرَاتِهَا . فَمِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْجَيِّدِ ٱلْمُخْتَارِ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

وَرَدْنَا رِوَاقَ ٱلْفَضْلِ فَضْلِ بْنِ جَعْفَرٍ   فَحَطَّ اِلَيْنَا ٱلْجَزْلَ نَائِلُهُ ٱلْجَزْلُ
بِكَفَّيْ اَبِي ٱلْعَبَّاسِ يُسْتَمْطَرُ ٱلْغِنَى   وَيُسْتَنْزَلُ ٱلنُّعْمَى وَيُسْتَرْعَفُ ٱلنَّصْلُ
وَيُسْتَعْطَفُ ٱلْاَمْرُ ٱلْاَبِيُّ بِحَزْمِهِ   اِذَا ٱلْاَمْرُ لَمْ يَعْطِفْهُ نَقْضٌ وَلَا فَتْلُ

وَمِمَّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلْمَرَّارِ ٱلْفَقْعَسِيِّ :

لَا تَسْأَلِي ٱلْقَوْمَ عَنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ   قَدْ يُقْتِرُ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا وَهْوَ مَحْمُودُ
اَمْضِي عَلَى سُنَّةٍ مِنْ وَالِدِي سَلَفَتْ   وَفِي اَرُومَتِهِ مَا يُنْبِتُ ٱلْعُودُ

فَهٰذَا وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَامَّةِ فَاِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ ٱلْغَرَضَ وَيَقِفُونَ عَلَى اَكْثَرِ مَعَانِيهِ لِحُسْنِ تَرْتِيبِهِ وَجُودَةِ نَسْجِهِ

وَمِنَ ٱلنَّثْرِ قَوْلُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ : اَعْطَانَا ٱلدَّهْرُ فَاَسْرَفَ . ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْنَا فَعَسَفَ . وَقَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ : وَاَنَا مَنْ لَا يُحَاجُّكَ عَنْ نَفْسِهِ . وَلَا يُغَالِطُكَ عَنْ جُرْمِهِ . وَلَا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ اِلَّا مِنْ جِهَتِهِ . وَلَا يَسْتَدْعِي بِرَّكَ اِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ . وَلَا يَسْتَعْطِفُكَ اِلَّا بِٱلْاِقْرَارِ بِٱلذَّنْبِ . وَلَا يَسْتَمِيلُكَ اِلَّا بِٱلْاِعْتِرَافِ . نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ ٱلْحَدَاثَةِ . وَرَدَّتْنِي اِلَيْكَ ٱلْحُنْكَةُ . وَبَاعَدَتْنِي مِنْكَ ٱلثِّقَةُ بِٱلْاَيَّامِ فَادَّتْنِي اِلَيْكَ ٱلضَّرُورَةُ . فَاِنْ رَاَيْتَ اَنْ تَسْتَقْبِلَ ٱلصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ ٱلْعُذْرِ

وَتُجَدِّدَ ٱلنِّعْمَةَ بِٱطِّرَاحِ ٱلْحِقْدِ فَإِنَّ قَدِيمَ ٱلْحُرْمَةِ وَحَدِيثَ ٱلتَّوْبَةِ يَمْحَقَانِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْإِسَاءَةِ . فَإِنَّ أَيَّامَ ٱلْقُدْرَةِ وَإِنْ طَالَتْ قَصِيرَةٌ وَٱلْمُتْعَةَ بِهَا وَإِنْ كَثُرَتْ قَلِيلَةٌ فَعَلْتَ . وَفِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ وَمَا قَبْلَهُ قُوَّةٌ فِي سُهُولَةٍ . وَمِمَّا هُوَ أَجْزَلُ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلشَّعْبِيِّ لِلْحَجَّاجِ وَأَرَادَ قَتْلَهُ لِخُرُوجِهِ عَلَيْهِ مَعَ ٱبْنِ ٱلْأَشْعَثِ : أَجْدَبَ بِنَا ٱلْجَنَابُ وَأَحْزَنَ بِنَا ٱلْمَنْزِلُ وَٱسْتَحْلَسْنَا ٱلْحَذَرَ وَٱكْتَحَلْنَا ٱلسَّهَرَ . وَأَصَابَتْنَا فِتْنَةٌ وَلَمْ نَكُنْ فِيهَا بَرَرَةً أَتْقِيَاءَ وَلَا فَجَرَةً أَقْوِيَاءَ . فَعَفَا عَنْهُ . وَأَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ جَزْلًا سَهْلًا لَا يَنْغَلِقُ مَعْنَاهُ وَلَا يُسْتَبْهَمُ مَغْزَاهُ . وَلَا يَكُونُ مَكْدُودًا مُسْتَكْرَهًا وَمُتَوَعِّرًا مُتَقَعِّرًا . وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْغَثَاثَةِ عَارِيًا مِنَ ٱلرَّثَاثَةِ . وَٱلْكَلَامُ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ غَثًّا وَمَعْرِضُهُ رَثًّا كَانَ مَرْدُودًا وَلَوِ ٱحْتَوَى عَلَى أَجَلِّ مَعْنًى وَأَنْبَلِهِ وَأَرْفَعِهِ وَأَفْضَلِهِ كَقَوْلِهِ :

لَمَّا أَطَعْنَاكُمْ فِي سُخْطِ خَالِقِنَا   لَا شَكَّ سُلَّ عَلَيْنَا سَيْفُ نِقْمَتِهِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

أَرَى رِجَالًا بِأَدْنَى ٱلدِّينِ قَدْ قَنِعُوا   وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي ٱلْعَيْشِ بِٱلدُّونِ

فَٱسْتَغْنِ بِٱلدِّينِ عَنْ دُنْيَا ٱلْمُلُوكِ كَمَا   ٱسْتَغْنَى ٱلْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ ٱلدِّينِ

وَلَا يَدْخُلُ هٰذَا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُخْتَارِ وَمَعْنَاهُ كَمَا تَرَى نَبِيلٌ فَاضِلٌ جَلِيلٌ . وَأَمَّا ٱلْجَزْلُ ٱلرَّدِيءُ ٱلْفَجُّ ٱلَّذِي يَنْبَغِي تَرْكُ ٱسْتِعْمَالِهِ فَمِثْلُ قَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًّا وَكَانَ خَرَجَ مَعَ صَاحِبَيْنِ لَهُ فَقُتِلَا فِي ٱلْغَزْوِ وَرَجَعَ هُوَ سَالِمًا :

إِذَا مَا تَرَكْتُ صَاحِبِيَّ لِثَلَاثَةٍ   أَوِ ٱثْنَيْنِ مِثْلَيْنَا فَلَا أُبْتُ آمِنَا

وَلَمَّا سَمِعْتُ ٱلْعُوصَ تَدْعُو تَنَفَّرَتْ   عَصَافِيرُ رَأْسِي مِنْ غُوَاةٍ فَرَاتِنَا

وَتَخْتَثُ مَشْغُوفَ ٱلنَّجَاءِ كَأَنَّنِي   هِجَفٌّ رَأَى قَصْرًا سِمَاكًا وَدَاجِنَا
إِذَا ٱسْتَدْرَجَ ٱلْفَيْفَا وَمَدَّ ٱلْمَغَابِنَا   مِنَ ٱلْحُصِّ هُزْرُوفٌ كَأَنَّ عِفَاءَهُ
هِزَفٌّ يَبُذُّ ٱلنَّاجِيَاتِ ٱلصَّوَافِنَا   أَزَجُّ زَلُوجٌ هِزْرَفِيٌّ زَفَازِفٌ

فَهٰذَا مِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْبَغِيضِ ٱلْجِلْفِ ٱلْفَاسِدِ ٱلنَّسْجِ ٱلْقَبِيحِ ٱلرَّصْفِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُتَجَنَّبَ مِثْلُهُ وَتَمْيِيزُ ٱلْأَلْفَاظِ شَدِيدٌ . وَلَوْلَا كَرَاهَةُ ٱلْإِطَالَةِ وَتَخَوُّفُ ٱلْإِمْلَالِ لَزِدتُّ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَلٰكِنْ يَكْفِي مِنَ ٱلْبَحْرِ جَرْعَةٌ . قَالُوا : وَجِيزُ ٱلْكَلَامِ مَا قَلَّ وَجَلَّ وَدَلَّ وَلَمْ يُمَلَّ

البحث الثاني

في التنبيه على خطإِ المعاني وصوابها

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

إِنَّ ٱلْكَلَامَ أَلْفَاظٌ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا وَتُعَبِّرُ عَنْهَا فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ ٱلْبَلَاغَةِ إِلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى كَحَاجَتِهِ إِلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ . لِأَنَّ ٱلْمَدَارَ بَعْدَ ٱللَّفْظِ عَلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْمَعَانِي تَحُلُّ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحَلَّ ٱلْأَبْدَانِ وَٱلْأَلْفَاظُ تَجْرِي مَعَهَا مَجْرَى ٱلْكُسْوَةِ . وَمَرْتَبَةُ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى مَعْرُوفَةٌ وَمَنْ عَرَفَ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى وُجُوهِهَا بِلُغَةٍ مِنَ ٱللُّغَاتِ ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى تَهَيَّأَ لَهُ فِيهَا مِنْ صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ مِثْلُ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنَ ٱلْأُولَى . أَلَا تَرَى أَنَّ عَبْدَ ٱلْحَمِيدِ ٱلْكَاتِبَ ٱسْتَخْرَجَ أَمْثِلَةَ ٱلْكِتَابَةِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْفَارِسِيِّ فَحَوَّلَهَا إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . فَلَا يَكْمُلُ لِصِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ إِلَّا مَنْ يَكْمُلُ لِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَتَصْحِيحِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ .

وَٱلْمَعَانِي عَلَى ضَرْبَيْنِ : ضَرْبٌ يَبْتَدِعُهُ صَاحِبُ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِمَامٌ يَقْتَدِي بِهِ فِيهِ أَوْ رُسُومٌ قَائِمَةٌ فِي أَمْثِلَةٍ مَاثِلَةٍ يَعْمَلُ عَلَيْهَا . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ رُبَّمَا يَقَعُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْخُطُوبِ ٱلْحَادِثَةِ وَيَتَنَبَّهُ لَهُ عِنْدَ ٱلْأُمُورِ ٱلطَّارِئَةِ . وَٱلْآخَرُ مَا يَحْتَذِيهِ عَلَى مِثَالٍ تَقَدَّمَ وَرَسْمٍ فُرِضَ . وَيَنْبَغِي أَنْ تُطْلَبَ ٱلْإِصَابَةُ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَتُتَوَخَّى فِيهِ ٱلصُّورَةُ ٱلْمَقْبُولَةُ وَٱلْعِبَارَةُ ٱلْمُسْتَحْسَنَةُ وَلَا يُتَّكَلَ فِيمَا ٱبْتُكِرَهُ عَلَى فَضِيلَةِ ٱبْتِكَارِهِ إِيَّاهُ . وَلَا يَغُرَّهُ ٱبْتِدَاعُهُ لَهُ فَيُسَاهِلَ نَفْسَهُ فِي تَهْجِينِ صُورَتِهِ فَيَذْهَبَ حُسْنُهُ وَيَطْمُسَ نُورُهُ وَيَكُونُ فِيهِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلذَّمِّ مِنْهُ إِلَى ٱلْحَمْدِ . وَٱلْمَعَانِي بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى وُجُوهٍ : مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ حَسَنٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : رَأَيْتُ زَيْدًا . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ قَبِيحٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : قَدْ زَيْدًا رَأَيْتُ . وَإِنَّمَا قَبُحَ لِأَنَّكَ أَفْسَدتَّ ٱلنِّظَامَ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمُ ٱلنَّظْمِ وَهُوَ كَذِبٌ مِثْلُ قَوْلِكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَشَرِبْتُ مَاءَ ٱلْبَحْرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَالٌ كَقَوْلِكَ : آتِيكَ أَمْسِ وَأَتَيْتُكَ غَدًا . وَكُلُّ ذٰلِكَ مُحَالٌ فَاسِدٌ . وَلَيْسَ كُلُّ فَاسِدٍ مُحَالًا . أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ : قَامَ زَيْدٍ . فَاسِدٌ وَلَيْسَ بِمُحَالٍ . وَٱلْمُحَالُ مَا لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ ٱلْبَتَّةَ كَقَوْلِكَ : ٱلدُّنْيَا فِي بَيْضَةٍ . وَأَمَّا قَوْلُكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَأَشْبَاهَهُ وَأَمْثَالَهُ فَكَذِبٌ . وَلَيْسَ بِمُحَالٍ إِنْ جَازَ أَنْ يَزِيدَ ٱللّٰهُ فِي قُدْرَتِكَ فَتَحْمِلَهُ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ كَذِبًا مُحَالًا وَهُوَ قَوْلُكَ : رَأَيْتُ قَاعِدًا قَائِمًا وَمَرَرْتُ بِيَقْظَانَ نَائِمٍ . فَتَصِلُ كَذِبًا بِمُحَالٍ فَصَارَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْكَذِبُ هُوَ ٱلْمُحَالَ بِٱلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ

مِنْهُمَا مَعْنًى عَلَى حِيَالِهِ . وَذٰلِكَ لِأَنَّ بَعْضَهَا عُقِدَ بِبَعْضٍ حَتَّى صَارَا كَلَامًا وَاحِدًا. وَمِنْهَا ٱلْغَلَطُ وَهُوَ اَنْ تَقُولَ : ضَرَبَنِي زَيْدٌ . وَاَنتَ تُرِيدُ : ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَغَلِطتَ . فَاِنْ تَعَمَّدتَ ذٰلِكَ كَانَ كَذِبًا . وَلِلْخَطَإِ صُوَرٌ مُخْتَلِفَةٌ نَبَّهْتُ عَلَى اَشْيَاءَ مِنْهَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَبَيَّنْتُ وُجُوهَهَا وَشَرَحْتُ اَبْوَابَهَا لِتَقِفَ عَلَيْهَا فَتَجْتَنِبَهَا كَمَا عَرَّفْتُكَ بِمَوَاضِعِ ٱلصَّوَابِ لِتَعْتَمِدَهَا. وَلِيَكُونَ فِيمَا اَوْرَدتُّ دَلَالَةٌ عَلَى اَمْثَالِهِ مِمَّا تَرَكْتُ . وَمَنْ لَا يَعْرِفُ ٱلْخَطَأَ كَانَ جَدِيرًا بِٱلْوُقُوعِ فِيهِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

اَلَمْ تَسْاَلِ ٱلرَّبْعَ ٱلْقَدِيمَ بِعَسْعَسَا   كَاَنِّي اُنَادِي اَوْ اُكَلِّمُ اَخْرَسَا

هٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْفَاسِدِ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ : كَلَّمْتُ حَجَرًا فَلَمْ يُجِبْ فَكَاَنَّهُ كَانَ حَجَرًا . وَٱلَّذِي جَاءَ بِهِ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مَقْلُوبٌ . وَٱلْجَيِّدُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ فِي ٱمْرَاَةٍ :

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ   اِذَا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا ٱلنَّفْسُ ذَلَّتِ

كَاَنِّي اُنَادِي صَخْرَةً حِينَ اَعْرَضَتْ   مِنَ ٱلصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا ٱلْعُصْمُ زَلَّتِ

فَشَبَّهَ ٱلْمَرْاَةَ عِندَ ٱلسُّكُوتِ وَٱلتَّغَافُلِ بِٱلصَّخْرَةِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱبْنِ اَحْمَرَ :

لَمْ يَدْرِ مَا نَسْجُ ٱلْيَرَنْدَجِ قَبْلَهَا   وَدِرَاسُ اَعْوَصَ دَارِسٍ مُتَجَدِّدِ

ظَنَّ اَنَّ ٱلْيَرَنْدَجَ يُنْسَجُ . وَٱلْيَرَنْدَجُ جِلْدٌ اَسْوَدُ يُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْخِفَافُ فَارِسِيٌّ مُعَرَبٌ وَاَصْلُهُ : رَنْدَهْ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ اَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَمِنْ اَنَابِيبِ تُفَّاحٍ وَرُمَّانِ

ظَنَّ اَنَّ ٱلرُّمَّانَ وَٱلتُّفَّاحَ اَنَابِيبُ . وَقِيلَ : اِنَّ ٱلْاَنَابِيبَ ٱلطَّرَائِقُ ٱلَّتِي فِي ٱلرُّمَّانِ . وَاِذَا حُمِلَ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ صَحَّ ٱلْمَعْنَى . وَمِمَّا اُخِذَ عَلَى

ٱمرئِ ٱلقَيْس قَوْلُهُ فِي ٱلفَرَسِ :

فَلِلسَّوْطِ أُلْهُوبٌ وَلِلسَّاقِ دِرَّةٌ ... وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أَخْرَجَ مُهْذِبِ

فَلَوْ وَصَفَ أَخَسَّ حِمَارٍ وَأَضْعَفَهُ مَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ . وَٱلجَيِّدُ قَوْلُهُ :

عَلَى سَابِحٍ يُعْطِيكَ قَبْلَ سُؤَالِــهِ ... أَفَانِينَ جَرْيٍ غَيْرِ كَزٍّ وَلَا وَانِي

وَمَا سَمِعْنَا أَجْوَدَ وَلَا أَبْلَغَ مِنْ قَوْلِهِ : أَفَانِينَ جَرْيٍ . وَقَوْلُ عَلْقَمَةَ :

فَأَدْرَكَهُنَّ ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ ... يَمُرُّ كَمَرِّ ٱلرَّائِحِ ٱلمُتَحَلِّبِ

فَأَدْرَكَ طَرِيدَتَهُ وَهُوَ ثَانٍ مِنْ عِنَانِهِ لَمْ يَضْرِبْهُ بِسَوْطٍ وَلَمْ يُمْرِهِ بِسَاقٍ وَلَمْ يَزْجُرْهُ بِصَوْتٍ وَمِمَّا يُعَابُ قَوْلُ ٱلأَخْطَلِ :

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ ٱلخِلَافَــةَ مِنْهُمُ ... لِأَبْلَجَ لَا عَارِي ٱلخِوَانِ وَلَا جَدْبِ

يَقُولُهُ فِي عَبْدِ ٱلمَلِكِ . وَمِثْلُ هٰذَا لَا يُمْدَحُ بِهِ ٱلمُلُوكُ . وَإِنَّمَا تُمْدَحُ ٱلمُلُوكُ بِمِثْلِ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لَهُ هِمَمٌ لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا ... وَهِمَّتُهُ ٱلصُّغْرَى أَجَلُّ مِنَ ٱلدَّهْرِ

لَهُ رَاحَةٌ لَوْ أَنَّ مِعْشَارَ جُودِهَا ... عَلَى ٱلبَرِّ كَانَ ٱلبَرُّ أَنْدَى مِنَ ٱلبَحْرِ

وَمِنَ ٱلخَطَإِ قَوْلُ جُنَادَةَ :

مِنْ حُبِّهِ أَتَمَنَّى أَنْ يُلَاقِيَنِي ... مِنْ نَحْوِ بَلْدَتِهِ نَاعٍ فَيَنْعَاهُ

لِكَيْ يَكُونَ فِرَاقٌ لَا لِقَاءَ لَهُ ... وَتُضْمِرَ ٱلنَّفْسُ يَأْسًا ثُمَّ تَسْلَاهُ

فَإِذَا تَمَنَّى ٱلمُحِبُّ لِحَبِيبِهِ ٱلمَوْتَ فَمَا عَسَى أَنْ يَتَمَنَّى ٱلمُبْغِضُ لِبَغِيضِهِ . وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُ :

أَلَا لَيْتَنَا عِشْنَا جَمِيعًا وَكَانَ بِي ... مِنَ ٱلدَّاءِ مَا لَا يَعْرِفُ ٱلنَّاسُ مَا بِيَا

فَهٰذَا أَقْرَبُ إِلَى ٱلصَّوَابِ وَلَوْ أَنَّ جُنَادَةَ كَانَ يَتَمَنَّى وَصْلَهُ وَلِقَاءَهُ

لكَانَ قَدْ قضَى وَطَرًا مِنَ ٱلْمُنَى وَلَمْ تلزَمْهُ ٱلْهُجْنَةُ . كَمَا قَالَ ٱلْعَبَّاسُ ٱبْنُ ٱلْأَحْنَفِ :

فَإِنْ تَبْخَلُوا عَنِّي بِبَذْلِ نَوَالِكُمْ وَبِٱلْوَصْلِ مِنْكُمْ كَيْ أُصَبَّ وَأَحْزَنَا
فَإِنِّي بِلَذَّاتِ ٱلْمُنَى وَنَعِيمِهَا أَعِيشُ إِلَى أَنْ يَجْمَعَ ٱللهُ بَيْنَنَا

وَمِنْ وَضْعِ ٱلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

يَمْشِي بِهَا كُلُّ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ مَشْيَ ٱلْهَرَابِذِ حَجُّوا بِيعَةَ ٱلزُّورِ

فَٱلْغَلَطُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا أَنَّ ٱلْهَرَابِذَ ٱلْمَجُوسُ لَا ٱلنَّصَارَى . وَٱلثَّانِي أَنَّ ٱلْبِيعَةَ لِلنَّصَارَى لَا لِلْمَجُوسِ . وَٱلثَّالِثُ أَنَّ ٱلنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ ٱلْأَصْنَامَ وَلَا ٱلْمَجُوسُ . وَمِنَ ٱلْمُحَالِ ٱلَّذِي لَا وَجْهَ لَهُ قَوْلُ ٱلْقَسِّ :

وَإِنِّي إِذَا مَا ٱلْمَوْتُ حَلَّ بِنَفْسِهَا يُزَالُ بِنَفْسِي قَبْلَ ذَاكَ فَأُقْبَرُ

وَهٰذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِ قَائِلٍ لَوْ قَالَ : اذَا دَخَلَ زَيْدٌ ٱلدَّارَ دَخَلَ عَمْرٌو قَبْلَهُ وَهٰذَا عَيْنُ ٱلْمُحَالِ ٱلْمُمْتَنِعِ ٱلَّذِي لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى مُخَالَفَةُ ٱلْعُرْفِ وَذِكْرُ مَا لَيْسَ فِي ٱلْعَادَةِ كَقَوْلِ ٱلْمَرَّارِ :

وَخَالٍ عَلَى خَدَّيْهِ يَبْدُو كَأَنَّهُ سَنَا ٱلْبَدْرِ فِي دَعْجَاءَ بَادٍ دُجُونُهَا

وَٱلْمَعْرُوفُ أَنَّ ٱلْخِيلَانَ سُودٌ أَوْ سُمْرٌ وَٱلْخُدُودَ ٱلْحَسَنَةَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْبِيضُ . فَأَتَى هٰذَا ٱلشَّاعِرُ بِقَلْبِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلْمَعَانِي مَا يَكُونُ مُقَصِّرًا غَيْرَ بَالِغٍ مَبْلَغَ غَيْرِهِ فِي ٱلْإِحْسَانِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَدِيحِ عُدُولُ ٱلْمَادِحِ عَنِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِأَوْصَافِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْبَهَاءِ وَٱلزِّينَةِ . كَمَا قَالَ

ٱبْنُ قَيْسٍ ٱلرُّقَيَّاتِ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَأْتَلِقُ ٱلتَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ   عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ ٱلذَّهَبُ

فَغَضِبَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ وَقَالَ : قَدْ قُلْتَ فِي مُصْعَبٍ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللهِ   تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

فَأَعْطَيْتَهُ ٱلْمَدْحَ بِكَشْفِ ٱلْغُمَمِ وَجَلَاءِ ٱلظُّلَمِ وَأَعْطَيْتَنِي مَا لَا فَخْرَ فِيهِ وَهُوَ ٱعْتِدَالُ ٱلتَّاجِ فَوْقَ جَبِينِي ٱلَّذِي هُوَ كَالذَّهَبِ فِي ٱلنَّضَارَةِ .

وَمِثْلُ ذٰلِكَ قَوْلُ أَيْمَنَ بْنِ خُزَيْمٍ فِي بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَا ٱبْنَ ٱلْمَكَارِمِ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّهَا   وَٱبْنَ ٱلْخَلَائِفِ وَٱبْنَ كُلِّ قَلَمَّسِ

مِنْ فَرْعِ آدَمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ   حَتَّى أَتَيْتَ إِلَى أَبِيكَ ٱلْعَنْبَسِ

مَرْوَانَ إِنَّ قَنَاتَهُ خَطِّيَّةٌ   غُرِسَتْ أَرُومَتُهَا أَعَزَّ ٱلْمَغْرِسِ

وَبَنَيْتَ عِنْدَ مَقَامِ رَبِّكَ قُبَّةً   خَضْرَاءَ كُلِّلَ تَاجُهَا بِٱلْفُسْفُسِ

فَسَمَاؤُهَا ذَهَبٌ وَأَسْفَلُ أَرْضِهَا   وَرِقٌ يُلَأْلَا فِي صَمِيمِ ٱلْحِنْدِسِ

فَمَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَدْحِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ وَإِنَّمَا ذَكَرَ سُؤْدَدَ ٱلْآبَاءِ وَفِيهِ فَخْرٌ لِلْأَبْنَاءِ . وَلٰكِنْ لَيْسَ ٱلْعِصَامِيُّ كَٱلْعِظَامِيِّ . وَرُبَّمَا كَانَ سُؤْدَدُ ٱلْوَالِدِ وَفَضِيلَتُهُ نَقِيصَةً لِلْوَلَدِ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْ رُتْبَةِ ٱلْوَالِدِ . وَيَكُونُ ذِكْرُ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَاضِلِ تَقْرِيعًا لِلْوَلَدِ ٱلنَّاقِصِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تَكُونُ كَأَبِيكَ . فَقَالَ : لَيْتَ أَبِي لَمْ يَكُنْ ذَا فَضْلٍ فَإِنَّ فَضْلَهُ صَارَ نَقْصًا لِي . وَقَدْ قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَى وَالِدُ ٱلصِّدْ   قِ وَأَحْيَا فَعَالَهُ ٱلْمَوْلُودُ

وَقَالَ غَيْرُهُ فِي خِلَافِهِ :

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءٍ ذَوِي شَرَفٍ   لَقَدْ صَدَقْتَ وَلٰكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وَقَالَ آخَرُ :

عَلَتْ مَقَابِحُ أَخْلَاقٍ خُصِصْتَ بِهَا   عَلَى مَحَاسِنَ أَبْقَاهَا أَبُوكَ لَكَا

لَئِنْ تَقَدَّمَ أَبْنَاءُ ٱلْكِرَامِ بِهِ   لَقَدْ تَقَدَّمَ آبَاءُ ٱللِّئَامِ بِكَا

ثُمَّ ذَكَرَ أَيْنَ بِنَاءُ قُبَّةٍ حَسَنَةٍ وَلَيْسَ بِنَاءُ ٱلْقِبَابِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جُودٍ وَكَرَمٍ . بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَبْنِيَ ٱللَّئِيمُ ٱلْبَخِيلُ ٱلْأَبْنِيَةَ ٱلنَّفِيسَةَ وَيَتَوَسَّعَ فِي ٱلنَّفَقَةِ عَلَى ٱلدُّورِ ٱلْحَسَنَةِ مَعَ مَنْعِ ٱلْحَقِّ وَرَدِّ ٱلسَّائِلِ وَلَيْسَ ٱلْيَسَارُ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ مَدْحًا حَقِيقِيًّا . أَلَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ أَشْجَعُ ٱلسُّلَمِيُّ :

يُرِيدُ ٱلْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ   وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ

وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي ٱلْغِنَى   وَلٰكِنَّ مَعْرُوفَهُ أَوْسَعُ

وَٱلْجَيِّدُ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا ٱلْمَالَ يُخْوِلُوا   وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ   وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

فَلَمَّا ٱسْتَتَمَّ وَصْفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْمَقَالِ وَتَصْدِيقِ ٱلْقَوْلِ بِٱلْفِعْلِ وَصَفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْوُجُوهِ ثُمَّ قَالَ :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ   وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ

فَلَمْ يُخْلِ مُكْثِرًا مِنْهُمْ وَلَا مُقِلًّا مِنْ بِرٍّ وَفَضْلٍ . ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ   مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

فَوَصَفَهُمْ بِٱلْحِلْمِ ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ قَامَ مِنْهُمْ قَائِمٌ قَالَ قَاعِدٌ   رَشَدْتَ فَلَا غُرْمٌ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ

فَوَصَفَهُمْ أَيْضًا بِٱلتَّضَافُرِ وَٱلتَّعَاوُنِ فَلَمَّا أَتَى بِهٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ ٱلنَّفِيسَةِ ذَكَرَ فَضْلَ آبَائِهِمْ فَقَالَ :

وَمَا يَكُ مِنْ فَضْلٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُ مَرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... أُسُودٌ لَهُمْ فِي غِيلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ
هُمُ ٱلْمَانِعُونَ ٱلْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا ... لِجَارِهِمِ فَوْقَ ٱلسِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَالِيلُ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ ٱلْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا
وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ ... وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا
ثَلَاثٌ بِأَمْثَالِ ٱلْجِبَالِ حِبَاهُمْ ... وَأَحْلَامُهُمْ مِنْهَا لَدَى ٱلْوَزْنِ أَثْقَلُ

وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

عَلَّمَ ٱلْغَيْثَ ٱلنَّدَى حَتَّى إِذَا ... مَا حَكَاهُ عَلَّمَ ٱلْبَأْسَ ٱلْأَسَدْ
فَلَهُ ٱلْغَيْثُ مُقِرٌّ بِٱلنَّدَى ... وَلَهُ ٱللَّيْثُ مُقِرٌّ بِٱلْجَلَدْ

وَمَعَ مَا ذَكَرْنَاهُ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْلُوَ ٱلْمَدْحُ مِنْ مَنَاقِبِ آبَاءِ ٱلْمَمْدُوحِ وَتَقْرِيظِ مَنْ يُعْرَفُ بِهِ وَيُنْسَبُ إِلَيْهِ. وَأَنْشَدَ مَرْوَانُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ :

نَقَرْتَ فَلَا شُلَّتْ يَدٌ خَالِدِيَّةٌ ... رَتَقْتَ بِهَا ٱلْفَتْقَ ٱلَّذِي بَيْنَ هَاشِمِ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ قُلْ : بَرْمَكِيَّةٌ. فَقَدْ يَشْرَكُنَا فِي خَالِدٍ بَشَرٌ كَثِيرٌ وَلَا يَشْرَكُنَا فِي بَرْمَكَ أَحَدٌ

وَٱلْهِجَاءُ اَيْضًا اِذَا لَمْ يَكُنْ بِسَلْبِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا ٱلنَّفْسُ وَاِثْبَاتِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَهْجَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا اَيْضًا لَمْ يَكُنْ مُخْتَارًا . وَٱلِاخْتِيَارُ اَنْ تَنْسُبَ ٱلْمَهْجُوَّ اِلَى ٱللُّؤْمِ وَٱلْبُخْلِ وَٱلشَّرَهِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَلَيْسَ بِٱلْمُخْتَارِ فِي ٱلْهِجَاءِ اَنْ يَنْسُبَهُ اِلَى قُبْحِ ٱلْوَجْهِ وَصِغَرِ ٱلْحَجْمِ وَضُؤُولَةِ ٱلْجِسْمِ وَيَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْقَائِلُ :

فَقُلْتُ لَهَا لَيْسَ ٱلشُّحُوبُ عَلَى ٱلْفَتَى ... بِعَارٍ وَلَا خَيْرُ ٱلرِّجَالِ سَمِينُهَا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

تَنَالُ ٱلْخَيْرَ مِمَّنْ تَزْدَرِيهِ ... وَيُخْلِفُ ظَنَّكَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّرِيرُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

رَاَوْهُ فَٱزْدَرَوْهُ وَهْوَ حِذْقٌ ... وَيَنْفَعُ اَهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَبِيحُ

وَذَكَرَ ٱلسَّمَوْءَلُ اَنَّ قِلَّةَ ٱلْعَدَدِ لَيْسَ بِعَيْبٍ فَقَالَ :

تُعَيِّرُنَا اَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا ... فَقُلْتُ لَهَا اِنَّ ٱلْكِرَامَ قَلِيلُ

وَمِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلْجَيِّدِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

ٱللُّؤْمُ اَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ ... وَٱللُّؤْمُ اَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَلَدَا

قَوْمٌ اِذَا مَا جَنَى جَانِيهِمِ اَمِنُوا ... مِنْ لُؤْمِ اَحْسَابِهِمْ اَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وَقَوْلُ اَعْشَى بَاهِلَةَ :

بَنُو تَيْمٍ قَرَارَةُ كُلِّ لُؤْمٍ ... كَذَاكَ لِكُلِّ سَائِلَةٍ قَرَارُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى ٱلرَّحْمَانِ خَافِيَةٌ ... مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو اَسَدِ

وَمِنْ خَبِيثِ ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

إِنْ يَغْدِرُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَبْخَلُوا لَا يَحْفِلُوا

يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوِ ٱطَّلَعَ ٱلْغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ وَمَا فِيهَا مِنَ ٱلسَّوْءَاتِ شَابَا

وَمِنْ خَطَإِ ٱللَّفْظِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ لِأَنَّ ٱلصُّدَاعَ لَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجْلِ وَلَا فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَعْضَاءِ . وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ ٱلْعَيْبِ : وَهُوَ أَنَّ ٱلذَّاكِرَ لِمَا قَدْ فَاتَ مِنْ مَحْبُوبٍ يُوصَفُ بِأَلَمِ ٱلْقَلْبِ وَٱحْتِرَاقِهِ لَا بِٱلصُّدَاعِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱللَّفْظِ ٱرْتِكَابُ ٱلضَّرُورَاتِ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُتَلَمِّسُ :

إِنْ تَسْلُكِي سُبُلَ ٱلْمَجَاةِ مُنْجِدَةً مَا عَاشَ عَمْرٌو وَمَا عَمِّرَتْ قَابُوسُ

أَرَادَ (وَمَا عُمِّرَ قَابُوسُ) . وَقَوْلُ ٱلْأَعْشَى حَكَاهُ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ وَعَابَهُ

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ سُجُوفُ ٱلْحِجَالِ فَلَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرَا

قَالَ : لَا تُوضَعُ ٱلشَّمْسُ مَعَ ٱلزَّمْهَرِيرِ (قَالَ :) وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ : لَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَمْ يُصِبْهَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ وَقَدْ أَخْطَأَ .

وَكَقَوْلِ عَلْقَمَةَ :

يَحْمِلْنَ أُتْرُجَّةً نَضْحُ ٱلْبَعِيرِ بِهَا كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي ٱلْأَنْفِ مَشْمُومُ

وَٱلتَّطْيَابُ هَا هُنَا عَلَى غَايَةِ ٱلسَّمَاجَةِ وَٱلطِّيبُ أَيْضًا مَشْمُومٌ لَا مَحَالَةَ

فَقَوْلُهُ: (كَأَنَّهُ مَشْمُومٌ) هُجْنَةٌ وَقَوْلُهُ: (فِي ٱلْأَنْفِ أَهْجَنُ). لِأَنَّ ٱلشَّمَّ لَا يَكُونُ بِٱلْعَيْنِ. وَمِنَ ٱلْمُتَنَاقِضِ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ:

نَزَلُوا ثَلَاثَ مِنًى بِمَنْزِلِ غِبْطَةٍ وَهُمُ عَلَى غَرَضٍ لَعَمْرُكَ مَا هُمُ

مُتَجَاوِرِينَ بِغَيْرِ دَارِ إِقَامَةٍ لَوْ قَدْ أَجَدَّ رَحِيلُهُمْ لَمْ يَنْدَمُوا

(فَقَالَ) لَبِثُوا فِي دَارِ غِبْطَةٍ ثُمَّ قَالَ: لَوْ رَحَلُوا لَمْ يَنْدَمُوا. وَمِمَّا جَاءَ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارٍ:

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا غَلَبَ ٱلْمِسْكُ عَلَى رِيحِ ٱلْبَصَلْ

وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْبَشِعَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

بِأَحْمَدَ ٱلْمُرْتَجَى فِي كُلِّ نَائِبَةٍ قُمْ سَيِّدِي نَعْصِ جَبَّارَ ٱلسَّمَاوَاتِ

فَهٰذَا مَعَ كُفْرِهِ مَمْقُوتٌ. وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ:

غَنِيتَ عَلَى ٱلْوَصْلِ ٱلْقَدِيمِ غَنِيتَا وَضَيَّعْتَ وُدًّا كَانَ لِي وَنَسِيتَا

وَمِنْ أَعْجَبِ ٱلْأَشْيَاءِ أَنْ مَاتَ مَأْلَفِي وَمَا كُنْتَ تَرْعَانِي لَهُ وَبَقِيتَا

تَجَاهَلْتَ عَمَّا كُنْتَ تُحْسِنُ وَصْفَهُ وَمُتَّ عَنِ ٱلْإِحْسَانِ حِينَ حَيِيتَا

وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعَجَبِ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَيَبْقَى بَعْدَهُ إِنْسَانٌ آخَرُ. بَلْ هٰذِهِ عَادَةُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمَعْهُودُ مِنْ أَمْرِهَا وَلَوْ قَالَ: (مِنْ ظُلْمِ ٱلْأَيَّامِ) كَانَ ٱلْمَعْنَى مُسْتَوِيًا. وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأُدَبَاءِ يَقُولُ: وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ ٱلْبَازِي:

فِي هَامَةٍ غَلْبَاءَ تَهْدِي مِنْسَرَا كَعَطْفَةِ ٱلْجِيمِ بِكَفٍّ أَعْسَرَا

ثُمَّ قَالَ:

يَقُولُ مَنْ فِيهَا بِعَقْلٍ فَكَّرَا لَوْ زَادَهَا عَيْنًا إِلَى فَاءٍ وَرَا

فَاتَّصَلَتْ بِالْجِيمِ صَارَ جَعْفَرَا

فَمَنْ يَجْهَلُ اَنَّ الْجِيمَ اِذَا اُضِيفَ اِلَيْهَا الْعَيْنُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ يَصِيرُ (جَعْفَرَا) وَمَا يَدْخُلُ فِي صِفَةِ الْبَازِي مِنْ هٰذَا الْقَوْلِ شَيْءٌ. وَتَبِعَهُ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ:

هُنَّ الْحَمَامُ فَاِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً ... مِنْ حَائِهِنَّ فَاِنَّهُنَّ حِمَامُ

فَمَنْ ذَا الَّذِي جَهِلَ اَنَّ الْحَمَامَ اِذَا كُسِرَتْ حَاؤُهَا صَارَ حِمَامًا. وَاِنَّمَا اَرَادَ اَبُو نُوَاسٍ اَنَّهُ يُشَبِّهُ الْجِيمَ لَا يُغَادِرُ مِنْ شَبَهِهَا شَيْئًا حَتَّى لَوْ زِدتَّ عَلَيْهَا هٰذِهِ الْاَحْرُفَ صَارَتْ جَعْفَرَا لِشِدَّةِ شَبَهِهَا بِهِ وَهُوَ عِنْدِي صَوَابٌ. اِلَّا اَنَّهُ لَوِ اكْتَفَى بِقَوْلِهِ: (كَعَطْفَةِ الْجِيمِ بِكَفِّ اَعْسَرَا) وَلَمْ يَزِدِ الزِّيَادَةَ الَّتِي بَعْدَهَا كَانَ اَجْوَدَ وَاَرْشَقَ وَاَدْخَلَ فِي مَذَاهِبِ الْفُصَحَاءِ وَاَشْبَهَ بِالشِّعْرِ الْقَدِيمِ. وَاَمَّا قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ: فَلَهُ مَعْنًى خِلَافُ مَا ذَكَرَهُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اَرَادَ اَنَّكَ اِذَا اَرَدتَّ الزَّجْرَ وَالْعِيَافَةَ اَدَّاكَ الْحَمَامُ اِلَى الْحِمَامِ كَمَا اَنَّ صَوْتَهَا الَّذِي تَظُنُّ اَنَّهُ بُكَاءٌ اِنَّمَا هُوَ طَرَبٌ وَيُؤَدِّيكَ اِلَى الْبُكَاءِ الْحَقِيقِيِّ وَهٰذَا مَعْنًى صَحِيحٌ. اِلَّا اَنَّ الْمَعْنَى اِذَا صَارَ بِهٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ الدِّقَّةِ كَانَ كَالْمُعَمَّى وَالتَّعْمِيَةُ حَيْثُ يُرَادُ الْبَيَانُ عِيٌّ. وَمِنْ عُيُوبِ الْمَعْنَى قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ الْاَسَدِ:

كَاَنَّمَا عَيْنُهُ اِذَا نَظَرَتْ ... بَارِزَةَ الْجَفْنِ عَيْنُ مَخْنُوقِ

فَوَصَفَ عَيْنَ الْاَسَدِ بِالْجُحُوظِ وَهِيَ تُوصَفُ بِالْغُؤُورِ كَقَوْلِ اَبِي زُبَيْدٍ:

وَعَيْنَانِ كَالْوَقْبَيْنِ فِي قَلْبِ صَخْرَةٍ ... تَرَى فِيهِمَا كَالْجَمْرَتَيْنِ تَسَعُّرَا

وَمِنَ الْغَلَطِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ:

رَقِيقُ حَوَاشِي ٱلْحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ ۞ بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي أَنَّهُ بُرْدُ

وَمَا وَصَفَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَلَا أَهْلِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْحِلْمَ بِٱلرِّقَّةِ وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِٱلرُّجْحَانِ وَٱلرَّزَانَةِ كَمَا قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ :

وَصَبْرٌ عَلَى حَدَثِ ٱلنَّائِبَاتِ ۞ وَحِلْمٌ رَزِينٌ وَعَقْلٌ ذَكِي

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَإِذَا ذَمُّوا ٱلرَّجُلَ قَالُوا : خَفَّ حِلْمُهُ وَطَاشَ . وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

ظَعَنُوا فَكَانَ بُكَايَ حَوْلًا بَعْدَهُمْ ۞ ثُمَّ ٱرْعَوَيْتُ وَذَاكَ حِلْمُ لَبِيدِ

أَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ إِطْفَاؤُهَا ۞ بِٱلدَّمْعِ أَنْ تَزْدَادَ طُولَ وُقُودِ

هٰذَا خِلَافُ مَا يَعْرِفُهُ ٱلنَّاسُ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا أَنَّ ٱلْبُكَاءَ يُطْفِئُ ٱلْغَلِيلَ وَيُبَرِّدُ حَرَارَةَ ٱلْحُزْنِ وَيُزِيلُ شِدَّةَ ٱلْوَجْدِ . وَقَدْ شَهِدَ أَبُو تَمَّامٍ بِصِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَخَالَفَ قَوْلَهُ ٱلْأَوَّلَ فَقَالَ :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ يُنْظَمِ ۞ وَٱلدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْلِ ٱلْمُغْرَمِ

وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ إِنَّ حَمْدَهُمْ ۞ مِنَ ٱلدُّرِّ مَا ٱصْفَرَّتْ حَوَاشِيهِ فِي ٱلْعِقْدِ

وَإِنَّمَا يُوصَفُ ٱلدُّرُّ بِشِدَّةِ ٱلْبَيَاضِ وَإِذَا أُرِيدَ ٱلْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِهِ وُصِفَ بِٱلنُّصُوعِ . وَمِنْ أَعْيَبِ عُيُوبِهِ ٱلصُّفْرَةُ . وَقَالُوا : كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ لِبَيَاضِهِ . وَإِذَا ٱصْفَرَّ ٱحْتِيلَ فِي إِزَالَةِ صُفْرَتِهِ لِيَتَضَوَّأَ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْحَوَاشِي فِي ٱلدُّرِّ أَيْضًا خَطَأٌ . وَلَوْ قَالَ : (نَوَاحِيهِ) لَكَانَ أَجْوَدَ . وَٱلْحَاشِيَةُ لِلْبُرْدِ وَٱلثَّوْبِ . فَأَمَّا حَاشِيَةُ ٱلدُّرِّ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ . وَفِيهَا :

وَحَرَّتْ عَلَى ٱلْأَيْدِي مَجَسَّةُ جِسْمِهِ ۞ كَذٰلِكَ مَوْجُ ٱلْبَحْرِ مُلْتَهِبُ ٱلْوَقْدِ

وَهٰذَا غَلَطٌ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ غَيْرُ مُلْتَهِبِ ٱلْمَوْجِ وَلَا مُتَّقِدِ ٱلْمَاءِ . وَلَوْ كَانَ مُتَّقِدًا لَمَا أَمْكَنَ رُكُوبُهُ. وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعَظِّمَ أَمْرَ ٱلْمَمْدُوحِ فَجَاءَ بِمَا لَا يُعْرَفُ . وَفِيهَا :

وَلَسْتَ تَرَى شَوْكَ ٱلْقَتَادَةِ خَائِفًا سَمُومَ رِيَاحِ ٱلْقَادِحَاتِ مِنَ ٱلزَّنْدِ

وَهٰذَا خَطَأٌ لِأَنَّهُ شَبَّهَ ٱلْعَلِيلَ بِشَوْكِ ٱلْقَتَادِ لَا يَخَافُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُقْدَحُ بِٱلزِّنَادِ . وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ ٱلنَّارَ تَفْلِقُ ٱلصَّخْرَ وَتُلِينُ ٱلْحَدِيدَ فَكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهَا ٱلْقَتَادُ . وَلَيْسَ لِذِكْرِ ٱلسَّمُومِ وَٱلرِّيَاحِ أَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فَائِدَةٌ وَلَا مَوْقِعٌ . وَنُورِدُ هَا هُنَا جُمْلَةً تَتِمُّ بِهَا مَعَانِي هٰذَا ٱلْبَابِ : يَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ أَجْوَدَ ٱلْوَصْفِ مَا يَسْتَوْعِبُ أَكْثَرَ مَعَانِي ٱلْمَوْصُوفِ حَتَّى كَأَنَّهُ يُصَوِّرُ ٱلْمَوْصُوفَ لَكَ فَتَرَاهُ نُصْبَ عَيْنِكَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو ٱلطَّائِيِّ :

أَلَا مَنْ رَأَى قَوْمِي كَأَنَّ رِجَالَهُمْ نَخِيلٌ أَتَاهَا عَاضِدٌ فَأَمَالَهَا

فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ كَأَنَّهُ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلْقَتْلَى مُصَرَّعِينَ . وَقَوْلِ ٱلْعَتَّابِيِّ فِي ٱلسَّحَابِ :

وَٱلْغَيْمُ كَٱلثَّوْبِ فِي ٱلْآفَاقِ مُنْتَشِرٌ مِنْ فَوْقِهِ طَبَقٌ مِنْ تَحْتِهِ طَبَقُ
إِنْ مَعْمَعَ ٱلرَّعْدُ فِيهِ قُلْتَ مُنْخَرِقٌ أَوْ لَأْلَأَ ٱلْبَرْقُ فِيهِ قُلْتَ مُحْتَرِقُ

وَلَمَّا كَانَتْ أَغْرَاضُ ٱلشُّعَرَاءِ كَثِيرَةً وَمَعَانِيهَا مُتَشَعِّبَةً جَمَّةً لَا يَبْلُغُهَا ٱلْإِحْصَاءُ. كَانَ مِنَ ٱلْوَجْهِ أَنْ نَذْكُرَ مَا هُوَ أَكْثَرُ ٱسْتِعْمَالًا وَأَطْوَلُ مُدَاوَمَةً وَهُوَ ٱلْمَدْحُ . وَٱلْهِجَاءُ . وَٱلْوَصْفُ . وَٱلْمَرَاثِي. وَٱلْفَخْرُ . وَقَدْ ذَكَرْتُ قَبْلَ هٰذَا ٱلْمَدِيحَ وَٱلْهِجَاءَ وَمَا يَنْبَغِي ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِمَا . ثُمَّ

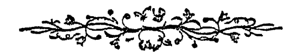
ذَكَرْتُ ٱلْآنَ ٱلْوَصْفَ وَتَرَكْتُ ٱلْمَرَاثِيَ وَٱلْفَخْرَ . لِأَنَّهُمَا دَاخِلَانِ فِي ٱلْمَدِيحِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَخْرَ مَدْحُكَ نَفْسَكَ بِٱلطَّهَارَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحَسَبِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذٰلِكَ . وَٱلْمَرْثِيَةُ مَدْحُ ٱلْمَيْتِ وَٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ٱلْمَدِيحِ أَنْ تَقُولَ : كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَتَقُولُ فِي ٱلْمَدِيحِ : هُوَ كَذَا وَأَنتَ كَذَا . فَيَنْبَغِي أَنْ يُتَوَخَّى فِي ٱلْمَرْثِيَةِ مَا يُتَوَخَّى فِي ٱلْمَدِيحِ . إِلَّا أَنَّكَ إِذَا أَرَدتَّ أَنْ تَذْكُرَ ٱلْمَيْتَ بِٱلْجُودِ وَٱلشَّجَاعَةِ تَقُولُ : مَاتَ ٱلْجُودُ وَهَلَكَتِ ٱلشَّجَاعَةُ . وَلَا تَقُولُ : كَانَ فُلَانٌ جَوَادًا وَشُجَاعًا فَإِنَّ ذٰلِكَ بَارِدٌ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ . وَكَذٰلِكَ مَا كَانَ ٱلْمَيْتُ يَرْكَبُهُ فِي حَيَاتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنَّهُ لَا يُذْكَرَ أَنَّهُ يَبْكِي عَلَيْهِ مِثْلُ ٱلْخَيْلِ وَٱلْإِبِلِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا وَإِنَّمَا يُذْكَرُ ٱغْتِبَاطُهُمَا بِمَوْتِهِ . وَقَدْ أَحْسَنَتِ ٱلْخَنْسَاءُ حَيْثُ تَقُولُ :

فَقَدْ فَقَدَتْكَ طَلْقَةُ وَٱسْتَرَاحَتْ ۞ فَلَيْتَ ٱلْخَيْلَ فَارِسُهَا يَرَاهَا

بَلْ يُوصَفُ بِٱلْبُكَاءِ عَلَيْهِ مَنْ كَانَ يُحْسِنُ إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ . كَمَا قَالَ ٱلْغَنَوِيُّ :

لِيَبْكِكَ شَيْخٌ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعِينُهُ ۞ وَطَاوِي ٱلْحَشَى نَائِي ٱلْمَزَارِ غَرِيبُ

فَهٰذِهِ جُمْلَةٌ إِذَا تَدَبَّرَهَا صَانِعُ ٱلْكَلَامِ ٱسْتَغْنَى بِهَا عَنْ غَيْرِهَا . وَبِٱللهِ ٱلتَّوْفِيقُ



البحث الثالث

في كيفية نظم الـكلام وما ينبغي استعمالهُ في تأليفهِ

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

إِذَا اَردتَّ اَنْ تَصْنَعَ كَلَامًا فَاَخْطِرْ مَعَانِيَهُ بِبَالِكَ وَتَنَوَّقْ لَهُ كَرَائِمَ اَللَّفْظِ وَاَجْعلْهَا عَلَى ذِكْرٍ مِنْكَ لِيَقْرُبَ عَلَيْكَ تَنَاوُلُهَا وَلَا يُتْعِبَكَ تَطَلُّبُهَا . وَاَعْمَلْهُ مَا دُمْتَ فِي شَبَابِ نَشَاطِكَ فَإِذَا غَشِيَكَ اَلْفُتُورُ وَتَخَوَّنَكَ اَلْمَلَالُ فَاَمْسِكْ . فَإِنَّ اَلْكَثِيرَ مَعَ اَلْمَلَالِ قَلِيلٌ وَاَلنَّفِيسَ مَعَ اَلضَّجَرِ خَسِيسٌ وَاَلْخَوَاطِرَ كَاَلْيَنَابِيعِ يُسْقَى مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ فَتَجِدُ حَاجَتَكَ مِنَ اَلرِّيِّ وَتَنَالُ اَرَبَكَ مِنَ اَلْمَنْفَعَةِ.فَإِذَا اَكْثَرْتَ عَلَيْهَا نَضَبَ مَاؤُهَا وَقَلَّ عَنْكَ غَنَاؤُهَا.وَيَنْبَغِي اَنْ تَجْرِيَ مَعَ اَلْكَلَامِ مُعَارَضَةً فَإِذَا مَرَرْتَ بِلَفْظٍ حَسَنٍ اَخَذْتَ بِرَقَبَتِهِ اَوْ بِمَعْنًى بَدِيعٍ تَعَلَّقْتَ بِذَيْلِهِ . وَتَحَذَّرْ اَنْ يَسْبِقَكَ فَإِنَّهُ إِنْ سَبَقَكَ تَعِبْتَ فِي تَتَبُّعِهِ وَنَصِبْتَ فِي طَلَبِهِ وَلَعَلَّكَ لَا تَلْحَقُهُ عَلَى طُولِ اَلطَّلَبِ وَمُوَاصَلَةِ اَلدَّأْبِ وَقَدْ قَالَ اَلشَّاعِرُ :

إِذَا ضَيَّعْتَ اَوَّلَ كُلِّ اَمْرٍ اَبَتْ اَعْجَازُهُ إِلَّا اَلْتِوَاءَ

وَقَالُوا : يَنْبَغِي لِصَانِعِ اَلْكَلَامِ اَنْ لَا يَتَقَدَّمَ اَلْكَلَامَ نَقَدُّمًا وَلَا يَتَّبِعَ ذُنَابَاهُ تَتَبُّعًا وَلَا يَحْمِلَهُ عَلَى لِسَانِهِ حَمْلًا فَإِنَّهُ إِنْ تَقَدَّمَ اَلْكَلَامَ لَمْ تَتْبَعْهُ حَقِيقَتُهُ وَهَزِيلُهُ وَاَعْجَفُهُ وَاَلشَّارِدُ مِنْهُ.وَإِنْ تَتَبَّعَهُ فَاتَتْهُ سَوَابِقُهُ وَلَوَاحِقُهُ وَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ جِيَادُهُ وَغُرَرُهُ . وَإِنْ حَمَلَهُ عَلَى لِسَانِهِ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ اَوْسَاقُهُ وَاَعْبَاؤُهُ وَدَخَلَتْ مَسَاوِيهِ فِي مَحَاسِنِهِ وَلَـكِنَّهُ يَجْرِي مَعَهُ

فَلَا تَنِدُّ عَنْهُ نَادَّةٌ مُعْجِبَةٌ سَهْمَاءُ إِلَّا كَبَحَهَا وَلَا تَتَخَلَّفُ عَنْهُ مُثْقِلَةٌ هَزِيلَةٌ إِلَّا أَرْهَقَهَا فَطَوْرًا تُفَرِّقُهُ لِيَخْتَارَ أَحْسَنَهُ وَطَوْرًا تَجْمَعُهُ لِتُقَرِّبَ عَلَيْكَ خُطْوَةَ الْفِكْرِ وَيَتَنَاوَلَ اللَّفْظُ مِنْ تَحْتِ لِسَانِهِ وَلَا يُسَلِّطُ الْمَلَلُ عَلَى قَلْبِهِ. وَالْإِكْثَارُ عَلَى تَفَكُّرِهِ فَيَأْخُذُ عَفْوَهُ وَلَا يَسْتَغْزِرُ دَرَّهُ وَلَا يُكْرِهُ آبِيًا وَلَا يَدْفَعُ آتِيًا. وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا لَكَ. فَإِنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حُسْنًا وَأَحْسَنُ فِي الْأَسْمَاعِ وَأَحْلَى فِي الصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ الْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ كَرِيمٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ الْأَطْوَلُ بِالْكَدِّ وَالْمُطَالَبَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالتَّكَلُّفِ وَالْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يُخْطِئْكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا أَوْ خَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ. وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَإِنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ أَلْفَاظَكَ. وَمَنْ أَرَادَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ الْمَعْنَى الشَّرِيفِ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا أَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُدَنِّسُهُمَا وَيُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا فَيَصِيرُ بِهِمَا إِلَى حَدٍّ يَكُونُ فِيهِ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تَلْتَمِسَ الْبَلَاغَةَ وَتَرْتَهِنَ نَفْسَكَ فِي مَلَابِسِهَا. فَكُنْ فِي ثَلَاثِ مَنَازِلَ. فَأَوَّلُ الثَّلَاثِ: أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ شَرِيفًا عَذْبًا وَفَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا. فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ لَا تُوَاتِيكَ وَلَا تَسْنَحُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ خَاطِرٍ وَتَجِدُ اللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا

وَلَمْ تَصِلْ إِلَى مَرْكَزِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِسِلْكِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى اغْتِصَابِ الْأَمَاكِنِ وَالنُّزُولِ فِي غَيْرِ أَوْطَانِهَا . فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرِيضَ الشِّعْرِ الْمَنْظُومِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ اخْتِيَارَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِذَلِكَ أَحَدٌ . وَإِنْ تَكَلَّفْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَزَرَى عَلَيْكَ مَنْ هُوَ دُونَكَ . فَإِنِ ابْتُلِيتَ بِتَكَلُّفِ الْقَوْلِ وَتَعَاطِي الصِّنَاعَةِ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ الطَّبِيعَةُ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَتَعَصَّى عَلَيْكَ بَعْدَ إِجَالَةِ الْفِكْرَةِ فَلَا تَعْجَلْ وَدَعْهُ سَحَابَةَ يَوْمِكَ وَلَا تَضْجَرْ وَأَمْهِلْهُ سَوَادَ لَيْلَتِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ فَإِنَّكَ لَا تَعْدَمُ الْإِجَابَةَ وَالْمُؤَاتَاةَ . وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ وَأُجْرِيَتْ مِنَ الصِّنَاعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَهِيَ الْمَنْزِلَةُ الثَّانِيَةُ. فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ تَرْوِيحِ الْخَاطِرِ وَطُولِ الْإِمْهَالِ فَالْمَنْزِلَةُ الثَّالِثَةُ. أَيْ أَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ إِلَى أَشْهَى الصِّنَاعَاتِ إِلَيْكَ وَأَخَفِّهَا عَلَيْكَ فَإِنَّكَ لَمْ تَشْتَهِهَا إِلَّا وَبَيْنَكُمَا نَسَبٌ . وَالشَّيْءُ لَا يَحِنُّ إِلَّا إِلَى مَا شَاكَلَهُ وَإِنْ كَانَتِ الْمُشَاكَلَةُ قَدْ تَكُونُ فِي طَبَقَاتٍ فَإِنَّ النُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا مَعَ الرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ مَعَ الرَّغْبَةِ وَالْمَحَبَّةِ . وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَ أَقْدَارَ الْمَعَانِي فَتُوَازِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَوْزَانِ الْمُسْتَمِعِينَ وَبَيْنَ أَقْدَارِ الْحَالَاتِ فَتَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ كَلَامًا وَلِكُلِّ حَالٍ مَقَامًا حَتَّى تَقْسِمَ أَقْدَارَ الْمَعَانِي عَلَى أَقْدَارِ الْمَقَامَاتِ وَأَقْدَارَ الْمُسْتَمِعِينَ عَلَى أَقْدَارِ الْحَالَاتِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَنْفَعَةَ مَعَ مُوَافَقَةِ الْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ

مِنَ ٱلْمَقَالِ . فَإِنْ كُنْتَ مُتَكَلِّمًا أَوِ ٱحْتَجْتَ إِلَى عَمَلِ خُطْبَةٍ لِبَعْضِ مَنْ تَصْلُحُ لَهُ ٱلْخُطَبُ أَوْ قَصِيدَةً لِبَعْضِ مَا يُرَادُ لَهُ ٱلْقَصْدُ فَتَخَطَّ أَلْفَاظَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِثْلَ ٱلْجِسْمِ وَٱلْعَرَضِ وَٱلْكَوْنِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْجَوْهَرِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُجْنَةٌ ...

البحث الرابع

في خواص الكلام الحرّ

(عن ابن المعتز والرمّاني)

قِيلَ إِنَّ أَحْسَنَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ تَرْجُمَانًا لِلْقُلُوبِ وَصَيْقَلًا لِلْعُقُولِ وَمَجْلًى لِلشُّبْهَةِ وَمُوجِبًا لِلْحُجَّةِ . وَٱلْحَاكِمَ عِنْدَ ٱخْتِصَاصِ ٱلظُّنُونِ وَٱلْمُفَرِّقَ بَيْنَ ٱلشَّكِّ وَٱلْيَقِينِ . يَنْقَادُ بِهِ ٱلْمُسْتَصْعَبُ وَيَسْتَقِيمُ لَهُ ٱلْأَصْيَدُ . وَخَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقِّيهِ . وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللَّفْظِ تَعَاطِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُبْلِغُ ٱلَّذِي لَا يُمَلُّ وَٱلْجَدِيدُ ٱلَّذِي لَا يَخْلَقُ . وَٱلْحَقُّ ٱلسَّاطِعُ . وَٱلْمَاحِي لِظُلَمِ ٱلضَّلَالِ . وَلِسَانُ ٱلصِّدْقِ ٱلنَّافِي لِلْكَذِبِ . إِنْ أَوْجَزَ كَانَ كَافِيًا وَإِنْ أَكْثَرَ كَانَ مُذَكِّرًا . وَإِنْ أَوْمَأَ كَانَ مُقْنِعًا . وَإِنْ أَطَالَ كَانَ مُفْهِمًا . وَإِنْ أَمَرَ فَنَاصِحًا . وَإِنْ حَكَمَ فَعَادِلًا . وَإِنْ أَخْبَرَ فَصَادِقًا . وَإِنْ بَيَّنَ فَشَافِيًا . سَهْلٌ عَلَى ٱلْفَهْمِ . صَعْبٌ عَلَى ٱلْمُتَعَاطِي . قَرِيبُ ٱلْمَأْخَذِ بَعِيدُ ٱلْمَرَامِ . سِرَاجٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ٱلْقُلُوبُ حُلْوٌ إِذَا تَذَوَّقَتْهُ ٱلْعُقُولُ . وَقَدْ قِيلَ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَطَّ ٱلتَّكَلُّفَ عَنْهُ وَبُنِيَ عَلَى ٱلتَّبْيِينِ وَكَانَتِ ٱلْفَائِدَةُ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْقَافِيَةِ بِأَنْ جَمَعَ مَعَ ذٰلِكَ سُهُولَةَ ٱلْمَخْرَجِ

مَعَ قُرْبِ ٱلْمُتَنَاوَلِ . وَعُذُوبَةَ ٱللَّفظِ مَعَ رَشَاقَةِ ٱلْمَعْنَى . وَانْ يَكُ
حُسْنُ ٱلْإِبْتِدَاءِ كَحُسْنِ ٱلْإِنْتِهَاءِ . وَحُسْنُ ٱلْوَصْلِ كَحُسْنِ ٱلْقَطْعِ
ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّمْعِ . وَكَانَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ قَدْ وَقَعَتْ فِي حَقِّهَا وَإِلَى جَنْ
أُخْتِهَا حَتَّى لَا يُقَالَ : لَوْ كَانَ كَذَا فِي مَوْضِعِ كَذَا لَكَانَ اوْلَى
لَا يَكُونَ فِيهِ لَفظٌ مُخْتَلِفٌ وَلَا مَعْنًى مُسْتَكْرَهٌ . ثُمَّ أُلْبِسَ بَهَاءَ ٱلْحِ
وَنُورَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَشَرَفَ ٱلْمَعْنَى وَجَزَالَةَ ٱللَّفظِ وَكَانَتْ حَلَاوَتُهُ فِي ٱلصَّ
وَجَلَالَتُهُ فِي ٱلنَّفْسِ تَفْتُقُ ٱلْفَهْمَ وَتَنْثُرُ دَقَائِقَ ٱلْحِكَمِ وَكَانَ ظَا
ٱلنَّفْعِ شَرِيفَ ٱلْقَصْدِ مُعْتَدِلَ ٱلْوَزْنِ جَمِيلَ ٱلْمَذْهَبِ كَرِيمَ ٱلْمَطْلَبِ
فَصِيحًا فِي مَعْنَاهُ بَيِّنًا فِي فَحْوَاهُ . . . وَجَاءَ ايْضًا فِي كُتُبِ ٱلْأَدَبِ
إِنَّ لَحْظَةَ ٱلْقَلْبِ اسْرَعُ خَطْرَةً مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَابْعَدُ مَجَالًا وَ
ٱلْغَائِصَةُ فِي اعْمَاقِ اوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ . وَٱلْجَامِ
بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ . وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلْقَلْ
كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ إِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ إِذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَا
يَكْسُو ٱلْمَعَانِي وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِأَلْفَاظٍ كَيِّسَةٍ بِأَحْ
زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِإِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِ
وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ : بِمَ فُقْتَ اهْلَ عَصْرِ
فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ ٱلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِأَنِّي لَمْ اقْبَلْ
مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْ
إِلَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْ
إِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَاحْكَمْتُ سَبْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُر

وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ عَنْ مُتَكَلَّفِهَا . وَمَا مَلَكَ قَطُّ قِيَادِي ٱلْإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ ٱلْمَعْنَى إِذَا كَانَ شَرِيفًا وَكَانَ ٱللَّفْظُ بَلِيغًا وَكَانَ صَحِيحَ ٱلطَّبْعِ بَعِيدًا مِنَ ٱلْاِسْتِكْرَاهِ مُنَزَّهًا عَنِ ٱلْاِخْتِلَالِ مَصُونًا عَنِ ٱلتَّكَلُّفِ صَنَعَ فِي ٱلْقَلْبِ صَنِيعَ ٱلْغَيْثِ فِي ٱلتُّرْبَةِ ٱلْكَرِيمَةِ . وَمَتَى فُصِّلَتِ ٱلْكَلِمَةُ عَلَى هٰذِهِ ٱلشَّرِيطَةِ وَنَفَذَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ كَسَاهَا ٱللهُ مِنَ ٱلتَّوْفِيقِ وَمَنَحَهَا مِنَ ٱلتَّأْيِيدِ مَا لَا يَمْتَنِعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا بِهِ صُدُورُ ٱلْجَبَابِرَةِ وَلَا يَذْهَلُ عَنْ فَهْمِهَا مَعَهُ عُقُولُ ٱلْجَهَلَةِ

البحث الخامس

في تهذيب الكلام وتنقيحه

(عن خزانة الادب للحموي وزهر الآداب للحصري)

وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْدَادِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَلَامِ بَعْدَ عَمَلِهِ وَٱلشُّرُوعِ فِي تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا وَتَغْيِيرِ مَا يَجِبُ تَغْيِيرُهُ وَحَذْفِ مَا يَنْبَغِي حَذْفُهُ وَإِصْلَاحِ مَا يَتَعَيَّنُ إِصْلَاحُهُ وَكَشْفِ مَا يُشْكِلُ عَنْ غَرِيبِهِ وَإِعْرَابِهِ . وَتَحْرِيرِ مَا يَدِقُّ مِنْ مَعَانِيهِ . وَٱطِّرَاحِ مَا يَتَجَافَى عَنْ مَضَاجِعِ ٱلرِّقَّةِ مِنْ غَلِيظِ أَلْفَاظِهِ لِتُشْرِقَ شُمُوسُ ٱلتَّهْذِيبِ فِي سَمَاءِ بَلَاغَتِهِ وَتَرْشُفَ ٱلْأَسْمَاعُ عَلَى ٱلطَّرَبِ رَقِيقَ سُلَافَتِهِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِٱلْمُهَذَّبِ مَنْعُوتًا بِٱلْمُنَقَّحِ عَلَتْ رُتْبَتُهُ . وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيهِ غَيْرَ مُبْتَكَرَةٍ . وَكُلُّ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ : لَوْ كَانَ مَوْضِعَ هٰذِهِ

ٱلْكَلِمَةِ غَيْرُهَا . وَلَوْ تَقَدَّمَ هٰذَا ٱلْمُتَأَخِّرُ وَتَأَخَّرَ هٰذَا ٱلْمُتَقَدِّمُ . أَوْ لَوْ تُمِّمَ هٰذَا ٱلنَّقْصُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ تَكَمَّلَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ حُذِفَتْ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ . أَوْ لَوِ ٱتَّضَحَ هٰذَا ٱلْمَقْصِدُ وَسَهُلَ هٰذَا ٱلْمَطْلَبُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ أَحْسَنَ وَٱلْمَعْنَى أَبْيَنَ . كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ فِي سِلْكِ نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ . وَكَانَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى مَعْرُوفًا بِٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّهْذِيبِ . وَلَهُ قَصَائِدُ تُعْرَفُ بِٱلْحَوْلِيَّاتِ . قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يَنْظِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيُهَذِّبُهَا وَيُنَقِّحُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيَعْرِضُهَا عَلَى عُلَمَاءِ قَبِيلَتِهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ . وَيُرْوَى : أَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي شَهْرٍ وَيُنَقِّحُهَا وَيُهَذِّبُهَا فِي أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَلَا جَرَمَ أَنَّهُ قَلَّمَا يَسْقُطُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْإِمَامُ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ مَعَ جَلَالَتِهِ فِي ٱلْعِلْمِ وَتَقَدُّمِهِ فِي ٱلنَّقْدِ يُقَدِّمُهُ عَلَى سَائِرِ ٱلْفُحُولِ مِنْ طَبَقَتِهِ . وَمَا أَحْسَنَ مَا أَشَارَ أَبُو ٱلتَّمَّامِ إِلَى ٱلتَّهْذِيبِ بِقَوْلِهِ :

خُذْهَا ٱبْنَةَ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُهَذَّبِ فِي ٱلدُّجَى ... وَٱللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ ٱلْجِلْبَابِ

فَإِنَّهُ خَصَّ تَهْذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى لِكَوْنِ ٱللَّيْلِ تَهْدَأُ فِيهِ ٱلْأَصْوَاتُ وَتَسْكُنُ ٱلْحَرَكَاتُ فَيَكُونُ ٱلْفِكْرُ فِيهِ مُجْتَمِعًا وَمِرْآةُ ٱلتَّهْذِيبِ فِيهِ صَقِيلَةً لِخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ وَصَفَاءِ ٱلْقَرِيحَةِ . لَا سِيَّمَا وَسَطَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّفْسُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ نَيْلِ قِسْطِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَلَيْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ وَصَحَّ ذِهْنُهَا وَصَارَ صَدْرُهَا مُنْشَرِحًا وَقَلْبُهَا بِٱلتَّأْلِيفِ مُنْبَسِطًا . وَمَا قَدَّمُوا وَسَطَ ٱللَّيْلِ فِي ٱلتَّأْلِيفِ عَلَى ٱلسَّحَرِ مَعَ مَا فِيهِ مِنِ ٱنْتِبَاهِ أَكْثَرِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلنَّاطِقِ وَٱرْتِفَاعِ ٱلْأَصْوَاتِ وَجَرْشِ ٱلْحَرَكَاتِ وَتَقَشُّعِ

الظّلماء بطلائع الانوار . وبدون ذلك ينقسم الفكر ويشتغل القلب ووسط الليل خالٍ مما ذكرناه . ولهذا خص ابو تمام تهذيب الفكر بالدجى عادلاً عن الطرفين لما فيهما من الشواغل المذكورة.
وحكت الثقات عن ابي عبادة البحتري قال : كنت في حداثتي اروم الشعر وكنت ارجع فيه الى طبع سليم ولم اكن وقفت له على تسهيل مأخذ ووجوه اقتضاب حتى قصدت ابا تمام وانقطعت اليه واتكلت في تعريفه عليه فكان اول ما قال لي : يا ابا عبادة تخيّر الاوقات وانت قليل الهموم صفر من الغموم . واعلم ان العادة في الاوقات اذا قصد الانسان تأليف شيء او حفظه ان يختار وقت السحر . وذلك ان النفس تكون قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وخف عنها ثقل الغذاء . وصفا من اكثر الابخرة والادخنة جسم الهواء . وسكنت الغمائم . ورقت النسائم . وتغنت الحمائم . واذا شرعت في التأليف تغن بالشعر فان الغناء مضماره الذي يجري فيه . واجتهد في ايضاح معانيه . فان اردت ذكر الاحباب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً واكثر فيه من بيان الكآبة . وقلق الاشواق . ولوعة الفراق والتعلل باستنشاق النسائم . وغناء الحمائم . والبروق اللامعة . والنجوم الطالعة . والتبرم من العذال . والوقوف على الاطلال . واذا اخذت في مدح سيد فاشهر مناقبه واظهر مناسبه وارهب من عزائمه وارغب في مكارمه . واحذر المجهول من المعاني واياك ان تشين شعرك بالعبارة والالفاظ

ٱلْوَحْشِيَّةِ وَنَاسِبْ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ وَكُنْ كَأَنَّكَ خَيَّاطٌ تُقَدِّرُ ٱلثِّيَابَ عَلَى مَقَادِيرِ ٱلْأَجْسَامِ . وَإِذَا عَارَضَكَ ٱلضَّجَرُ فَأَرِحْ نَفْسَكَ وَلَا تَعْمَلْ إِلَّا وَأَنْتَ فَارِغُ ٱلْقَلْبِ وَلَا تَنْظِمْ إِلَّا بِشَهْوَةٍ فَإِنَّ ٱلشَّهْوَةَ نِعْمَ ٱلْمُعِينُ عَلَى حُسْنِ ٱلنَّظْمِ . وَجُمْلَةُ ٱلْحَالِ أَنْ تَعْتَبِرَ شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمَاضِينَ فَمَا ٱسْتَحْسَنَ ٱلْعُلَمَاءُ فَٱقْصِدْهُ وَمَا ٱسْتَقْبَحُوهُ فَٱجْتَنِبْهُ

وَأَوْرَدَ ٱلْعَلَّامَةُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ وَصِيَّةً لِنَفْسِهِ أَوْرَدَهَا أَيْضًا عَلَى نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ فَٱخْتَرْتُ مِنْهَا مَا هُوَ ٱللَّائِقُ بِٱلْحَالِ وَأَوَّلُهَا : يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلسَّائِلُ عَنْ أَوْضَحِ ٱلسُّبُلِ أَنْ تُحَصِّلَ ٱلْمَعْنَى قَبْلَ ٱلشُّرُوعِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلْقَوَافِيَ قَبْلَ ٱلْأَبْيَاتِ (قُلْتُ وَهٰذَا مَذْهَبُنَا) . ثُمَّ قَالَ أَيْضًا : وَلَا تُكْرِهِ ٱلْخَاطِرَ عَلَى وَزْنٍ مَخْصُوصٍ وَرَوِيٍّ مَقْصُودٍ وَتَوَخَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْجَزْلَ دُونَ ٱلرَّذْلِ وَٱلسَّهْلَ دُونَ ٱلصَّعْبِ وَٱلْعَذْبَ دُونَ ٱلْمُسْتَكْرَهِ وَٱلْمُسْتَحْسَنَ دُونَ ٱلْمُسْتَهْجَنِ . وَلَا تَعْمَلْ نَظْمًا وَلَا نَثْرًا عِنْدَ ٱلْمَلَلِ فَإِنَّ ٱلْكَثِيرَ مَعَهُ قَلِيلٌ وَٱلنَّفِيسَ مَعَهُ خَسِيسٌ . وَٱلْخَوَاطِرُ يَنَابِيعُ إِذَا رُفِقَ بِهَا جَمَّتْ وَإِذَا كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهَا نَزَحَتْ . وَٱكْتُبْ كُلَّ مَعْنًى يَسْنَحُ وَقَيِّدْ كُلَّ فَائِدَةٍ تَعْرِضُ فَإِنَّ نَتَائِجَ ٱلْأَفْكَارِ كَلَمْعَةِ ٱلْبَرْقِ وَلَمْحَةِ ٱلطَّرْفِ إِنْ لَمْ تُقَيِّدْهَا شَرَدَتْ وَنَدَّتْ وَإِنْ لَمْ تَسْتَعْطِفْ بِٱلتَّكْرَارِ عَلَيْهَا صَدَّتْ وَٱلتَّرَنُّمُ بِٱلشِّعْرِ مِمَّا يُعِينُ عَلَيْهِ . فَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ ‌ ‌ ‌ إِنَّ ٱلْغِنَاءَ لِقَوْلِ ٱلشِّعْرِ مِضْمَارُ

البحث السادس

في شروط الكلام

(عن ادب الدنيا والدين للماوَردي)

إِعلَمْ اَنَّ لِلْكَلَامِ شُرُوطًا لَا يَسْلَمُ ٱلْمُتَكَلِّمُ مِنَ ٱلزَّلَلِ إِلَّا بِهَا وَلَا يَعرَى مِنَ ٱلنَّقْصِ إِلَّا بَعْدَ اَنْ يَسْتَوْفِيهَا وَهِيَ اَرْبَعَةٌ : (فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ لِداعٍ يَدْعُو اِلَيْهِ اِمَّا فِي ٱجْتِلَابِ نَفْعٍ اَوْ فِي دَفْعِ ضَرَرٍ.(وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَيَتَوَخَّى بِهِ إِصَابَةَ فُرْصَتِهِ .(وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) اَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَتَخَيَّرَ ٱللَّفْظَ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ.فَهٰذِهِ اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ مَتَى اَخَلَّ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِشَرْطٍ مِنْهَا فَقَدْ اَوْهَنَ فَضِيلَةَ بَاقِيهَا .وَسَنَذْكُرُ تَعْلِيلَ كُلِّ شَرْطٍ مِنْهَا بِمَا يُنْبِئُ عَنْ لُزُومِهِ.فَاَمَّا ٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ وَهُوَ ٱلدَّاعِي إِلَى ٱلْكَلَامِ فَلِاَنَّ مَا لَا دَاعِيَ لَهُ هَذَيَانٌ وَمَا لَاسَبَبَ لَهُ هُجْرٌ وَمَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِي ٱلْكَلَامِ اِذَا عَنَّ وَلَمْ يُرَاعِ صِحَّةَ دَوَاعِيهِ وَإِصَابَةَ مَعَانِيهِ كَانَ قَوْلُهُ مَرْذُولًا وَرَأْيُهُ مَعْلُولًا . كَٱلَّذِي حَكَى ٱبْنُ عَائِشَةَ : اِنَّ شَابًّا كَانَ يُجَالِسُ ٱلْاَحْنَفَ وَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَاَعْجَبَ ذٰلِكَ ٱلْاَحْنَفَ فَخَلَتِ ٱلْحَلْقَةُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ ٱلْاَحْنَفُ : تَكَلَّمْ يَا ٱبْنَ اَخِي . فَقَالَ : يَا عَمُّ لَوْ اَنَّ رَجُلًا سَقَطَ مِنْ شَرَفِ هٰذَا ٱلْمَسْجِدِ هَلْ كَانَ يَضُرُّهُ شَيْءٌ . فَقَالَ : يَا ٱبْنَ اَخِي لَيْتَنَا تَرَكْنَاكَ مَسْتُورًا . ثُمَّ تَمَثَّلَ ٱلْاَحْنَفُ بِقَوْلِ ٱلْاَعْوَرِ ٱلشَّنِّيِّ :

كَأَيِّنْ تَرَى مِنْ صَاحِبٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي ٱلتَّكَلُّمِ
لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

وَكَٱلَّذِي حُكِيَ عَنْ أَبِي ٱلْفَقِيهِ: إِنَّ رَجُلًا كَانَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ فَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَقَالَ لَهُ أَبُو يُوسُفَ: أَلَا تَسْأَلُ. قَالَ: بَلَى مَتَى يُفْطِرُ ٱلصَّائِمُ. قَالَ: إِذَا غَرَبَتِ ٱلشَّمْسُ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ تَغْرُبْ إِلَى نِصْفِ ٱللَّيْلِ. (قَالَ) فَتَبَسَّمَ أَبُو يُوسُفَ وَتَمَثَّلَ بِبَيْتَيِ ٱلْخَطَفِيِّ جَدِّ جَرِيرٍ:

عَجِبْتُ لِإِزْرَاءِ ٱلْعَيِيِّ بِنَفْسِهِ ... وَصَمْتِ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ بِٱلْعِلْمِ أَعْلَمَا
وَفِي ٱلصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْغَبِيِّ وَإِنَّمَا ... صَحِيفَةُ لُبِّ ٱلْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَا

فَٱنْظُرْ إِلَى هٰؤُلَاءِ كَيْفَ أَبَانُوا بِٱلْكَلَامِ عَنْ جَهْلِهِمْ وَأَعْرَبُوا بِٱلسُّؤَالِ عَنْ نَقْصِهِمْ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَاعٍ إِلَيْهِ وَلَا رَوِيَّةٌ فِيمَا تَكَلَّمُوا بِهِ وَلَوْ صَدَرَ عَنْ رَوِيَّةٍ دَعَا إِلَيْهَا دَاعٍ لَسَلِمُوا مِنْ شَيْنِهِ وَبَرِئُوا مِنْ عَيْبِهِ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ: لِسَانُ ٱلْعَاقِلِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ فَإِذَا أَرَادَ ٱلْكَلَامَ رَجَعَ إِلَى قَلْبِهِ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَكَلَّمَ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ أَمْسَكَ. وَقَلْبُ ٱلْجَاهِلِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ: مَنْ لَمْ يَعُدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ خَطَايَاهُ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: عَقْلُ ٱلْمَرْءِ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: أَحْبِسْ لِسَانَكَ قَبْلَ أَنْ يُطِيلَ حَبْسَكَ أَوْ يُتْلِفَ نَفْسَكَ فَلَا شَيْءَ أَوْلَى بِطُولِ حَبْسٍ مِنْ لِسَانٍ يُقَصِّرُ عَنِ ٱلصَّوَابِ وَيُسْرِعُ إِلَى ٱلْجَوَابِ. وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ:

وَمِمَّا كَانَتِ ٱلْحُكَمَاءُ قَالَتْ لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ تَبَعِ ٱلْفُؤَادِ

وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ يَحْسِمُ ٱلرُّخْصَةَ فِي ٱلْكَلَامِ وَيَقُولُ: إِذَا جَالَسْتَ ٱلْجُهَّالَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ وَإِذَا جَالَسْتَ ٱلْعُلَمَاءَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ. فَإِنَّ فِي إِنْصَاتِكَ لِلْجُهَّالِ زِيَادَةً فِي ٱلْحِلْمِ وَفِي إِنْصَاتِكَ لِلْعُلَمَاءِ زِيَادَةً فِي ٱلْعِلْمِ. وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْكَلَامِ فِي مَوْضِعِهِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ فِي غَيْرِ حِينِهِ لَا يَقَعُ مَوْقِعَ ٱلِٱنْتِفَاعِ بِهِ وَمَا لَا يَنْفَعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِأَنَّهُ هَذَيَانٌ وَهُجْرٌ. فَإِنْ قَدَّمَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّأْخِيرَ كَانَ عَجَلَةً وَخُرْقًا. وَإِنْ أَخَّرَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّقْدِيمَ كَانَ تَوَانِيًا وَعَجْزًا لِأَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ قَوْلًا وَفِي كُلِّ زَمَانٍ عَمَلًا. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

يَضَعُ ٱلْحَدِيثَ عَلَى مَوَاضِعِهِ وَكَلَامُهُ مِنْ بَعْدِهَا نَزْرُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ. فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِنْ لَمْ يَنْحَصِرْ بِٱلْحَاجَةِ وَلَمْ يُقَدَّرْ بِٱلْكِفَايَةِ لَمْ يَكُنْ لِحَدِّهِ غَايَةٌ وَلَا لِقَدْرِهِ نِهَايَةٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُورًا كَانَ حَصَرًا وَإِنْ قَصُرَ وَهَذَرًا وَإِنْ كَثُرَ. وَرُوِيَ: أَنَّ أَعْرَابِيًا تَكَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَطَوَّلَ فَقَالَ لَهُ: كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ. قَالَ: شَفَتَايَ وَلِسَانِي. قَالَ: فَإِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكْرَهُ ٱلِٱنْبِعَاقَ فِي ٱلْكَلَامِ فَنَضَّرَ ٱللهُ وَجْهَ ٱمْرِئٍ أَوْجَزَ فِي كَلَامِهِ فَٱقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ. وَحُكِيَ أَنَّ بَعْضَ ٱلْحُكَمَاءِ رَأَى رَجُلًا يُكْثِرُ ٱلْكَلَامَ وَيُقِلُّ ٱلسُّكُوتَ فَقَالَ: إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ لَكَ أُذُنَيْنِ وَلِسَانًا وَاحِدًا لِيَكُونَ مَا تَسْمَعُهُ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ

كَثُرَتْ آثَامُهُ . وَقَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ : أُنْذِرُكُمْ فُضُولَ ٱلْمَنْطِقِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : كَلَامُ ٱلْمَرْءِ بَيَانُ فَضْلِهِ وَتَرْجُمَانُ عَقْلِهِ فَٱقْصِرْهُ عَلَى ٱلْجَمِيلِ وَٱقْتَصِرْ مِنْهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَإِيَّاكَ مَا يُسْخِطُ سُلْطَانَكَ وَيُوحِشُ إِخْوَانَكَ . فَمَنْ أَسْخَطَ سُلْطَانَهُ تَعَرَّضَ لِلْمَنِيَّةِ . وَمَنْ أَوْحَشَ إِخْوَانَهُ تَبَرَّأَ مِنَ ٱلْحُرِّيَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَزِنِ ٱلْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا ... يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي ٱلْعُيُوبِ ٱلْمَنْطِقُ

وَلِمُخَالَفَةِ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ حَالَتَانِ : تَقْصِيرٌ يَكُونُ حَصَرًا وَتَكْثِيرٌ يَكُونُ هَذَرًا . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَشَيْنُ ٱلْهَذَرِ أَشْنَعُ وَرُبَّمَا كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ أَخْوَفَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَقْتَلُ ٱلرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلْحَصَرُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْهَذَرِ لِأَنَّ ٱلْحَصَرَ يُضَعِّفُ ٱلْحُجَّةَ وَٱلْهَذَرَ يُتْلِفُ ٱلْمُحَجَّةَ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ ٱللِّسَانَ عَلَى أَهْلِهِ ... إِذَا سَاسَهُ ٱلْجَهْلُ لَيْثًا مُغِيرَا

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : يَارُبَّ أَلْسِنَةٍ كَٱلسُّيُوفِ تَقْطَعُ أَعْنَاقَ أَصْحَابِهَا وَمَا يَنْقُصُ مِنْ هَيْئَاتِ ٱلرِّجَالِ يَزِيدُ فِي بَهَائِهَا وَأَلْبَابِهَا . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَعَوَّدُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَقَدْ ذُمَّ ٱلْكَلَامُ فِي مَجْلِسِهِ : كَلَّا إِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ وَلَيْسَ مَنْ سَكَتَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيُحْسِنَ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَاتِبَ فَقَالَ : مَنْ إِذَا أَخَذَ شِبْرًا كَفَاهُ وَإِذَا وَجَدَ طُومَارًا

أملاهُ . وأنشدَ بعضهم في خطباء إيادٍ :

يرمونَ بالخُطَبِ الطِّوالِ وتارةً ... وحيَ الملاحظِ خيفةَ الرُّقباءِ

وقالَ الهيثمُ بنُ صالحٍ لابنِهِ : يا بُنيَّ إذا أقللتَ من الكلامِ أكثرتَ من الصوابِ . فقالَ : يا أبتِ فإنْ أنا أكثرتُ وأكثرتُ (يعني كلاماً وصواباً) . فقالَ : يا بُنيَّ ما رأيتُ موعوظاً أحقَّ بأنْ يكونَ واعظاً منكَ . وأنشدتُ لأبي الفتحِ البُستيِّ :

تكلَّمْ وسدِّدْ ما استطعتَ فإنَّما ... كلامُكَ حيٌّ والسُّكوتُ جمادُ

فإنْ لم تجدْ قولاً سديداً تقولُهُ ... فصمتُكَ عن غيرِ السَّدادِ سَدادُ

وقيلَ لإياسِ بنِ معاويةَ : ما فيكَ عيبٌ إلّا كثرةُ الكلامِ . فقالَ : أفتسمعونَ صواباً أو خطأً . قالوا : لا بلْ صواباً . قالَ : فالزيادةُ من الخيرِ خيرٌ . وقالَ أبو عثمانَ الجاحظُ : للكلامِ غايةٌ ولنشاطِ السامعينَ نهايةٌ وما فضلَ عن مقدارِ الاحتمالِ ودعا إلى الاستثقالِ والملالِ فذلكَ الفاضلُ هوَ الهذرُ . وصدقَ أبو عثمانَ لأنَّ الإكثارَ منهُ وإنْ كانَ صواباً يُملُّ السامعَ ويُكِلُّ الخاطرَ وهوَ صادرٌ عنْ إعجابٍ بهِ لولاهُ قصَّرَ عنهُ . ومنْ أُعجبَ بكلامِهِ استرسلَ فيهِ والمسترسلُ في الكلامِ كثيرُ الزللِ دائمُ العثارِ . وقالَ بعضُ الحكماءِ : منْ أُعجبَ بقولِهِ أُصيبَ بعقلِهِ وليسَ لكثرةِ الهذرِ رجاءٌ يُقابلُ خوفَهُ ولا نفعٌ يُوازي ضررَهُ لأنَّهُ يخافُ منْ نفسِهِ الزللَ ومنْ سامعيهِ المللَ وليسَ في مقابلةِ هذينِ حاجةٌ داعيةٌ ولا نفعٌ مرجوٌّ . قالَ جعفرُ بنُ يحيى : إذا كانَ الإيجازُ كافياً كانَ الإكثارُ عِيّاً وإنْ

كَانَ ٱلْإِكْثَارُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ : إِذَا تَمَّ ٱلْعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : مَنْ أَطَالَ صَمْتَهُ ٱجْتَلَبَ مِنَ ٱلْهَيْبَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمِنَ ٱلْوَحْشَةِ مَا لَا يَضُرُّهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : عِيٌّ تَسْلَمُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ تَنْدَمُ عَلَيْهِ فَٱقْتَصِرْ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ حُجَّتَكَ وَيُبْلِغُ حَاجَتَكَ وَإِيَّاكَ وَفُضُولَهُ فَإِنَّهُ يُزِلُّ ٱلْقَدَمَ وَيُورِثُ ٱلنَّدَمَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْفُصَحَاءِ : فَمُ ٱلْعَاقِلِ مُلْجَمٌ إِذَا هَمَّ بِٱلْكَلَامِ أَحْجَمَ وَفَمُ ٱلْجَاهِلِ مُطْلَقٌ كُلَّمَا شَاءَ أَطْلَقَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

إِنَّ ٱلْكَلَامَ يُعِدُّ ٱلْقَوْمُ جَلْوَتَهُ حَتَّى يَلِجَّ بِهِ عِيٌّ وَإِكْثَارُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) وَهُوَ ٱخْتِيَارُ ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ فَلِأَنَّ ٱللِّسَانَ عُنْوَانُ ٱلْإِنْسَانِ يُتَرْجِمُ عَنْ مَجْهُولِهِ وَيُبَرْهِنُ عَنْ مَحْصُولِهِ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ بِتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ حَرِيًّا وَتَقْوِيمِ لِسَانِهِ مَلِيًّا . وَقَالَ خَالِدُ ٱبْنُ صَفْوَانَ : مَا ٱلْإِنْسَانُ لَوْلَا ٱللِّسَانُ هَلْ إِلَّا بَهِيمَةٌ مُهْمَلَةٌ أَوْ صُورَةٌ مُمَثَّلَةٌ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱللِّسَانُ وَزِيرُ ٱلْإِنْسَانِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : يُسْتَدَلُّ عَلَى عَقْلِ ٱلرَّجُلِ بِقَوْلِهِ وَعَلَى أَصْلِهِ بِفِعْلِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَإِنَّ لِسَانَ ٱلْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

وَلَيْسَ يَصِحُّ ٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِمَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِٱلْبَلَاغَةِ وَكَلَّفَهَا لُزُومَ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى يَصِيرَ مُتَدَرِّبًا بِهَا مُعْتَادًا لَهَا فَلَا يَأْتِيَ بِكَلَامٍ مُسْتَكْرَهِ ٱللَّفْظِ وَلَا مُخْتَلِّ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ عَلَى مَعَانٍ

مُفْرَدَةٍ وَلَا لِأَلْفَاظِهَا غَايَةٌ . وَإِنَّمَا ٱلْبَلَاغَةُ أَنْ تَكُونَ بِٱلْمَعَانِي ٱلصَّحِيحَةِ مُسْتَوْدَعَةً فِي أَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ فَتَكُونُ فَصَاحَةُ ٱلْأَلْفَاظِ مَعَ صِحَّةِ ٱلْمَعَانِي هِيَ ٱلْبَلَاغَةَ

البحث السابع

في عيوب الكلام

(عن الجاحظ والعسكري)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

قَالَ بَعْضُ ٱلْأَوَائِلِ : لَا تَكْمُلُ آلَةُ ٱلْبَلِيغِ إِلَّا إِذَا خَلَا كَلَامُهُ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَسُوءِ ٱلصَّنْعَةِ وَكَانَ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ مُتَبَاعِدًا عَنِ ٱلْحَشْوِ . فَقَوْلُهُ : (يَكُونُ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ) فَٱلتَّكَلُّفُ طَلَبُ ٱلشَّيْءِ بِصُعُوبَةٍ لِلْجَهْلِ بِطَرَائِقِ طَلَبِهِ بِٱلسُّهُولَةِ . فَٱلْكَلَامُ إِذَا جُمِعَ بِتَعَبٍ وَجُهْدٍ وَتُنُوِّلَتْ أَلْفَاظُهُ مِنْ بُعْدٍ فَهُوَ مُتَكَلَّفٌ . وَقَالُوا : لَيْسَ ٱلْفِقْهُ بِٱلتَّفَقُّهِ وَلَا ٱلْفَصَاحَةُ بِٱلتَّفَصُّحِ لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ مُتَزَيِّدٌ فِي كَلَامِهِ إِلَّا لِنَقْصٍ يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ . وَمِمَّا ٱتَّفَقَتْ عَلَيْهِ ٱلْعَرَبُ وَٱلْعَجَمُ قَوْلُهُمْ : ٱلطَّبْعُ أَمْلَكُ . قَالَ ٱلْعَرْجِيُّ :

يَا أَيُّهَا ٱلْمُتَحَلِّي غَيْرَ شِيمَتِهِ ... وَمَنْ شَمَائِلُهُ ٱلتَّبْدِيلُ وَٱلْمَلَقُ
ٱرْجِعْ إِلَى خُلْقِكَ ٱلْمَعْرُوفِ دَيْدَنُهُ ... إِنَّ ٱلتَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ ٱلْخُلُقُ

وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ سُوسِ نَفْسِهِ ... يَدَعْهُ وَيَغْلِبْهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ خِيمُهَا

وَقَالَ آخَرُ :

كُلُّ ٱمْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْمًا لِشِيمَتِهِ   وَإِنْ تَخَلَّقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينِ

وَمِثَالُ ٱلتَّكَلُّفِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي دُعَائِهِ : ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا وَإِلٰهَنَا مَنْ أَرَادَ بِنَا سُوءًا فَأَحِطْ ذٰلِكَ ٱلسُّوءَ بِهِ وَأَرْسِخْهُ فِيهِ كَرُسُوخِ ٱلسِّجِّيلِ فِي أَصْحَابِ ٱلْفِيلِ . وَٱنْصُرْنَا عَلَى كُلِّ بَاغٍ وَحَسُودٍ كَمَا ٱنْتَصَرْتَ لِنَاقَةِ ثَمُودٍ . ثُمَّ قَالَ : (بَرِيئًا مِنْ سُوءِ ٱلصَّنْعَةِ) فَسُوءُ ٱلصَّنْعَةِ يَتَصَرَّفُ عَلَى وُجُوهٍ مِنْهَا : سُوءُ ٱلتَّقْسِيمِ وَفَسَادُ ٱلتَّفْسِيرِ وَقُبْحُ ٱلِاسْتِعَارَةِ وَٱلتَّطْبِيقِ وَفَسَادُ ٱلنَّسْجِ وَٱلسَّبْكِ . فَإِذَا أَخَلَّ ٱلْكَاتِبُ بِذٰلِكَ فَاتَتْهُ فَضِيلَتُهُ وَعَلِقَتْ بِهِ رَذِيلَةُ فَوْتِهِ فَعَفَّى عَلَى جَمِيعِ مَحَاسِنِهِ وَعَمَّى سَائِرَ فَضَائِلِهِ . لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَفْرِقْ بَيْنَ كَلَامٍ جَيِّدٍ وَآخَرَ رَدِيءٍ وَلَفْظٍ حَسَنٍ وَآخَرَ قَبِيحٍ وَشِعْرٍ نَادِرٍ وَآخَرَ بَارِدٍ بَانَ جَهْلُهُ وَظَهَرَ نَقْصُهُ . وَهُوَ أَيْضًا إِذَا أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ قَصِيدَةً أَوْ يُنْشِئَ رِسَالَةً وَقَدْ فَاتَهُ هٰذَا ٱلْعِلْمُ مَزَجَ ٱلصَّفْوَ بِٱلْكَدَرِ وَخَلَطَ ٱلْغُرَرَ بِٱلْعُرَرِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْوَحْشِيَّ ٱلْعَكِرَ فَجَعَلَ نَفْسَهُ مَهْزَأَةً لِلْجَاهِلِ وَعِبْرَةً لِلْعَاقِلِ . وَإِذَا أَرَادَ أَيْضًا تَصْنِيفَ كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَوْ تَأْلِيفَ شِعْرٍ مَنْظُومٍ وَتَخَطَّى حُسْنَ ٱلصَّنْعَةِ سَاءَ ٱخْتِيَارُهُ لَهُ وَقَبُحَتْ آثَارُهُ فِيهِ فَأَخَذَ ٱلرَّدِيءَ ٱلْمَرْذُولَ وَتَرَكَ ٱلْجَيِّدَ ٱلْمَقْبُولَ فَدَلَّ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ . وَقَدْ قِيلَ : ٱخْتِيَارُ ٱلرَّجُلِ قِطْعَةٌ مِنْ عِلْمِهِ . وَمَا أَكْثَرَ مَا وَقَعَ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فِي هٰذِهِ ٱلرَّذِيلَةِ . وَقَوْلُهُ : (بَرِيئًا مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ) فَٱلتَّعْقِيدُ وَٱلْإِغْلَاقُ سَوَاءٌ وَهُوَ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْوَحْشِيِّ وَشِدَّةُ تَعْلِيقِ ٱلْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى يَسْتَبْهِمَ ٱلْمَعْنَى .

قَالَ حَبِيبٌ ٱلطَّائِيُّ :

فَمَا لَكَ بِٱلْغَرِيبِ يَدٌ وَلٰكِنْ ... تَعَاطِيكَ ٱلْغَرِيبَ مِنَ ٱلْغَرِيبِ

أَمَا لَوْ أَنَّ جَهْلَكَ عَادَ عِلْمًا ... إِذًا لَرَسَخْتَ فِي عِلْمِ ٱلْغُيُوبِ

قَالَ آخَرُ يَمْدَحُ رَجُلًا بِٱسْتِسْهَالِ ٱللَّفْظِ :

قَوْلٌ كَأَنَّ فَرِنْدَهُ ... شَحْذٌ عَلَى ذِهْنِ ٱللَّبِيبِ

لَمْ يَشْمَئِزَّ عَلَى ٱللِّسَا ... نِ وَلَا يَشُذُّ عَلَى ٱلْقُلُوبِ

لَمْ يَغْلُ فِي شَنْعِ ٱللُّغَا ... تِ وَلَا يُوَحِّشُ بِٱلْغَرِيبِ

وَقَوْلُهُ : (غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ) أَيْ هُوَ مُسْتَغْنٍ لِوُضُوحِهِ عَنْ تَأَمُّلِ مَعَانِيهِ وَتَرْدِيدِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ مَنْ أَعَارَهُ ٱللهُ مِنْ مَعُونَتِهِ نَصِيبًا وَأَفْرَغَ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّتِهِ ذَنُوبًا حَبَّبَ إِلَيْهِ ٱلْمَعَانِي وَسَلَّسَ لَهُ نِظَامَ ٱللَّفْظِ وَكَانَ قَبْلُ قَدْ أَغْنَى ٱلْمُسْتَمِعَ مِنْ كَدِّ ٱلتَّلَطُّفِ وَأَرَاحَ قَارِىءَ ٱلْكِتَابِ مِنْ كَدِّ ٱلتَّفَهُّمِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَقُرْبُ ٱلْمَأْخَذِ وَإِيجَازٌ فِي صَوَابٍ وَقَصْدٌ إِلَى ٱلْحُجَّةِ وَحُسْنُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ : ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيبُ مَا بَعُدَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ بِأَيْسَرِ ٱلْخِطَابِ وَٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ . وَهُوَ أَنْ يَعْمِدَ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱللَّطِيفِ فَيَكْشِفَهُ وَيَنْفِيَ ٱلشَّوَاغِلَ عَنْهُ فَيَفْهَمَهُ ٱلسَّامِعُ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِيهِ وَتَدَبُّرٍ لَهُ . وَقَوْلُهُ : (مُتَبَاعِدًا مِنَ ٱلْحَشْوِ) فَٱلْحَشْوُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ : ٱثْنَانِ مِنْهَا مَذْمُومَانِ وَوَاحِدٌ مَحْمُودٌ . فَأَحَدُ ٱلْمَذْمُومَيْنِ هُوَ : إِدْخَالُكَ فِي ٱلْكَلَامِ لَفْظًا لَوْ أَسْقَطْتَهُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ تَامًّا . مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

اَعنِي فَتًى لَمْ تَذُرَّ ٱلشَّمسُ طَالِعَةً   يَوْمًا مِنَ ٱلدَّهرِ اِلَّا ضَرَّ اَوْ نَفَعَا

فَقَوْلُهُ : (يَوْمًا مِنَ ٱلدَّهرِ) حَشْوٌ لَا يُحْتَاجُ اِلَيهِ لِاَنَّ ٱلشَّمسَ لَا تَطْلَعُ لَيــلًا . وَٱلضَّرْبُ ٱلآخَرُ ٱلعِبَارَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى بِكَلَامٍ طَوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِي طُولِهِ وَيُمكِنُ اَنْ يُعَبَّرَ بِاَقْصَرَ مِنْهُ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

تَبَيَّنْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَــا   لِسِتَّةِ اَعْوَامٍ وَذَا ٱلْعَامُ سَابِعُ

فَكَانَ يَنْبَغِي اَنْ يَقُولَ : لِسَبْعَةِ اَعْوَامٍ . وَيُتِمَّ ٱلْبَيْتَ بِكَلَامٍ آخَرَ يَكُونُ فِيهِ فَائِدَةٌ فَعَجَزَ عَنْ ذٰلِكَ فَحَشَا ٱلْبَيْتَ بِمَا لَا وَجْهَ لَهُ . وَاَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلْمَحْمُودُ فَكَقَوْلِ كُثَيِّرٍ :

لَوَ اَنَّ ٱلْبَاخِلِينَ وَاَنْتَ مِنْهُمْ   رَاَوْكَ تَعَلَّمُــوا مِنْكَ ٱلْمِطَالَا

قَوْلُهُ : (وَاَنْتَ مِنْهُمْ) حَشْوٌ اِلَّا اَنَّهُ مَلِيحٌ وَيُسَمِّي اَهْلُ ٱلصَّنْعَةِ هٰذَا ٱلْجِنْسَ اعْتِرَاضَ كَلَامٍ فِي كَلَامٍ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلآخَرِ :

اِنَّ ٱلثَّمَانِــينَ وَبُلِّغْتُهَــا   قَدْ اَحْوَجَتْ سَمْعِي اِلَى تَرْجُمَانْ

البحث الثامن

في الالتباس والاسباب المانعة من فهم المعاني

(عن الماوَردي باختصار)

اِنْ لَمْ يَفْهَمِ ٱلْعَاقِلُ مَعَانِيَ مَا سَمِعَ كَشَفَ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلْمَانِعِ مِنْهَا لِيَعْلَمَ ٱلعِلَّةَ فِي تَعَذُّرِ فَهْمِهَا فَاِنَّ بِمَعْرِفَةِ اَسْبَابِ ٱلْاَشْيَاءِ وَعِلَلِهَا يَصِلُ اِلَى تَلَافِي مَا شَذَّ وَصَلَاحِ مَا فَسَدَ وَلَيْسَ يَخْلُو ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ ذٰلِــكَ مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : اِمَّا اَنْ يَكُونَ بِعِلَّةٍ فِي ٱلــكَلَامِ

ٱلْمُتَرْجِمِ عَنْهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمُسْتَوْدَعِ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلسَّامِعِ ٱلْمُسْتَخْرِجِ. فَإِنْ كَانَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ فَهْمِهَا لِعِلَّةٍ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَرْجِمِ عَنْهَا لَمْ يَخْلُ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ:

(أَحَدُهَا) أَنْ يَكُونَ لِتَقْصِيرِ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَصِيرَ تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى سَبَبًا مَانِعًا مِنْ فَهْمِ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى. وَهٰذَا يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا مِنْ حَصَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَعِيِّهِ. وَإِمَّا مِنْ بَلَادَتِهِ وَقِلَّةِ فَهْمِهِ. (ٱلْحَالُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ لِزِيَادَةِ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتَصِيرَ ٱلزِّيَادَةُ عِلَّةً مَانِعَةً مِنْ فَهْمِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ وَهٰذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا مِنْ هَذَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَإِكْثَارِهِ. وَإِمَّا لِسُوءِ ظَنِّهِ بِفَهْمِ سَامِعِهِ. (وَٱلْحَالُ ٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ لِمُوَاضَعَةٍ يَقْصِدُهَا ٱلْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامِهِ فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهَا ٱلسَّامِعُ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِيَهَا. وَأَمَّا تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ وَزِيَادَتُهُ فَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْخَاصَّةِ دُونَ ٱلْعَامَّةِ لِأَنَّكَ لَسْتَ تَجِدُ ذٰلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ ٱلْكَلَامِ وَإِنَّمَا تَجِدُهُ فِي بَعْضِهِ فَإِذَا عَدَلْتَ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُقَصِّرِ إِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَوْفِي وَعَنِ ٱلزَّائِدِ إِلَى ٱلْكَافِي أَرَحْتَ نَفْسَكَ مِنْ تَكَلُّفِ مَا يَكُدُّ خَاطِرَكَ وَإِنْ أَقَمْتَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِهِ إِمَّا لِضَرُورَةٍ دَعَتْكَ إِلَيْهِ عِنْدَ إِعْوَازِ غَيْرِهِ أَوْ لِحَمِيَّةٍ دَاخَلَتْكَ عِنْدَ تَعَذُّرِ فَهْمِهِ فَٱنْظُرْ فِي سَبَبِ ٱلزِّيَادَةِ وَٱلتَّقْصِيرِ. فَإِنْ كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ لِحَصَرٍ وَٱلزِّيَادَةُ لِهَذَرٍ سَهُلَ عَلَيْكَ ٱسْتِخْرَاجُ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَا لَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُولٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْمُخْتَلُّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنَ ٱلصَّحِيحِ وَفِي ٱلْأَكْثَرِ عَلَى ٱلْأَقَلِّ دَلِيلٌ. وَإِنْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى

دَلِيلًا بِسُوءِ ظَنِّ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِفَهْمِ ٱلسَّامِعِ كَانَ ٱسْتِخْرَاجُهُ أَسْهَلَ . وَإِنْ كَانَ تَقْصِيرًا لِلَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِسُوءِ فَهْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ أَصْعَبُ ٱلْأُمُورِ حَالًا وَأَبْعَدُهَا ٱسْتِخْرَاجًا لِأَنَّ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ مُكَلِّمُكَ فَأَنْتَ مِنْ فَهْمِهِ أَبْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِفَرْطِ ذَكَائِكَ وَجُودَةِ خَاطِرِكَ تَتَنَبَّهُ بِإِشَارَتِهِ عَلَى ٱسْتِنْبَاطِ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَٱسْتِخْرَاجِ مَا قَصَّرَ فِيهِ فَتَكُونُ فَضِيلَةُ ٱلْإِسْتِيفَاءِ لَكَ وَحَقُّ ٱلتَّقَدُّمِ لَهُ . وَأَمَّا ٱلْمُوَاضَعَةُ فَضَرْبَانِ : عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ . (أَمَّا ٱلْعَامَّةُ) فَهِيَ مُوَاضَعَةُ ٱلْعُلَمَاءِ فِيمَا جَعَلُوهُ أَلْقَابًا لِمَعَانٍ لَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُتَعَلِّمُ عَنْهَا وَلَا يَقِفُ عَلَى مَعْنَى كَلَامِهِمْ إِلَّا بِهَا كَمَا جَعَلَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلْجَوَاهِرَ وَٱلْأَعْرَاضَ وَٱلْأَجْسَامَ أَلْقَابًا تَوَاضَعُوهَا لِمَعَانٍ ٱتَّفَقُوا عَلَيْهَا . وَلَسْتَ تَجِدُ مِنَ ٱلْعُلُومِ عِلْمًا يَخْلُو مِنْ هٰذَا . وَهٰذِهِ ٱلْمُوَاضَعَةُ ٱلْعَامَّةُ تُسَمَّى عُرْفًا . (وَأَمَّا ٱلْخَاصَّةُ) فَمُوَاضَعَةُ ٱلْوَاحِدِ يَقْصِدُ بِبَاطِنِ كَلَامِهِ غَيْرَ ظَاهِرِهِ . فَإِذَا كَانَتْ فِي ٱلْكَلَامِ كَانَتْ رَمْزًا . وَإِنْ كَانَتْ فِي ٱلشِّعْرِ كَانَتْ لُغْزًا . فَأَمَّا ٱلرَّمْزُ فَلَسْتَ تَجِدُهُ فِي عِلْمٍ مَعْنَوِيٍّ . وَلَا فِي كَلَامٍ لُغَوِيٍّ . وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ غَالِبًا بِأَحَدِ شَيْئَيْنِ : إِمَّا بِمَذْهَبٍ شَنِيعٍ يُخْفِيهِ مُعْتَقِدُهُ وَيَجْعَلُ ٱلرَّمْزَ سَبَبًا لِتَطَلُّعِ ٱلنُّفُوسِ إِلَيْهِ وَٱحْتِمَالَ ٱلتَّأْوِيلِ فِيهِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلتُّهْمَةِ عَنْهُ . وَإِمَّا لِمَا يَدَّعِي أَرْبَابُهُ أَنَّهُ عِلْمٌ مُعْوِزٌ . وَأَنَّ إِدْرَاكَهُ بَدِيعٌ مُعْجِزٌ كَالصَّنْعَةِ ٱلَّتِي وَضَعَهَا أَرْبَابُهَا أَسْمًا لِعِلْمِ ٱلْكِيمِيَاءِ فَرَمَزُوا بِأَوْصَافِهِ وَأَخْفَوْا مَعَانِيَهُ لِيُوهِمُوا ٱلشُّحَّ بِهِ وَٱلْأَسَفَ عَلَيْهِ خَدِيعَةً لِلْعُقُولِ ٱلْوَاهِيَةِ وَٱلْآرَاءِ ٱلْفَاسِدَةِ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا ... مُنِعَتْ شَيْئًا فَأَكْثَرَتُ ٱلْوُلُوعَ بِهِ

ثُمَّ لِيَكُونُوا بُرَاءَ مِنْ عُهْدَةِ مَا قَالُوهُ إِذَا جُرِّبَ وَلَوْ كَانَ مَا تَضَمَّنَ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ وَأَشْبَاهَهُمَا مِنَ ٱلرُّمُوزِ مَعْنًى صَحِيحًا وَعِلْمًا مُسْتَفَادًا لَخَرَجَ مِنَ ٱلرَّمْزِ ٱلْخَفِيِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ ٱلْجَلِيِّ . فَإِنَّ أَغْرَاضَ ٱلنَّاسِ مَعَ ٱخْتِلَافِ أَهْوَائِهِمْ لَا تَتَّفِقُ عَلَى سَتْرِ سَلِيمٍ وَإِخْفَاءِ مُفِيدٍ . وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ :

ٱلسِّتْرُ دُونَ ٱلْفَاحِشَاتِ وَلَا ... يَلْقَاكَ دُونَ ٱلْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

وَرُبَّمَا ٱسْتُعْمِلَ ٱلرَّمْزُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِيمَا يُرَادُ تَفْخِيمُهُ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَتَعْظِيمُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ لِيَكُونَ أَحْلَى فِي ٱلْقَلْبِ مَوْقِعًا . وَأَجَلَّ فِي ٱلنُّفُوسِ مَوْضِعًا . فَيَصِيرَ بِٱلرَّمْزِ سَائِرًا وَفِي ٱلصُّحُفِ مُخَلَّدًا . كَٱلَّذِي حُكِيَ عَنْ فِيثَاغُورُسَ فِي وَصَايَاهُ ٱلْمَرْمُوزَةِ إِنَّهُ قَالَ : ٱحْفَظْ مِيزَانَكَ مِنَ ٱلْبَذَى وَأَوْزَانَكَ مِنَ ٱلصَّدَى . يُرِيدُ بِحِفْظِ ٱلْمِيزَانِ مِنَ ٱلْبَذَى حِفْظَ ٱللِّسَانِ مِنَ ٱلْخَنَا وَبِحِفْظِ ٱلْأَوْزَانِ مِنَ ٱلصَّدَى حِفْظَ ٱلْعَقْلِ مِنَ ٱلْهَوَى. فَصَارَ بِهٰذَا ٱلرَّمْزِ مُسْتَحْسَنًا وَمُدَوَّنًا وَلَوْ قَالَهُ بِٱللَّفْظِ ٱلصَّرِيحِ وَٱلْمَعْنَى ٱلصَّحِيحِ لَمَا سَارَ عَنْهُ وَلَا ٱسْتُحْسِنَ مِنْهُ . وَعِلَّةُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَحْجُوبَ عَنِ ٱلْأَفْهَامِ كَٱلْمَحْجُوبِ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ فِيمَا يَحْصُلُ لَهُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلتَّعْظِيمِ . وَفِي ٱلْقُلُوبِ مِنَ ٱلتَّفْخِيمِ . وَمَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَمْ يَحْتَجِبْ هَانَ وَٱسْتُرْذِلَ . وَهٰذَا إِنَّمَا يَصِحُّ ٱسْتِحْلَاؤُهُ فِيمَا قَلَّ وَهُوَ بِٱللَّفْظِ ٱلصَّرِيحِ مُسْتَقَلٌّ. فَأَمَّا ٱلْعُلُومُ ٱلْمُنْتَشِرَةُ ٱلَّتِي تَتَطَلَّعُ ٱلنُّفُوسُ إِلَيْهَا فَقَدِ ٱسْتَغْنَتْ بِقُوَّةِ ٱلْبَاعِثِ عَلَيْهَا. وَشِدَّةِ ٱلدَّاعِي إِلَيْهَا . عَنِ ٱلِٱسْتِدْعَاءِ إِلَيْهَا بِرَمْزٍ مُسْتَحْلًى وَلَفْظٍ مُسْتَغْرَبٍ. بَلْ ذٰلِكَ مُنَفِّرٌ لِمَا فِي ٱلتَّشَاغُلِ بِٱسْتِخْرَاجِ

رُمُوزِهَا مِنَ ٱلْإِبْطَاءِ عَنْ دَرْكِهَا فَهَـذَا حَالُ ٱلرَّمْزِ . وَامَّا ٱللُّغْزُ فَهُوَ تَحَرِّي اهْلِ ٱلْفَرَاغِ وَشُغْلُ ذَوِي ٱلْبَطَالَةِ لِيَتَنَافَسُوا فِي تَبَايُنِ قَرَائِحِهِمْ وَيَتَفَاخَرُوا فِي سُرْعَةِ خَوَاطِرِهِمْ فَيَسْتَكِدُّوا خَوَاطِرَ قَدْ مُنِحُوا صِحَّتَهَا فِيمَا لَا يُجْدِي نَفْعًا وَلَا يُفِيدُ عِلْمًا كَاهْلِ ٱلصِّرَاعِ ٱلَّذِينَ قَدْ صَرَفُوا مَا مُنِحُوهُ مِنْ صِحَّةِ اجْسَامِهِمْ إِلَى صِرَاعٍ كَدُودٍ يَصْرَعُ عُقُولَهُمْ وَيَهُدُّ اجْسَامَهُمْ وَلَا يُكْسِبُهُمْ حَمْدًا وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ نَفْعًا . ٱنْظُرْ إِلَى قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رَجُلٌ مَاتَ وَخَلَّفَ رَجُـلًا ٱبْنَ امِّ ٱبْنِ ابِي أُخْتِ ابِيهِ
مَعَـهُ امُّ بَنِي اوْلَادِهِ وَابَا أُخْتِ بَنِي عَمِّ اخِيهِ

اَخْبِرْنِي عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَـيْنِ وَقَدْ رَوَّعَكَ صُعُوبَةُ مَا تَضَمَّنَهُمَا مِنَ ٱلسُّؤَالِ إِذَا ٱسْتَكْدَيْتَ ٱلْفِكْرَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ فَعَلِمْتَ انَّهُ ارَادَ مَيْتًا خَلَّفَ ابًا وَزَوْجَةً وَعَمًّا . مَا ٱلَّذِي افَادَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَنَفَى عَنْكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . الَسْتَ بَعْدَ عِلْمِهِ تَجْهَلُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا مِنْ قَبْلِـهِ وَلَوْ انَّ ٱلسَّائِلَ قَلَبَ لَكَ ٱلسُّؤَالَ فَاخَّرَ مَا قَـدَّمَ وَقَدَّمَ مَا اخَّرَ لَكُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ بِهِ قَبْلَ ٱسْتِخْرَاجِهِ كَمَا كُنْتَ فِي ٱلْجَهْـلِ ٱلْاَوَّلِ وَقَدْ كَدَدْتَ نَفْسَكَ وَاتْعَبْتَ خَاطِرَكَ . ثُمَّ لَا تَعْدَمْ انْ يَرِدَ عَلَيْكَ مِثْـلُ هٰذَا مِمَّا تَجْهَلُهُ فَتَكُونُ فِيهِ كَمَا كُنْتَ قَبْلَهُ . فَٱصْرِفْ نَفْسَكَ تَوَلَّى ٱللّٰهُ رُشْدَكَ عَنْ عُلُومِ ٱلنُّوكَى وَتَكَلُّفِ ٱلْبَطَّالِينَ . ثُمَّ ٱجْعَلْ مَا مَنَّ ٱللّٰهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ صِحَّةِ ٱلْقَرِيحَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْخَاطِرِ مَصْرُوفًا إِلَى عِلْمٍ مَا يَكُونُ إِنْفَـاقُ خَاطِرِكَ فِيهِ مَذْخُورًا وَكَدُّ فِكْرِكَ فِيهِ مَشْكُورًا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : مَنْ امْضَى يَوْمَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ قَضَاهُ . اوْ فَرْضٍ اَدَّاهُ . اوْ مَجْدٍ اَثَّلَهُ .

أَوْ حَمْدٍ حَصَّلَهُ . أَوْ خَيْرٍ أَسَّسَهُ أَوْ عِلْمٍ اقْتَبَسَهُ . فَقَدْ عَقَّ يَوْمَهُ وَظَلَمَ نَفْسَهُ . وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ :

لَقَدْ هَاجَ الْفَرَاغُ عَلَيْكَ شُغْلًا وَأَسْبَابُ الْبَلَاءِ مِنَ الْفَرَاغِ

فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي الْكَلَامِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ مَعَانِيهِ حَتَّى خَرَجَ بِنَا الِاسْتِيفَاءُ وَالْكَشْفُ إِلَى الْإِغْمَاضِ . (وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ السَّبَبُ الْمَانِعُ مِنْ فَهْمِ السَّامِعِ لِعِلَّةٍ فِي الْمَعْنَى الْمُسْتَوْدَعِ فَلَا يَخْلُو حَالُ الْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ أَوْ يَكُونَ مُقَدِّمَةً لِغَيْرِهِ أَوْ يَكُونَ نَتِيجَةً مِنْ غَيْرِهِ . فَأَمَّا الْمُسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فَضَرْبَانِ : جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ . فَأَمَّا الْجَلِيُّ فَهُوَ يَسْبِقُ إِلَى فَهْمِ مُتَصَوِّرِهِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَقْسَامِ مَا يُشْكِلُ عَلَى مَنْ تَصَوَّرَهُ . وَأَمَّا الْخَفِيُّ فَيَحْتَاجُ فِي إِدْرَاكِهِ إِلَى زِيَادَةِ تَأَمُّلٍ وَفَضْلِ مُعَانَاةٍ لِيَنْجَلِيَ عَمَّا أَخْفَى وَيَنْكَشِفَ عَمَّا أَغْمَضَ . وَبِاسْتِعْمَالِ الْفِكْرِ فِيهِ يَكُونُ الِارْتِيَاضُ بِهِ وَبِالِارْتِيَاضِ بِهِ يَسْهُلُ مِنْهُ مَا اسْتَصْعَبَ وَيَقْرُبُ مِنْهُ مَا بَعُدَ . فَإِنَّ لِلرِّيَاضَةِ جَرَاءَةً وَلِلدِّرَايَةِ تَأْثِيرًا . وَأَمَّا مَا كَانَ مُقَدِّمَةً لِغَيْرِهِ فَضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا أَنْ تَقُومَ الْمُقَدِّمَةُ بِنَفْسِهَا وَإِنْ تَعَدَّتْ إِلَى غَيْرِهَا فَتَكُونَ كَالْمُسْتَقِلِّ بِنَفْسِهِ فِي تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ مُسْتَدْعِيًا لِنَتِيجَتِهِ . وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا إِلَى نَتِيجَةٍ فَيَتَعَذَّرَ فَهْمُ الْمُقَدِّمَةِ إِلَّا بِمَا يَتْبَعُهَا مِنَ النَّتِيجَةِ لِأَنَّهَا تَكُونُ بَعْضًا . وَتَبْعِيضُ الْمَعْنَى أَشْكَلُ لَهُ وَبَعْضُهُ لَا يُغْنِي عَنْ كُلِّهِ . وَأَمَّا مَا كَانَ نَتِيجَةً لِغَيْرِهِ فَهُوَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِأَوَّلِهِ وَلَا يُتَصَوَّرُ عَلَى حَقِيقَتِهِ

إلّا بمقدمته والاشتغالُ به قبلَ المقدّمةِ عناء . وإتعابُ الفكرِ في استنباطِهِ قبلَ قاعدتِهِ اذًى . فهذا يوضحُ تعاليلَ ما في المعاني من الأسبابِ المانعةِ من فهمِها . (وأمّا القسمُ الثالثُ) وهو أنْ يكونَ السببُ المانعُ لعلّةٍ في المستمعِ فذلكَ ضربانِ : احدُهما مِنْ ذاتِهِ . والثاني مِن طارٍ عليهِ . (فامّا ما كانَ مِنْ ذاتِهِ) فيتنوّعُ نوعينِ : احدُهما ما كانَ مانعا مِنْ تصوّرِ المعنى . والثاني ما كانَ مانعًا مِنْ حفظِهِ بعدَ تصوّرِهِ وفهمِهِ . فأمّا ما كانَ مانعًا مِنْ تصوّرِ المعنى وفهمِهِ فهوَ البلادةُ وقلّةُ الفطنةِ وهوَ الداءُ العياءُ . وقد قالَ بعضُ الحكماءِ : إذا فقدَ العالمُ الذهنَ قلَّ على الأضدادِ احتجاجُهُ . وكثُرَ إلى الكتبِ احتياجُهُ . وليسَ لمَنْ بُلِيَ بهِ إلّا الصبرُ والإقلالُ . لأنّهُ على القليلِ اقدرُ . وبالصبرِ احرى أنْ ينالَ ويظفرَ . وأمّا المانعُ مِنْ حفظِهِ بعدَ تصوّرِهِ وفهمِهِ فهوَ النسيانُ الحادثُ عَنْ غفلةِ التقصيرِ وإهمالِ التوانِ فينبغي لمَنْ بُلِيَ بهِ أنْ يستدركَ تقصيرَهُ بكثرةِ الدرسِ ويوقظَ غفلتَهُ بإدامةِ النظرِ . فقدْ قيلَ : لا يُدرِكُ العلمَ مَنْ لا يُطيلُ درسَهُ ويَكُدُّ نفسَهُ . وكثرةُ الدرسِ كدودٌ لا يصبرُ عليهِ إلّا مَنْ يرى العلمَ مغنمًا والجهالةَ مغرمًا . فيحتملُ تعبَ الدرسِ ليُدرِكَ راحةَ العلمِ وينفي عنهُ معرّةَ الجهلِ . فإنَّ نيلَ العظيمِ بأمرٍ عظيمٍ . وعلى قدرِ الرغبةِ تكونُ المطالبُ وبحسبِ الراحةِ يكونُ التعبُ . وقدْ قيلَ : طلبُ الراحةِ قلّةُ الاستراحةِ . وقالَ بعضُ الحكماءِ : أكملُ الراحةِ ما كانتْ عنْ كدِّ التعبِ وأعزُّ العلمِ ما كانَ عنْ ذلِّ الطلبِ ..

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلْآدَابَ نَوَافِرُ تَنِدُّ عَنْ أَهْلِ ٱلْأَذْهَانِ فَٱجْعَلُوا ٱلْكُتُبَ عَنْهَا حُمَاةً . وَٱلْأَقْلَامَ لَهَا رُعَاةً . (وَأَمَّا ٱلطَّوَارِئُ) فَنَوْعَانِ : (أَحَدُهُمَا) شُبْهَةٌ تَعْتَرِضُ ٱلْمَعْنَى فَتَمْنَعُ عَنْ نَفْسِ تَصَوُّرِهِ وَتَدْفَعُ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنْ يُزِيلَ تِلْكَ ٱلشُّبْهَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِٱلسُّؤَالِ أَوِ ٱلنَّظَرِ لِيَصِلَ إِلَى تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَإِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : لَا تُخْلِ قَلْبَكَ مِنَ ٱلْمُذَاكَرَةِ فَتَعُودَ عَقِيمًا . وَلَا تُعْفِ طَبْعَكَ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ فَيَعُودَ سَقِيمًا . وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

شِفَاءُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّؤَالِ وَإِنَّمَا
دَوَامُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّكُوتِ عَلَى ٱلْجَهْلِ

فَكُنْ سَائِلًا عَمَّا عَنَاكَ فَإِنَّمَا ذُعِيتَ أَخَا عَقْلٍ لِتَبْحَثَ بِٱلْعَقْلِ

(وَٱلثَّانِي) أَفْكَارٌ تُعَارِضُ ٱلْخَاطِرَ فَيَذْهَلُ عَنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا سَبَبٌ قَلَّ مَا يَعْرَى مِنْهُ أَحَدٌ لَا سِيَّمَا فِيمَنِ ٱنْبَسَطَتْ آمَالُهُ وَٱتَّسَعَتْ أَمَانِيُّهُ . وَقَدْ يَقِلُّ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي غَيْرِ ٱلْعِلْمِ أَرَبٌ وَلَا فِيمَا سِوَاهُ هِمَّةٌ فَإِنْ طَرَأَتْ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُكَابَرَةِ نَفْسِهِ عَلَى ٱلْفَهْمِ وَغَلَبَةِ قَلْبِهِ عَلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِأَنَّ ٱلْقَلْبَ مَعَ ٱلْإِكْرَاهِ أَشَدُّ نُفُورًا وَأَبْعَدُ قَبُولًا . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْأَثَرِ : بِأَنَّ ٱلْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ . وَلٰكِنْ يُعْمِلُ فِي دَفْعِ مَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ هَمٍّ مُذْهِلٍ أَوْ فِكْرٍ قَاطِعٍ لِيَسْتَجِيبَ لَهُ ٱلْقَلْبُ مُطِيعًا . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَلَيْسَ بِمُغْنٍ فِي ٱلْمَوَدَّةِ شَافِعٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلضُّلُوعِ شَفِيعُ

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : إِنَّ لِهٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ تَنَافُرًا كَتَنَافُرِ ٱلْوَحْشِ

فَتَأَلَّفُوهَا بِالْاقْتِصَادِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّوَسُّطِ فِي التَّقْدِيمِ لِتَحْسُنَ طَاعَتُهَا وَيَدُومَ نَشَاطُهَا. فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي الْمُسْتَمِعِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ الْمَعَانِي

البحث التاسع

في المعاظلة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

إِنَّ الْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ إِذَا رَكِبَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى. فَسُمِّيَ الْكَلَامُ الْمُتَرَاكِبُ فِي أَلْفَاظِهِ وَفِي مَعَانِيهِ الْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذًا مِنْ ذٰلِكَ وَهُوَ اسْمٌ لَائِقٌ بِمُسَمَّاهُ. وَوَصَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى فَقَالَ: كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ الْكَلَامِ. وَقَدِ اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ فِي حَقِيقَةِ الْمُعَاظَلَةِ فَقَالَ قُدَامَةُ ابْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ: التَّعَاظُلُ فِي الْكَلَامِ هُوَ أَنْ يَدْخُلَ بَعْضُ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ وَلَا أَعْرِفُ ذٰلِكَ إِلَّا فَاحِشَ الْاسْتِعَارَةِ. كَقَوْلِ أَوْسِ بْنِ حُجْرٍ:

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوْلَبًا جَدِعَا

فَسَمَّى الظَّبْيَ تَوْلَبًا وَالتَّوْلَبُ وَلَدُ الْحِمَارِ. وَهٰذَا مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ ابْنُ جَعْفَرٍ وَهُوَ خَطَأٌ إِذْ لَوْ كَانَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ صَوَابًا لَكَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُعَاظَلَةِ دُخُولَ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ. وَلَيْسَتْ حَقِيقَتُهَا هٰذِهِ بَلْ حَقِيقَتُهَا مَا تَقَدَّمَ وَهُوَ التَّرَاكُبُ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ

إِذَا رَكِبَتْ إِحْدَاهُما ٱلأُخرَى . وَهٰذَا ٱلْمِثَالُ ٱلَّذِي مَثَّلَ بِهِ قُدَامَةُ لَا تَرَاكُبَ فِي أَلْفَاظِهِ وَلَا فِي مَعَانِيهِ . وَأَمَّا غَيْرُ قُدَامَةَ فَإِنَّهُ خَالَفَهُ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقْسِمِ ٱلْمُعَاظَلَةَ إِلَى لَفْظِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ وَلٰكِنَّهُ ضَرَبَ لَهَا مَثَلًا . كَقَوْلِ ٱلفَرَزْدَقِ :

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّـهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

وَهٰذَا مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْمَعْنَوِيِّ لَا مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱللَّفْظِيِّ . أَلَا تَرَى إِلَى تَرَاكُبِ مَعَانِيهِ بِتَقْدِيمِ مَا كَانَ يَجِبُ تَأْخِيرُهُ وَتَأْخِيرِ مَا كَانَ يَجِبُ تَقْدِيمُهُ لِأَنَّ ٱلْأَصْلَ فِي مَعْنَاهُ : وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ إِلَّا مُمَلَّكًا أَبُو أُمِّهِ أَبُوهُ . وَإِذْ حَقَّقْتُ ٱلْقَوْلَ فِي بَيَانِ ٱلْمُعَاظَلَةِ وَٱلْكَشْفِ عَنْ حَقِيقَتِهَا فَأَقُولُ : إِنَّ ٱلْمُعَاظَلَةَ مُعَاظَلَتَانِ لَفْظِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ (فَٱلْمَعْنَوِيَّةُ) أَنْ يُقَدَّمَ مَا ٱلْأَوْلَى بِهِ ٱلتَّأْخِيرُ وَهُوَ مِنْ عُيُوبِ ٱلْكَلَامِ لِأَنَّ ٱلْمَعْنَى مُخْتَلٌّ بِذٰلِكَ وَمُضْطَرِبٌ وَذٰلِكَ كَتَقْدِيمِ ٱلصِّفَةِ أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا عَلَى ٱلْمَوْصُوفِ وَتَقْدِيمِ ٱلصِّلَةِ عَلَى ٱلْمَوْصُولِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

فَقَدْ وَٱلشَّكُّ بَيَّنَ لِي عَنَاءً   بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

فَإِنَّهُ قَدَّمَ قَوْلَهُ (بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ) . وَهُوَ مَعْمُولُ يَصِيحُ وَيَصِيحُ صِفَةٌ لِصُرَدٍ عَلَى صُرَد وَذٰلِكَ قَبِيحٌ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : هٰذَا مِنْ مَوْضِعِ كَذَا رَجُلٌ وَرَدَ ٱلْيَوْمَ . وَإِنَّمَا يَجُوزُ وُقُوعُ ٱلْمَعْمُولِ بِحَيْثُ يَجُوزُ وُقُوعُ ٱلْعَامِلِ فَكَمَا لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ ٱلصِّفَةِ عَلَى مَوْصُوفِهَا فَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ مَا ٱتَّصَلَ بِهَا عَلَى مَوْصُوفِهَا . وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ

قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا كَأَنَّ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمَا

فَإِنَّهُ قَدَّمَ خَبَرَ كَانَّ عَلَيْهَا وَهُوَ قَوْلُهُ : خَطَّ . وَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ قِيَاسٌ عَلَيْهِ وَٱلْأَصْلُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ (فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ بَهْجَتِهَا قَفْرًا كَأَنَّ قَلَمًا خَطَّ رُسُومَهَا) إِلَّا أَنَّهُ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالَةِ ٱلْأُولَى فِي ٱلشِّعْرِ مُخْتَلٌّ مُضْطَرِبٌ .وَٱلْمُعَاظَلَةُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهَا فِي ٱلْقُبْحِ وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْبَحِهَا لِأَنَّ مَعَانِيَهُ قَدْ تَدَاخَلَتْ وَرَكِبَ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

(وَهُوَ يُرِيدُ إِلَى مَلِكٍ أَبُوهُ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ) . وَهٰذَا أَقْبَحُ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَكْثَرُ ٱخْتِلَالًا ... وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ مِنَ ٱلتَّعَاظُلِ كَثِيرًا كَأَنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ ذٰلِكَ وَيَتَعَمَّدُهُ .لِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَجِيءُ إِلَّا مُتَكَلَّفًا مَقْصُودًا وَإِلَّا فَإِذَا تَرَكَ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ نَفْسَهُ تَجْرِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَطَبْعِهَا فِي ٱلْإِسْتِرْسَالِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا ٱلتَّعْقِيدِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَعْدُومٌ فِي هٰذَا ٱلضَّرْبِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ إِذِ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِيضَاحُ وَٱلْإِبَانَةُ وَإِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى . فَإِذَا ذَهَبَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ذَهَبَ ٱلْمُرَادُ بِهِ وَلَا فَرْقَ عِنْدَ ذٰلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ ٱللُّغَاتِ كَٱلْفَارِسِيَّةِ وَٱلْهِنْدِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلْكَلَامِ هُوَ ضِدُّ ٱلْفَصَاحَةِ لِأَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ وَهٰذَا عَارٍ عَنْ هٰذَا ٱلْوَصْفِ .وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ

ٱللفظيُّ مِنَ ٱلمُعاظلةِ) فاِنِّي تامَّلتُهُ بِالإستقراء مِنَ ٱلأشعارِ قديمِها وَمُحْدَثِها وَمِنَ ٱلنَّظرِ في حقيقتِها نفسِها فوجدتُها تنقسِمُ اِلى خمسةِ اقسامٍ : (ٱلأوَّلُ) مِنها يختصُّ بِأدواتِ ٱلكلام . مِنْ وَاِلى وعَنْ وعلى وَاشباهِها . فانَّ مِنها ما يسهُلُ ٱلنُّطقُ بِهِ اِذا وردَ مع اخواتِهِ . وَمِنها ما لا يسهُلُ بل يرِدُ ثقيلًا على ٱللسانِ وَلِكلٍّ موضعٌ يخُصُّهُ مِنَ ٱلسَّبكِ . فمِمَّا جاءَ مِنهُ قولُ ابي تمَّامٍ :

اِلى خالدٍ راحتْ بِنا ارحبيَّةٌ   مَرَافِقُها مِنْ عَنْ كَراكِرِها نُكْبُ

فقولُهُ : (مِنْ عَنْ كَراكِرِها) مِنَ ٱلكلامِ ٱلمُتعاظِلِ ٱلَّذي يثقُلُ ٱلنُّطقُ بِهِ على انَّهُ قد وردتْ هاتانِ ٱللفظتانِ وهُما : مِنْ وعَنْ في موضعٍ آخرَ فلم يثقُلِ ٱلنُّطقُ بِهِما كقولِ ٱلقائلِ : مِنْ عَنْ يمينِ ٱلطَّريقِ . وَٱلسَّببُ في ذٰلكَ انَّهُما وردَتا في بيتِ ابي تمَّامٍ مُضافتَينِ اِلى لفظةِ ٱلكَراكِرِ فثقُلتْ مِنهُما وجعلتهُما مكروهتَينِ كما ترى وَاِلَّا فقد وردَتا في شِعرِ قطريِّ بنِ ٱلفُجاءةِ فكانَتا خفيفتَينِ كقولِهِ :

وَلقد اراني للرِّماحِ دريئةً   مِنْ عَنْ يميني مرَّةً وامامي

وَٱلأصلُ في ذٰلكَ راجِعٌ اِلى ٱلسَّبكِ فاِذا سُبِكَتْ هاتانِ ٱللفظتانِ او ما يجري مجراهُما مع الفاظٍ تسهُلُ مِنهُما لم يكُنْ بِهِما مِنْ ثِقلٍ كما جاءَتا في بيتِ قطريٍّ . وَاِذا سُبِكتا مع الفاظٍ تثقُلُ مِنهُما جاءَتا كما جاءَتا في بيتِ ابي تمَّامٍ . وَمِنْ هٰذا ٱلقِسمِ قولُ ابي تمَّامٍ ايضًا :

كانَّهُ لِاجتِماعِ ٱلرُّوحِ فيهِ لهُ   في كُلِّ جارحةٍ مِنْ جِسْمِهِ رُوحُ

فَقَوْلُهُ (فِي) بَعْدَ قَوْلِهِ (فِيهِ لَهُ) مِمَّا لَا يَحْسُنُ وُرُودُهُ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ   سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فَقَوْلُهُ : (لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا) مِنَ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ . . . .

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱللَّفْظِيَّةِ) تَخْتَصُّ بِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَكْرِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا بِتَكْرِيرِ ٱلْمَعَانِي مِمَّا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي بَابِ ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱلْمَقَالَةِ ٱلثَّانِيَةِ . وَإِنَّمَا هُوَ تَكْرِيرُ حَرْفٍ وَاحِدٍ أَوْ حَرْفَيْنِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ أَوِ ٱلْمَنْظُومِ فَيَثْقُلُ حِينَئِذٍ ٱلنُّطْقُ بِهِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ فِي مَكَانٍ قَفْرُ   وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فَهٰذِهِ ٱلْقَافَاتُ وَٱلرَّاآتُ كَأَنَّهَا فِي تَتَابُعِهَا سِلْسِلَةٌ وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلثِّقَلِ . وَكَذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ :

وَٱزْوَرَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا   وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عُرْفَانَهُ

فَقَوْلُهُ : (وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عُرْفَانَهُ) مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ أَيْضًا فِي رِسَالَتَيْهِ ٱللَّتَيْنِ صَاغَهُمَا عَلَى حَرْفَيِ ٱلسِّينِ وَٱلشِّينِ : فَإِنَّهُ أَتَى فِي إِحْدَاهُمَا بِٱلسِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا . وَأَتَى بِٱلْأُخْرَى بِٱلشِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا فَجَاءَتَا كَأَنَّهُمَا رُقَى ٱلْعَقَارِبِ أَوْ خُذْرُوفَةُ ٱلْعَزَائِمِ . وَمَا أَعْلَمُ كَيْفَ خَفِيَ مَا فِيهِمَا مِنَ ٱلْقُبْحِ عَلَى مِثْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِٱلْجَيِّدِ وَٱلرَّدِيءِ مِنَ ٱلْكَلَامِ . . . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْعَرَبَ ٱلَّذِينَ هُمُ ٱلْأَصْلُ فِي هٰذِهِ ٱللُّغَةِ قَدْ عَدَلُوا عَنْ

تَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِمْ . وَذَاكَ أَنَّهُ إِذَا تَكَرَّرَ ٱلْحَرْفُ عِنْدَهُمْ أَدْغَمُوهُ ٱسْتِحْسَانًا فَقَالُوا فِي : (جَعَلَ لَكَ) جَعَلَّكَ . وَفِي : (تَضْرِبُونَنِي) تَضْرِبُونِّي . وَكَذٰلِكَ قَالُوا : ٱسْتَعَدَّ فُلَانٌ لِلْأَمْرِ إِذَا تَأَهَّبَ لَهُ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱسْتَعْدَدَ . وَٱسْتَتَبَّ ٱلْأَمْرُ إِذَا تَهَيَّأَ . وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱسْتَتْبَبَ . وَأَشْبَاهُ ذٰلِكَ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى أَنَّهُمْ لِشِدَّةِ كَرَاهَتِهِمْ لِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ أَبْدَلُوا أَحَدَ ٱلْحَرْفَيْنِ ٱلْمُكَرَّرَيْنِ حَرْفًا آخَرَ غَيْرَهُ فَقَالُوا : أَمْلَيْتُ ٱلْكِتَابَ . وَٱلْأَصْلُ فِيهِ أَمْلَلْتُ . فَأَبْدَلُوا ٱللَّامَ يَاءً طَلَبًا لِلْخِفَّةِ وَفِرَارًا مِنَ ٱلثِّقَلِ . وَإِذَا كَانَ قَدْ فَعَلُوا ذٰلِكَ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ أَلْفَاظٌ عَلَى صِيغَةِ ٱلْفِعْلِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَمِنْهَا مَا يَخْتَلِفُ بَيْنَ مَاضٍ وَمُسْتَقْبَلٍ . وَمِنْهَا مَا لَا يَخْتَلِفُ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِ ٱلْقَاضِي ٱلْأَرَّجَانِيِّ فِي أَبْيَاتٍ يَصِفُ فِيهَا ٱلشَّمْعَةَ فَقَالَ :

بِٱلنَّارِ فَرَّقَتِ ٱلْحَوَادِثُ بَيْنَنَا ... وَبِهَا نَذَرْتُ أَعُودُ أَقْتُلُ رُوحِي

فَقَوْلُهُ : (نَذَرْتُ أَعُودُ) مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهَا . وَأَمَّا مَا يَرِدُ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلصِّيغَةِ ٱلْفِعْلِيَّةِ . فَكَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ ... زِدْ هِشَّ بِشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

فَهٰذِهِ أَلْفَاظٌ جَاءَتْ عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِيغَةُ ٱلْأَمْرِ كَأَنَّهُ قَالَ : (ٱفْعَلِ ٱفْعَلْ) هٰكَذَا إِلَى آخِرِ ٱلْبَيْتِ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلصِّيغَةِ

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا لِلْحُرُوفِ إِلَّا أَنَّهُ أَخُوهُ وَلَا أَقُولُ : ٱبْنُ عَمِّهِ.
وَهٰذِهِ ٱلْفَاظٌ مُتَرَاكِبَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ وَلَوْ عَطَفَهَا بِٱلْوَاوِ لَكَانَتْ أَقْرَبَ
حَالًا . كَمَا قَالَ عَبْدُ ٱلسَّلَامِ بْنُ رَغْبَانَ :

فَسَدَ ٱلنَّاسُ فَٱطْلُبِ ٱلرِّزْقَ بِٱلسَّيْفِ م وَإِلَّا فَمُتْ شَدِيدَ ٱلْهُزَالِ
حِلَّ وَأَمِرْ وَضُرَّ وَٱنْفَعْ وَلِنْ وَٱخْشُنْ م وَأَبْرِزْ ثُمَّ ٱنْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا عَطَفَ هٰهُنَا بِٱلْوَاوِ لَمْ تَتَرَاكَبِ ٱلْأَلْفَاظُ
كَتَرَاكُبِهَا فِي بَيْتِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ

(ٱلْقِسْمُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُ مُضَافَاتٍ
كَثِيرَةً كَقَوْلِهِمْ : سَرْجُ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ . وَإِنْ زِيدَ عَلَى ذٰلِكَ
قِيلَ : لِبْدُ سَرْجِ فَرَسِ غُلَامِ زَيْد. وَهٰذَا أَشَدُّ قُبْحًا وَأَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ.
وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱبْنِ بَابَكَ ٱلشَّاعِرِ فِي مُفْتَتَحِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ ٱلْجَنْدَلِ ٱسْجَعِي فَأَنْتِ بِمَرْأًى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

(ٱلْقِسْمُ ٱلْخَامِسُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ صِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَلَى
نَحْوٍ وَاحِدٍ . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَصِفُ رُمْحًا :

وَمُرَّ تَهْفُو ذُؤَابَتَاهُ عَلَى أَسْمَرَ مَتْنٍ يَوْمَ ٱلْوَغَى جَسَدِهْ
مَارِنُهُ لَدْنُهُ مُثَقَّفُهُ عِرَاضُهُ فِي ٱلْأَكُفِّ مُطَّرِدَهْ

وَهٰذَا كَٱلْأَوَّلِ فِي قُبْحِهِ وَثِقَلِهِ فَقَاتَلَهُ ٱللّٰهُ مَا أَمْتَنَ شِعْرَهُ وَمَا
أَسْخَفَهُ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ . . . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ
ٱلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

نَدٍ اَبِيٍّ غَرٍ وَافٍ اَخِي ثِقَةٍ   جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسِ
وَهٰذَا كَاَنَّهُ سِلْسِلَةٌ بِلَا شَكٍّ وَقَلِيلًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلشُّعَرَاءِ. وَلَمْ اَجِدْهُ كَثِيرًا اِلَّا فِي شِعْرِ ٱلْفَرَزْدَقِ وَتِلْكَ مُعَاظَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ وَهٰذِهِ مُعَاظَلَةٌ لَفْظِيَّةٌ وَهِيَ تُوجَدُ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ كَثِيرًا

البحث العاشر

في المنافرة بين الالفاظ في السبك

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَمْ يُحَقِّقْ اَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ ٱلْقَوْلَ فِيهِ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ : اِنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ لَا تَكُونَ ٱلْاَلْفَاظُ نَافِرَةً عَنْ مَوَاضِعِهَا ثُمَّ يُكْتَفَى بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ وَلَا تَفْصِيلٍ حَتَّى اِنَّهُ قَدْ خُلِطَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِٱلْمُعَاظَلَةِ وَكُلٌّ مِنْهَا نَوْعٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَهُ حَقِيقَةٌ تَخُصُّهُ . اِلَّا اَنَّهُمَا قَدِ ٱشْتَبَهَا عَلَى عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ فَكَيْفَ عَلَى جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ . وَقَدْ بَيَّنْتُ هٰذَا ٱلنَّوْعَ وَفَصَّلْتُهُ فِي فَصْلِ ٱلْمُعَاظَلَةِ وَضَرَبْتُ لَهُ اَمْثِلَةً يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى اَخَوَاتِهَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا . وَجُمْلَةُ ٱلْاَمْرِ اَنَّ مَدَارَ سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَٱلَّذِي قَبْلَهُ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْمَذْكُورَةِ . لِاَنَّ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ اَصْلَا سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ وَمَا عَدَاهُمَا فَرْعٌ عَلَيْهِمَا . وَاِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلنَّاثِرُ اَوِ ٱلنَّاظِمُ عَارِفًا بِهِمَا فَاِنَّ مَقَاتِلَهُ كَثِيرَةٌ . وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُنَافَرَةُ اَنْ يُذْكَرَ لَفْظٌ اَوْ اَلْفَاظٌ يَكُونُ غَيْرُهَا مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهَا اَوْلَى بِٱلذِّكْرِ . وَعَلَى هٰذَا

فَإِنَّ ٱلْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ أَنَّ ٱلْمُعَاظَلَةَ هِيَ ٱلتَّرَاكُبُ وَٱلتَّدَاخُلُ إِمَّا فِي ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي ٱلْمَعَانِي عَلَى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا تَرَاكُبَ فِيهِ وَإِنَّمَا هُوَ إِيرَادُ أَلْفَاظٍ غَيْرِ لَا ئِقَةٍ بِمَوْضِعِهَا ٱلَّذِي تَرِدُ فِيهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَٱلْآخَرُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ . (فَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ) فَإِنَّهُ إِذَا وَرَدَ فِي ٱلْكَلَامِ أَمْكَنَ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ سَوَاءٌ كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ نَثْرًا أَوْ نَظْمًا . وَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلشِّعْرِ بَلْ يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّثْرِ خَاصَّةً لِأَنَّهُ يَعْسُرُ فِي ٱلشِّعْرِ مِنْ أَجْلِ ٱلْوَزْنِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْأَوَّلِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

فَلَا يُبْرَمُ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ حَالِلٌ ... وَلَا يُحْلَلُ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ يُبْرِمُ

فَلَفْظَةُ حَالِلٌ نَافِرَةٌ عَنْ مَوْضِعِهَا وَكَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهُ لَوِ ٱسْتَعْمَلَ عِوَضًا عَنْهَا لَفْظَةَ (نَاقِضٌ) لَجَاءَتِ ٱللَّفْظَةُ قَارَّةً فِي مَكَانِهَا غَيْرَ قَلِقَةٍ وَلَا نَافِرَةٍ . وَبَلَغَنِي عَنْ أَبِي ٱلْعَلَاءِ : أَنَّهُ كَانَ يَتَعَصَّبُ لِأَبِي ٱلطَّيِّبِ حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يُسَمِّيهِ ٱلشَّاعِرَ وَيُسَمِّي غَيْرَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بِٱسْمِهِ وَكَانَ يَقُولُ : لَيْسَ فِي شِعْرِهِ لَفْظَةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ عَنْهَا مَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا فَيَجِيءَ حَسَنًا مِثْلَهَا . فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَمَا وَقَفَ عَلَى هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ لٰكِنَّ ٱلْهَوَى كَمَا يُقَالُ أَعْمَى . وَكَانَ أَبُو ٱلْعَلَاءِ أَعْمَى ٱلْعَيْنِ خِلْقَةً وَأَعْمَاهَا عَصَبِيَّةً فَٱجْتَمَعَ لَهُ ٱلْعَمَى مِنْ جِهَتَيْنِ . وَهٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ ٱلَّتِي هِيَ (حَالِلٌ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا قَبِيحَةُ ٱلْاسْتِعْمَالِ وَهِيَ فَكٌّ

ٱلادْغَام فِي ٱلفِعْلِ ٱلثُّلَاثِيِّ وَنَقْلُهُ إِلَى ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ . وَعَلَى هٰذَا فَلَا يَحْسُنُ اَنْ يُقَالَ : بَلَّ ٱلثَّوْبَ فَهُوَ بَالِلٌ . وَلَا : سَلَّ ٱلسَّيْفَ فَهُوَ سَالِلٌ. وَهٰذَا لَوْ عُرِضَ عَلَى مَنْ لَا ذَوْقَ لَهُ لَادْرَكَهُ وَفَهِمَهُ فَكَيْفَ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ صَحِيحٌ كَابِي ٱلطَّيِّبِ . لٰكِنْ لَا بُدَّ لِكُلِّ جَوَادٍ مِنْ كَبْوَةٍ . وَٱنْشَدَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ بَيْتًا لِدِعْبِلٍ وَهُوَ :

شَفِيعَكَ فَٱشْكُرْ فِي ٱلْحَوَائِجِ إِنَّهُ يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

فَقُلْتُ لَهُ : عَجُزُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ حَسَنٌ وَامَّا صَدْرُهُ فَقَبِيحٌ . لِاَنَّ سَبْكَهُ قَلِقٌ نَافِرٌ . وَتِلْكَ ٱلْفَاءُ ٱلَّتِي فِي قَوْلِهِ : شَفِيعَكَ فَٱشْكُرْ كَانَّهَا رُكْبَةُ ٱلْبَعِيرِ وَهِيَ فِي زِيَادَتِهَا كَزِيَادَةِ ٱلْكَرِشِ . . . وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلدَّقَائِقِ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ نَظْمًا كَانَ اَوْ نَثْرًا لَا يَتَفَطَّنُ لَهَا اِلَّا ٱلرَّاسِخُ فِي عِلْمِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَصْلَةُ هَمْزَةِ ٱلْقَطْعِ وَهِيَ مَحْسُوبَةٌ مِنْ جَائِزَاتِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّتِي لَا تَجُوزُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ . وَكَذٰلِكَ قَطْعُ هَمْزَةِ ٱلْوَصْلِ لٰكِنَّ وَصْلَ هَمْزَةِ ٱلْقَطْعِ اَقْبَحُ لِاَنَّهُ اَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ . فَمِمَّا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

يُوَسِّطُهُ ٱلْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ طِلَابُ ٱلطَّالِبِينَ لَا ٱلِانْتِظَارُ

فَقَوْلُهُ : (لَا ٱلِانْتِظَارُ) كَلَامٌ نَافِرٌ مِنْ مَوْضِعِهِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ اَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ وَٱلصِّفَةِ بِضَمِيرِ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

حَلَفْتُ لَهُ بِٱللهِ يَوْمَ ٱلتَّفَرُّقِ وَبِٱلْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهِ ٱلْمُتَعَلِّقِ

تَقْدِيرُهُ (مِنْ قَلْبِي ٱلْمُتَعَلِّقِ بِهِ) فَلَمَّا فَصَلَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ ٱلَّذِي هُوَ (قَلْبِي)وَٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي هِيَ (ٱلْمُتَعَلِّقُ) بِٱلضَّمِيرِ ٱلَّذِي هُوَ(بِهِ) قَبُحَ ذٰلِكَ . وَلَوْ كَانَ قَالَ مِنْ قَلْبٍ بِهِ مُتَعَلِّقٍ لَزَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ وَذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْهُجْنَةُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ أَيْضًا أَنْ تُزَادَ ٱلْأَلِفُ وَٱللَّامُ فِي ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ وَيُقَامَ ٱلضَّمِيرُ فِيهِ مُقَامَ ٱلْمَفْعُولِ . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

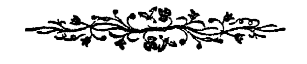
فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَٱلزَّائِرِيهِمْ   لَمَا مِزْتَ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْحَمِيمِ

فَقَوْلُهُ : (ٱلزَّائِرِي) ٱسْمُ فَاعِلٍ . وَقَوْلُهُ : (وَٱلزَّائِرِيهِمْ) هُوَ ٱلضَّمِيرُ فِي مَوْضِعِ ٱلْمَفْعُولِ . تَقْدِيرُهُ :(ٱلزَّائِرِينَ أَرْضَهُمْ أَوْ دَارَهُمْ أَوِ ٱلزَّائِرِينَ إِيَّاهُمْ) فَٱسْتِعْمَالُ هٰذَا مَعَ ٱلْأَلِفِ وَٱللَّامِ قَبِيحٌ جِدًّا . وَإِذَا حَذَفْنَا زَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ كَثِيرًا

(وَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَيْضًا :

لَاخَلْقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ   بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا

فَإِنَّ عَجُزَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ نَافِرٌ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا فِي ٱلْأَشْعَارِ كَثِيرٌ



الفصل السادس

في وجوه الكلام

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

البحث الاوّل

في وجوه البلاغة وطبقات الكلام

(من العقد الفريد لابن عبد ربه)

اَلْبَلَاغَةُ تَكُونُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَوْجُهٍ : تَكُونُ بِاللَّفْظِ وَالْخَطِّ وَالْاِشَارَةِ وَالدَّلَالَةِ . وَكُلٌّ مِنْهَا لَهُ حَظٌّ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ وَمَوْضِعٌ لَا يَجُوزُ فِيهِ غَيْرُهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ وَلِكُلِّ كَلَامٍ جَوَابٌ . وَرُبَّ اِشَارَةٍ اَبْلَغُ مِنْ لَفْظٍ . فَاَمَّا الْخَطُّ وَالْاِشَارَةُ فَمَفْهُومَانِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَاَكْثَرِ الْعَامَّةِ . وَاَمَّا الدَّلَالَةُ فَكُلُّ شَيْءٍ دَلَّكَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ اَخْبَرَكَ بِهِ . . . . وَقَالَ اَبَرْوِيزُ لِكَاتِبِهِ : اَعْلَمْ اَنَّ دَعَائِمَ الْمَقَالَاتِ اَرْبَعٌ : اِنِ الْتَمِسَ لَهَا خَامِسٌ لَمْ يُوجَدْ فَاِنْ نَقَصَ مِنْهَا وَاحِدٌ لَمْ تَتِمَّ وَهِيَ : سُؤَالُكَ الشَّيْءَ وَاَمْرُكَ بِالشَّيْءِ وَاِخْبَارُكَ عَنِ الشَّيْءِ وَسُؤَالُكَ عَنِ الشَّيْءِ . فَاِذَا طَلَبْتَ فَاَسْجِحْ . وَاِذَا سَاَلْتَ فَاَوْضِحْ وَاِذَا اَمَرْتَ فَاَحْكِمْ . وَاِذَا اَخْبَرْتَ فَحَقِّقْ . وَاجْمَعِ الْكَثِيرَ مِمَّا تُرِيدُ فِي الْقَلِيلِ مِمَّا تَقُولُ (يُرِيدُ الْكَلَامَ الَّذِي تَقِلُّ حُرُوفُهُ وَتَكْثُرُ مَعَانِيهِ) . وَقَالَ رَبِيعَةُ : الرَّأْيُ اَنْ لَا اَسْمَعَ الْحَدِيثَ عُطْلًا فَاُشَنِّفَهُ وَاُقَرِّطَهُ فَيَحْسُنُ وَمَا زِدْتُ فِيهِ شَيْئًا وَلَا غَيَّرْتُ

لَهُ معنًى . وَقَالُوا : خَيرُ ٱلكَلَامِ مَا لَمْ يُحْتَجْ بَعْدَهُ إِلَى كَلَامٍ وَلِلْعَرَبِ مِنْ مُوجَزِ ٱللَّفظِ وَلَطِيفِ ٱلمَعْنَى فُصُولٌ عَجِيبَةٌ وَبَدَائِعُ غَرِيبَةٌ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلشَّيْبَانِيُّ : إِذَا ٱحْتَجْتَ إِلَى مُخَاطَبَةِ ٱلمُلُوكِ وَٱلوُزَرَاءِ وَٱلعُلَمَاءِ وَٱلكُتَّابِ وَٱلخُطَبَاءِ وَٱلأُدَبَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَأَوسَاطِ ٱلنَّاسِ وَسُوقَتِهِمْ فَخَاطِبْ كُلًّا عَلَى قَدْرِ أُبَّهَتِهِ وَجَلَالَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَفِطْنَتِهِ وَٱنْتِبَاهِهِ وَٱجْعَلْ طَبَقَاتِ ٱلكَلَامِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ : مِنْهَا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلعَلِيَّةُ أَرْبَعٌ وَٱلطَّبَقَاتُ ٱلأُخَرُ وَهِيَ دُونَهَا أَرْبَعٌ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهَا دَرَجَةٌ وَلِكُلٍّ قِسْمَةٌ . لَا يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ ٱلبَلِيغِ أَنْ يُقَصِّرَ بِأَهْلِهَا عَنْهَا وَيَقْلِبَ مَعْنَاهَا إِلَى غَيْرِهَا . (فَٱلحَدُّ ٱلأَوَّلُ) ٱلطَّبَقَاتُ ٱلعُلْيَا وَغَايَتُهَا ٱلقُصْوَى ٱلخِلَافَةُ ٱلَّتِي أَجَلَّ ٱللهُ قَدْرَهَا وَأَعْلَى شَأْنَهَا عَنْ مُسَاوَاتِهَا بِأَحَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّوْقِيرِ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّانِيَةُ) لِوُزَرَائِهَا وَكُتَّابِهَا ٱلذِينَ يُخَاطِبُونَ ٱلخُلَفَاءَ بِعُقُولِهِمْ وَأَلسِنَتِهِمْ وَيَرْتُقُونَ ٱلفُتُوقَ بِآرَائِهِمْ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أُمَرَاءُ ثُغُورِهِمْ وَقُوَّادُ جُنُودِهِمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ مُخَاطَبَةُ كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِهِ وَمَوْضِعِهِ وَحَظِّهِ وَغَنَائِهِ وَجَزَائِهِ وَٱضْطِلَاعِهِ بِمَا حَمَلَ مِنْ أَعْبَاءِ أُمُورِهِمْ وَجَلَائِلِ أَعْمَالِهِمْ . (وَٱلرَّابِعَةُ) ٱلقُضَاةُ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانَ لَهُمْ تَوَاضُعُ ٱلعُلَمَاءِ وَحِلْيَةُ ٱلفُضَلَاءِ فَمَعَهُمْ أُبَّهَةُ ٱلسَّلْطَنَةِ وَهَيْبَةُ ٱلأُمَرَاءِ . وَأَمَّا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلأَرْبَعُ ٱلأُخَرُ فَهُمُ ٱلمُلُوكُ ٱلذِينَ أَوْجَبَتْ نِعَمُهُمْ تَعْظِيمَهُمْ فِي ٱلكُتُبِ إِلَيْهِمْ وَأَفْضَالُهُمْ تَفَضُّلَهُمْ فِيهَا . (وَٱلثَّانِيَةُ) وُزَرَاؤُهُمْ وَكُتَّابُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمُ ٱلَّذِينَ تُقْرَعُ أَبْوَابُهُمْ وَبِعِنَايَتِهِمْ تُسْتَبَاحُ أَمْوَالُهُمْ . (وَٱلثَّالِثَةُ) هُمُ ٱلعُلَمَاءُ

يَجِبُ تَوْقِيرُهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ بِشَرَفِ ٱلْعِلْمِ وَعُلُوِّ دَرَجَةِ أَهْلِهِ •
(وَٱلطَّبَقَةُ ٱلرَّابِعَةُ) لِأَهْلِ ٱلْقَدْرِ وَٱلْجَلَالَةِ وَٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطَّلَاوَةِ وَٱلظَّرْفِ وَٱلْأَدَبِ فَإِنَّهُمْ يَضْطَرُّونَكَ بِجِدَّةِ أَذْهَانِهِمْ وَشِدَّةِ تَمْيِيزِهِمْ وَٱنْتِقَادِهِمْ وَأَدَبِهِمْ وَتَصَفُّحِهِمْ إِلَى ٱلِاسْتِقْصَاءِ عَلَى نَفْسِكَ فِي مُكَاتَبَتِهِمْ وَٱسْتَغْنَيْنَا عَنِ ٱلتَّرْتِيبِ لِلسُّوقَةِ وَٱلْعَوَامِّ وَٱلتُّجَّارِ بِٱسْتِغْنَائِهِمْ بِمِهَانَتِهِمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْآلَاتِ وَٱشْتِغَالِهِمْ بِمِهْنَاتِهِمْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْأَدَوَاتِ • وَلِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلطَّبَقَاتِ مَعَانٍ وَمَذَاهِبُ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَرْعَاهَا فِي مُرَاسَلَتِكَ إِيَّاهُمْ فِي كُتُبِكَ فَتَزِنَ كَلَامَكَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ بِمِيزَانِهِ وَتُعْطِيَهُ قِسْمَهُ وَتُوفِيَهُ نَصِيبَهُ • فَإِنَّكَ مَتَى أَهْمَلْتَ ذٰلِكَ وَأَضَعْتَهُ لَمْ آمَنْ عَلَيْكَ أَنْ تَعْدِلَ بِهِمْ عَنْ كَلَامِكَ فِي غَيْرِ مَسْلَكِهِ فَلَا تَعْتَدَّ بِٱلْمَعْنَى ٱلْجَزْلِ مَا لَمْ تُلْبِسْهُ لَفْظًا لَائِقًا بِمَنْ كَاتَبْتَهُ وَمَلْبَسًا بِمَنْ رَاسَلْتَهُ • فَإِنَّ إِلْبَاسَكَ ٱلْمَعْنَى وَإِنْ صَحَّ وَصَرُفَ لَفْظًا مُخْتَلِفًا عَلَى قَدْرِ ٱلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ لَمْ تَجْرِ بِهِ عَادَتُهُمْ تَهْجِينٌ لِلْمَعْنَى وَإِخْلَالٌ بِقَدْرِهِ وَظُلْمٌ بِحَقِّ ٱلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ وَنَقْصٌ بِمَا يَجِبُ لَهُ كَمَا أَنَّ فِي ٱتِّبَاعِ تَعَارُفِهِمْ وَمَا ٱنْتَشَرَتْ بِهِ عَادَاتُهُمْ وَجَرَتْ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ قَطْعًا لِعُذْرِهِمْ وَخُرُوجًا مِنْ حُقُوقِهِمْ وَبُلُوغًا إِلَى غَايَةِ مُرَادِهِمْ وَإِسْقَاطًا لِحُجَّةِ أَدَبِهِمْ. فَمِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمَرْغُوبِ عَنْهَا وَٱلصُّدُورِ ٱلْمُسْتَوْحَشِ مِنْهَا فِي كُتُبِ ٱلسَّادَاتِ وَٱلْمُلُوكِ وَٱلْأُمَرَاءِ عَلَى ٱتِّفَاقِ ٱلْمَعَانِي مِثْلُ : أَبْقَاكَ ٱللّٰهُ طَوِيلًا وَعَمَّرَكَ مَلِيًّا • وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِهِمْ : أَطَالَ ٱللّٰهُ بَقَاءَكَ • وَبَيْنَ قَوْلِهِمْ : أَبْقَاكَ ٱللّٰهُ طَوِيلًا • وَلٰكِنَّهُمْ جَعَلُوا هٰذَا

أرجح وزنًا وأنبه قدرًا في المخاطبة كما أنهم جعلوا : أكرمك الله وأبقاك . أحسن منزلًا في كتب الفضلاء والأدباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتمال أن يكون فداءه من الخير كما يحتمل أن يكون فداءه من الشر. على أن كتّاب العسكر وعوامّهم قد ولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع محاوراتهم وجعلوها هجّيراهم في مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . ولذلك قال محمود الورّاق :

كل من حل سرّ من را من النّا ... س ومن قد يداخل الأملاكا
لو رأى الكلب مائلًا بطريق ... قال للكلب ياجعلت فداكا

وكذلك لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل أبقاك الله وأمتع بك إلّا في الابن والخادم المنقطع إليك . وأمّا في كتب الإخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه . . . ولكل مكتوب إليه قدر ووزن ينبغي للكاتب أن لا يجاوزه عنه ولا يقصّر به دونه . وقد رأيتهم عابوا الأحوص حين خاطب الملوك خطاب العوامّ في قوله :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ... مذق الحديث يقول ما لا يفعل

وهذا معنى صحيح في المدح ولكنهم أجلّوا قدر الملوك أن يمدح بما تمدح به العوامّ لأنّ صدق الحديث وإنجاز الوعد وإن كان من المدح فهو واجب على العامّة . والملوك لا يمدحون بالفرائض الواجبة . إنّما يحسن مدحهم بالنوافل لأنّ المادح لو قال لبعض الملوك : إنّك لاتخون ما استودعت وإنّك لتصدق في وعدك وتفي

بِعَهْدِكَ . فَكَأَنَّهُ قَدْ أَثْنَى بِمَا يَجِبُ وَلَوْ قَصَدَ بِثَنَائِهِ إِلَى مَقْصَدِهِ كَانَ أَشْبَهَ بِالْمُلُوكِ . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَمِيرٍ يَتَوَلَّى مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا فَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يُطْلِقُوا هٰذِهِ اللَّفْظَةَ إِلَّا فِي الْخُلَفَاءِ خَاصَّةً . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْكَيِّسَ هُوَ الْعَقْلُ . وَلٰكِنْ إِنْ وَصَفْتَ رَجُلًا فَقُلْتَ : إِنَّهُ لَعَاقِلٌ . كُنْتَ مَدَحْتَهُ عِنْدَ النَّاسِ . وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهُ لَكَيِّسٌ كُنْتَ قَدْ قَصَّرْتَ بِهِ عَنْ وَصْفِهِ وَصَغَّرْتَ مِنْ قَدْرِهِ . إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِاللُّغَةِ لِأَنَّ الْعَامَّةَ لَا تَلْتَفِتُ إِلَى مَعْنَى الْكَلِمَةِ وَلٰكِنْ إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ مِنِ اسْتِعْمَالِهَا فِي الظَّاهِرِ إِذْ كَانَ اسْتِعْمَالُ الْعَامَّةِ لِهٰذِهِ الْكَلِمَةِ مَعَ الْحَدَاثَةِ وَالْغِرَّةِ وَخَسَاسَةِ الْقَدْرِ وَصِغَرِ السِّنِّ . . . فَامْتَثِلْ هٰذِهِ الْمَذَاهِبَ وَاجْرِ عَلَى هٰذِهِ الْقِوَامِ وَتَحَفَّظْ فِي صُدُورِ كُتُبِكَ وَفُصُولِهَا وَخَوَاتِمِهَا وَضَعْ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعٍ يَلِيقُ بِهِ وَتَخَيَّرْ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَعْنًى يُشَاكِلُهَا وَلْيَكُنْ مَا تَخْتِمُ بِهِ فُصُولَكَ فِي مَوْضِعِ ذِكْرِ الْبَلْوَى بِمِثْلِ : (نَسْأَلُ اللّٰهَ دَفْعَ الْمَحْذُورِ وَصَرْفَ الْمَكْرُوهِ) وَأَشْبَاهِ هٰذَا . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ الْمُصِيبَةِ : إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ النِّعْمَةِ : (الْحَمْدُ لِلّٰهِ خَالِصًا وَالشُّكْرُ لِلّٰهِ وَاجِبًا) . فَإِنَّ هٰذِهِ الْمَوَاضِعَ يَجِبُ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَتَفَقَّدَهَا وَيَحْتَفِظَ بِهَا . فَإِنَّ الْكَاتِبَ إِنَّمَا يَصِيرُ كَاتِبًا بِأَنْ يَضَعَ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعِهِ فَيُعَلِّقَ كُلَّ لَفْظَةٍ عَلَى طَبَقِهَا مِنَ الْمَعْنَى . وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي الرَّسَائِلِ اسْتِعْمَالُ الِاقْتِصَارِ وَالْحَذْفِ وَمُخَاطَبَةُ الْخَاصِّ بِالْعَامِّ وَالْعَامِّ بِالْخَاصِّ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ

اَنْ يَجْتَنِبَ اَللَّفْظَ اَلْمُشْتَرَكَ وَٱلمعْنَى ٱلْمُلْتَبِسَ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ اَيْضًا فِي ٱلرَّسَائِلِ وَٱلْبَلَاغَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ مَا يَجُوزُ فِي ٱلْاَشْعَارِ ٱلْمَوْزُونَةِ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ مُضْطَرٌّ وَٱلشِّعْرَ مَقْصُودٌ مُقَيَّدٌ بِٱلْوَزْنِ وَٱلْقَوَافِي . فَلِذٰلِكَ اَجَازُوا لَهُمْ صَرْفَ مَا لَا يَنْصَرِفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ وَحَذْفَ مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهَا وَٱغْتُفِرَ فِيهِ سُوءُ ٱلتَّظَلُّمِ وَاَجَازُوا فِيهِ ٱلتَّقْدِيمَ وَٱلتَّأْخِيرَ وَٱلْاِضْمَارَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِظْهَارِ وَذٰلِكَ كُلُّهُ غَيْرُ سَائِغٍ فِي ٱلرَّسَائِلِ وَلَا جَائِزٌ فِي ٱلْبَلَاغَاتِ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي فِي ٱلرَّسَائِلِ اَنْ يُصَغَّرَ ٱلْاَسْمُ فِي مَوْضِعِ ٱلتَّعْظِيمِ وَاِنْ كَانَ ذٰلِكَ جَائِزًا مِثْلُ قَوْلِهِمْ : دُوَيْهِيَةٌ تَصْغِيرُ دَاهِيَةٍ . وَجُذَيْلٌ تَصْغِيرُ جِذْلٍ . وَعُذَيْقٌ تَصْغِيرُ عِذْقٍ . وَقَالَ لَبِيدٌ :

وَكُلُّ اُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ   دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا ٱلْاَنَامِلُ

وَقَالَ ٱلْحُبَابُ بْنُ ٱلْمُنْذِرِ يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ : اَنَا عُذَيْقُهَا ٱلْمُرَجَّبُ وَجُذَيْلُهَا ٱلْمُحَكَّكُ . وَقَالَ سَرْحَةُ اَبُو عُبَيْدَةَ : وَمِمَّا لَا يَجُوزُ فِي ٱلرَّسَائِلِ وَكَرِهُوهُ فِي ٱلْكَلَامِ اَيْضًا مِثْلُ قَوْلِهِمْ : كَلَّمْتُ اِيَّاكَ وَاَعْنِي اِيَّاكَ وَهُوَ جَائِزٌ فِي ٱلشِّعْرِ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَاَجْمِلْ وَاَحْسِنْ فِي اَسِيرِكَ اِنَّهُ   ضَعِيفٌ وَلَمْ يَأْسِرْ كَاِيَّاكَ آسِرُ

فَتَخَيَّرْ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ اَرْجَحَهَا لَفْظًا وَاَجْزَلَهَا وَاَشْرَفَهَا جَوْهَرًا وَاَكْرَمَهَا حَسَبًا وَاَلْيَقَهَا فِي مَكَانِهَا وَاَشْكَلَهَا فِي مَوْضِعِهَا فَاِنْ حَاوَلْتَ صَنْعَةَ رِسَالَةٍ فَزِنِ ٱللَّفْظَةَ قَبْلَ اَنْ تُخْرِجَهَا بِمِيزَانِ ٱلتَّصْرِيفِ اِذَا عَرَضَتْ . وَعَايِرِ ٱلْكَلِمَةَ بِمِعْيَارٍ اِذَا سَنَحَتْ . فَاِنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِكَ مَوْضِعٌ يَكُونُ مَخْرَجُ ٱلْكَلَامِ اِذَا كَتَبْتَ : اَنَا فَاعِلٌ . اَحْسَنُ مِنْ اَنْ

تَكْتُبَ : أَنَا أَفْعَلُ . وَمَوْضِعٌ آخَرُ يَكُونُ فِيهِ (ٱسْتَفْعَلْتُ) أَحْلَى مِنْ (فَعَلْتُ) فَأَدِرِ ٱلْكَلَامَ عَلَى أَمْكَانِهِ وَقَلِّبْهُ عَلَى جَمِيعِ وُجُوهِهِ فَأَيُّ لَفْظَةٍ رَأَيْتَهَا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي نَدَبْتَهَا إِلَيْهِ فَٱنْزِعْهَا إِلَى ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي أَوْرَدْتَهَا عَلَيْهِ وَأَوْقِعْهَا فِيهِ . وَلَا تَجْعَلِ ٱللَّفْظَةَ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَإِنَّكَ مَتَى فَعَلْتَ هَجَّنْتَ ٱلْمَوْضِعَ ٱلَّذِي حَاوَلْتَ تَحْسِينَهُ وَأَفْسَدْتَ ٱلْمَكَانَ ٱلَّذِي أَرَدْتَ إِصْلَاحَهُ فَإِنَّ وَضْعَ ٱلْأَلْفَاظِ فِي غَيْرِ أَمَاكِنِهَا وَقَصْدَكَ بِهَا إِلَى غَيْرِ مُصَابِهَا إِنَّمَا هُوَ كَتَرْقِيعِ ٱلثَّوْبِ ٱلَّذِي لَمْ يُشَابِهْهُ رِقَاعُهُ وَلَمْ تَتَقَارَبْ أَجْزَاؤُهُ وَخَرَجَ مِنْ حَدِّ ٱلْجِدَّةِ وَتَغَيَّرَ حُسْنُهُ . كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِنَّ ٱلْجَدِيدَ إِذَا مَا زِيدَ فِي خَلَقٍ ... يَبِينُ لِلنَّاسِ أَنَّ ٱلثَّوْبَ مَرْقُوعُ

كَذَلِكَ كُلَّمَا أَحْلَوْلَى ٱلْكَلَامُ وَعَذُبَ وَرَاقَ وَسَهُلَتْ مَخَارِجُهُ كَانَ أَسْهَلَ وَأَرْجَى فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَأَشَدَّ ٱتِّصَالًا بِٱلْقُلُوبِ وَأَخَفَّ عَلَى ٱلْأَفْوَاهِ لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَدِيعُ مُتَرْجَمًا بِلَفْظٍ مُونِقٍ شَرِيفٍ وَمُعَايَرًا بِكَلَامٍ عَذْبٍ لَمْ يَسِمْهُ ٱلتَّكْلِيفُ بِمِيسَمِهِ وَلَمْ يُفْسِدْهُ ٱلتَّعْقِيدُ بِٱسْتِهْلَاكِهِ . . . وَقَدْ رَأَيْتُهُمْ شَبَّهُوا ٱلْمَعْنَى ٱلْخَفِيَّ بِٱلرُّوحِ ٱلْخَفِيِّ . وَٱللَّفْظَ ٱلظَّاهِرَ بِٱلْجُثْمَانِ ٱلظَّاهِرِ . وَإِذَا لَمْ يَنْهَضْ بِٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ ٱلْجَزْلِ لَفْظٌ شَرِيفٌ جَزْلٌ لَمْ تَكُنِ ٱلْعِبَارَةُ وَاضِحَةً وَلَا ٱلنِّظَامُ مُتَّسِقًا . وَتَضَاؤُلُ ٱلْمَعْنَى ٱلْحَسَنِ تَحْتَ ٱللَّفْظِ ٱلْقَبِيحِ كَتَضَاؤُلِ ٱلْحَسْنَاءِ فِي ٱلْأَطْمَارِ ٱلرَّثَّةِ . وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْمَعْنَى أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ : لَفْظٌ وَإِشَارَةٌ وَعَقْدٌ وَخَطٌّ . وَقَدْ ذَكَرَ لَهُ أَرِسْطَاطَالِيسُ صِنْفًا خَامِسًا فِي كِتَابِ

ٱلْمَنطِقِ وَهوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلنِّصْبَةَ . وَٱلنِّصْبَةُ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلنَّاطِقَةُ بِغَيْرِ لَفْظٍ وَمُشِيرَةٌ إِلَيْكَ بِغَيْرِ يَدٍ وَذٰلِكَ ظَاهِرٌ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكُلِّ صَامِتٍ وَنَاطِقٍ. وَجَمِيعُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْخَمْسَةِ كَاشِفَةٌ عَنْ أَعْيَانِ ٱلْمَعَانِي وَسَافِرَةٌ عَنْ وُجُوهِهَا وَأَوْضَحُ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ وَأَفْصَحُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ صِنْفَانِ : هُمَا ٱلْقَلَمُ وَٱللِّسَانُ وَكِلَاهُمَا تَرْجُمَانٌ . فَأَمَّا ٱللِّسَانُ فَهُوَ ٱلْآلَةُ ٱلَّتِي يَخْرُجُ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا عَنْ حَدِّ ٱلِٱسْتِبْهَامِ إِلَى حَدِّ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ بِٱلْكَلَامِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ : حَدُّ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْحَيُّ ٱلنَّاطِقُ

البحث الثاني

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع (١)

(من مقدمة ابن خلدون باختصار)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعِبَارَةُ وَٱلْخِطَابُ إِنَّمَا سِرُّهُ وَرُوحُهُ فِي إِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُهْمَلًا فَهُوَ كَٱلْمَوَاتِ ٱلَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ وَكَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ عَلَى مَا عَرَفْتَ مِنْ حَدِّهَا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَمَعْرِفَةُ ٱلشُّرُوطِ وَٱلْأَحْكَامِ ٱلَّتِي بِهَا تُطَابِقُ ٱلتَّرَاكِيبُ ٱللَّفْظِيَّةُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ هُوَ فَنُّ ٱلْبَلَاغَةِ . وَتِلْكَ ٱلشُّرُوطُ وَٱلْأَحْكَامُ تُؤْخَذُ مِنْ عِلْمَيِ

(١) ان هذا الفصل لا يوجد في نسخة مقدمة ابن خلدون المطبوعة في مصر وبيروت بل في طبعة باريز

ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ هُمَا جُزْءَا ٱلْبَلَاغَةِ وَبِهِمَا كَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ وَٱلْمُطَابَقَةُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ. فَٱلْبَلَاغَةُ عَلَى هٰذَا هِيَ أَصْلُ ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ وَسَجِيَّتُهُ وَرُوحُهُ وَطَبِيعَتُهُ . ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا ٱلْكَلَامَ ٱلْمَطْبُوعَ فَإِنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهِ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي كَمُلَتْ طَبِيعَتُهُ وَسَجِيَّتُهُ مِنْ إِفَادَةِ مَدْلُولِهِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ وَخِطَابٌ لَيْسَ ٱلْمَقْصُودُ مِنْهُ ٱلنُّطْقُ فَقَطْ . بَلِ ٱلْمُتَكَلِّمُ يَقْصِدُ بِهِ أَنْ يُفِيدَ سَامِعَهُ مَا فِي ضَمِيرِهِ إِفَادَةً تَامَّةً وَيَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ دَلَالَةً وَثِيقَةً. ثُمَّ يَتْبَعُ تَرَاكِيبَ ٱلْكَلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلسَّجِيَّةِ ٱلَّتِي لَهُ بِٱلْأَصَالَةِ ضُرُوبٌ مِنَ ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّزْيِينِ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ وَكَأَنَّهَا تُعْطِيهَا رَوْنَقَ ٱلْفَصَاحَةِ مِنْ تَنْمِيقِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِ ٱلْكَلَامِ وَتَقْسِيمِهِ بِٱلْأَقْسَامِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلتَّوْرِيَةِ بِٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ عَنِ ٱلْخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيهِ وَٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْمُتَضَادَّاتِ لِيَقَعَ ٱلتَّجَانُسُ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فَيَحْصُلَ لِلْكَلَامِ رَوْنَقٌ وَلَذَّةٌ فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَحَلَاوَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى ٱلْإِفَادَةِ . وَهٰذِهِ ٱلصَّنْعَةُ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُعْجِزِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلُ : وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمِثْلُ : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَى إِلَى آخِرِ ٱلتَّقْسِيمِ . وَكَذَا : فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا إِلَى آخِرِهِ . وَكَذَا : وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . وَأَمْثَالُهُ كَثِيرٌ . وَذٰلِكَ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ فِي أَصْلِ هٰذِهِ ٱلتَّرَاكِيبِ قَبْلَ وُقُوعِ هٰذَا ٱلْبَدِيعِ فِيهَا . وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ لٰكِنْ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ . وَيُقَالُ

انَّهُ وقع في شعر زهير . وأمَّا الإسلاميّون فوقع لهم عفوًا وقصدًا وأتوا منه بالعجائب . وأوّل من أحكم طريقته حبيب بن أوس والبحتريّ ومسلم بن الوليد فقد كانوا مولعين بالصنعة ويأتون منها بالعجب . وقيل انَّ اوّل من ذهب الى معاناتها بشّار بن برد وابن هرمة وكانا آخر من يُستشهد بشعره في اللسان العربيّ . ثمّ اتّبعهما كلثوم بن عمرو والعتابيّ ومنصور النمريّ ومسلم بن الوليد وأبو نواس . وجاء على آثارهم حبيب والبحتريّ . ثمّ ظهر ابن المعتزّ فختم على البديع والصناعة اجمع

فتأمّل قولهم المطبوع الفقيد الصنعة في احكام تأليفه وثقافة تركيبه فلو جاءت فيه الصنعة من بعد هذا الاصل زادته حسنًا . وأمّا المصنوع فكثير من لدن بشّار ثمّ حبيب وطبقتهما ثمّ ابن المعتزّ خاتم الصنعة الذين جرى المتأخرون بعدهم في ميدانهم ونسجوا على منوالهم . وقد تعدّدت اصناف هذه الصنعة عند اهلها واختلفت اصطلاحاتهم في القابها . وكثير منهم يجعلها مندرجة في البلاغة على انّها غير داخلة في الافادة وانّما هي تعطي التحسين والرونق . وأمّا المتقدّمون من اهل البديع فهي عندهم خارجة عن البلاغة ولذلك يذكرونها في الفنون الادبيّة التي لا موضوع لها . وهي رأي ابن رشيق في كتاب العمدة له وأدباء الاندلس . وذكروا في استعمال هذه الصنعة شروطا منها ان تقع من غير تكلّف ولا اكتراث فيما يقصد منها . وأمّا العفو فلا كلام فيه

لِأَنَّهَا إِذَا بَرِئَتْ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ سَلِمَ ٱلْكَلَامُ مِنْ عَيْبِ ٱلِاسْتِهْجَانِ لِأَنَّ تَكَلُّفَهَا وَمُعَانَاتَهَا يَصِيرُ إِلَى ٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلَامِ فَتُخِلُّ بِٱلْإِفَادَةِ مِنْ أَصْلِهَا وَتَذْهَبُ بِٱلْبَلَاغَةِ رَأْسًا وَلَا يَبْقَى فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا تِلْكَ ٱلتَّحْسِينَاتُ. وَهٰذَا هُوَ ٱلْغَالِبُ ٱلْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ ٱلْعَصْرِ وَأَصْحَابِ ٱلْأَذْوَاقِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلَفِهِمْ بِهٰذِهِ ٱلْفُنُونِ وَيَعُدُّونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ. ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ ٱسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمُ ٱلْإِقْلَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ ٱلْقَصِيدِ فَتَكْفِي فِي زِينَةِ ٱلشِّعْرِ وَرَوْنَقِهِ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْهَا عَيْبٌ. قَالَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ وَغَيْرُهُ. وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو ٱلْقَسِمِ ٱلشَّرِيفُ ٱلسَّبْتِيُّ مُنْفِقُ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِوَقْتِهِ يَقُولُ : هٰذِهِ ٱلْفُنُونُ ٱلْبَدِيعَةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبُحُ أَنْ يُسْتَكْثَرَ مِنْهَا لِأَنَّهَا مِنْ مُحَسِّنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمُزَيِّنَاتِهِ فَهِيَ بِمَثَابَةِ ٱلْخِيلَانِ فِي ٱلْوَجْهِ يَحْسُنُ بِٱلْوَاحِدِ وَٱلِاثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا وَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْظُومِ هُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَنْثُورُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ كَانَ أَوَّلًا مُرْسَلًا مُعْتَبَرَ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ . مُشَاهِدَةً مُوَازَنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ سَجْعٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ بِصَنْعَةٍ . حَتَّى نَبَغَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِلَالٍ ٱلصَّابِئُ كَاتِبُ بَنِي بُوَيْهِ فَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَٱلتَّقْفِيَةَ وَأَتَى مِنْ ذٰلِكَ بِٱلْعَجَبِ وَعَابَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ كَلَفَهُ بِذٰلِكَ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ . وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِي مُلُوكِهِ مِنَ ٱلْعُجْمَةِ وَٱلْبُعْدِ عَنْ صَوْلَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْمُنْفِقَةِ لِسُوءِ ٱلْبَلَاغَةِ . ثُمَّ ٱنْتَشَرَتِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي مَنْثُورِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَنُسِيَ عَهْدُ ٱلتَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتِ ٱلسُّلْطَانِيَّاتُ

وَٱلْإِخْوَانِيَّاتُ وَٱلْعَرَبِيَّاتُ بِٱلسُّوقِيَّاتِ وَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ . وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْمَصْنُوعَ بِٱلْمُعَانَاةِ وَٱلتَّكْلِيفِ قَاصِرٌ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ لِقِلَّةِ ٱلِٱكْتِرَاثِ فِيهِ بِأَصْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ذٰلِكَ ٱلذَّوْقُ

البحث الثالث

في السجع وانواعه

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٧٢ من علم الادب)

كَلِمَاتُ ٱلْأَسْجَاعِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى أَنْ تَكُونَ سَاكِنَةَ ٱلْأَعْجَازِ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا لِأَنَّ ٱلْغَرَضَ أَنْ يُجَانَسَ بَيْنَ ٱلْقَرَائِنِ وَيُزَاوَجَ بَيْنَهَا وَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ إِلَّا بِٱلْوَقْفِ . أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُمْ: مَا أَبْعَدَ مَا فَاتْ . وَمَا أَقْرَبَ مَا هُوَ آتْ. لَوْ أُعْطِيَ أَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ مَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ ٱلْإِعْرَابِ لَٱخْتَلَفَ أَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ وَفَاتَ ٱلسَّاجِعَ غَرَضُهُ. وَإِذَا رَأَيْنَاهُمْ يُخْرِجُونَ ٱلْكَلِمَةَ عَنْ أَوْضَاعِهَا لِلِٱزْدِوَاجِ فَيَقُولُونَ آتِيكَ بِٱلْغَدَوَاءِ أَوْ بِٱلْعَشَاءِ . وَهَنَأَنِي ٱلطَّعَامُ وَمَرَأَنِي . وَٱنْصَرِفْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ يُرِيدُونَ : ٱلْغَدَوَاتِ وَأَمْرَأَنِي وَمَوْزُورَاتٍ . مَعَ أَنَّ فِيهِ ٱرْتِكَابًا لِمُخَالَفَةِ ٱللُّغَةِ . وَكَذٰلِكَ : أَعْطِ ٱلْقَوْسَ بَارِيهَا . وَفِيهِ تَرْكُ ٱلْإِعْرَابِ مِنْ أَثْنَاءِ ٱلْكَلِمَةِ فَمَا ٱلظَّنُّ بِأَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ ٱلْمُشَبَّهَةِ بِٱلْقَوَافِي . وَٱلْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ فِي أَوَاخِرِ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلْفَوَاصِلِ إِذَا عُرِفَ هٰذَا

فالأسجاع أربعة أنواع : الترصيع والمتوازي والمطرّف والمتوازن . أمّا (الترصيع) فهو أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان متّفقة الأعجاز كقوله : إنّ إلينا إيابهم . ثمّ إنّ علينا حسابهم . وقوله : إنّ الأبرار لفي نعيم . وإنّ الفجّار لفي جحيم . وقوله : اللّهمّ اقبل توبتي واغسل حوبتي . وقولهم : فلانٌ يفتخر بالهمم العالية . لا بالرمم البالية . وقولهم : حتّى عاد تعريضك وتمريضك تصحيحًا . ومن النظم قول الخنساء :

حامي الحقيقة محمود الخليقة ... مهديّ الطريقة نفّاع وضرّار

جوّاب قاصية جزّاز ناصية ... عقّاد ألوية للخيل جرّار

وكقول أبي فراس :

وأفعالنا للراغبين كريمةٌ ... وأموالنا للطالبين نهابْ

وقول الأبيورديّ :

يروح إليهم عازب الحمد وافيا ... ويغدو عليهم طالب الرفد عافيا

وقد يجيء مع التجنيس كقولهم : إذا قلّت الأنصار كلّت الأبصار . وما وراء الخلق الدميم إلّا الخلق الذميم . ومن النظم قول المطرّزيّ :

ودرّ جلاله أبدًا ثمينٌ ... ودرّ نواله أبدًا غزير

(والمتوازي) وهو أن يراعى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن مع اتّفاق الحرف الآخر منهما كقوله : فيها سررٌ مرفوعةٌ . وأكوابٌ موضوعةٌ . وقوله : اللّهمّ أعطِ منفقًا خلفًا .

وَاعطِ مُمسِكًا تلفًا. وقَولِ ٱلْحَرِيرِيّ : ٱلْجَانِي حُكْمُ دَهْرٍ قَاسِطٍ . إِلَى اَنْ اَنْتَجِعَ اَرضَ وَاسِطٍ . وقَوْلِهِ : وَاَوْدَى ٱلنَاطِقُ وَٱلصَّامِتُ . وَرَثَى لَنَا ٱلْحَاسِدُ وَٱلشَّامِتُ . (وَٱلْمُطَرَّفُ) وَهُوَ اَنْ يُرَاعَى ٱلْحَرْفُ ٱلْاَخِيرُ فِي كِلْتَا قَرِينَتَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةِ ٱلْوَزْنِ . كَقَوْلِهِ : مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ اَطْوَارًا . وَقَوْلِهِمْ : خِيَامُهُ مَحَطُّ ٱلرِّحَالِ. وَمُخَيَّمُ ٱلْاَمَالِ . (وَٱلْمُتَوَازِنُ) وَهُوَ اَنْ يُرَاعَى فِي ٱلْكَلِمَتَيْنِ ٱلْاَخِيرَتَيْنِ مِنَ ٱلْقَرِينَتَيْنِ ٱلْوَزْنُ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱلْحَرْفِ ٱلْاَخِرِ مِنْهُمَا . كَقَوْلِهِ : وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ . وَقَوْلِهِمْ : اَصْبِرْ عَلَى حَرِّ ٱلْقِتَالِ . وَمَضَضِ ٱلنِّزَالِ . وَشِدَّةِ ٱلْمَصَاعِ وَمُدَاوَمَةِ ٱلْمِرَاسِ . فَإِنْ رَاعَى ٱلْوَزْنَ فِي جَمِيعِ كَلِمَاتِ ٱلْقَرَائِنِ اَوْ اَكْثَرِهَا وَقَابَلَ ٱلْكَلِمَةَ مِنْهَا بِمَا تُعَادِلُهَا وَزْنًا كَانَ اَحْسَنَ . كَقَوْلِهِ : وَاٰتَيْنَاهُمَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . وَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيّ : اَسْوَدَّ يَوْمِي ٱلْاَبْيَضُ وَٱبْيَضَّ يَوْمِي ٱلْاَسْوَدُ . وَيُسَمَّى هٰذَا فِي ٱلشِّعْرِ ٱلْمُوَازَنَةَ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيّ :

فَقِفْ مُسْعِدًا فِيهِنَّ اِنْ كُنْتَ غَادِرًا
وَسِرْ مُبْعِدًا عَنْهُنَّ اِنْ كُنْتَ عَادِلَا

وَمِمَّا هُوَ شَرْطُ ٱلْحُسْنِ فِي هٰذَا ٱلْمُحَافَظَةُ عَلَى تَنَاسُبِهِ وَهُوَ اَسْمٌ جَامِعٌ لِلْمُلَاءَمَةِ وَٱلتَّنَاسُبِ . فَٱلْمُلَاءَمَةُ تَأْلِيفُ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُوَافِقَةِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ فِي ضَرْبِ ٱلْاِعْتِدَالِ . كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلْمَرْءُ اِلَّا كَٱلشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَعُودُ رَمَادًا بَعْدَ اِذْ هُوَ سَاطِعُ

وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ   وَلَا بُـدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّ ٱلتَّلْفِيقَ مِنْ بَابِ ٱلْمُلَاءَمَـةِ وَهُوَ أَنْ يَضُمَّ إِلَى ذِكْرِ ٱلشَّيْءِ مَا يَلِيقُ بِهِ وَيَجْرِي مَجْرَاهُ وَأَنْ يَجْمَعَ ٱلْأُمُورَ ٱلْمُتَنَاسِبَةَ وَيُقَالُ لَهُ مُرَاعَاةُ ٱلنَّظِيرِ أَيْضًا. وَٱلتَّنَاسُبُ هُوَ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَآخِيَةَ ٱلَّتِي تَتَلَاءَمُ وَلَا تَتَنَافَرُ. كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

وَٱلرِّفْقُ يُمْنٌ وَٱلْأَنَاةُ سَعَادَةٌ   فَتَأَنَّ فِي رِفْقٍ تَنَالَ نَجَاحَا

وَٱلْيَأْسُ مِمَّا فَاتَ يُعْقِبُ رَاحَةً   وَلَرُبَّ مَطْعَمَةٍ تَعُودُ ذُبَاحَا

وَيُسَمَّى ٱلتَّشَابُهَ أَيْضًا. وَقِيلَ ٱلتَّشَابُهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَلْفَاظُ غَيْرَ مُتَبَايِنَةٍ بَلْ مُتَقَارِبَةً فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلرِّقَّةِ وَٱلْمَتَانَةِ وَٱلسَّلَاسَةِ وَتَكُونُ ٱلْمَعَانِي مُنَاسِبَةً لِأَلْفَاظِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكْسَى ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّخِيفَ أَوْ عَلَى ٱلضِّدِّ بَلْ يُصَاغَانِ مَعًا صِيَاغَةً تَنَاسُبٍ وَتَلَاؤُمٍ حَتَّى لَا يَكُونَ ٱلْكَلَامُ كَمَا قِيلَ:

وَبَعْضُ قَرِيضِ ٱلْمَرْءِ أَوْلَادُ عِلَّةٍ   يَكُدُّ لِسَانَ ٱلنَّاطِقِ ٱلْمُتَحَفِّظِ

البحث الرابع

في اقسام السجع وضروبه

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٧٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ أَنَّ ٱلسَّجْعَ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: ٱلْأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلَانِ مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ كَقَوْلِهِ:

وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَٱلْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَٱلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَا بِهِ جَمْعًا . أَلَا تَرَى كَيْفَ جَاءَتْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ مُتَسَاوِيَةَ ٱلْأَجْزَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَهُوَ أَشْرَفُ ٱلسَّجْعِ مَنْزِلَةً لِلِٱعْتِدَالِ ٱلَّذِي فِيهِ

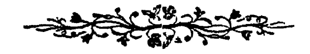
ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي أَطْوَلَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ لَا طُولًا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ ٱلِٱعْتِدَالِ خُرُوجًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ يَقْبُحُ عِنْدَ ذٰلِكَ وَيُسْتَكْرَهُ وَيُعَدُّ عَيْبًا . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : بَلْ كَذَّبُوا بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْفَصْلَ ٱلْأَوَّلَ ثَمَانِي لَفَظَاتٍ وَٱلْفَصْلَ ٱلثَّانِيَ وَٱلثَّالِثَ تِسْعٌ تِسْعٌ . وَيُسْتَثْنَى مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ ٱلسَّجْعِ عَلَى ثَلَاثِ فِقَرٍ فَإِنَّ ٱلْفِقْرَتَيْنِ ٱلْأُولَيَيْنِ تُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ تَأْتِي ٱلثَّالِثَةُ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةً طُولًا يَزِيدُ عَلَيْهِمَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأُولَى وَٱلثَّانِيَةُ أَرْبَعَ لَفَظَاتٍ تَكُونُ ٱلثَّالِثَةُ عَشَرَ لَفَظَاتٍ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَ ذٰلِكَ قِيَاسًا مُطَّرِدًا فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ أَيْنَ وَقَعَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَلْ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلْجَوَازَ يَعُمُّ ٱلْجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلتَّسَاوِي فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ وَمِنْ زِيَادَةِ ٱلسَّجْعَةِ ٱلثَّالِثَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجَعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ كَقَوْلِهِ : وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . فَهٰذِهِ ٱلسَّجَعَاتُ كُلُّهَا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ وَلَوْ جُعِلَتِ

ٱلثَّالِثَةُ مِنْهَا خَمسَ لَفَظَاتٍ اَوْ سِتا لَمَا كَانَ ذٰلِكَ مَعِيباً

اَلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلآخَرُ اَقْصَرَ مِنَ ٱلْاَوَّلِ وَهُوَ عِنْدِي عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَسَبَبُ ذٰلِكَ : اَنَّ ٱلسَّجْعَ يَكُونُ قَدِ ٱسْتَوْفَى اَمَدَهُ مِنَ ٱلْفَصْلِ ٱلْاَوَّلِ بِحُكْمِ طُولِهِ . ثُمَّ يَجِيءُ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي قَصِيرًا عَنِ ٱلْاَوَّلِ فَيَكُونُ كَالشَّيْءِ ٱلْمَبْتُورِ فَيَبْقَى ٱلاِنْسَانُ عِنْدَ سَمَاعِهِ كَمَنْ يُرِيدُ ٱلِانْتِهَاءَ اِلَى غَايَةٍ فَيَعْثُرُ دُونَهَا

وَاِذَا ٱنْتَهَيْنَا اِلَى هٰهُنَا وَبَيَّنَا اَقْسَامَ ٱلسَّجْعِ وَلُبَّهُ وَقُشُورَهُ فَسَنَقُولُ فِيهِ قَوْلًا كُلِّيًّا وَهُوَ اَنَّ ٱلسَّجْعَ عَلَى ٱخْتِلَافِ اَقْسَامِهِ ضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا يُسَمَّى ٱلسَّجْعَ ٱلْقَصِيرَ وَهُوَ اَنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلسَّجْعَتَيْنِ مُؤَلَّفَةً مِنْ اَلْفَاظٍ قَلِيلَةٍ وَكُلَّمَا قَلَّتِ ٱلْاَلْفَاظُ كَانَ اَحْسَنَ لِقُرْبِ ٱلْفَوَاصِلِ ٱلْمَسْجُوعَةِ مِنْ مَسْمَعِ ٱلسَّامِعِ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ اَوْعَرُ ٱلسَّجْعِ مَذْهَبًا وَاَبْعَدُهُ مُتَنَاوَلًا وَلَا يَكَادُ ٱسْتِعْمَالُهُ يَقَعُ اِلَّا نَادِرًا . وَٱلضَّرْبُ ٱلْآخَرُ يُسَمَّى ٱلسَّجْعَ ٱلطَّوِيلَ وَهُوَ ضِدُّ ٱلْاَوَّلِ لِاَنَّهُ اَسْهَلُ مُتَنَاوَلًا . وَاِنَّمَا كَانَ ٱلْقَصِيرُ مِنَ ٱلسَّجْعِ اَوْعَرَ مَسْلَكًا مِنَ ٱلطَّوِيلِ لِاَنَّ ٱلْمَعْنَى اِذَا صِيغَ بِاَلْفَاظٍ قَصِيرَةٍ عَزَّ مُوَاتَاةُ ٱلسَّجْعِ فِيهِ لِقِصَرِ تِلْكَ ٱلْاَلْفَاظِ وَضِيقِ ٱلْمَجَالِ فِي ٱسْتِجْلَابِهِ . وَاَمَّا ٱلطَّوِيلُ فَاِنَّ ٱلْاَلْفَاظَ تَطُولُ فِيهِ وَيُسْتَجْلَبُ لَهُ ٱلسَّجْعُ مِنْ حَيْثُ لَيْسَ كَمَا يُقَالُ وَكَانَ ذٰلِكَ سَهْلًا . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلضَّرْبَيْنِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهُ فِي عِدَّةِ ٱلْاَلْفَاظِ . اَمَّا ٱلسَّجْعُ ٱلْقَصِيرُ فَاَحْسَنُهُ مَا كَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ كَقَوْلِهِ : وَٱلْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا . فَٱلْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . وَقَوْلِهِ : يَا اَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ

فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُؤَلَّفًا مِنْ ثَلَاثَةِ أَلْفَاظٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ وَكَذٰلِكَ الْعَشَرَةُ . وَمَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ فَهُوَ مِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ . فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا : سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ . وَأَمَّا السَّجْعُ الطَّوِيلُ فَإِنَّ دَرَجَاتِهِ تَتَفَاوَتُ فِي الطُّولِ أَيْضًا فَمِنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنَ السَّجْعِ الْقَصِيرِ . وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَأْلِيفُهُ مِنْ إِحْدَى عَشْرَةَ إِلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَأَكْثَرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَفْظَةً كَقَوْلِهِ : وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . فَالْأُولَى إِحْدَى عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَالثَّانِيَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَمِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ مَا يَكُونُ تَأْلِيفُهُ مِنَ الْعِشْرِينَ لَفْظَةً فَمَا حَوْلَهَا كَقَوْلِهِ : إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّٰهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّٰهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . وَمِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ أَيْضًا مَا يَزِيدُ عَلَى هٰذِهِ الْعِدَّةِ الْمَذْكُورَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَضْبُوطٍ



البحث الخامس

في الايجاز

(عن المثل السائر وكتاب الصناعتين وغيرهما)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْايجَازُ حَذفُ زِيَادَاتِ ٱلْأَلْفَاظِ وَهٰذَا نَوْعٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ شَرِيفٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ اِلَّا فُرْسَانُ ٱلْبَلَاغَةِ مَنْ سَبَقَ اِلَى غَايَتِهَا وَمَا صَلَّى. وَضَرَبَ فِي اَعْلَى دَرَجَاتِهَا بِٱلْقِدْحِ ٱلْمُعَلَّى. وَذٰلِكَ لِعُلُوِّ مَكَانِهِ. وَتَعَذُّرِ اِمْكَانِهِ وَٱلنَّظَرُ فِيهِ اِنَّمَا هُوَ اِلَى ٱلْمَعَانِي لَا اِلَى ٱلْأَلْفَاظِ. وَلَسْتُ اَعْنِي بِذٰلِكَ اَنْ تُهْمِلَ ٱلْأَلْفَاظَ بِحَيْثُ تَعْرَى عَنْ اَوْصَافِهَا ٱلْحَسَنَةِ بَلْ اَعْنِي اَنَّ مَدَارَ ٱلنَّظَرِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ اِنَّمَا يَخْتَصُّ بِٱلْمَعَانِي. فَرُبَّ لَفْظٍ قَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى كَثِيرٍ. وَرُبَّ لَفْظٍ كَثِيرٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى قَلِيلٍ. وَمِثَالُ هٰذَا كَٱلْجَوْهَرَةِ ٱلْوَاحِدَةِ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلدَّرَاهِمِ. فَمَنْ يَنْظُرُ اِلَى طُولِ ٱلْأَلْفَاظِ يُؤْثِرُ ٱلدَّرَاهِمَ لِكَثْرَتِهَا. وَمَنْ يَنْظُرُ اِلَى شَرَفِ ٱلْمَعَانِي يُؤْثِرُ ٱلْجَوْهَرَةَ ٱلْوَاحِدَةَ لِنَفَاسَتِهَا. قَالَ اَصْحَابُ ٱلْايجَازِ: ٱلْايجَازُ قُصُورُ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَمَا تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَاجَةِ فَهُوَ فَضْلٌ دَاخِلٌ فِي بَابِ ٱلْهَذَرِ وَٱلْخَطَلِ وَهُمَا مِنْ اَعْظَمِ اَدْوَاءِ ٱلْكَلَامِ وَفِيهِمَا دَلَالَةٌ عَلَى بَلَادَةِ صَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَفِي تَفْضِيلِ ٱلْايجَازِ يَقُولُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى لِكُتَّابِهِ: اِنْ قَدَرْتُمْ اَنْ تَجْعَلُوا كُتُبَكُمْ تَوْقِيعَاتٍ فَٱفْعَلُوا. وَقَالَ

بَعضُهُمْ : ٱلزِّيَادَةُ فِي ٱلحَدِّ نُقصَانٌ . وَقَالَ مُحَمَّدٌ ٱلأَمِينُ : عَلَيكُم بِٱلإِيجَازِ فَإِنَّ لَهُ إِفهَامًا وَلِلإِطَالَةِ ٱستِبهَامًا . وَقَالَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ : ٱلقَلِيلُ ٱلكَافِي خَيرٌ مِنْ كَثِيرٍ غَيرِ شَافٍ . وَقَالَ آخَرُ : إِذَا طَالَ ٱلكَلَامُ عَرَضَتْ لَهُ أَسبَابُ ٱلتَّكَلُّفِ وَلَا خَيرَ فِي شَيْءٍ يَأْتِي بِهِ ٱلتَّكَلُّفُ . وَقِيلَ لِبَعضِهِمْ : مَا ٱلبَلَاغَةُ . فَقَالَ : ٱلإِيجَازُ . قِيلَ : وَمَا ٱلإِيجَازُ . قَالَ : حَذفُ ٱلفُضُولِ وَتَقرِيبُ ٱلبَعِيدِ . وَقِيلَ لِبَعضِهِمْ : لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلشِّعرَ . فَقَالَ : حَسْبُكَ مِنَ ٱلقِلَادَةِ مَا أَحَاطَ بِٱلعُنُقِ . وَقِيلَ ذٰلِكَ لِآخَرَ . فَقَالَ : لَستُ أَبِيعُهُ مُذَارَعَةً . وَقِيلَ لِلفَرَزدَقِ : مَا صَيَّرَكَ إِلَى ٱلقِصَارِ بَعدَ ٱلطِّوَالِ . قَالَ : لِأَنِّي رَأَيتُهَا فِي ٱلصُّدُورِ أَوقَعَ وَفِي ٱلمَحَافِلِ أَجوَلَ . وَقَالَتْ بِنتُ ٱلحُطَيئَةِ لِأَبِيهَا : مَا بَالُ قِصَارِكَ أَكثَرُ مِنْ طِوَالِكَ . قَالَ : لِأَنَّهَا بِٱلآذَانِ أَولَجُ وَبِٱلأَفوَاهِ أَعلَقُ . وَقَالَ أَبُو سُفيَانَ لِٱبنِ ٱلزِّبَعرَى : قَصَّرتَ فِي شِعرِكَ . قَالَ : حَسبُكَ مِنَ ٱلشِّعرِ غُرَّةٌ لَائِحَةٌ وَسِمَةٌ وَاضِحَةٌ . وَقِيلَ لِلنَّابِغَةِ ٱلذُّبيَانِيِّ : أَلَا تُطِيلُ ٱلقَصَائِدَ كَمَا أَطَالَ صَاحِبُكَ ٱبنُ حُجرٍ . قَالَ : مَنِ ٱنتَحَلَ ٱنتَقَرَ . وَقِيلَ لِبَعضِ ٱلمُحَدِّثِينَ : مَالَكَ لَا تَزِيدُ عَلَى أَربَعَةٍ وَٱثنَيْنِ . قَالَ : هِيَ بِٱلقُلُوبِ أَوقَعُ وَإِلَى ٱلحِفظِ أَسرَعُ وَبِٱلأَلسُنِ أَعلَقُ وَلِلمَعَانِي أَجمَعُ وَصَاحِبُهَا أَبلَغُ وَأَوجَزُ . وَقِيلَ لِٱبنِ حَازِمٍ : أَلَا تُطِيلُ ٱلقَصَائِدَ . فَقَالَ :

أَبَى لِي أَنْ أُطِيلَ ٱلشِّعرَ قَصدِي ... إِلَى ٱلمَعنَى وَعِلمِي بِٱلصَّوَابِ

وَإِيجَازِي بِمُختَصَرٍ قَرِيبٍ ... حَذَفتُ بِهِ ٱلفُضُولَ مِنَ ٱلجَوَابِ

فَأَبعَثُهُنَّ أَربَعَةً وَسِتًّا مُثَقَّفَةً بِأَلفَاظٍ عِذَابِ
وَهُنَّ إِذَا وَسَمتُ بِهِنَّ قَوماً كَأَطوَاقِ الحَمَائِمِ فِي الرِّقَابِ

وَقَالَ عَلِيٌّ : مَا رَأَيتُ بَلِيغاً قَطُّ إِلَّا وَلَهُ فِي القَولِ إِيجَازٌ وَفِي المَعَانِي إِطَالَةٌ . وَقِيلَ لِإِيَاسِ بنِ مُعَاوِيَةَ : مَا فِيكَ عَيبٌ غَيرَ أَنَّكَ كَثِيرُ الكَلَامِ . قَالَ : أَفَتَسمَعُونَ صَوَاباً أَمْ خَطَأً . قَالُوا بَلْ صَوَاباً . قَالَ : فَالزِّيَادَةُ مِنَ الخَيرِ خَيرٌ . وَلَيسَ كَمَا قَالَ لِأَنَّ لِلكَلَامِ غَايَةً وَلِنَشَاطِ السَّامِعِينَ نِهَايَةً . وَمَا فَضَلَ عَنْ مِقدَارِ الاِحتِمَالِ وَدَعَا إِلَى الاِستِثقَالِ وَصَارَ سَبَباً لِلمَلَالِ فَذَلِكَ الهَذَرُ وَالإِسهَابُ وَالخَطَلُ وَهُوَ مَعِيبٌ عِندَ كُلِّ لَبِيبٍ. وَقَالَ بَعضُهُمْ : البَلَاغَةُ بِالإِيجَازِ أَنجَعُ مِنَ البَيَانِ بِالإِطنَابِ . وَقَالُوا : المِكثَارُ كَحَاطِبِ اللَّيلِ . وَمَثَلُ الإِيجَازِ الحَسَنِ كَقَولِهِ : وَخُذِ العَفوَ وَأمُرْ بِالعُرفِ وَأَعرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ . فَجَمَعَ جَمِيعَ مَكَارِمِ الأَخلَاقِ بِأَسرِهَا . لِأَنَّ فِي العَفوِ صِلَةَ القَاطِعِينَ وَالصَّفحَ عَنِ الظَّالِمِينَ وَإِعطَاءَ المَانِعِينَ . وَفِي الأَمرِ بِالعُرفِ تَقوَى اللهِ وَصِلَةَ الرَّحِمِ وَصَونَ اللِّسَانِ عَنِ الكَذِبِ وَغَضَّ الطَّرفِ عَنِ الحُرُمَاتِ وَالتَّبَرُّؤَ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَأمُرَ بِالمَعرُوفِ وَهُوَ يُلَابِسُ شَيئاً مِنَ المُنكَرِ . وَفِي الإِعرَاضِ عَنِ الجَاهِلِينَ الصَّبرُ وَالحِلمُ وَتَنزِيهُ النَّفسِ عَنْ مُقَابَلَةِ السَّفِيهِ بِمَا يُوتِغُ الدِّينَ وَيُسقِطُ القُدرَةَ . وَقَولُهُ : حُبُّكَ الشَّيءَ يُعمِي وَيُصِمُّ . وَقَولُهُ إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحراً . وَقَولُهُ : نِيَّةُ المُؤمِنِ خَيرٌ مِنْ عَمَلِهِ . وَقَولُهُ : تَركُ الشَّرِّ صَدَقَةٌ . فَمَعَانِي هَذَا الكَلَامِ أَكثَرُ مِنْ أَلفَاظِهِ . وَإِذَا أَرَدتَ أَنْ تَعرِفَ صِحَّةَ ذَلِكَ

فَحُلَّهَا وَٱبْنِهَا بِنَاءً آخَرَ فَإِنَّكَ تَجِدُهَا تَجِيءُ فِي أَضْعَافِ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ .
وَقَوْلُهُ : إِذَا أَعْطَاكَ ٱللّٰهُ خَيْرًا فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ
مِنَ ٱلْفَضْلِ وَلَا تُلَمْ عَلَى ٱلْكَفَافِ وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ . فَقَوْلُهُ :
(فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ) أَيْ فَلْيَظْهَرْ أَثَرُهُ عَلَيْكَ بِٱلصَّدَقَةِ وَٱلْمَعْرُوفِ وَدَلَّ
عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ) أَيْ
ٱكْسِرْ مِنْ مَالِكَ وَأَعْطِهِ) وَٱسْمُ ٱلشَّيْءِ ٱلرَّضِيخَةُ (وَلَا تَعْجِزْ عَنْ
نَفْسِكَ) أَيْ لَا تَجْمَعْ لِغَيْرِكَ وَتَبْخَلُ عَنْ نَفْسِكَ فَلَا تُقَدِّمْ خَيْرًا .
وَقَوْلُ أَعْرَابِيٍّ : أُولٰئِكَ قَوْمٌ جَعَلُوا أَمْوَالَهُمْ مَنَادِيلَ لِأَعْرَاضِهِمْ فَٱلْخَيْرُ
بِهِمْ زَائِدٌ وَٱلْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ . أَيْ يَقُونَ أَعْرَاضَهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ .
وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ يَسُوقُ مَالًا كَثِيرًا : لِمَنْ هٰذَا ٱلْمَالُ . فَقَالَ : لِلّٰهِ فِي
يَدِي . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ يَمْدَحُهُ : إِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ
ٱللّٰهَ مَادَّتُهُ . وَقَوْلُ آخَرَ : أَمَّا بَعْدُ فَعِظِ ٱلنَّاسَ بِفِعْلِكَ وَلَا تَعِظْهُمْ
بِقَوْلِكَ وَٱسْتَحْيِ مِنَ ٱللّٰهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ. وَخَفْهُ بِقَدْرِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ.
وَقَالَ آخَرُ : إِنْ شَكَكْتَ فِيَّ فَٱسْأَلْ قَلْبَكَ عَنِّي

وَٱعْلَمْ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ مُدَّعِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ
يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : فَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلْإِيجَازُ كَٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُكَاتَبَاتِ .
وَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلتَّطْوِيلُ كَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّقْلِيدَاتِ وَكُتُبِ ٱلْفُتُوحِ
ٱلَّتِي تُقْرَأُ فِي مَلَإٍ مِنْ عَوَامِّ ٱلنَّاسِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا طَالَ فِي
مِثْلِ ذٰلِكَ أَثَّرَ عِنْدَهُمْ وَأَفْهَمَهُمْ وَلَوِ ٱقْتُصِرَ فِيهِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِشَارَةِ
لَمْ يَقَعْ لِأَكْثَرِهِمْ حَتَّى يُقَالَ فِي ذِكْرِ ٱلْحَرْبِ: ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَتَطَاعَنَ

ٱلْفَرِيقَانِ وَٱشْتَدَّ ٱلْقِتَالُ وَحَمِيَ ٱلنِّصَالُ وَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى. وَٱلْمَذْهَبُ عِنْدِي فِي ذٰلِكَ مَا أَذْكُرُهُ : وَهُوَ أَنَّ فَهْمَ ٱلْعَامَّةِ لَيْسَ شَرْطًا مُعْتَبَرًا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْكَلَامِ. لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ شَرْطًا لَوَجَبَ عَلَى قِيَاسِهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْعَامِّيَّةَ ٱلْمُبْتَذَلَةَ عِنْدَهُمْ لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَقْرَبَ إِلَى فَهْمِهِمْ. لِأَنَّ ٱلْعِلَّةَ فِي ٱخْتِيَارِ تَطْوِيلِ ٱلْكَلَامِ إِذَا كَانَتْ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ إِيَّاهُ فَكَذٰلِكَ تُجْعَلُ تِلْكَ ٱلْعِلَّةُ بِعَيْنِهَا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْمُبْتَذَلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ ٱلْعَامَّةَ إِلَى فَهْمِهِ أَقْرَبُ مِنْ فَهْمِ مَا يَقِلُّ ٱبْتِذَالُهُمْ إِيَّاهُ . وَهٰذَا شَيْءٌ مَدْفُوعٌ وَأَمَّا ٱلَّذِي يَجِبُ تَوَخِّيهِ وَٱعْتِمَادُهُ فَهُوَ أَنْ يُسْلَكَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْقَوِيمُ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى ٱلْمَعَانِي بِحَيْثُ لَا تَزِيدُ هٰذِهِ عَلَى هٰذِهِ مَعَ ٱلْإِيضَاحِ وَٱلْإِبَانَةِ وَلَيْسَ عَلَى مُسْتَعْمِلِ ذٰلِكَ أَنْ يَفْهَمَ ٱلْعَامَّةُ كَلَامَهُ فَإِنَّ نُورَ ٱلشَّمْسِ إِذَا لَمْ يَرَهُ ٱلْأَعْمَى لَا يَكُونُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي ٱسْتِنَارَتِهِ وَإِنَّمَا ٱلنَّقْصُ فِي بَصَرِ ٱلْأَعْمَى حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلنَّظَرَ إِلَيْهِ :

عَلَيَّ نَحْتُ ٱلْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَا عَلَيَّ بِأَنْ لَا تَفْهَمَ ٱلْبَقَرُ

وَحَيْثُ ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْقَوْلُ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا هُوَ غَرَضُنَا وَمُهِمُّنَا مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَحَدِّهِ وَأَقْسَامِهِ وَنُوَضِّحُ ذٰلِكَ إِيضَاحًا جَلِيًّا وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ فَنَقُولُ : حَدُّ ٱلْإِيجَازِ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَٱلتَّطْوِيلُ هُوَ ضِدُّ ذٰلِكَ وَهُوَ أَنْ يُدَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى بِلَفْظٍ يَكْفِيكَ بَعْضُهُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ . كَقَوْلِ ٱلْمُخَيَّرِ ٱلسَّلُولِيِّ مِنْ أَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا وَسَابِقٌ إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ

فَصَدْرُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِيهِ تَطْوِيلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَعَجْزُهُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَوَاصِفَةِ . وَمَوْضِعُ ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ صَدْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا) فَإِنَّ لَفْظَةَ ٱلْمَطَايَا فَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْأَمْرُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ سَابِقُ ٱلْهِمَّةِ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ كَمَا قَالَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ عِنْدَ وُصُولِهِ ٱلْعِرَاقَ : أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا . أَيْ أَنَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلسَّابِقُ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ . فَإِنْ أَرَادَ ٱلْمُجِيزُ بِقَوْلِهِ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا) مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَذِكْرُ ٱلْمَطَايَا يُفْسِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا بِٱلْمَطَايَا . وَإِنْ أَرَادَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْأَسْفَارِ فَٱخْتِصَاصُهُ ٱلثَّنَايَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَغَيْرِهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَعَلَى كِلَا ٱلْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ ذِكْرَ ٱلْمَطَايَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَهُوَ تَطْوِيلٌ بَارِدٌ غَثٌّ . فَقِسْ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلتَّطْوِيلَاتِ ٱلَّتِي إِذَا أُسْقِطَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ فِي أَلْفَاظٍ يُوصَلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ فَتَارَةً تَجِيءُ لِفَائِدَةٍ وَذٰلِكَ قَلِيلٌ وَتَارَةً تَجِيءُ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَأَكْثَرُ مَا تَرِدُ فِي ٱلْأَشْعَارِ لِيُوزَنَ بِهَا ٱلْأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَعَمْرِي وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوُ : أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَظَلَّ وَأَضْحَى وَبَاتَ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ . وَنَحْوُ : يَا صَاحِبِي وَيَا خَلِيلِي وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

أقرّوا لَعَمرِي لِحُكمِ السُّيوفِ   وَكانتْ أحقَّ بفصلِ القضاء

فإنْ قولُهُ : (لَعَمرِي) زيادةٌ لاحاجةَ لِلمعنى إليها وهيَ حشوٌ في هذا البيتِ لا فائدةَ فيهِ إلّا إصلاحُ الوزنِ لا غيرُ . ألا ترى أنها من بابِ القسمِ وإنّما يردُ القسمُ في موضعٍ يؤكَّدُ بهِ المعنى المرادُ إمّا لأنّهُ يُشكُّ فيهِ أوْ مِمّا يعزُّ وجودُهُ أوْ ما جرى هذا المجرى . وهذا البيتُ الشِّعريُّ لا يفتقرُ معناهُ إلى توكيدٍ قسميٍّ إذْ لا شكَّ أنَّ السُّيوفَ حاكمةٌ وأنَّ كلَّ أحدٍ يُقرُّ لِحكمِها ويُذعِنُ لِطاعتِها . وكذلكَ قولُهُ أيضاً :

إذا أنا لمْ ألمْ عثراتِ دهرٍ   بُليتُ بهِ الغداةَ فمَنْ ألومُ

فقولُهُ : (الغداةَ) زيادةٌ لا حاجةَ لِلمعنى إليها لأنّهُ يتمُّ بدونِها لأنَّ عثراتِ الدّهرِ لمْ تنلْهُ الغداةَ ولا العشيَّ وإنّما نالتْهُ ونيلُها إيّاهُ لا بُدَّ أنْ يقعَ في زمنٍ مِنَ الأزمنةِ كائناً ما كانَ ولا حاجةَ إلى تعيينِهِ بالذِّكرِ . وعلى هذا وردَ قولُ البُحتُريّ :

ما أحسنَ الأيّامَ إلّا أنّها   يا صاحبيَّ إذا مضتْ لمْ ترجعِ

فقولُهُ : (يا صاحبيَّ) زيادةٌ لاحاجةَ بالمعنى إليها إلّا أنّها وردتْ لِتصحيحِ الوزنِ لا غيرَ . وهذهِ الألفاظُ الّتي تردُ في الأبياتِ الشِّعريّةِ لِتصحيحِ الوزنِ لاعيبَ فيها . لأنّا لوْ عِبناها على الشُّعراءِ لَتحجّرنا عليهمْ وضيّقنا الوزنَ ويُضطرُّ في بعضِ الأحوالِ إلى مثلِ ذلكَ لكنْ إذا وردتْ في الكلامِ المنثورِ فإنّها إنْ وردتْ حشواً ولمْ تردْ لِفائدةٍ كانتْ عيباً . وقدْ تردُ في الأبياتِ الشِّعريّةِ ويكونُ

طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا وَسَابِقٌ ... إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ

فَصَدْرُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِيهِ تَطْوِيلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَعَجُزُهُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَوَاصِفَةِ . وَمَوْضِعُ ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ صَدْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا) فَإِنَّ لَفْظَةَ ٱلْمَطَايَا فَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْأَمْرُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ سَابِقُ ٱلْهِمَّةِ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ كَمَا قَالَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ عِنْدَ وُصُولِهِ ٱلْعِرَاقَ : أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا . أَيْ أَنَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلسَّابِقُ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ . فَإِنْ أَرَادَ ٱلْعَجُزَ بِقَوْلِهِ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا) مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَذِكْرُ ٱلْمَطَايَا يُفْسِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا بِٱلْمَطَايَا . وَإِنْ أَرَادَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْأَسْفَارِ فَٱخْتِصَاصُهُ ٱلثَّنَايَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَغَيْرِهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَعَلَى كِلَا ٱلْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ ذِكْرَ ٱلْمَطَايَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَهُوَ تَطْوِيلٌ بَارِدٌ غَثٌّ . فَقِسْ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلتَّطْوِيلَاتِ ٱلَّتِي إِذَا أُسْقِطَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ فِي أَلْفَاظٍ يُوصَلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ فَتَارَةً تَجِيءُ لِفَائِدَةٍ وَذٰلِكَ قَلِيلٌ وَتَارَةً تَجِيءُ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَأَكْثَرُ مَا تَرِدُ فِي ٱلْأَشْعَارِ لِيُوزَنَ بِهَا ٱلْأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَعَمْرِي وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوُ : أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَظَلَّ وَأَضْحَى وَبَاتَ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ . وَنَحْوُ : يَا صَاحِبِي وَيَا خَلِيلِي وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

اَقَرُّوا لَعَمْرِي لِحُكْمِ ٱلسُّيُوفِ وَكَانَتْ اَحَقَّ بِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ

فَاِنَّ قَوْلَهُ : (لَعَمْرِي) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ لِلْمَعْنَى اِلَيْهَا وَهِيَ حَشْوٌ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ لَافَائِدَةَ فِيهِ اِلَّا اِصْلَاحُ ٱلْوَزْنِ لَاغَيْرُ. اَلَا تُرَى اَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلْقَسَمِ وَاِنَّمَا يَرِدُ ٱلْقَسَمُ فِي مَوْضِعٍ يُؤَكَّدُ بِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادُ اِمَّا لِاَنَّهُ يُشَكُّ فِيهِ اَوْ مِمَّا يَعِزُّ وُجُودُهُ اَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى. وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلشِّعْرِيُّ لَا يَفْتَقِرُ مَعْنَاهُ اِلَى تَوْكِيدٍ قَسَمِيٍّ اِذْ لَا شَكَّ اَنَّ ٱلسُّيُوفَ حَاكِمَةٌ وَاَنَّ كُلَّ اَحَدٍ يُقِرُّ لِحُكْمِهَا وَيُذْعِنُ لِطَاعَتِهَا. وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ اَيْضًا :

اِذَا اَنَا لَمْ اَلُمْ عَثَرَاتِ دَهْرٍ بُلِيتُ بِهِ ٱلْغَدَاةَ فَمَنْ اَلُومُ

فَقَوْلُهُ : (ٱلْغَدَاةَ) زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ لِلْمَعْنَى اِلَيْهَا لِاَنَّهُ يَتِمُّ بِدُونِهَا لِاَنَّ عَثَرَاتِ ٱلدَّهْرِ لَمْ تَنَلْهُ ٱلْغَدَاةَ وَلَا ٱلْعَشِيَّ وَاِنَّمَا نَالَتْهُ وَنَيْلُهَا اِيَّاهُ لَا بُدَّ اَنْ يَقَعَ فِي زَمَنٍ مِنَ ٱلْاَزْمِنَةِ كَائِنًا مَا كَانَ وَلَا حَاجَةَ اِلَى تَعْيِينِهِ بِٱلذِّكْرِ. وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

مَا اَحْسَنَ ٱلْاَيَّامَ اِلَّا اَنَّهَا يَا صَاحِبَيَّ اِذَا مَضَتْ لَمْ تَرْجِعِ

فَقَوْلُهُ : (يَا صَاحِبَيَّ) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ بِٱلْمَعْنَى اِلَيْهَا اِلَّا اَنَّهَا وَرَدَتْ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَا غَيْرَ. وَهٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظُ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَاعَيْبَ فِيهَا. لِاَنَّا لَوْ عِبْنَاهَا عَلَى ٱلشُّعَرَاءِ لَتَحَجَّرْنَا عَلَيْهِمْ وَضَيَّقْنَا ٱلْوَزْنَ وَيُضْطَرُّ فِي بَعْضِ ٱلْاَحْوَالِ اِلَى مِثْلِ ذٰلِكَ لٰكِنْ اِذَا وَرَدَتْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ فَاِنَّهَا اِنْ وَرَدَتْ حَشْوًا وَلَمْ تَرِدْ لِفَائِدَةٍ كَانَتْ عَيْبًا. وَقَدْ تَرِدُ فِي ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَيَكُونُ

وُرُودُهَا لِفَائِدَةٍ . ∴ فَٱعْلَمْ اَيُّهَا ٱلنَّاظِرُ فِي كِتَابِي هٰـذَا اَنَّ ٱلتَّطْوِيلَ هُوَ زِيَادَاتُ ٱلْاَلْفَاظِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَمَهْمَا اَمْكَنَكَ حَذْفُ شَيْءٍ مِنَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَاِنَّ ذٰلِكَ ٱللَّفْظَ هُوَ ٱلتَّطْوِيلُ بِعَيْنِهِ . وَاَمَّا ٱلْاِيجَازُ فَقَدْ عَرَّفْتُكَ اَنَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ اَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ وَهُوَ مَا يُحْذَفُ مِنْهُ ٱلْمُفْرَدُ وَٱلْجُمْلَةُ لِدَلَالَةِ فَحْوَى ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ وَلَا يَكُونُ اِلَّا فِيمَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ . (وَٱلْقِسْمُ ٱلْآخَرُ) مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ ضَرْبَانِ : (اَحَدُهُمَا) مَا سَاوَى لَفْظُهُ مَعْنَاهُ وَيُسَمَّى ٱلتَّقْـدِيرَ . (وَٱلْآخَرُ) مَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ وَيُسَمَّى ٱلْقَصْرَ . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْقِسْمَ ٱلْاَوَّلَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ يُتَنَبَّهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ كُلْفَةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ لِمَكَانِ ٱلْمَحْذُوفِ مِنْهُ . وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي فَاِنَّ ٱلتَّنَبُّهَ لَهُ عَسِرٌ لِاَنَّهُ يَحْتَاجُ اِلَى فَضْلِ تَاَمُّلٍ وَطُولِ فِكْرَةٍ لِخَفَاءِ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ وَلَا يَسْتَنْبِطُ ذٰلِكَ اِلَّا مَنْ رَسَتْ قَدَمُهُ فِي مُمَارَسَةِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَصَارَ لَهُ خَلِيقَةً وَمَلَكَةً . وَلَمْ اَجِدْ اَحَدًا عَلَّمَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ بِعَلَامَةٍ وَلَا قَيَّدَهُمَا بِقَيْدٍ . . . فَنَقُولُ اَمَّا ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ فَاِنَّهُ عَجِيبُ ٱلْاَمْرِ شَبِيـهٌ بِٱلسِّحْرِ وَذَاكَ اَنَّكَ تَرَى فِيهِ تَرْكَ ٱلذِّكْرِ اَفْصَحَ مِنَ ٱلذِّكْرِ وَٱلصَّمْتَ عَنِ ٱلْاِفَادَةِ اَزْيَدَ لِلْاِفَادَةِ وَتَجِدُكَ اَنْطَقَ مَا تَكُونُ اِذَا لَمْ تَنْطِقْ وَاَتَمَّ مَا تَكُونُ مُبَيِّنًا اِذَا لَمْ تُبَيِّنْ وَهٰذِهِ جُمْلَةٌ تُنْكِرُهَا حَتَّى تُخْبَرَ وَتَدْفَعُهَا حَتَّى تَنْظُرَ . وَٱلْاَصْلُ فِي ٱلْمَحْذُوفَاتِ جَمِيعِهَا عَلَى ٱخْتِلَافِ ضُرُوبِهَا

انْ يَكُونَ فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَإِنَّهُ لَغْوٌ مِنَ ٱلْحَدِيثِ لَا يَجُوزُ بِوَجْهٍ وَلَا سَبَبٍ . وَمِنْ شَرْطِ ٱلْمَحْذُوفِ فِي حُكْمِ ٱلْبَلَاغَةِ انَّهُ مَتَى اُظْهِرَ صَارَ ٱلْكَلَامُ الَى شَيْءٍ غَثٍّ لَا يُنَاسِبُ مَا كَانَ عَلَيْهِ اوَّلًا مِنَ ٱلطَّلَاوَةِ وَٱلْحُسْنِ وَقَدْ يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلْاِعْرَابِ كَقَوْلِنَا : اَهْلًا وَسَهْلًا . فَإِنَّ نَصْبَ ٱلْاَهْلِ وَٱلسَّهْلِ يَدُلُّ عَلَى نَاصِبٍ مَحْذُوفٍ وَلَيْسَ لِهٰذَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لِلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْاِعْرَابِ وَاِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ الَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِنَا : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ فَإِنَّ ذٰلِكَ لَا يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِهِ بِٱلْاِعْرَابِ وَاِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ الَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى اَيْ اِنَّهُ يَحُلُّ ٱلْاُمُورَ وَيَعْقِدُهَا . وَٱلَّذِي يَظْهَرُ فِي ٱلْاِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرًا وَٱلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْاِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْجُمَلِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرٌ

البحث السادس

في المساواة

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْمُسَاوَاةُ هِيَ اَنْ تَكُونَ ٱلْمَعَانِي بِقَدْرِ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْاَلْفَاظُ بِقَدْرِ ٱلْمَعَانِي لَا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَاِلَيْهِ اَشَارَ ٱلْقَائِلُ بِقَوْلِهِ : كَأَنَّ اَلْفَاظَهُ قَوَالِبُ لِمَعَانِيهِ

اي لا يزيد بعضها على بعض . فمما جاء من ذلك قوله : لا تزال امتي بخير ما لم تر الامانة مغنماً والزكاة مغرماً . وقوله : اياك والمشاورة فانها تميت الغرة وتحيي العزة . ومن الفاظ هذه الفصول ما كانت معانيه اكثر من الفاظه وانما يكره تميزها كراهة الاطالة . ومن نثر الكتاب قول بعضهم : سألت عن خبري وانا في عافية لا عيب فيها الا فقدك ونعمة لا مزيد فيها الا بك . وقوله : علمتني نبوتك سلوتك واسلمني يأسي منك الى الصبر عنك . وقوله : فحفظ الله النعمة عليك وفيك وتولى اصلاحك والاصلاح اليك واجزل من الخير حظك والحظ منك ومن عليك وعلينا بك . وقال آخر يئست من صلاحك بي واخاف فسادي بك وقد اطنب في ذم الحمار من شبهك به . ومن المنظوم قول طرفة :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالاخبار من لم تزود

وقول الآخر :

تهدا الامور باهل الرأي ما صلحت ... فان تأبت فبالاشرار تنقاد

وقول الآخر :

اما الذي يحصيهم فمكثر ... اما الذي يطريهم فمقلل

وقول الآخر :

اهابك اجلالا وما بك قدرة ... علي ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس انك عندها ... قليل ولكن قل منك نصيبها

البحث السابع

في الاطناب

(من كتاب الصاعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٧٦ من علم الادب)

قَالَ اَصحَابُ ٱلاطْنَابِ: ٱلمَنطِقُ اِنَّمَا هوَ بيَانٌ وَٱلبيَانُ لَا يَكُونُ اِلَّا بِالِاشْبَاعِ وَٱلشِّفَاءِ لَا يَقَعُ اِلَّا بِالْاقنَاعِ . وَافضَلُ ٱلكَلَامِ اَبيَنُهُ وَاَبيَنُهُ اَشَدُّهُ اِحَاطَةً بِالمَعَانِي وَلَا يُحَاطُ بِالمَعَانِي اِحَاطَةً تَامَّةً اِلَّا بِالِاستِقصَاءِ. وَٱلِايجَازُ لِلخَوَاصِّ وَٱلاطنَابُ مُشتَرِكٌ فِيهِ ٱلخَاصَّةُ وَٱلعَامَّةُ وَٱلعَيِيُّ وَٱلفَطِنُ وَٱلرَّيِّضُ وَٱلمُرتَاضُ وَلِمَعنًى مَا اُطِيلَتِ ٱلكُتُبُ ٱلسُّلطَانِيَّةُ فِي اِفهَامِ ٱلرَّعَايَا. وَٱلقَولُ ٱلقَصدُ اَنَّ ٱلِايجَازَ وَٱلاطنَابَ يُحتَاجُ اِلَيهِمَا فِي جَمِيعِ ٱلكَلَامِ وَكُلِّ نَوعٍ مِنهُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنهُمَا مَوضِعٌ فَٱلحَاجَةُ اِلَى ٱلِايجَازِ فِي مَوضِعِهِ كَالحَاجَةِ اِلَى ٱلاطنَابِ فِي مَكَانِهِ. فَمَنْ اَزَالَ ٱلتَّدبِيرَ فِي ذَلِكَ عَن وَجهِهِ فَٱستَعمَلَ ٱلاطنَابَ فِي مَوضِعِ ٱلِايجَازِ وَٱستَعمَلَ ٱلِايجَازَ فِي مَوضِعِ ٱلاطنَابِ اَخطَاَ . كَمَا رُوِيَ عَن جَعفَرِ بنِ يَحيَى اَنَّهُ قَالَ مَعَ عُجبِهِ بِالِايجَازِ : مَتَى كَانَ ٱلِايجَازُ اَبلَغَ كَانَ ٱلاِكثَارُ عِيًّا وَمَتَى كَانَتِ ٱلكِتَابَةُ فِي مَوضِعِ ٱلاِكثَارِ كَانَ ٱلِايجَازُ تَقصِيرًا . وَاَمَرَ خَالِدُ بنُ يَحيَى ٱثنَينِ اَن يَكتُبَا كِتَابًا وَاحِدًا فِي مَعنًى وَاحِدٍ فَاَطَالَ اَحَدُهُمَا وَٱختَصَرَ ٱلآخَرُ. فَقَالَ لِلمُختَصِرِ وَقَدْ نَظَرَ فِي كِتَابِهِ : مَا اَرَى مَوضِعَ مَزِيدٍ . وَقَالَ لِلمُطِيلِ : مَا

اَرَى مَوْضِعَ نُقْصَانٍ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اَلْبَلَاغَةُ اَلْاِيجَازُ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَاَلْاِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَلَا شَكَّ فِي اَنَّ اَلْكُتُبَ اَلصَّادِرَةَ عَنِ اَلسَّلَاطِينِ فِي اَلْاُمُورِ اَلْجَسِيمَةِ وَاَلْفُتُوحِ اَلْجَلِيلَةِ وَتَفْخِيمِ اَلنِّعَمِ اَلْحَادِثَةِ اَوِ اَلتَّرْغِيبِ فِي اَلطَّاعَةِ وَاَلنَّهْيِ عَنِ اَلْمَعْصِيَةِ . سَبِيلُهَا اَنْ تَكُونَ مُشْبَعَةً مُسْتَقْصَاةً تَمْلَأُ اَلصُّدُورَ وَتَأْخُذُ بِمَجَامِعِ اَلْقُلُوبِ . فَاَلْاِطْنَابُ بَلَاغَةٌ وَاَلتَّطْوِيلُ عِيٌّ . لِاَنَّ اَلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ سُلُوكِ مَا يَبْعُدُ جَهْلًا بِمَا يَقْرُبُ . وَاَلْاِطْنَابُ بِمَنْزِلَةِ سُلُوكِ طَرِيقٍ بَعِيدٍ نَزِهٍ يَحْتَوِي عَلَى زِيَادَةِ فَائِدَةٍ . وَقَالَ اَلْخَلِيلُ : يُخْتَصَرُ اَلْكِتَابُ لِيُحْفَظَ وَيُبْسَطُ لِيُفْهَمَ . وَقِيلَ لِاَبِي عَمْرِو اَبْنِ اَلْعَلَاءِ هَلْ كَانَتِ اَلْعَرَبُ تُطِيلُ . قَالَ : نَعَمْ كَانَتْ تُطِيلُ لِيُسْمَعَ مِنْهَا وَتُوجِزُ لِيُحْفَظَ عَنْهَا. وَاَلْاِطْنَابُ اِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ اِيجَازٌ وَهُوَ فِي اَلْمَوَاعِظِ خَاصَّةً مَحْمُودٌ كَمَا اَنَّ اَلْاِيجَازَ فِي اَلْاِفْهَامِ مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ . وَاَلْمَوْعِظَةُ كَقَوْلِهِ : اَفَاَمِنَ اَهْلُ اَلْقُرَى اَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . اَوَ اَمِنَ اَهْلُ اَلْقُرَى اَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ اَفَاَمِنُوا مَكْرَ اَللّٰهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اَللّٰهِ اِلَّا اَلْقَوْمُ اَلْخَاسِرُونَ. فَتَكْرِيرُ مَا كُرِّرَ مِنَ اَلْاَلْفَاظِ هَا هُنَا فِي غَايَةِ حُسْنِ اَلْمَوْقِعِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَتَى يُحْتَاجُ اِلَى اَلْاِكْثَارِ . قَالَ : اِذَا عَظُمَ اَلْخَطْبُ وَاَنْشَدَ :

صَمُوتٌ اِذَا مَا اَلدَّهْرُ زَيَّنَ اَهْلَهُ ... وَفَتَّاقُ اَبْكَارِ اَلْكَلَامِ اَلْمُحَبَّرِ

وَقَالَ آخَرُ :

يَرْمُونَ بِالْخُطَبِ اَلطِّوَالِ وَتَارَةً ... وَحْيِ اَلْمَلَاحِظِ خَشْيَةَ اَلرُّقَبَاءِ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

إِذَا مَا ٱنْتَدَى خَاطِبًا لَمْ يُقَلْ ... لَهُ أَطِلِ ٱلْقَوْلَ أَوْ قَصِّرِ

طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ ٱلْكَلَا ... مِ لَمْ يَعْيَ يَوْمًا وَلَمْ يَهْذِرِ

فَإِنْ هُوَ أَطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ ... قُضِي لِلْمُطِيلِ عَلَى ٱلْمُقْصِرِ

وَإِنْ هُوَ أَوْجَزَ فِي خُطْبَةٍ ... قُضِي لِلْمُقِلِّ عَلَى ٱلْمُكْثِرِ

وَوَجَدَ ٱلنَّاسَ إِذَا خَطَبُوا فِي ٱلصُّلْحِ بَيْنَ ٱلْعَشَائِرِ أَطَالُوا . وَإِذَا أَنْشَدُوا ٱلشِّعْرَ بَيْنَ ٱلسِّمَاطَيْنِ فِي مَدِيحِ ٱلْمُلُوكِ أَطْنَبُوا . وَٱلْإِطَالَةُ وَٱلْإِطْنَابُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ إِيجَازٌ . وَقِيلَ لِقَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ : مَا عِنْدَكَ فِي حَمَالَاتِ دَاحِسٍ . قَالَ : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ وَرِضَى كُلِّ سَاخِطٍ وَخُطْبَةٌ مِنْ لَدُنْ مَطْلَعِ ٱلشَّمْسِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ . فَقِيلَ لِأَبِي يَعْقُوبَ ٱلْخُرَيْمِيِّ : هَلَّا ٱكْتَفَى بِقَوْلِهِ : آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ فَقَالَ : وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ) . قَالَ : أَوَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ وَٱلتَّعْرِيضَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّكْشِيفِ . وَقَدْ رَأَيْنَا فِي ٱلْقُرْآنِ أَنَّهُ : إِذَا خَاطَبَ ٱلْعَرَبَ وَٱلْأَعْرَابَ أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَ ٱلْإِشَارَةِ . وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَكَى عَنْهُمْ جَعَلَ ٱلْكَلَامَ مَبْسُوطًا . وَقَلَّ مَا تَجِدُ قِصَّةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْقُرْآنِ إِلَّا مُطَوَّلَةً مَشْرُوحَةً وَمُكَرَّرَةً فِي مَوَاضِعَ مُعَادَةً لِبُعْدِ فَهْمِهِمْ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِمْ . وَكَلَامُ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا هُوَ شَوْبُ ٱلْإِيجَازِ بِٱلْإِطْنَابِ . وَٱلْفَصِيحُ ٱلْعَالِي مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقَصْدِ ٱلْمُتَوَسِّطِ لِيُسْتَدَلَّ بِٱلْقَصْدِ عَلَى ٱلْعَالِي وَلِيَخْرُجَ ٱلسَّامِعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ فَيَزْدَادَ

نَشَاطُهُ وَتَتَوَفَّرَ رَغْبَتُهُ فَيَتَصَرَّفُوا فِي وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ إِيجَازِهِ وَإِطْنَابِهِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوا ٱلتَّكْرَارَ لِتَوَكُّدِ ٱلْقَوْلِ لِلسَّامِعِ . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَفِي فَصِيحِ ٱلشِّعْرِ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . وَقَدْ جَاءَ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ مُهَلْهِلٌ :

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبِ

فَكَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ بَيْتًا . وَهٰكَذَا قَوْلُ ٱلْحَرْثِ ٱبْنِ عَبَّادٍ :

قَرِّبَا مَرْبَطَ ٱلنَّعَامَةِ مِنِّي

كَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ هٰذَا لَمَّا كَانَتِ ٱلْحَاجَةُ إِلَى تَكْرِيرِهَا مَاسَّةً وَٱلضَّرُورَةُ إِلَيْهِ دَاعِيَةً لِعِظَمِ ٱلْخَطْبِ وَشِدَّةِ مَوْقِعِ ٱلْفَجِيعَةِ فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ ٱلْإِطْنَابَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَهُمْ مُسْتَحْسَنٌ . كَمَا أَنَّ ٱلْإِيجَازَ فِي مَكَانِهِ مُسْتَحَبٌّ وَلَا بُدَّ لِلْكَاتِبِ فِي أَكْثَرِ أَنْوَاعِ مُكَاتَبَاتِهِ مِنْ شُعْبَةٍ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ يَسْتَعْمِلُهَا إِذَا أَرَادَ ٱلْمُزَاوَجَةَ بَيْنَ ٱلْفَصْلَيْنِ وَلَا يُعَاقِبُ ذٰلِكَ مِنْهُ.وَذٰلِكَ مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ عَظُمَتْ نِعَمُنَا عَلَيْهِ وَتَظَاهَرَ إِحْسَانُنَا لَدَيْهِ فَيَكُونُ ٱلْفَصْلُ ٱلْأَخِيرُ دَاخِلًا فِي مَعْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ لَا يَعِيبُهُ أَحَدٌ . وَلَمَّا أُحِيطَ بِمَرْوَانَ قَالَ خَادِمُهُ بَاسِلٌ : مَنْ أَغْفَلَ ٱلْقَلِيلَ حَتَّى يَكْثُرَ وَٱلصَّغِيرَ حَتَّى يَكْبُرَ وَٱلْخَفِيَّ حَتَّى يَظْهَرَ أَصَابَهُ مِثْلُ هٰذَا . وَهٰذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَإِنْ كَانَ مَعْنَى ٱلْفَصْلَيْنِ ٱلْأَخِيرَيْنِ دَاخِلًا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ .

وَهٰكَذَا قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ حَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ ٱلسُّرَى وَغَنَاءٍ مِنْ عَنَاءٍ وَنَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبِ

وَٱلْغَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلْخَفْضِ وَٱلْعَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلسُّرَى . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُعْظَمَ ٱلْمَدَارِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا دَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلدُّخُولِ وَكَانَتِ ٱلْأَلْفَاظُ مُخْتَارَةً حَسُنَ ٱلْكَلَامُ . وَإِذَا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي مُرَتَّبَةً حَسَنَةً وَٱلْمَعَارِضُ سَيِّئَةً كَانَ ٱلْكَلَامُ مَرْدُودًا فَٱعْتَمِدْ عَلَى مَا مَثَّلْتُهُ لَكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن

في مواقع الاطناب

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهِ وَفِي ٱلتَّكْرِيرِ وَفِي ٱلتَّطْوِيلِ فَمَلَكَتْنِي حَيْرَةُ ٱلشَّبَهِ بَيْنَهُمَا طَوِيلًا . ثُمَّ وَجَدْتُهُ إِنَّهُ ضَرْبٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ . لِأَنَّ مِنَ ٱلتَّأْكِيدِ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ كَمَا مَرَّ وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْإِطْنَابُ لَيْسَ كَذٰلِكَ . وَرَأَيْتُ عُلَمَاءَ ٱلْبَيَانِ قَدِ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَلْحَقَهُ بِٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي هُوَ ضِدُّ ٱلْإِيجَازِ وَهُوَ عِنْدَهُ قِسْمٌ غَيْرُهُ فَأَخْطَأَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي كَأَبِي هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيِّ وَٱلْغَانِمِيِّ حَتَّى أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ كُتُبَ ٱلْفُتُوحِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا مِمَّا يُقْرَأُ عَلَى عَوَامِّ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُطَوَّلَةً مُطْنَبًا فِيهَا . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فَاسِدٌ لِأَنَّهُ إِنْ عَنَى

بِذلِكَ انَّهَا تَكُونُ ذَاتَ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ قَدِ ٱسْتُقْصِيَ فِيهَا شَرْحُ تِلْكَ ٱلْحَادِثَةِ مِنْ فَتْحٍ اَوْ غَيْرِهِ فَذٰلِكَ مُسَلَّمٌ . وَاِنْ عَنَى بِذٰلِكَ انَّهَا تَكُونُ مُكَرَّرَةَ ٱلْمَعَانِي مُطَوَّلَةَ ٱلْاَلْفَاظِ قَصْدًا لِإِفْهَامِ ٱلْعَامَّةِ فَهٰذَا غَيْرُ مُسَلَّمٍ . وَهُوَ مِمَّا لَا يَذْهَبُ اِلَيْهِ مَنْ عِنْدَهُ اَدْنَى مَعْرِفَةٍ بِعِلْمِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . وَعَلَى هٰذَا فَيَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ ٱلْكُتُبُ جَمِيعُهَا مِمَّا يُقْرَأُ عَلَى عَوَامِّ ٱلنَّاسِ وَخَوَاصِّهِمْ ذَاتَ اَلْفَاظٍ سَهْلَةٍ مَفْهُومَةٍ . وَكَذٰلِكَ ٱلْاَشْعَارُ وَٱلْخُطَبُ وَمَنْ ذَهَبَ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ فَاِنَّهُ بِنَجْوَةٍ عَنْ هٰذَا ٱلْفَنِّ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنَّ ٱلْاِطْنَابَ لَا يَخْتَصُّ بِهِ عَوَامُّ ٱلنَّاسِ وَاِنَّمَا هُوَ لِلْخَوَاصِّ كَمَا هُوَ لِلْعَوَامِّ . وَسَاُبَيِّنُ حَقِيقَتَهُ وَاُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ بِحَيْثُ تَزُولُ ٱلشُّبْهَةُ ٱلَّتِي خَبَطَ اَرْبَابُ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ مِنْ اَجْلِهَا وَقَالُوا اَقْوَالًا لَا تُعْرِبُ عَنْ فَائِدَةٍ . وَٱلَّذِي عِنْدِي فِيهِ : اَنَّهُ اِذَا رَجَعْنَا اِلَى ٱلْاَسْمَاءِ وَٱشْتِقَاقِهَا وَجَدْنَا هٰذَا ٱلِاسْمَ مُنَاسِبًا لِمُسَمَّاهُ وَهُوَ فِي اَصْلِ ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ (مِنْ اَطْنَبَ فِي ٱلشَّيْءِ) اِذَا بَالَغَ فِيهِ . وَيُقَالُ : اَطْنَبَتِ ٱلرِّيحُ اِذَا ٱشْتَدَّتْ فِي هُبُوبِهَا . وَاَطْنَبَ فِي ٱلسَّيْرِ اِذَا ٱشْتَدَّ فِيهِ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى مُقْتَضَى مُسَمَّاهُ كَانَ مَعْنَاهُ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي اِيرَادِ ٱلْمَعَانِي . وَهٰذَا لَا يَخْتَصُّ بِنَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ اَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَاِنَّمَا يُوجَدُ فِيهَا جَمِيعًا اِذْ مَا مِنْ نَوْعٍ مِنْهَا اِلَّا وَيُمْكِنُ ٱلْمُبَالَغَةُ فِيهِ . وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ كَذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ يُفْرَدَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنْ بَيْنِهَا وَلَا يَتَحَقَّقُ اِفْرَادُهُ اِلَّا بِذِكْرِ حَدِّهِ ٱلدَّالِّ عَلَى حَقِيقَتِهِ . وَٱلَّذِي يُحَدُّ بِهِ اَنْ يُقَالَ : هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى لِفَائِدَةٍ فَهٰذَا حَدُّهُ ٱلَّذِي يُمَيِّزُهُ

عَنِ ٱلتَّطْوِيلِ إِذِ ٱلتَّطْوِيلُ هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلتَّكْرِيرُ فَإِنَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا كَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : أَسْرِعْ أَسْرِعْ . فَإِنَّ ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدٌ وَٱللَّفْظَ وَاحِدٌ . وَٱلتَّكْرِيرُ جُزْءٌ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ وَهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : إِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِفَائِدَةٍ فَهُوَ إِطْنَابٌ وَلَيْسَ كُلُّ إِطْنَابٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِفَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلَّذِي يَأْتِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلتَّطْوِيلِ وَهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ . فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : إِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ تَطْوِيلٌ وَلَيْسَ كُلُّ تَطْوِيلٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَكُنْتُ قَدَّمْتُ ٱلْقَوْلَ فِي بَابِ ٱلْإِيجَازِ بِأَنَّ ٱلْإِيجَازَ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ . وَإِذَا تَقَرَّرَتْ هٰذِهِ ٱلْحُدُودُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهَا فَإِنَّ مِثَالَ ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّطْوِيلِ مِثَالُ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ إِلَيْهِ فِي ثَلَاثَةِ طُرُقٍ : فَٱلْإِيجَازُ هُوَ أَقْرَبُ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ إِلَيْهِ وَٱلْإِطْنَابُ وَٱلتَّطْوِيلُ هُمَا ٱلطَّرِيقَانِ ٱلْمُتَسَاوِيَانِ فِي ٱلْبُعْدِ إِلَيْهِ . إِلَّا أَنَّ طَرِيقَ ٱلْإِطْنَابِ تَشْتَمِلُ عَلَى مَنْزَهٍ مِنَ ٱلْمَنَازِهِ لَا يُوجَدُ فِي طَرِيقِ ٱلتَّطْوِيلِ وَٱلْإِطْنَابُ يُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَيُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ وَٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ أَبْلَغُ لِٱتِّسَاعِ ٱلْمَجَالِ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّهُ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ يَرِدُ حَقِيقَةً وَمَجَازًا . أَمَّا (ٱلْحَقِيقَةُ) فَمِثْلُ قَوْلِهِمْ : رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي وَقَبَضْتُهُ بِيَدِي وَوَطِئْتُهُ بِقَدَمِي وَذُقْتُهُ بِفَمِي . وَكُلُّ هٰذَا يَظُنُّ ٱلظَّانُّ أَنَّهُ زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ

إِلَيْهَا وَيَقُولُ : إِنَّ ٱلرُّؤْيَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِٱلْعَيْنِ وَٱلْقَبْضَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْيَدِ وَٱلْوَطْءَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْقَدَمِ وَٱلذَّوْقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْفَمِ . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ بَلْ هٰذَا يُقَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَعْظُمُ مِثَالُهُ وَيَعِزُّ ٱلْوُصُولُ إِلَيْهِ فَيُؤَكِّدُ ٱلْأَمْرُ فِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ دَلَالَةً عَلَى نَيْلِهِ وَٱلْحُصُولِ عَلَيْهِ . وَأَمَّا مَا جَاءَ مِنْهُ (عَلَى سَبِيلِ ٱلْمَجَازِ) فَقَوْلُهُ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . فَفَائِدَةُ ذِكْرِ ٱلصُّدُورِ هٰهُنَا أَنَّهُ قَدْ تُعُورِفَ وَعُلِمَ أَنَّ ٱلْعَمَى عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ مَكَانُهُ ٱلْبَصَرُ وَهُوَ أَنْ تُصَابَ ٱلْحَدَقَةُ بِمَا يَطْمِسُ نُورَهَا . وَٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلْقَلْبِ تَشْبِيهٌ وَمَثَلٌ فَلَمَّا أُرِيدَ إِثْبَاتُ مَا هُوَ خِلَافُ ٱلْمُتَعَارَفِ مِنْ نِسْبَةِ ٱلْعَمَى إِلَى ٱلْقُلُوبِ حَقِيقَةً وَنَفْيُهُ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ ٱحْتَاجَ هٰذَا ٱلْأَمْرُ إِلَى زِيَادَةِ تَصْوِيرٍ وَتَعْرِيفٍ لِيَتَقَرَّرَ أَنَّ مَكَانَ ٱلْعَمَى إِنَّمَا هُوَ ٱلْقُلُوبُ لَا ٱلْأَبْصَارُ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ كَثِيرَةٌ مَحَاسِنُهُ وَافِرَةٌ لَطَائِفُهُ وَٱلْمَجَازُ فِيهِ أَحْسَنُ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ لِمَكَانِ زِيَادَةِ ٱلتَّصْوِيرِ فِي إِثْبَاتِ وَصْفِ ٱلْحَقِيقِيِّ لِلْمَجَازِيِّ وَنَفْيِهِ عَنِ ٱلْحَقِيقِيِّ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) ٱلْمُخْتَصُّ بِٱلْجُمَلِ فَإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَى ضُرُوبٍ أَرْبَعَةٍ :

(ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا أَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ فَيُؤْتَى فِيهِ بِمَعَانٍ مُتَدَاخِلَةٍ . إِلَّا أَنَّ كُلَّ مَعْنًى يَخْتَصُّ بِخَصِيصَةٍ لَيْسَتْ لِلْآخَرِ . وَذٰلِكَ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

قَطَعَتْ إِلَيَّ ٱلزَّابِيَيْنِ هِبَاتُهُ ... وَٱلْتَاثَ مَأْمُورُ ٱلسَّحَابِ ٱلْمُسْبِلِ

مِنْ مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ ... بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ

فَقَوْلُهُ : (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ)

تَدَاخَلَتْ مَعَانِيهِ إِذِ ٱلْمِنَّةُ وَٱلصَّنِيعَةُ وَٱلْإِحْسَانُ مُتَقَارِبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِتَكْرِيرٍ لِأَنَّهُ لَوِ ٱقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ : مِنَّةٍ وَصَنِيعَةٍ وَإِحْسَانٍ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ تَكْرِيرًا . وَلٰكِنَّهُ وَصَفَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ بِصِفَةٍ أَخْرَجَتْهَا عَنْ حُكْمِ ٱلتَّكْرِيرِ فَقَالَ : (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلِاشْتِهَارِ لِعِظَمِ شَأْنِهَا . (وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْبَكَارَةِ أَيْ أَنَّهَا لَمْ يُؤْتَ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ . (وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْغُرَّةِ وَٱلتَّحْجِيلِ أَيْ هُوَ ذُو مَحَاسِنَ مُتَعَدِّدَةٍ . فَلَمَّا وَصَفَ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ ٱلْمُتَدَاخِلَةَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِأَوْصَافٍ مُتَبَايِنَةٍ صَارَ ذٰلِكَ إِطْنَابًا وَلَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا . وَلَمْ أَجِدْ فِي ضُرُوبِ ٱلْإِطْنَابِ أَحْسَنَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَا أَلْطَفَ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي شِعْرِهِ كَثِيرًا بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَقَوْلِهِ :

ذَكِيٌّ سَجَايَاهُ تُضِيفُ ضُيُوفُهُ ... وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْأَلُ سَائِلُهْ

فَإِنَّ غَرَضَهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْكَرَمِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَطَاءِ إِلَّا أَنَّهُ وَصَفَهُ بِصِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَجَعَلَ ضُيُوفَهُ تُضِيفُ وَرَاجِيَهُ يُرْجَى وَسَائِلَهُ يُسْأَلُ . وَلَيْسَ هٰذَا تَكْرِيرًا لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ ضُيُوفِهِ تُضِيفُ أَنْ يَكُونَ رَاجِيهِ مَرْجُوًّا وَلَا أَنْ يَكُونَ سَائِلُهُ مَسْئُولًا لِأَنَّ ضَيْفَهُ يَسْتَصْحِبُ ضَيْفًا طَمَعًا فِي كَرَمِ مُضِيفِهِ وَسَائِلَهُ يُسْأَلُ أَنْ يُعْطِيَ ٱلسَّائِلَ عَطَاءً كَثِيرًا يَصِيرُ بِهِ مُعْطِيًا . وَرَاجِيهِ يُرْجَى أَيْ أَنَّهُ إِذَا تَعَلَّقَ بِهِ رَجَاءُ رَاجٍ فَقَدْ أَيْقَنَ بِٱلْفَلَاحِ وَٱلنَّجَاحِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُرْجَى لِمَكَانِ رَجَائِهِ إِيَّاهُ . وَهٰذَا أَبْلَغُ ٱلْأَوْصَافِ ٱلثَّلَاثَةِ . (ٱلضَّرْبُ

ٱلثَّانِي) يُسَمَّى ٱلنَّفْيَ وَٱلْإِثْبَاتَ وَهُوَ اَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ عَلَى سَبِيلِ ٱلنَّفْيِ ثُمَّ يُذْكَرَ عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِثْبَاتِ اَوْ بِٱلْعَكْسِ . وَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ فِي اَحَدِهِمَا زِيَادَةٌ لَيْسَتْ فِي ٱلْآخَرِ وَإِلَّا كَانَ تَكْرِيرًا . وَٱلْغَرَضُ بِهِ تَأْكِيدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ اَنْ يُجَاهِدُوا بِاَمْوَالِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ وَٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَٱعْلَمْ اَنَّ لِهٰذَا ٱلضَّرْبِ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ فَائِدَةً كَبِيرَةً وَهُوَ اَوْكَدُ وُجُوهِهِ اَلَا تَرَى اَنَّهُ قَالَ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ اَنْ يُجَاهِدُوا بِاَمْوَالِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . وَٱلْمَعْنَى فِي ذٰلِكَ سَوَاءٌ إِلَّا اَنَّهُ زَادَ فِي ٱلثَّانِيَةِ قَوْلَهُ : وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ لَكَانَ حُكْمُ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ حُكْمَ ٱلتَّكْرِيرِ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَنْبَغِي اَنْ يُتَأَمَّلَ وَيُنْعَمَ ٱلنَّظَرُ فِيهِ . (اَلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ) هُوَ اَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدُ تَامًّا لَا يَحْتَاجُ إِلَى زِيَادَةٍ ثُمَّ يُضْرَبَ لَهُ مِثَالٌ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

تَرَدَّدَ فِي خُلُقَيْ سُؤْدَدٍ ... سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا

فَكَالسَّيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا ... وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي يَدُلُّ عَلَى ٱلْأَوَّلِ لِاَنَّ ٱلْبَحْرَ وَٱلسَّيْفَ لِلْبَأْسِ ٱلْمَهِيبِ إِلَّا اَنَّ فِي ٱلثَّانِي زِيَادَةَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّتِي تُفِيدُ تَخْيِيلًا وَتَصْوِيرًا .

(اَلضَّرْبُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَسْتَوْفِيَ مَعَانِيَ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْ كِتَابٍ اَوْ خُطْبَةٍ اَوْ قَصِيدَةٍ . وَهٰذَا اَصْعَبُ ٱلضُّرُوبِ ٱلْاَرْبَعَةِ طَرِيقًا اَوْ اَضْيَقُهَا بَابًا لِاَنَّهُ يَتَفَرَّعُ اِلَى اَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَاَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ يَتَفَاوَتُونَ فِيهِ وَلَيْسَ ٱلْخَاطِرُ ٱلَّذِي يَقْذِفُ بِٱلدُّرَرِ فِي مِثْلِهِ اِلَّا مَعْدُومَ ٱلْوُجُودِ وَمِثَالُهُ وَمِثَالُ ٱلْاِيجَازِ مِثَالُ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ وَٱلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ بِثَلَاثَةِ طُرُقٍ : وَقَدْ اَوْرَدْتُ هٰهُنَا مِثَالًا لِهٰذِهِ ٱلْاَسَالِيبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَجَعَلْتُهَا عَلَى هَيْئَةِ ٱلْمَقْصِدِ ٱلَّذِي تُسْلَكُ اِلَيْهِ ٱلطُّرُقُ ٱلثَّلَاثَةُ ...

فَاَقُولُ : قَدْ وَرَدَ فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ كِتَابٌ كَتَبَهُ طَاهِرُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ اِلَى ٱلْمَأْمُونِ يُخْبِرُهُ بِهَزِيمَةِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَقَتْلِهِ اِيَّاهُ وَهُوَ : كِتَابِي اِلَى اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَرَأْسُ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ بَيْنَ يَدَيَّ وَخَاتَمُهُ فِي يَدِي وَعَسْكَرُهُ مُصَرَّفٌ تَحْتَ اَمْرِي وَٱلسَّلَامُ . وَهٰذَا كِتَابٌ جَامِعٌ لِلْمَعْنَى شَدِيدُ ٱلْاِخْتِصَارِ . وَاِذَا كُتِبَ مَا هُوَ مَعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ ٱلْاِطْنَابِ قِيلَ فِيهِ مَا اَذْكُرُهُ وَهُوَ مَا اَنْشَأْتُهُ مِثَالًا فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لِيُعْلَمَ بِهِ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ : اَصْدَرَ كِتَابَهُ هٰذَا وَقَدْ نُصِرَ بِٱلْفِئَةِ ٱلْقَلِيلَةِ عَلَى ٱلْفِئَةِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱنْقَلَبَ بِٱلْيَدِ ٱلْمَلْأَى وَٱلْعَيْنِ ٱلْقَرِيرَةِ وَكَانَ ٱنْتِصَارُهُ بِجَدِّ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَا بِجَدِّ نَصْلِهِ وَٱلْجَدُّ اَغْنَى مِنَ ٱلْجَيْشِ . وَاِنْ كَثُرَتْ اَمْدَادُ خَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَجِيءَ بِرَأْسِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَهُوَ عَلَى جَسَدِ غَيْرِ جَسَدِهِ وَلَيْسَ لَهُ قَدَمٌ فَيُقَالُ اِنَّهُ يَسْعَى بِقَدَمِهِ . وَلَا يَدٌ فَيُقَالُ اِنَّهُ يَبْطِشُ بِيَدِهِ . وَلَقَدْ طَالَ وَطُولُهُ

مُؤْذِنٌ بِقِصَرِ شَأْنِهِ وَحَسَدَتِ ٱلضِّبَاعُ ٱلطَّيْرَ عَلَى مَكَانِهَا مِنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَحْسُودٍ عَلَى مَكَانِهِ. وَأُحْضِرَ خَاتَمُهُ وَهُوَ ٱلْخَاتَمُ ٱلَّذِي كَانَ ٱلْأَمْرُ يَجْرِي عَلَى نَقْشِ أَسْطُرِهِ. وَكَانَ يَرْجُو أَنْ يُصَدِّرَ كِتَابَ ٱلْفَتْحِ بِخَتْمِهِ فَحَالَ وُرُودُ ٱلْمَنِيَّةِ دُونَ مَصْدَرِهِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَبِيلٌ. وَمَصْرَعُهُ جَلِيلٌ وَسَيْفُهُ وَإِنْ مَضَى فَإِنَّهُ عِنْدَ ٱلضَّرْبِ كَلِيلٌ. وَٱلْعَسَاكِرُ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرْبًا صَارَتْ لَهُ سِلْمًا وَأَعْطَتْهُ ٱلْبَيْعَةَ عِلْمًا بِفَضْلِهِ وَلَيْسَ مَنْ تَابَعَ تَقْلِيدًا كَمَنْ هُوَ تَابِعٌ عِلْمًا. وَهُمُ ٱلْآنَ مُصَرَّفُونَ تَحْتَ ٱلْأَوَامِرِ مُمْتَحَنُونَ بِكَشْفِ ٱلسَّرَائِرِ مُطِيعُونَ بِٱللِّوَاءِ ٱلَّذِي خَصَّهُ ٱللهُ بِٱسْتِفْتَاحِ ٱلْمَقَالِدِ وَٱسْتِيطَاءِ ٱلْمَنَابِرِ وَعَلَى ٱللهِ إِتْمَامُ ٱلنِّعَمِ ٱلَّتِي ٱفْتَتَحَهَا وَإِجَابَةُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُقْتَرَحَاتِهِ ٱلَّتِي ٱقْتَرَحَهَا وَٱلسَّلَامُ. وَهٰذَا ٱلْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ فَصَّلَ ذٰلِكَ ٱلْإِجْمَالَ. وَلَوْ كَتَبْتَ عَلَى وَجْهِ ٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَقِيلَ: أَصْدَرَ كِتَابَهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَٱلْتَقَى عَسْكَرُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَعَسْكَرُ عَدُوِّ ٱلْبَاغِي. وَتَطَاعَنَ ٱلْفَرِيقَانِ وَتَزَاحَفَ ٱلْجَمْعَانِ. وَحَمِيَ ٱلْقِتَالُ وَٱشْتَدَّ ٱلنِّزَالُ. وَتَرَادَفَتِ ٱلْكَتَائِبُ وَتَلَاحَقَتِ ٱلْمَقَانِبُ. وَقُتِلَ عِيسَى بْنُ مَاهَانَ وَٱحْتُزَّ رَأْسُهُ وَنُزِعَ ٱلْخَاتَمُ مِنْ يَدِهِ وَخُلِعَ وَتُرِكَ جَسَدُهُ طَعَامًا لِلطُّيُورِ وَٱلسِّبَاعِ وَٱلذِّئَابِ وَٱلضِّبَاعِ. وَٱنْجَلَتِ ٱلْوَقْعَةُ عَنْ غَلَبِ ٱلْخَلِيفَةِ وَنَصْرِهِ وَخِذْلَانِ عَدُوِّهِ وَقَهْرِهِ وَٱلسَّلَامُ. فَهٰذَا ٱلْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى تَطْوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِأَنَّهُ كَرَّرَ فِيهِ مَعَانِيَ يَتِمُّ ٱلْغَرَضُ بِدُونِهَا. فَٱنْظُرْ إِلَى هٰذِهِ ٱلْكُتُبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَتَأَمَّلْهَا وَقِسْ عَلَيْهَا مَا يَأْتِي مِنْهَا

الفصل السابع

في البديع

البحث الاول

في حقيقة علم البديع

(عن ابن جابر الاندلسي والحاج خلفا)

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

اَلْبَدِيعُ مَأْخُوذٌ مِنْ بَدَعَ ٱلشَّيْءَ يَبْدَعُهُ بَدْعًا إِذَا أَنْشَأَهُ وَبَدَأَهُ. وَيُقَالُ ٱبْتَدَعَ ٱلشَّيْءَ إِذَا ٱخْتَرَعَهُ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ . وَٱلْبَدِيعُ يُطْلَقُ بِإِزَاءِ مَعَانٍ يُقَالُ هٰذَا بَدِيعٌ اَيْ مُحْدَثٌ عَجِيبٌ فَيَكُونُ فِي صِيغَةِ ٱلْمَفْعُولِ وَيَكُونُ اَيضًا مِنْ صِيغَةِ ٱلْفَاعِلِ. وَمِنْهُ ٱلْبَدِيعُ فِي اَسْمَاءِ ٱللّٰهِ تَعَالَى لِإِبْدَاعِهِ اَشْيَاءَ وَإِحْدَاثِهِ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ. وَٱلْبَدِيعُ اَيْضًا ٱلْجَدِيدُ يُقَالُ : سِقَاءٌ بَدِيعٌ وَحَبْلٌ بَدِيعٌ اَيْ جَدِيدَانِ. وَيُقَالُ : اَبْدَعَ ٱلشَّاعِرُ إِذَا صَنَعَ ٱلْبَدِيعَ فِي شِعْرِهِ . وَامَّا ٱلْبَدِيعُ اصْطِلَاحًا فَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُطَابِقِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ فِي ٱلدَّلَالَةِ وُضُوحًا وَخَفَاءً . فَقَوْلُهُ : (عِلْمٌ) جِنْسٌ دَخَلَ تَحْتَهُ كُلُّ عِلْمٍ . وَقَوْلُهُ : (يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعُلُومَ كُلَّهَا مَا عَدَا عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْهَا لِاَنَّ غَيْرَهُمَا مِنَ ٱلْعُلُومِ لَا يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ . وَقَوْلُهُ :

(ٱلْمطَابِقُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي لَمْ يُطَابِقْ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَاِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . وَقَوْلُهُ : (ٱلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ اِلَى آخِرِهِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي يُطَابِقُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ يَذْكُرْ كَيْفِيَّاتِ طُرُقِ دَلَالَتِهِ فَاِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . فَتَحَصَّلَ مِنْ هٰذَا ٱلْحَدِّ اَنَّ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ لَا يُسَمَّى بَدِيعًا اِلَّا بِشَرْطَيْنِ : اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ مُطَابِقًا لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَاَنْ تَكُونَ كَيْفِيَّاتُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ مَعْلُومَةَ ٱلْوُضُوحِ وَٱلْخَفَاءِ . فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ فَاِنْ عُدِمَ ٱلشَّرْطَانِ اَوْ اَحَدُهُمَا مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . اَمَّا (مَرْتَبَةُ) هٰذَا ٱلْعِلْمِ فَبَعْدَ مَرْتَبَةِ عِلْمَيِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَجْعَلْهُ عِلْمًا عَلَى حِدَةٍ فَتَاَمَّلْ . وَظَهَرَ مِنْ هٰذَا مَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ . وَاَمَّا مَنْفَعَتُهُ فَاِظْهَارُ رَوْنَقِ ٱلْكَلَامِ حَتَّى يَلِجَ ٱلْاُذُنَ بِغَيْرِ اَذًى وَيَتَعَلَّقَ بِٱلْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَاِنَّمَا دَوَّنُوا هٰذَا ٱلْعِلْمَ لِاَنَّ ٱلْاَصْلَ وَاِنْ كَانَ ٱلْحُسْنَ ٱلذَّاتِيَّ وَكَانَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِمَّا يَكْفِي فِي تَحْصِيلِهِ لٰكِنَّهُمُ اعْتَنَوْا بِشَأْنِ ٱلْحُسْنِ ٱلْعَرَضِيِّ اَيْضًا لِاَنَّ ٱلْحُسْنَ اِذَا عَرِيَ مِنَ ٱلْمُزَيِّنَاتِ رُبَّمَا يَذْهَلُ بَعْضُ ٱلْقَاصِرِينَ عَنْ تَتَبُّعِ مَحَاسِنِهِ فَيَفُوتُ ٱلتَّمَتُّعُ بِهِ

البحث الثاني

في ان البديع احد علوم الادب الستة

(عن بديعية العميان)

وَذٰلِكَ اَنَّكَ اِذَا نَظَرْتَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ اِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ ٱللَّفْظُ وَهُوَ عِلْمُ ٱللُّغَةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَاتِ ٱللَّفْظِ بِحَسَبِ مَا يَعْتَرِيهِ مِنَ ٱلْحَذْفِ وَٱلْقَلْبِ وَٱلْبَدَلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَهُوَ عِلْمُ ٱلتَّصْرِيفِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُفْهَمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرَكَّبِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ اَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْعَرَبِيَّةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ مُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِحَسَبِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ طُرُقِ دَلَالَةِ ٱلْكَلَامِ اِيضَاحًا وَخَفَاءً بِحَسَبِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ وُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ . فَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْاُوَلُ لَا يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا اِلَّا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا . لِاَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِيهَا اَلْفَاظُهُ . وَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْآخِرَةُ يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِاَنَّهَا رَاجِعَةٌ اِلَى ٱلْمَعَانِي وَلَا فَرْقَ فِيهَا فِي ذٰلِكَ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ اِذْ هُوَ اَمْرٌ رَاجِعٌ اِلَى ٱلْعَقْلِ وَلِذٰلِكَ قُبِلَ مِنْ اَهْلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلِاسْتِشْهَادُ بِكَلَامِ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَاَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَاَبِي ٱلْعَلَاءِ وَهَلُمَّ جَرًّا . (وَهُنَا تَنْبِيهٌ) وَهُوَ اَنَّ اَنْوَاعَ ٱلْبَدِيعِ فِي ٱلْكَلَامِ كَٱلْمِلْحِ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخَالِ

فِي ٱلْوَجَنَاتِ وَٱلشِّيَةِ فِي ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَاتِ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخِيلَانُ فِي ٱلْخَدِّ وَٱلشِّيَةُ فِي ٱلْخَيْلِ قَبُحَ ذٰلِكَ وَخَرَجَ عَنْ بَابِ ٱلِاسْتِحْسَانِ فَكَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ إِذَا كَثُرَ وَتُكُلِّفَ تَمُجُّهُ ٱلطِّبَاعُ وَإِنَّمَا يُسْتَحْسَنُ إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْكَلَامِ سَهْلًا عَلَى ٱلطِّبَاعِ مُسْتَعْذَبًا فِي ٱلْأَسْمَاعِ عَارِيًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِٱلْحُسْنِ وَاقِعًا مَوْقِعَ ٱلزَّهْرِ مِنَ ٱلْغُصْنِ فَإِذَا فَرَطَ فِي ٱلزِّيَادَةِ خَاطَبَتْهُ ٱلطِّبَاعُ :

لَوِ ٱخْتَصَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ ... وَٱلْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي ٱلْخَصَرِ

البحث الثالث

في نسبة علم البديع الى علمَي المعاني والبيان

(من شرح بديعيَّة العميان ايضًا)

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنَّ عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلَانِ فِي حَدِّ ٱلْبَدِيعِ عَلِمْتَ أَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِمَا نِسْبَةُ ٱلْمُرَكَّبِ إِلَى مُفْرَدَاتِهِ إِذْ لَا يَدْخُلُ فِي ٱلْحَدِّ إِلَّا مَا هُوَ مِنْ مُفْرَدَاتِ ٱلْمَحْدُودِ ٱلَّتِي تَرَكَّبَ مِنْهَا . فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُ إِلَّا بِوُجُودِ مُفْرَدَاتِهِ كَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِوُجُودِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَإِذَا عُدِمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِنَ ٱلْكَلَامِ عُدِمَ ٱلْبَدِيعُ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ يُعْدَمُ بِعَدَمِ مُفْرَدَاتِهِ فَلَوْ وُجِدَ كَلَامٌ خَالٍ مِنْ سَابِقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي أَوْ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ طُرُقِ ٱلدَّلَالَةِ فِي ٱلظُّهُورِ وَٱلْخَفَاءِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . وَٱعْلَمْ أَنَّ أَعَمَّ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ عِلْمُ

ٱلْمَعَانِي وَاخَصُّهَا عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ لِأَنَّهُ مُتَرَكِّبٌ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ وَزِيَادَةٍ وَٱلْقَاعِدَةُ انَّ ٱلْاخَصَّ يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْاعَمِّ وَزِيَادَةٍ . وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَهُمَا فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْمَعَانِي مُنْدَرِجٌ تَحْتَ ٱلْبَدِيعِ وَكُلُّ بَدِيعٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمَا جُزْءَاهُ . وَكُلُّ بَيَانٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي لِأَنَّهُ جُزْؤُهُ وَلَيْسَتِ ٱلْمَعَانِي مُسْتَلْزِمَةً لِلْبَيَانِ وَلَا لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِمَا وَذٰلِكَ مِنْ كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ تُعْلَمْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَلَا وُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَلَا ٱلْبَيَانُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِ فِي كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَعُلِمَتْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَوُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَإِذَا عَلِمْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ فَٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَدِيعِ كَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنُّطْقِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَلَا يُوجَدُ ٱلْبَدِيعُ بِدُونِهِمَا كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلْإِنْسَانُ بِدُونِ ٱلْحَيَاةِ . وَٱلنُّطْقُ وَٱلْمَعَانِي بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَيَانِ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلنُّطْقِ فَتُوجَدُ ٱلْمَعَانِي بِلَا بَيَانٍ كَمَا يُوجَدُ ٱلْحَيَوَانُ بِلَا نُطْقٍ . وَلَا يُوجَدُ ٱلْبَيَانُ بِلَا مَعَانٍ كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلنُّطْقُ بِدُونِ ٱلْحَيَوَانِ . وَهٰذَا بَسْطُ مَا يُوجَدُ فِي بَيَانِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ وَٱللّٰهُ اعْلَمُ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ انَّ ٱلْمَعَانِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ وَٱلْبَيَانَ رَاجِعٌ إِلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ . فَكَمَا انَّ ٱلْبَدِيعَ لَا بُدَّ لَهُ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ . كَذٰلِكَ فِي ٱلْبَيَانِ لَا بُدَّ لَهُ ايْضًا مِنْ مُطَابَقَةِ ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَلَوْ قَالَ فِي ٱلْمَعَانِي : (زَيْدٌ قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) . اَوْ

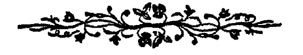
قَالَ : (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ قَائِمٌ) كَانَ خَطَأً .
كَذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ لَوْ قَالَ : (زَيْدٌ جَوَادٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) أَوْ قَالَ : (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ جَوَادٌ) كَانَ خَطَأً

البحث الرابع

في اقسام البديع

(عن شرح بديعية العميان)

اِعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَصُّوا عَلَى أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ أَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِبَابَيْنِ : بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ وَبَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱلْمَعْنَى أَوْ بِٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ مَعًا فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱللَّفْظِ فَقَطْ فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَهِيَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى فَقَط كَٱلتَّوْرِيَةِ وَتَجَاهُلِ ٱلْعَارِفِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱللَّفْظِ . وَقِسْمٌ بِٱللَّفْظِ فَقَطْ كَٱلتَّجْنِيسِ وَرَدِّ ٱلْعَجْزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱلْمَعْنَى . وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى كَٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُقَابَلَةِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِمَّا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فِيهِ حَظٌّ . وَأَسْقَطَ صَاحِبُ ٱلْإِيضَاحِ هٰذَا ٱلْقِسْمَ وَجَعَلَ ٱلْبَدِيعَ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى وَهُوَ ٱلْأَبْيَنُ



البحث الخامس

في تاريخ علم البديع وفي اصحاب البديعيَّات

(عن كشف الظنون باختصار وتصرُّف)

إِعلَمْ انَّ قُدَمَاءَ ٱلْمُصَنِّفِينَ كَانُوا يَذْكُرُونَ هٰذَا ٱلفَنَّ فِي آخِرِ عِلْمِ ٱلبَيَانِ . إِلَّا انَّ ٱلْمُتَاخِرِينَ زَادُوا عَلَيْهِ شَيْئًا كَثِيرًا وَنَظَمُوا فِيهِ قَصَائِدَ وَالَّفُوا كُتُبًا. وَمِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُخْتَصَّةِ بِعِلْمِ ٱلْبَدِيعِ كِتَابٌ لِأَبِي ٱلْعَبَّاسِ عَبْدِاللّٰهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزّ ٱلْعَبَّاسِيّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٦ ﻫ (٩٠٩ م) وَهُوَ اوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِيهِ . وَكَانَ جُمْلَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا سَبْعَةَ عَشَرَ نَوْعًا الَّفَهُ سَنَةَ ٢٧٤ ﻫ (٨٨٧ م). وَعَاصَرَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَجَمَعَ مِنْهَا عِشْرِينَ نَوْعًا تَوَارَدَ مَعَهُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنْهَا فَتَكَامَلَ لَهُمَا ثَلَاثُونَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِنَقْدِ ٱلشِّعْرِ . امَّا ٱلسَّكَّاكِيُّ فَلَمْ يَذْكُرْ مِنْ انْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ سِوَى تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ نَوْعًا. ثُمَّ ٱقْتَدَى ٱلنَّاسُ بِقُدَامَةَ وَٱبْنِ ٱلْمُعْتَزّ فَكَانَ غَايَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا ابُو هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٩٥ ﻫ (١٠٠٥ م) سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِكِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ. ثُمَّ جَمَعَ فِيهَا ٱبْنُ ٱلرَّشِيقِ ٱلْقَيْرَوَانِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٥٦ ﻫ (١٠٦٣ م) فِي ٱلْعُمْدَةِ مِثْلَهَا وَاضَافَ إِلَيْهَا خَمْسَةً وَسِتِّينَ بَابًا فِي احْوَالِ ٱلشِّعْرِ وَاغْرَاضِهِ . وَتَلَاهُمَا شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلتِّيفَاشِيُّ فَبَلَغَ بِهَا ٱلسَّبْعِينَ. ثُمَّ تَصَدَّى لَهَا ٱلشَّيْخُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فَاوْصَلَهَا إِلَى ٱلتِّسْعِينَ وَاضَافَ إِلَيْهَا مِنْ مُسْتَخْرَجَاتِهِ ثَلَاثِينَ سُلِّمَ لَهُ مِنْهَا عِشْرُونَ . وَاجْرَى تِلْكَ ٱلْأَنْوَاعَ فِي ٱلْآيَاتِ ٱلْقُرْآنِيَّةِ

وسماهُ ٱلتَّحرِيرَ وهوَ اصحُّ كِتَابٍ صُنّفَ فِيهِ لِأنَّهُ لَمْ يَتَّكِلْ عَلَى ٱلنَّقْلِ دُونَ ٱلنَّقْدِ . وذَكَرَ انَّهُ وقفَ عَلَى اربعينَ كِتَابًا فِي هٰذَا ٱلعِلْم وَٱلبَدِيعِيَّاتُ ٱلمُشتَهِرَةُ هِيَ بَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ ٱلأَدِيبِ صَفِيِّ ٱلدِّينِ ٱلحِلِّيِّ سَمَّاهَا كَافِيَةَ ٱلبَدِيعِيَّةِ وَشَرَحَهَا شَرْحًا حَسَنًا . حَذَا حَذْوَهُ ٱلشَّيْخُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَانِ ٱلحُمَيْدِيُّ . وَبَدِيعِيَّةُ ابِي جعفرٍ احمدَ ٱلرُّعَيْنِيِّ ٱلمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٧٩ه(١٣٧٧ م)وَهٰذِهِ ٱلبَدِيعِيَّةُ تُعْرَفُ بِبَدِيعِيَّةِ ٱلعُمْيَانِ.وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ شَمْسِ ٱلدِّينِ ابِي عَبدِٱللهِ مُحَمَّدِ بْنِ جَابِرٍ ٱلأَنْدَلُسِيِّ ٱلمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٨٠ ه (١٣٧٨ م)وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ عِزِّ ٱلدِّينِ ٱلمَوْصِلِيِّ وَوَجِيهِ ٱلدِّينِ ٱليَمَنِيِّ ٱلمُتَوَفَّى فِي حُدُودِ سَنَةَ ٨٠٠ ه (١٣٩٨ م) وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ تَقِيِّ ٱلدِّينِ بْنِ حِجَّةَ ٱلحَمَوِيِّ ٱلمُتَوَفَّى سَنَةَ ٨٣٧ ه(١٤٣٣ م) وَسَمَّاهَا ٱلتَّقْدِيمَ تَشْتَمِلُ عَلَى مِئَةٍ وَسِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ نَوْعًا ثُمَّ شَرَحَهَا شَرْحًا مُفِيدًا وَهُوَ مَجْمُوعُ ادَبٍ قَلَّ انْ يُوجَدَ فِي غَيْرِهِ.وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ جَلَالِ ٱلدِّينِ ٱلسُّيُوطِيِّ ٱلمُتَوَفَّى سَنَةَ ٩١١ ه (١٥٠٠ م) وَتُسَمَّى نَظْمَ ٱلبَدِيعِ ثُمَّ شَرَحَهَا . وَبَدِيعِيَّةُ ٱلفَاضِلَةِ عَائِشَةَ ٱلبَاعُونِيَّةِ نَظَمَتْهَا عَلَى مِثَالِ قَصِيدَةِ ٱلحَمَوِيِّ مَعَ عَدَمِ تَسْمِيَةِ ٱلنَّوْعِ . وَاتَى بَعْدَهَا ٱلشَّيْخُ عَبْدُ ٱلغَنِيِّ ٱلنَّابُلُسِيُّ وَنَظَمَ قَصِيدَتَيْنِ ٱلتَزَمَ بِإِحْدَاهُمَا تَسْمِيَةَ ٱلنَّوْعِ

بديعيّة الخوري الفاضل ارسانيوس الفاخوري

مدح بها السيد المسيح ورسلهُ الاطهار

وهي مشتملة على مائة وثمانين نوعًا مع التزام تسمية النوع

براعة المطالع

بَرَاعَةُ ٱلْمَدْحِ فِي نَجْمٍ ضِيَاهُ سَمِي تَهْدِي بِمَطْلَعِهَا مَنْ عَنْ سَنَاهُ عَمِي

الجناس المطلق والمركب

تَطْلِيقُ هَمِّي بِتَرْكِيبِ ٱلْمَدِيحِ لَهُ رُحْ لِي إِلَيْهِ بِهِ رُحْبِي كَذَا هِمَمِي

الجناس المذيّل

سَنَاهُ فِي ٱلْكَوْنِ بَاهٍ بَاهِرٌ عَجِبٌ وَذَيَّلَ ٱلْكَوْنَ نُورًا مَاحِقَ ٱلظُّلَمِ

الجناس اللاحق

دَرْبُ ٱلْهُدَى مَنْ بِهِ قَدْ سَارَ ٱلْحَقَهُ كَمْ حَائِرٍ بَائِرٍ بِٱلرُّشْدِ مِنْهُ رُمِي

الجناس التام والمطرف

أَتَمَّ بَدْرَ ٱلسَّمَا مِصْبَاحُهُ وَسَمَا فَإِنْ هَوِيتُ بِهِ ٱلتَّطْرِيفَ لَمْ أُلَمِ

الجناس المصحف والمحرف

أَرَاحَ تَصْحِيفُهُ ذِهْنَنَا أَزَاحَ لَهُ تَحْرِيفَ قَوْلٍ غَدَا فِي ٱلْحُكْمِ وَٱلْحِكَمِ

الافتنان

فَاقَ ٱفْتِنَانِي وَمَدْحِي فِي مَحَاسِنِهِ يَا تَعْسَ عُمْرٍ مَضَى بِٱلْمَدْحِ لَمْ يَقُمِ

المطابقة

فَلَمْ أُطَابِقْ عَلَى بُعْدِ ٱلْأَحِبَّةِ بَلْ إِنِّي أُطَابِقُ فِي قُرْبِي لِخِدْرِهِمِ

سلامة الاختراع

سَلَامَتِي فِي ٱخْتِرَاعِي نَظْمَ قَافِيَةٍ أَرْجُو بِهَا ٱلنَّظْمَ فِي أَجْزَاءِ سِلْكِهِمِ

الاستعارة

إِنِّي ٱسْتَعَرْتُ جِيَادَ ٱلدَّمْعِ فِي سَفَرِي   جَرْيًا وَرَاءَ مَتَابٍ فِي سَبِيلِهِمِ

الجناس المعنوي

وَعُدتُ بِٱسْمِ ٱبْنِ رَعْدٍ ثُمَّ بِٱسْمِ أَبِي   إِسْحَقَ يَامَعْنَوِيَّ فِي ٱلْهَوَى بِهِمِ

الاستطراد

مُسْتَطْرِدًا فِي هَوَاهُمْ خَيْلَ مُنْعَطَفِي   كَأَدْمُعِي قَدْ جَرَتْ شَوْقًا لِقُرْبِهِمِ

الاستخدام

سَقَى ٱلْإِلٰهُ ٱلْحَيَا خَيْلًا رَعَتْهُ قَدِ ٱسْـ   ـتَخْدَمْتُهَا قَصْدَ إِدْرَاكٍ لِوَصْلِهِمِ

التخيير

بِرَبْعِهِمْ قَدْ تَخَيَّرْتُ ٱلْعَنَاءَ وَلَا   مُ ٱلْبَقَاءِ فِي سَعَةٍ فِي غَيْرِ رَبْعِهِمِ

التذييل

أَذُمُّ تَذْيِيلَ عَذْلٍ طَالَ مِنْكَ كَفَى   يَاعَاذِلِي ٱلْعَذْلُ مَذْمُومٌ مِنَ ٱلْأُمَمِ

الايداع

وَعِنْدَ إِيدَاعِهِ سَمْعِي مَلَامَتَهُ   مَزَجْتُ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

الجناس اللفظي وجناس القلب

قَدْ ضَلَّ رَأْيًا بِطَعْنٍ ظَلَّ يَلْفِظُهُ   فَٱلْقَلْبُ مَاحَالَ مِنْ لَاحٍ عَنِ ٱلذِّمَمِ

الاكتفاء

لَمْ يَكْتَفِ ٱلْعَاذِلُ ٱلنَّمَّامُ مِنْ حِيَلٍ   فَكَمْ لِذَاكَ خَبَا لِلْعَاشِقِينَ كَمِي

التفويف

اِرْحَمْ وَدَعْ وَٱتَّئِدْ وَٱشْفَقْ وَلِنْ وَٱرِحْ   فِ وِزِفْ وَوَشِّ وَجُدْ وَٱنْظِمْ وَمِقْ وَهِمِ

الملفق

أَبَى نَوَالِيَ بِٱلتَّلْفِيقِ مِنْهُ كَمَا   أَبَانَ وَالِيَ وَجْدٍ عَنْ وَلَائِهِمِ

الارقط

قَدْ خَابَ مَنْ مِنْهُ يَرْجُو خُطَّةً وَجَدَى　　وَشَانَ رَقْطٌ بِهِ قَدْ بَانَ مِنْ اَضَمِ

الالتفات

فَمَا ٱلتَفَتُّ اِلَى مَكْرٍ بِتَوْشِيَةٍ　　عَرِّجْ رِكَابَكَ عَنْ تِيهٍ اِلَى ٱللَّقَمِ

الجناس المقلوب المستوي

حَرْفُ اَخَا كُرَبٍ بَرَّكْ اَخَا فَرَحٍ　　فَيَسْتَوِي ٱلْقَلْبُ بِٱلْاَفْرَاحِ لَا ٱلْغُمَمِ

الموازبة

يَا لَائِمِي خَلِّ قَوْلًا فِي مُوَارَبَةٍ　　فَعَاقِلٌ اَنْتَ يَا ذَا ٱلْعَذْلِ فَٱسْتَقِمِ

الالتزام

اِنِّي لَمُلْتَزِمٌ خُلْدًا بِحُبِّهِمِ　　حَتَّى ٱلْمَنَايَا بِهَا عَيْشٌ لِصَبِّهِمِ

رد العجز على الصدر

بِهِمْ اَرُدُّ عَلَى صَدْرِ ٱلْخَاصِمِ عَجْـ　　ـزَهُ وَاُخْزِي ٱلْعِدَى يَوْمَ ٱلْوَغَى بِهِمِ

المقابلة

اِنْ رُحْتُ مُنْزَعِجًا خَوْفًا بِمَسْئَلَةٍ　　فَقَابِلُوا بِٱلشِّفَا وَٱلْاَمْنِ وَٱلنِّعَمِ

المراجعة

قَالَ ٱسْلُهُمْ قُلْتُ حَاشَا لِي فَرَاجَعَنِي　　فَقَالَ دَعْهُمْ فَقُلْتُ ٱلسَّمْعُ فِي صَمَمِ

الهزل الذي يراد به الجد

بِٱلْجِدِّ هَازَلَنِي وَٱلدَّمْعُ مُنْسَجِمٌ　　فَقَالَ ٱرْوِ ٱلظَّمَا مِنْ مَنْهَلٍ شَبِمِ

القول بالموجب

قَوْلِي لَهُ مُوجَبٌ اِذْ قَالَ اَنْتَ لَهُمْ　　سَالٍ فَقُلْتُ لِجِسْمِي مِنْ سَعِيرِهِمِ

المتراكم

قَدْ قَدَّ قَدَّ فُؤَادِي عَضْبُ غَيْبَتِهِ　　مِنْهَا تَرَاكَمَتِ ٱلْاَحْزَانُ مِنْ اَلَمِي

الاستدراك

فَقَالَ مَكْرًا بِسُقْمٍ أَنْتَ بَلْ شُغُلٍ فَقُلْتُ مُسْتَدْرِكًا لَكِنْ بِعِشْقِهِمِ

المناقضة

إِنِّي أُنَاقِضُ عَهْدِي لِلْمُحِبِّ إِذَا مَا شِبْتُ أَوْ عُدْتُ طِفْلًا بَعْدَ مَا هَرِمِ

حسن الاتباع

حُسْنُ ٱتِّبَاعٍ لَهُمْ قَلْبِي ٱصْطَفَاهُ هَوًى فَٱلْقَلْبُ عِنْدِي لِغَيْرِ ٱلْعِشْقِ لَمْ يَقُمِ

تشابه الاطراف

تَشْبِيهُ أَطْرَافِ أَقْوَالِي سَمَا بِهِمِ بِهِمْ مَدِيحِي غَدَا فِي أَبْلَغِ ٱلْحِكَمِ

السهولة

سُهُولَةُ ٱلنَّظْمِ تَحْلُو فِي مَدِيحِهِمِ لَا فِي مَدِيحِ ٱلظِّبَا وَٱلْغِيدِ لِلْحَشَمِ

الجناس الخالي او المعجم

نَبَذْتُ تَفْنِينَ تَشْبِيبٍ بِذِي شَغَفٍ يَفْتَنُّ فِي غُنْجِ جَفْنٍ جُنَّ بِٱلْعَجَمِ

التهكم

بِهِمْ رَأَى عِزَّهُ تِيهًا فَذَلَّ بِهِمْ تَهَكُّمًا قُلْتُ يَا بُشْرَاكَ بِٱلنَّدَمِ

الهجاء في معرض المدح

بِمَعْرِضِ ٱلْمَدْحِ قَدْ يَهْجُوكَ قَائِلُهُ مَا مِثْلُكُمْ بِٱحْتِمَالِ ٱلضُّرِّ وَٱلرَّغَمِ

الابهام

كَمْ زَادَ إِبْهَامَ نُصْحِي ذَا ٱلْعَذُولِ وَكَمْ يَا لَيْتَ إِبْهَامَهُ فِي حَيِّزِ ٱلْعَدَمِ

النزاهة

نَزَّهْتُ سَمْعِي بِحَقٍّ عَنْ نَصَائِحِهِ إِذْ لَمْ أَرَ ٱلْحَقَّ فِي قَوْلٍ وَلَا كَلِمِ

المغايرة

أُغَايِرُ ٱلنَّاسَ فِي حُبِّي لِذِي عَذَلٍ مُسْتَنْطِقًا فَمَهُ حُبًّا لِذِكْرِهِمِ

الجناس الموصّل

نَفْسِي لَهُمْ عَشِقَتْ حُبًّا بِهِمْ شُغِفَتْ فَحُبُّهُمْ صِلَةٌ تُنْفَى بِهَا غُمَمِي

الاستثناء

اَهْوَى ٱلْخُطُوبَ بِلَا ٱسْتِثْنَا لِحُبِّهِمِ اِلَّا مَلَامَ عَذُولِي لِي لِأَجْلِهِمِ

الجناس المهمل

كَلَّا ٱلْإِلٰهُ ٱمْرَءًا رَامَ ٱلْوِدَادَ لَهُ وَٱهْمَلَ ٱلْوُدَّ لِلْأَسْوَاءِ وَٱلْحُرَمِ

الجناس الاخيف

اَحَلَّهُ خَيْفَ سَعْدٍ فِي لِوَا نُجُبٍ كَسَا شَبِيبَةَ عُمْرٍ جُبَّةَ ٱلسَّلَمِ

الالغاز

مِنْ مَرْمَرِ ٱلرُّشْدِ خُذْ شَطْرًا بِشَطْرِ م يَمِينِ ٱللّٰهِ مُتَّحِمًا لِلُّغْزِ تفتهم

الجناس المقطع

وَإِنْ اَرَدتَّ دَوَاءً زُرْ ذُرَاهُ وَرُدْ وَإِنْ اَرَدتَّ رِوًى دَعْ وِرْدَ ذِي زَامِ

المحاجاة

وَٱسْتَشْفِهِ فِي ٱلتَّحَاجِي مُمْعِنًا نَظَرًا بِقَوْلِهِ فَٱلْإِسَا مِلْكِي ومِنْهُ رُمِ

الكلام الجامع

جَمْعُ ٱلْكَلَامِ إِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ حِكَمًا لَمْ يُلْفِ مَنْ ذَاقَ فِيهِ لَذَّةَ ٱلدَّسَمِ

الاقتباس

مِنْ مَجْمَعِ ٱلشَّوْكِ هَلْ مَنْ يَجْتَنِي عِنَبًا لَمْ تُقْتَبَسْ لَذَّةٌ مِنْ عَاطِلِ ٱلْكَلِمِ

التوجيه

وَجِّهْ اِلَى الرَّبِّ نَعْتًا اَنْتَ تَابِعُهُ يَرْفَعْكَ مِنْ خَفْضِ رُتْبَاتٍ اِلَى ٱلْعِظَمِ

عكس الاشارة

بِحَقِّ بِرٍّ فَقُمْ لَا فِي اِشَارَتِهِ فَإِنَّ عَكْسَ ٱسْمِهِ مَعْنَاهُ كَٱلْعَلَمِ

المطمع

قد طاب للنفس في الأسواء مطمعها ... بل طال فيها ولم تعدل الى الندم

الرجوع

ما لي رجوع الى حالي لأصلحها ... بلى اذا مع هدى ربي سعى قدمي

عتاب النفس

يا نفس عي وارعوي واصغي الى عتبي ... حتام انت بجهل غير منصرم

التسليم

هبي لزعمك قد سلمت مرتضيا ... فما يكون جوابي يوم محتكمي

القسم

فلا أنلت المنى ان مت متبعا ... هواك في غير ما اهوى وذا قسمي

حسن التخلص

فرغبتي والهوى حسن التخلص من ... اثمي بمدح وسيط الناس كلهم

الاطراد

يسوع بكر الاله ابن البتول سلا ... له الملوك ورب في اطرادهم

حصر الجزئي والحاقه بالكلي

فرد به تحصر الانصار اجمعهم ... فالجزء يلحق بالكلي للعظم

العكس

نفس الجمال جمال النفس فيه بدا ... يا عكس من عن سنا هذا الجمال عمي

المماثلة

فالآب ماثله والروح وافقه ... والكنه شاركه بالعظم والقدم

التفسير

كنه ثلاثي اقنوم يفسره ... آب وابن وروح في وحيدهم

المذهب الكلامي

فَمَذْهَبِي فِي كَلَامِي مِنْهُ مُنْقِذُنَا لَوْ لَمْ يَصِرْ بَشَرًا لَمْ نَنْجُ مِنْ ضَرَمِ

المناسبة

لَاهُوتُهُ كَامِلٌ وَٱلطُّهْرُ نَاسَبَهُ نَاسُوتُهُ فَاضِلٌ فِي ٱلْخَلْقِ وَٱلشِّيَمِ

ارسال المثل

فَٱلْحُسْنُ فِي ٱلْخَلْقِ آرْبَى فِيهِ عَنْ مَثَلٍ وَٱلْفَضْلُ اَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ

الترديد

فَهُوَ ٱلْبَدِيعُ لَنَا هٰذَا ٱلْبَدِيعُ سَنًى بِهِ ٱلْبَدِيعُ حَلَا تَرْدِيدُهُ بِفَمِي

التكرار

تَكْرَارُ مَدْحِي بِمَا بِٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ م ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ

الترتيب

لَهُ ٱلْمَلَائِكُ وَٱلْإِنْسَانُ اَجْمَعُهُ وَمَا سِوَاهُمُ فِي ٱلتَّرْتِيبِ كَٱلْخَدَمِ

التشريع

لَمَّا ٱنْحَنَى وَبِتَشْرِيعِ ٱلْفِدَاءِ بَدَا نِلْنَا ٱلْمُنَى فَنَجَوْنَا مِنْ رَدَى ٱلْعَرِمِ

التكميل

اَوْفَى اَبَاهُ تَمَامًا دَيْنَ آدَمِهِ حَمْدًا لَهُ فَاقَ تَكْمِيلًا بِذَا ٱلْكَرَمِ

الجناس المرفوّ

هَيَّا مَدَارَ نَعِيمٍ قَدْ رَفَاهُ بِهِ وَطَمَّ دَارَ جَحِيمٍ حَالِكِ ٱلظُّلَمِ

الجناس المشتق

هَدَى اِلَى ٱلْمَنْهَجِ ٱلْهَادِي بُغَاةَ هُدًى وَمِنْ هُدَاهُ ٱلْخَلَاصُ ٱشْتُقَّ لِلْأُمَمِ

النقل

تَمَّتْ نُقُولُ نُبُوَّاتٍ بِهِ وَمَضَتْ بِهِ ٱلْخَلِيلُ نَجَا مِنْ وَابِلِ ٱلضَّرَمِ

تشبيه شيئين بشيئين

شَيْئَانِ قَدْ اَشْبَهَا شَيْئَيْنِ فِيهِ لَنَا   تَعَطُّفٌ وَنَدًى كَٱلبَحْرِ وَٱلدِّيَمِ

التشطير

تَشْطِيرُ نِعْمَتِهِ ما بَيْنَ اُمَّتِـهِ   كَٱللُّجِ فِي عِظَمٍ قَدْ كَانَ فِي ٱلقِسَمِ

الطيّ والنشر

فَٱلطَّيُّ وَٱلنَّشْرُ وَٱلتَّبْدِيلُ عَنْ كَرَمٍ   لِلْعُسْرِ وَٱلْيُسْرِ وَٱلاَحْوَالِ وَٱلشِّيَمِ

الايغال

فِي ٱلسَّعْيِ اَوْغَلَ فِي تَمْهِيدِهِ سُبُلًا   اِلَى ٱلْخَلَاصِ بِحُبٍّ غَيْرِ مُنْكَتِمِ

الاشارة

وَمِنْ اِشَارَاتِهِ بِٱلوَعْظِ كَمْ نَجَتْ   لَهُمْ فُنُونٌ بِهَا زَادُوا بِبِرِّهِمِ

الايجاز

وَقَوْلُهُ مُوجَزٌ فِي صُنْعِ مُعْجِزَةٍ   اِنْ قَالَ اَشْفَى وَاَحْيَا بَالِيَ ٱلرِّمَمِ

التوشيع

تَوْشِيعُ مَذْهَبِهِ فِي فَضْلِ سُنَّتِـهِ   مُثَبِّتُ ٱلاَمْجَدَيْنِ ٱلعَهْدِ وَٱلذِّمَمِ

التورية

وَكَمْ عُقُودٍ لَهُمْ حَلَّتْ فَوَائِـدُهُ   بِحُسْنِ تَوْرِيَةٍ حَلَّتْ لِسَانَ فَمِي

النوادر

كَمْ مِنْ نَوَادِرِ بَذْلٍ مَارَسَتْ يَدُهُ   حَتَّى جَرَى دَمُهَا لِلْبَـذْلِ كَٱلدِّيَمِ

البسط

تَعَوَّدَ ٱلجُودَ مَعْ بَسْطِ لِرَاحَتِـهِ   لِلْعُـودِ جَادَ بِهَا مَدًّا بِلَا سَقَمِ

الجمع مع التقسيم

جَمْعٌ تَقَسَّمَ يَوْمَ ٱلصَّلْبِ فِي فِرَقٍ   مِنْ قَاتِـلٍ وَمُهِينٍ ثُمَّ مُنْتَقِمِ

الجمع

فَٱلْجَلْدُ وَٱلْهَزْؤُ وَٱلتَّشْتِيمُ مَعْ عَذَلٍ　　إِهَانَـةٌ نَالَهَا مِنْ بَغْيِ جَمْعِهِمِ

جناس البعض

بَعْضٌ حَمَاقَتُهُمْ زَادَتْ حَمَاسَتَهُمْ　　جَوْرًا وَبَعْضٌ كَكَلْبٍ كَالِبٍ نَهِمِ

المتوَّش

وَشَوَّشُوا ٱلْفَرْعَ مِنْ خَدْشٍ بِهَامَتِهِ　　وَٱلْقَدْغُ فِي ٱلْجِسْمِ وَٱلْكَفَّيْنِ وَٱلْقَدَمِ

التشبيه

وَٱلْجِسْمُ إِنْ جِئْتَ تَشْبِيهًا لِحَالَتِهِ　　قُلْ كَٱلْخِلَالِ نُحُولًا مِنْ نَكَالِهِمِ

تجاهل العارف

تَجَاهَلَ ٱلنَّاسُ فِي عِرْفَانِ صُورَتِهِ　　قَالُوا أَسُقْمٌ بِهِ أَمْ بِٱلنَّكَالِ رُمِي

المساواة

بِٱلْمَوْتِ سَاوَى ٱلْمَلَا أَمَّا قِيَامَتُهُ　　فَأَوْضَحَتْ قُدْرَةَ ٱللَّاهُوتِ كَٱلْعَلَمِ

التوهيم

تَدْهِيمُ قَلْبٍ جَلَتْ بُشْرَى قِيَامَتِهِ　　جَلَّتْ بِنَصْرٍ وَعَزَّتْ سَاعَةَ ٱلْغُمَمِ

الجناس الكامل

وَبَعْدَمَا قَدْ قَضَى فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ إِلَى　　مَ ٱلْعُلَا ٱرْتَقَى ذَا ٱلْجَمِيلُ ٱلْكَامِلُ ٱلشِّيَمِ

الانسجام

وَمِنْ لَدُنْهُ ٱلْمُعَزِّي حَلَّ مُنْسَجِمًا　　عَلَى تَلَامِيذِهِ كَٱلْلُسْنِ مِنْ ضَرَمِ

التسهيم

تَسَهَّمُوا ٱلْأَرْضَ لِلْبُشْرَى فَقَالَ لَهُمْ　　وَتَلْمِذُوا عَمِّدُوا كُلًّا مِنَ ٱلْأُمَمِ

التمكين

جَالُوا بِتَمْكِينِ عَزْمٍ فِي بِشَارَتِهِمْ　　وَلَمْ يُبَالُوا بِتَعْذِيبٍ وَسَفْكِ دَمِ

الجناس المركب المجموع

جَادُوا بِأَنْفُسِهِمْ حُبّاً كَمَا لِهِمِ ... وَجَمْعُ تَرْكِيبِ فَضْلٍ فِي كَمَا لِهِمِ

الإرداف

وَارْدَفُوا الْعَزْمَ بَأْساً اَسْكَنُوهُ مُحَلَّ م الْحُبِّ فِي السَّيْرِ لِلْبُشْرَى بِرَبِّهِمِ

الاتساع

بِيضُ الْمَفَارِقِ بَلْ طُهْرُ النُّفُوسِ هُمُ ... وَبِاتِّسَاعِ الْحِجَى فَازُوا بِقَصْدِهِمِ

الاستتباع

يَسْتَتْبِعُونَ بِمَحْضِ النُّصْحِ فِعْلَ هُدًى ... وَيَحْفَظُونَ تُقَاهُمْ حِفْظَ دِينِهِمِ

المردَّد

وَمِنْ مُرَدَّدِ اِنْذَارٍ حَكَوْهُ فَذُو م الْهَوَى هَوَى كَذَاكَ الْعَابِدُ الصَّنَمِ

الترصيع

هُمْ رَصَّعُوا اَدَباً مِنْ دُرِّ لَفْظِهِمِ ... كَمْ اَبْدَعُوا خُطَباً فِي سِرِّ وَعْظِهِمِ

ايتلاف اللفط مع الوزن

تَآلَفَ اللَّفْظُ مَعْ وَزْنٍ بِمَدْحِهِمِ ... لِرَبِّهِمْ ضِمْنَ نَظْمٍ فِيهِ مُنْسَجِمِ

ايتلاف اللفط مع المعنى

اَللَّفْظُ فِي الْمَدْحِ مَعْ مَعْنَاهُ مُؤْتَلِفٌ ... فَلِلْمَعَانِي تَرَى الْاَلْفَاظَ كَالْخَدَمِ

الفرائد

وَكَمْ مِنْ فَرَائِدِ دُرٍّ فِيهِ قَدْ نَظَمُوا ... عِقْدَ النَّشِيدِ فَاعْجَبْ بِانْتِظَامِهِمِ

ايتلاف المعنى مع الوزن

تُؤَلِّفُ الْوَزْنَ وَالْمَعْنَى نَشَائِدُهُمْ ... صَحِيحَةً عَذْبَةً فِي اللَّحْنِ وَالنَّغَمِ

التسميط

تَسْمِيطُهُمْ دُرَراً اَضْحَى بِهِ غُرَراً ... اَمْسَى لَنَا قَمَراً فِي لَيْلَةِ الْغُمَمِ

ايتلاف اللفظ مع اللفظ

وَٱللَّفظُ لِلحَمْدِ فِي ٱلأَفوَاهِ مُؤْتَلِفٌ   مَعْ لَفظِ مَدْحٍ بَدَا مِنْ أَلسُنِ ٱلدِّيَمِ

الابداع

إِبْدَاعُ نَظْمِهِمِ دَمْعِي جَلَا وَحَلَا   إِيدَاعُ نَثْرِهِمِ سَمْعِي كَمُنْتَظِمِ

التفريع

يَا نَسْمَةً حَمَلَتْ مِسْكًا لَطَائِفُهَا   يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْ تَفْرِيعِ فَضْلِهِمِ

المدح في معرض الذم

فِي مَعْرِضِ ٱلذَّمِّ مَدْحًا قَدْ خَصَصْتُ بِهِمْ   لَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى ٱلْإِيفَاءِ بِٱلذِّمَمِ

الجناس المرفل

وَبِٱلْأَيَادِي أَيَادِيهِمْ سَمَتْ كَرَمًا   فَرَاحَ يَرْفُلُ بِٱلْإِثْرَاءِ ذُو ٱلْعَدَمِ

الكناية

تَزَاحُمٌ لِعُفَاةٍ يُسْرِعُونَ إِلَى   فِرَاتِهِمْ ذَا يُكَنِّي عَنْ سَخَائِهِمِ

التوزيع

عَلَى ٱلْعُفَاةِ جَمِيعًا وَزَّعُوا نِعَمًا   فَعَادَ أَعْوَزُهُمْ بِٱلْعِزِّ وَٱلْعِظَمِ

الاشتراك

سَادُوا بِصَدْرٍ غَدَا بِٱلْعِزِّ مُشْتَرَكًا   صَدْرِ ٱلْجُلُوسِ عَلَى كُرْسِي قَضَائِهِمِ

الموازنة

مُوَازِنٍ وَاتِنٍ مُسْتَرْكِنٍ حَسَنٍ   مُسْتَعْلِنٍ فَاتِنٍ مُسْتَمْكِنٍ فَخِمِ

المؤتلف والمختلف

فَجَمْعُ مُؤْتَلِفٍ فِيهِمْ وَمُخْتَلِفٍ   حُكْمًا وَفَضْلًا فَسِمْعَانٌ بِذَاكَ سَمِي

الايضاح

مَا بَيْنَهُمْ صَخْرَةٌ لِلْحَقِّ مُوضِحَةٌ   بَنَى ٱلْمَسِيحُ عَلَيْهَا بَيْتَ جَمْعِهِمِ

الطاعة والعصيان

فَمَنْ يُطِعْ حُكْمَهُ يُرْحَمْ لَدَى شَجَبٍ ... وَمَنْ عَصَى أَمْرَهُ يُحْرَمْ مِنَ ٱلنِّعَمِ

حسن النسق

نَثْرِي يُنَاسِقُهُمْ شِعْرِي يُطَابِقُهُمْ ... ثَغْرِي يُوَافِقُهُمْ فِي مَدْحِ رَبِّهِمِ

التجزئة

أَرْبَيْتُ فِي هَمِّي جَزَّأْتُ فِي كَأْسِي ... رَوَّيْتُ فِي قَلْبِي أَرْوَيْتُ كُلَّ ظَمِي

المتوازن

تَوَازَنَتْ حِكَمِي حَمْدًا لِمُنْمَسِحٍ ... مُلَازِمًا مَدْحَهُ نَظْمًا بِمُنْسَجِمِ

التسجيع

سَجْعِي وَمُنْتَظَمِي مَدْحًا حَلَا بِفَمِي ... حَاكَيْتُ فِي رَنَمِي ٱلشُّحْرُورَ بِٱلنَّغَمِ

الاتفاق

يَسُوعُ وَٱسْمُهُ فِي تَخْلِيصِنَا ٱتَّفَقَا ... فَهُوَ ٱلْمُخَلِّصُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نِقَمِ

الاعتراض

فَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْنَا فِي عِبَادَتِهِ ... وَهُوَ ٱلْإِلٰهُ وَمَنْ يَعْبُدْهُ يَعْتَصِمِ

العنوان

بِهِ ٱلسَّفِينَةُ نَجَّتْ نُوحَ وَهْيَ غَدَتْ ... عُنْوَانَ بِيعَتِهِ تُوقِي مِنَ ٱلْعَرِمِ

الترشيح

فَحَلَّ مَرْكَبَ تِيهٍ حِينَ رَكَّبَهَا ... فَكَمْ تَرَشَّحَ مِنْهَا ٱلرُّشْدُ فِي ٱلظُّلَمِ

التلميح

تَلْمِيحُ تَعْلِيمِهَا ذَاكَ ٱلسِّرَاجُ بِهِ ... يُهْدَى وَفِي ٱلسُّرْجِ إِرْشَادٌ إِلَى ٱللَّقَمِ

التتميم

تَتْمِيمَ سِرِّ ٱلْفِدَا وَٱلْحُبِّ سَلَّمَهَا ... يَا سَعْدَهَا وَٱضْمَحَلَّ ٱلْبُؤْسُ بِٱلنِّعَمِ

التصريع

تَصْرِيعُ أَبْوَابِهَا يُورِقِي مِنَ ٱلْخَصِمِ   فَٱلْمَرْءُ دَاخِلَهَا كَٱلْمَرْءِ فِي ٱلْأُطُمِ

التجريد

يَنَالُ صَوْبَ ٱلْحَيَا مِنْ بَسْطِ رَاحَتِهَا   مَنْ قَدْ تَجَرَّدَ عَنْ كُفْرٍ بِرَبِّهِمِ

المعمّى

حَوَى أَرِيجَ بَهَارٍ قَلْبُهُ وَسَمَا   مِنْ شَمِّهِ يَهْتَدِي مَنْ عَنْ غِنَاهُ عَمِي

التعريض

تَطْوِيلُ تَعْرِيضِ هَاجِيهَا يُعَظِّمُهَا   وَٱلْبُغْضُ لِلْحَقِّ مَكْرُوهٌ كَذِي أَضَمِ

التنكيت

دَعِ ٱلْمُنَكِّتَ إِذْ فِي ذِي ٱلْكَمِيسَةِ وَحْـ   ـدَهَا نَجَاةٌ مِنَ ٱلطُّوفَانِ وَٱلضَّرَمِ

التوشيح

فَٱلرَّبُّ وَشَّحَهَا مِنْ عِصْمَةٍ حُلَلًا   أَوْقَتْ خُطَى حُكْمِهَا مِنْ زَلَّةِ ٱلْقَدَمِ

تنسيق الصفات

فَٱسْجُدْ لَهُ عِنْدَ تَنْسِيقِ ٱلصِّفَاتِ وَقُلْ   رَبٌّ إِلٰهٌ قَدِيرٌ كَامِلُ ٱلشِّيَمِ

التعطف

فَٱخْتَارَ ذَاكَ ٱلصَّفَا رَأْساً وَقَالَ لِذَا   ٱلْمُخْتَارِ كُنْ رَاعِياً وَٱعْطِفْ عَلَى ٱلْغَنَمِ

العقد

مَهْمَا تَحُلُّ بِأَرْضٍ يَنْحَلِلْ بِسَمَا   وَمَا رَبَطْتَ بِعَقْدِ ٱلرَّبْطِ مِنْكَ رُمِي

التعليل

لَوْ لَمْ يَجِئْنَا بِتَعْلِيلٍ تَجَسُّدُهُ   مِنْ مَرْيَمٍ مَا شُفِينَا مِنْ ضَنَى ٱلسَّقَمِ

المجاز

هِيَ ٱلْمَجَازُ لِإِدْرَاكِ ٱلشِّفَاءِ هِيَ ٱلْـ   ـعَرْشُ ٱلرَّفِيعُ وَبُرْجُ ٱلْبَارِئِ ٱلنَّسَمِ

المبالغة

بِهَا خَلَاصُ جَمِيعِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ أَرَدتَّ بَالِغْ وَقُلْ بَلْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ

التوليد

لِكُلِّ هَوْلٍ طَرَا تُرْجَى شَفَاعَتُهَا نَالَ ٱلْعِبَادُ بِهَا تَوْلِيدَ أَمْنِهِمِ

الاغراق

لَوْ تَابَ إِبْلِيسُ يَبْغِي مَاءَ نِعْمَتِهَا لَأَغْرَقَتْهُ بِتَيَّارٍ مِنَ ٱلنِّعَمِ

الغلوّ

فَقَطْرَةٌ مِنْ نَدَاهَا لَا غُلُوَّ بِهَا تَكَادُ تُحْيِي رَمِيمًا صَارَ كَٱلْعَدَمِ

التضمين

وَخَلْقُهَا فَاقَ فِي حُسْنٍ تَضَمَّنَهُ وَإِنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ ٱللهِ كُلِّهِمِ

المدح المفرّغ

يَسْمُو ٱلْمَدِيحُ بِتَفْرِيغٍ لِطَلْعَتِهَا سُمُوَّ خُلْقٍ حَوَتْ بِٱلْحِلْمِ مُلْتَئِمِ

التعديد

تَعْدِيدُ أَفْضَالِهَا يُبْدِي لِسَامِعِهِ طُهْرًا وَبِرًّا وَحِلْمًا مَعْ عُلَى ٱلشِّيَمِ

التهذيب والتأديب

تَهْذِيبُ تَأْدِيبِهَا قَدْ زَادَنَا عَجَبًا بِصَبْرِهَا حِينَ تَعْذِيبِ ٱبْنِهَا ٱلْعَلَمِ

التفصيل

فِي شَرْحِ آلَامِهِ ٱلتَّفْصِيلُ مُتَّسِعٌ يَكِلُّ عَنْ شَرْحِهَا ذُو ٱلْفَهْمِ وَٱلْحِكَمِ

ايتلاف المعنى مع المعنى

وَصْلٌ وَفَصْلٌ لَهُ لِلْمَعْنَيَيْنِ غَدَا تَآلُفٌ نَحْوَ صِدِّيقٍ وَمُجْتَرِمِ

التوكيد

لَهُ ٱلْقَضَاءُ بِتَوْكِيدٍ يَدِينُ بِهِ أَمَا تَعِي أَنَّهُ ٱلدَّيَّانُ لِلْأُمَمِ

صناعة التنويع

تَنْوِيعُ سَطْوَتِهِ يَوْمًا يُجَاحِمُهُمْ　　كَاللَّيْثِ كَالسَّيْفِ كَالْجَبَّارِ كَالضَّرِمِ

المشاكلة

يَجْزِي إِسَاءَةَ شَانِيهِ بِسَيِّئَتِهِ　　يُشَاكِلُ الْخَيْرَ خَيْرًا حُفَّ بِالْكَرَمِ

مجنح القلب

مُدْنٍ لِصَفْحٍ جَنَاحَ الْقَلْبِ عَاطِفُهُ　　إِذَا رَأَى تَوْبَةً وَالدَّمْعُ فِي نَدَمِ

الجمع مع التفريق

فِي وَجْهِهِ النُّورُ لِلْأَصْحَابِ يَشْمَلُهُمْ　　وَلِلْعِدَا النَّارُ فِي تَفْرِيقِ جَمْعِهِمِ

مراعاة النظير

وَجْهُ السَّمَاءِ بِهِ كَالْبَرْقِ مُلْتَمِعٌ　　رَاعَى النَّظِيرَ بِوَجْهٍ لِلظِّبَاءِ سَمِي

التفريق

قَالُوا هُوَ الْمَلْكُ وَالتَّفْرِيقُ يَظْهَرُ لِي　　فَذَاكَ فَانٍ وَهٰذَا غَيْرُ مُنْعَدِمِ

السلب والايجاب

لَا يُوجِبُ السَّلْبَ فِي إِعْزَازِ عُصْبَتِهِ　　وَيُوجِبُ الذُّلَّ لِلْأَشْرَارِ فِي النِّقَمِ

المتقارب

أَرْجُو التَّقَارُبَ مِنْ أَعْدَادِ زُمْرَتِهِ　　لَا مِنْ عَدِيدِ الْعِدَا فِي الْحَشْرِ وَالزَّحَمِ

حسن البيان

حُسْنُ الْبَيَانِ بِنُورٍ مِنْهُ أَرْشَدَنِي　　إِلَى التَّقَرُّبِ مِنْ أُولٰئِكَ الْخَدَمِ

المراوجة

إِذَا تَزَاوَجَ هَمِّي وَالنَّجَاةُ لَهُ　　بِالْمَدْحِ فُزْتُ وَوَقَانِي مِنَ الْغُمَمِ

الاستعانة

مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَعَنْتُ بِهِ　　إِلَّا وَنِلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

التقسيم

فَالْكَوْنُ قَدْ عَمَّهُ تَقْسِيمُ أَنْعُمِهِ جِنْسًا وَنَوْعًا وَفَرْدًا وَهُوَ فِي شَمَمِ

التمثيل

تُرْبِي عَلَى السَّيْلِ فِي التَّمْثِيلِ نِعْمَتُهُ شَتَّانَ مَا بَيْنَ طَلٍّ وَالْحَيَا الْعَرِمِ

نفي الشيء بايجابه

لَا يَنْتَفِي الْجُودُ مِنْ إِيجَابِهِ أَبَدًا وَلَا يَشِينُ بِمَنٍّ رَوْنَقَ النِّعَمِ

مختوم الطرفين

مِنْ فَضْلِهِ ارْتَجِي تَخْتِيمَهُ طَرَفِي قَضِيَّتِي فِي الْقَضَا بِالْمَجْدِ وَالْعِظَمِ

التضمين المزدوج

تَضْمِينُ حَمْدِي لَهُ لِلْفَضْلِ مُزْدَوِجًا عَقْلًا وَنَقْلًا جَنَانِي جَاءَهُ وَفَمِي

الموارده

تَوَارَدَ الْفِكْرُ فِي مَدْحٍ الأَزِمَّةُ لِمَنْ غَدَا لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

التطريز

تَطْرِيزُ حَمْدِي بِمَدْحِي فِيهِ مُلْتَحِمٌ يَا حُسْنَ مُلْتَحِمٍ يَا حُسْنَ مُلْتَحِمِ

الاحتراس

إِلَيْكَ جِئْتُ أَيَا مَوْلَايَ مُنْسَحِقًا قَلْبًا وَمُحْتَرِسًا خُذْنِي مِنَ الْخَدَمِ

المصغر

نُفَيْسَتِي مِنْ زُلَيْلَاتٍ جَنَتْ صَغُرَتْ وَلَّى عُزَيْمِي مُهَيْزِيًا وَلَمْ يَقُمِ

التدبيج

فَأَزْرَقَ أَبْيَضُ وَجْهِي حِينَ دَبَّجَهُ سَوَادُ إِثْمِي بِصِبْغٍ فِيهِ مُتَّسِمِ

المضارع

وَبِاضْطِرَابِ جَنَانٍ وَاضْطِرَامِ حَشًا ضَارَعْتُ ذَا زَلَّةٍ فِي يَوْمِ مُحْتَكَمِ

التصريف

فَالْقَلْبُ حرَّقَهُ التَّصْرِيفُ فِي عِلَلٍ وَالْجَفْنُ قَرَّحَهُ التَّدْمِيعُ فِي نَدَمِ

براعة الطلب

بَرَاعَتِي فِي مَدِيحِي مُنْتَهَى طَلَبِي فَاسْأَلْ سَخَاكَ فَلَمْ اَحْتَجْ اِلَى الْكَلِمِ

الادماج

اَدْمَجْتُ فِي مَدْحِهِ شَكْوَايَ مِنْ زَلَلِي وَعَسْجَدُ الْخَدِّ مِنْ ذَا الدَّمْعِ كَالْعَنَمِ

الحذف

اَرُومُ مِنْهُ انْتِصَارًا حَاذِفًا هَلَعًا وَعَاضِدًا وَقْتَ هَوْلِ الْحَشْرِ وَالنِّقَمِ

التاريخ

بِهِ الْاَثِيمُ جَنَى بِرًّا فَقُلْتُ بِهِ مُذْ اَرَّخُوهُ لَنَا بِالْبِرِّ مُغْتَنِمِي *

حسن الختام

بِهِ غَدَا فِي عَلَاءٍ حُسْنُ مُبْتَدَاِي هَبْنِي بِهِ يَا اِلٰهِي حُسْنَ مُخْتَتَمِي

ختام الختام

وَاخْتِمْ خِتَامِي بِاَنْ اَحْظَى بِمَطْلَعِكَ م الْبَاهِي بِجَذْرِ السَّنَى يَامُرْشِدَ الْاُمَمِ



---

* قولهُ : (لنا بالبر مغتنمي) تاريخ بحساب الجُمَّل للسنة التي فيها ظمت هذه البديعيَّة وهي سنة ١٨٥٨

البحث السادس

في المطابقة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرّف)

(راجع صفحة ٩٤ من علم الادب)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ هُوَ فِي ٱلْمَعَانِي ضِدُّ ٱلتَّجْنِيسِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ لِأَنَّ ٱلتَّجْنِيسَ هُوَ أَنْ يَتَّحِدَ ٱللَّفْظُ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا هُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَيَانِ ضِدَّيْنِ . وَقَدْ أَجْمَعَ أَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى أَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ فِي ٱلْكَلَامِ هِيَ ٱلْجَمْعُ بَيْنَ ٱلشَّيْءِ وَضِدِّهِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ وَٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ . وَخَالَفَهُمْ فِي ذٰلِكَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ ٱلْمُطَابَقَةُ إِيرَادُ لَفْظَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱلصِّيغَةِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلتَّجْنِيسُ بِعَيْنِهِ . غَيْرَ أَنَّ ٱلْأَسْمَاءَ لَا مُشَاحَّةَ فِيهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مُشْتَقَّةً . وَلْنَنْظُرْ نَحْنُ فِي ذٰلِكَ وَهُوَ أَنْ نَكْشِفَ عَنْ أَصْلِ ٱلْمُطَابَقَةِ فِي وَضْعِ ٱللُّغَةِ وَقَدْ وَجَدْنَا ٱلطِّبَاقَ فِي ٱللُّغَةِ مِنْ طَابَقَ ٱلْبَعِيرُ فِي سَيْرِهِ إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ مَوْضِعَ يَدِهِ وَهٰذَا يُؤَكِّدُ مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ لِأَنَّ ٱلْيَدَ غَيْرُ ٱلرِّجْلِ لَا ضِدُّهَا وَٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يَقَعَانِ فِيهِ وَاحِدٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْمَعْنَيَانِ يَكُونَانِ مُخْتَلِفَيْنِ وَٱللَّفْظُ ٱلَّذِي يَجْمَعُهُمَا وَاحِدٌ . فَقُدَامَةُ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُطَابَقَةً حَيْثُ كَانَ ٱلِٱسْمُ مُشْتَقًّا مِمَّا سُمِّيَ بِهِ وَذٰلِكَ مُنَاسِبٌ وَوَاقِعٌ فِي مَوْقِعِهِ إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ لِلتَّجْنِيسِ ٱسْمًا آخَرَ وَهُوَ ٱلْمُطَابَقَةُ وَلَا بَأْسَ بِهِ إِلَّا إِنْ كَانَ مِثْلَهُ بِٱلضِّدَّيْنِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ خَالَفَ ٱلْأَصْلَ ٱلَّذِي

أصلهُ بالمثالِ الذي مثّلهُ . وأمّا غيرهُ من أربابِ هذهِ الصناعةِ فإنهم سمّوا هذا الضربَ من الكلامِ مُطابقًا لغيرِ اشتقاقٍ ولا مناسبةٍ بينهُ وبينَ مسمّاهُ . هذا الظاهرُ لنا من هذا القولِ إلّا أنْ يكونوا علِموا لذلكَ مُناسبةً لطيفةً لم نعلمْها نحنُ . ولنرجعْ إلى ذكرِ هذا القسمِ من التأليفِ وإيضاحِ حقيقتِهِ فنقولُ : الأليقُ من حيثُ المعنى أنْ يُسمّى هذا النوعُ المقابلةَ لأنّهُ لا يخلو الحالُ فيهِ من وجهينِ : إما أنْ يُقابلَ الشيءُ بضدّهِ أو يُقابلَ بما ليسَ بضدّهِ . وليسَ لنا وجهٌ ثالثٌ . (فأمّا الأوّلُ) وهوَ مقابلةُ الشيءِ بضدّهِ كالسوادِ والبياضِ وما جرى مجراهُما فإنّهُ ينقسمُ قسمينِ : أحدُهُما مقابلةٌ في اللفظِ والمعنى والآخرُ مقابلةٌ في المعنى دونَ اللفظِ . أمّا المقابلةُ في اللفظِ والمعنى فكقولِهِ : فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا . فقابلَ بينَ الضحكِ والبكاءِ والقليلِ والكثيرِ . وكذلكَ قولُهُ : لكيلا تأسَوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . وهذا من أحسنِ ما يجيءُ في هذا البابِ . وقالَ أيضًا : خيرُ المالِ عينٌ ساهرةٌ لعينٍ نائمةٍ . ومنَ الحسنِ المطبوعِ الذي ليسَ بمتكلّفٍ قولُ عليٍّ لعثمانَ : إنَّ الحقَّ ثقيلٌ مريٌّ والباطلَ خفيفٌ وبيٌّ وأنتَ رجلٌ إنْ صُدِقتَ سخطتَ وإنْ كُذِبتَ رضيتَ . فقابلَ الحقَّ بالباطلِ والثقيلَ المريَّ بالخفيفِ الوبيِّ والصدقَ بالكذبِ والسخطَ بالرضا وهذهِ خمسُ مقابلاتٍ في هذهِ الكلماتِ القصارِ . وكذلكَ وردَ قولُهُ لمّا قالَ الخوارجُ : (لا حكمَ إلّا للهِ تعالى) : هذهِ كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ .

وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَدْ اَحضَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَقْتُلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَا ٱسْمُكَ . قَالَ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . قَالَ بَلْ اَنْتَ شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ . وَقَدْ كَانَ ٱلْحَجَّاجُ مِنَ ٱلْفُصَحَاءِ ٱلْمَعْدُودِينَ وَفِي كَلَامِهِ هٰذَا مُطَابَقَةٌ حَسَنَةٌ فَإِنَّهُ نَقَلَ ٱلْإِسْمَيْنِ إِلَى ضِدِّهِمَا فَقَالَ : فِي (سَعِيدٍ) شَقِيٌّ . وَفِي (جُبَيْرٍ) كُسَيْرٌ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ تَخْتَصَّ بِهِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱللُّغَاتِ . وَمِمَّا وَجَدْتُهُ فِي لُغَةِ ٱلْفُرْسِ اَنَّهُ لَمَّا مَاتَ قُبَاذُ اَحَدُ مُلُوكِهِمْ قَالَ وَزِيرٌ : حَرَّكَنَا بِسُكُونِهِ . وَاَوَّلُ كِتَابِ ٱلْفُصُولِ لِبُقْرَاطَ فِي ٱلطِّبِّ قَوْلُهُ : ٱلْعُمْرُ قَصِيرٌ وَٱلصِّنَاعَةُ طَوِيلَةٌ . (وَاَمَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلْأَضْدَادِ) فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ ٱلْمُقَنَّعِ ٱلْكِنْدِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

لَهُمْ جُلُّ مَالِي اِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى ... وَاِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ اُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا

فَقَوْلُهُ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . بِمَعْنَى قَوْلِهِ : كَثُرَ مَالِي فَهُوَ اِذًا مُقَابَلَةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لِاَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْأَضْدَادِ ٱللَّفْظِيَّةِ اِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ نَحْوُ : قَامَ وَقَعَدَ . وَحَلَّ وَعَقَدَ . وَقَلَّ وَكَثُرَ . فَاِنَّ ٱلْقِيَامَ ضِدُّ ٱلْقُعُودِ . وَٱلْحَلَّ ضِدُّ ٱلْعَقْدِ . وَٱلْقَلِيلَ ضِدُّ ٱلْكَثِيرِ . فَاِذَا تُرِكَ ٱلْمُفْرَدُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَتُوُصِّلَ اِلَى مُقَابَلَتِهِ بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ كَانَ ذٰلِكَ مُقَابَلَةً مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَقَوْلِ هٰذَا ٱلشَّاعِرِ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . فِي مَعْنَى (كَثُرَ مَالِي) وَهٰذِهِ مُقَابَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لَا لَفْظِيَّةٌ فَٱعْرِفْ ذٰلِكَ . (وَاَمَّا مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . فَهِيَ ضَرْبَانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنْ لَا يَكُونَ مِثْلًا . (وَٱلْآخَرُ) اَنْ

يَكُونَ مِثْلًا . فَٱلضَّرْبُ ٱلْأَوَّلُ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) مَا كَانَ بَيْنَ ٱلْمُقَابَلِ بِهِ وَٱلْمُقَابَلِ نَوْعُ مُنَاسَبَةٍ وَتَقَارُبٍ . كَقَوْلِ قُرَيْطِ ٱبْنِ أُنَيْفٍ :

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ ٱلسُّوءِ إِحْسَانَا

فَقَابَلَ ٱلظُّلْمَ بِٱلْمَغْفِرَةِ وَلَيْسَ هُوَ ضِدًّا لَهَا . إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْمَغْفِرَةُ قَرِيبَةً مِنَ ٱلْعَدْلِ حَسُنَتِ ٱلْمُقَابَلَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلظُّلْمِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) مَا كَانَ بَيْنَ ٱلْمُقَابَلِ وَٱلْمُقَابَلِ بِهِ بُعْدٌ وَذَاكَ مِمَّا لَا يَحْسُنُ ٱسْتِعْمَالُهُ . كَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

لِمَنْ يَطْلُبُ ٱلدُّنْيَا إِذَا لَمْ يُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ

فَإِنَّ ٱلْمُقَابَلَةَ ٱلصَّحِيحَةَ بَيْنَ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمُبْغِضِ لَا بَيْنَ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمُجْرِمِ

وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِهٰذَا ٱلضَّرْبِ ضَرْبٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ يُسَمَّى ٱلْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْقِدَ لَهُ بَابًا مُفْرَدًا لٰكِنْ إِذْ رَأَيْنَاهُ يَنْظُرُ إِلَى ٱلتَّقَابُلِ مِنْ وَجْهٍ وَصَلْنَاهُ بِهِ . أَمَّا ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى مَعَ أَخِيهِ لَا مَعَ ٱلْأَجْنَبِيِّ . مِثَالُهُ أَنْ تَذْكُرَ وَصْفًا مِنَ ٱلْأَوْصَافِ وَتَقْرُنَهُ بِمَا يَقْرُبُ مِنْهُ وَيَلْتَئِمُ بِهِ فَإِنْ ذَكَرْتَهُ مَعَ مَا يَبْعُدُ مِنْهُ كَانَ ذٰلِكَ قَدْحًا فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا . وَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا نُوَاسٍ يَقَعُ فِي هٰذَا ٱلْغَلَطِ كَثِيرًا كَقَوْلِهِ فِي وَصْفِ ٱلدِّيكِ :

لَهُ ٱعْتِدَالٌ وَٱنْتِصَابُ قَدٍّ وَجِلْدُهُ يُشْبِهُ وَشْيَ ٱلْبُرْدِ
كَأَنَّهَا ٱلْهُدَّابُ فِي ٱلْفِرِنْدِ مُحْدَوْدِبُ ٱلظَّهْرِ كَرِيمُ ٱلْجَدِّ

فَإِنَّهُ ذَكَرَ ٱلظَّهْرَ وَقَرَنَهُ بِذِكْرِ ٱلْجَدِّ وَهٰذَا لَا يُنَاسِبُ هٰذَا لِأَنَّ ٱلظَّهْرَ فِي حَمْلَةِ ٱلْخَلْقِ وَٱلْجَدَّ فِي ٱلنَّسَبِ . وَأَمَّا (ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي) فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَبَانِي ٱلْأَلْفَاظِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ ... يُثْنِي عَلَيْهَا ٱلسَّهْلُ وَٱلْأَوْعَارُ

وَٱلْأَحْسَنُ أَنْ : يُقَالَ ٱلسَّهْلُ وَٱلْوَعْرُ أَوِ ٱلسُّهُولُ وَٱلْأَوْعَارُ . لِيَكُونَ ٱلْبِنَاءُ ٱللَّفْظِيُّ وَاحِدًا أَيْ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظَانِ وَارِدَيْنِ عَلَى صِيغَةِ ٱلْجَمْعِ أَوِ ٱلْإِفْرَادِ. وَإِذَا أَنْصَفْنَا هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ وَجَدْنَا ٱلنَّاثِرَ مُطَالَبًا بِهِ دُونَ ٱلنَّاظِمِ لِمَكَانِ إِمْكَانِهِ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) هُوَ فِي مُقَابَلَةِ ٱلشَّيْءِ بِمِثْلِهِ وَهُوَ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمُفْرَدِ بِٱلْمُفْرَدِ . (وَٱلْآخَرُ) مُقَابَلَةُ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلْأَوَّلُ) كَقَوْلِهِ: نَسُوا ٱللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ . وَقَدْ رُوعِيَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ فِي ٱلْقُرْآنِ كَثِيرًا فَإِذَا وَرَدَ فِي صَدْرِ آيَةٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ كَانَ جَوَابُهُ مُمَاثِلًا كَقَوْلِهِ: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ . وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ غَيْرَ جَوَابٍ فَإِنَّهُ لَا يَلْتَزِمُ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْمُرَاعَاةَ ٱللَّفْظِيَّةَ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي فِي مُقَابَلَةِ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ) إِعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْجُمْلَةُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُسْتَقْبِلَةً قُوبِلَتْ بِمُسْتَقْبِلَةٍ. وَإِنْ كَانَتْ مَاضِيَةً قُوبِلَتْ بِمَاضِيَةٍ وَرُبَّمَا قُوبِلَتِ ٱلْمَاضِيَةُ بِمُسْتَقْبِلَةٍ وَٱلْمُسْتَقْبِلَةُ بِٱلْمَاضِيَةِ إِذَا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِمَعْنَى ٱلْأُخْرَى فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي . فَإِنَّ هٰذَا تَقَابُلٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى وَلَوْ كَانَ ٱلتَّقَابُلُ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لَقَالَ : وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا أَهْتَدِي لَهَا

البحث السابع

في حقيقة التجنيس

(عن كتاب جنان الجناس للصفدي وعن الشريشي وابن الاثير)

(راجع صفحة ١١٨ من علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ ٱلتَّجْنِيسَ غُرَّةٌ شَادِخَةٌ فِي وَجْهِ ٱلْكَلَامِ وَقَدْ تَصَرَّفَ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهِ فَغَرَّبُوا وَشَرَّقُوا لَاسِيَّمَا ٱلْمُحْدَثِينَ مِنْهُمْ. وَصَنَّفَ ٱلنَّاسُ فِيهِ كُتُبًا كَثِيرَةً وَجَعَلُوهُ اَبْوَابًا مُتَعَدِّدَةً وَٱخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَادْخَلُوا بَعْضَ تِلْكَ ٱلْاَبْوَابِ فِي بَعْضٍ. وَاِنَّمَا سُمِّيَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُجَانِسًا لِاَنَّ حُرُوفَ اَلْفَاظِهِ يَكُونُ تَرْكِيبُهَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ. اَمَّا حَقِيقَتُهُ فَٱعْلَمْ اَنَّ اَرْبَابَ ٱلْبَلَاغَةِ عَرَّفُوهُ بِحُدُودٍ ٱخْتَلَفَتْ اَقْوَالُهُمْ فِيهَا. فَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ: هُوَ بَيَانُ ٱلْمَعَانِي بِاَنْوَاعٍ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَجْمَعُهَا اَصْلٌ وَاحِدٌ مِنَ ٱللُّغَةِ. وَقَالَ قُدَامَةُ: هُوَ ٱشْتِرَاكُ ٱلْمَعَانِي فِي اَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْاِشْتِقَاقِ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: هُوَ اَنْ تَجِيءَ بِكَلِمَةٍ تُجَانِسُ اُخْتَهَا. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْاَثِيرِ ٱلْجَزَرِيُّ: ٱلْجِنَاسُ هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ وَاحِدًا وَٱلْمَعْنَى مُخْتَلِفًا. وَقَالَ بَدْرُ ٱلدِّينِ ٱبْنُ ٱلنَّحْوِيَّةِ فِي ضَوْءِ ٱلْمِصْبَاحِ: هُوَ اَنْ يُؤْتَى بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ اَوْ بَعْضِهَا مُتَغَايِرَيْنِ فِي اَصْلِ ٱلْمَعْنَى فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجُزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ. فَهٰذَا جُمْلَةُ مَا حَضَرَنِي مِنْ حُدُودِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ تَعْلِيقِ هٰذَا ٱلْفَصْلِ.

(قُلْتُ) اَمَّا حَدُّ ٱلرُّمَّانِيِّ فَاِنَّهُ اَسْلَمُ مِمَّا بَعْدَهُ لٰكِنَّهُ غَيْرُ جَامِعٍ

لِأَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ جِنَاسُ ٱلتَّصْحِيفِ وَٱلتَّصْرِيفِ وَٱلْمُرَكَّبِ وَجِنَاسُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْجِنَاسُ ٱلْمُطَمِّعُ . وَأَمَّا حَدُّ قُدَامَةَ فَإِنَّهُ عَرَّفَ ٱلشَّيْءَ بِنَفْسِهِ وَهٰذَا غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّ قَوْلَهُ : (فِي أَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ) يُفْضِي إِلَى ٱلدَّوْرِ لِأَنَّنَا بِهٰذَا لَا نَعْرِفُ ٱلْمُتَجَانِسَ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْجِنَاسِ وَلَا نَعْرِفُ ٱلْجِنَاسَ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْمُتَجَانِسِ فَأَدَّى ذٰلِكَ إِلَى ٱلدَّوْرِ وَهُوَ مُحَالٌ . وَيُمْكِنُ ٱلْجَوَابُ عَنْهُ بِأَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ مَا أَرَادَ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱلِاصْطِلَاحِ بَلِ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱللُّغَةِ أَيْ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَشَابِهَةِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ حَدٌّ مُضْطَرِبٌ إِذْ فِيهِ لَفْظٌ مُوهِمٌ وَٱلْحُدُودُ يُجْتَنَبُ فِيهَا مِثْلُ ذٰلِكَ . وَقَوْلُهُ : (عَلَى جِهَةِ ٱلِاشْتِقَاقِ) يَخْرُجُ عَنْهُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ إِلَّا ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُشْتَقَّ . وَأَمَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَهُوَ أَيْضًا تَعْرِيفٌ دَوْرِيٌّ وَذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱلرُّسُومِ . وَأَمَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْأَثِيرِ فَهُوَ أَيْضًا غَيْرُ جَامِعٍ لِأَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ مِثْلُ ٱلْجِنَاسِ ٱلْمُزْدَوِجِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْخَطِّيِّ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمَعْنَوِيِّ عَلَى مَا سَيَظْهَرُ لَكَ عِنْدَ كَشْفِ كُلِّ مَاهِيَّةٍ مِنْ أَنْوَاعِهِ . وَأَمَّا حَدُّ بَدْرِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلنَّحْوِيَّةِ فَإِنَّ قَوْلَهُ : (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ ٱلْمُمَاثِلَ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ يُخْرِجُ بِهِ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (أَوْ بَعْضِهَا) مُدْخِلٌ لِلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْمُخَالِفِ وَٱلِاشْتِقَاقِ . وَقَوْلُهُ : (مُتَغَايِرَيْنِ فِي أَصْلِ ٱلْمَعْنَى) لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِأَنَّ هٰذَا مَعْلُومٌ فِي قَوْلِهِ : (مُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ) أَيْ دُونَ مَعْنَاهُمَا لٰكِنْ فِيهِ زِيَادَةُ بَيَانٍ . وَقَوْلُهُ : (فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجُزِ

عَلَى ٱلصَّدْرِ) هٰذَا لَاحَاجَةَ إِلَيْهِ وَلَا فَائِدَةَ فِي هٰذَا ٱلِٱحْتِرَازِ كَمَا يَظْهَرُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ وَلَوْ زَادَ قَوْلَهُ : مُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ أَوْ بَعْضِهَا أَوْ صُورَتِهَا لَكَانَ أَجْوَدَ لِيَدْخُلَ فِيهِ ٱلْجِنَاسُ ٱلْخَطِّيُّ . وَٱلَّذِي أَخْتَارُهُ أَنَا فِي رَسْمِ ٱلْجِنَاسِ أَنْ أَقُولَ : هُوَ ٱلْإِتْيَانُ بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ أَوْ بَعْضِهَا أَوْ فِي ٱلصُّورَةِ أَوْ زِيَادَةٍ فِي أَحَدِهِمَا أَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ نَظْمًا أَوِ ٱلْحَرَكَاتِ أَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ . وَلَعَلَّ هٰذَا ٱلرَّسْمَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلسَّلَامَةِ مِمَّا ذُكِرَ . فَقَوْلِي (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ ٱلْمُمَاثِلَ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَقَوْلِي : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ أَخْرَجَ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ زَيْدٌ . وَأَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلتَّامَّ كَقَوْلِكَ يَحْيَي يَحْيَا . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُرَكَّبَ كَقَوْلِكَ : نِعْمَتُهُ ذَاهِبَهْ . إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَا هِبَهْ . وَقَوْلِي : (أَوْ بَعْضِهَا) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُطَمِّعَ كَقَوْلِكَ : ٱلْأَمْوَاهُ وَٱلْأَمْوَالُ . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُقَارِبَ كَقَوْلِكَ : ٱلْهُمُومُ عَلَى قَدْرِ ٱلْهِمَمِ . وَقَوْلِي : (أَوْ فِي ٱلصُّورَةِ) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْخَطِّيَّ كَقَوْلِكَ : لَا تُضِعْ يَوْمَكَ فِي نَوْمِكَ . وَقَوْلِي : (أَوْ زِيَادَةٍ) فِي أَحَدِهِمَا أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْأَحْجَارِ جَارٍ . وَقَوْلِي : أَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : بِيضُ ٱلصَّحَائِفِ وَٱلصَّفَائِحِ . وَقَوْلِي (أَوِ ٱلْحَرَكَاتِ) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُغَايِرَ كَقَوْلِكَ : ٱغْتَنِمْ هُبَاتِ ٱلْهِبَاتِ . وَقَوْلِي : (أَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ نَظْمًا) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمَعْنَوِيَّ كَقَوْلِكَ : أَمْرٌ عَظِيمٌ تَظْهَرُ ٱللُّوثَةُ فِيهِ بِٱلْأَسَدِ . إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقُولَ :

(بِٱللَّيْثِ) ثُمَّ عدلتَ اِلَى مَا يُرَادِفُهُ وَهُوَ ٱلاَسَدُ . وَقَوْلِي : (نَظْمًا) اِعْلَامٌ بِاَنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْجِنَاسِ اِنَّمَا يَجِيءُ فِي ٱلنَّظْمِ دُونَ ٱلنَّثْرِ . وَتَظْهَرُ عِلَّةُ هٰذَا فِي مَكَانِهِ . فَتَدَبَّرْ هٰذَا ٱلرَّسْمَ تَجِدْهُ مَا اَخَلَّ بِنَوْعٍ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ . وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ ٱلْبَدِيعِ : اِنَّ ٱلْجِنَاسَ يَحْسُنُ اِذَا قَلَّ وَاَتَى فِي ٱلْكَلَامِ عفوًا مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَلَا ٱسْتِكْرَاهٍ وَلَا بُعْدٍ وَلَا مَيْلٍ اِلَى جَانِبٍ . وَلَمْ يَحْتَجْ اِلَيْهِ بِكَثْرَةِ ٱسْتِعْمَالِهِ اِلَّا مَنْ قَصُرَتْ هِمَّتُهُ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي هِيَ كَٱلنُّجُومِ ٱلزَّاهِرَةِ فِي اُفُقِ ٱلاَلْفَاظِ . وَاِذَا خَلَتْ بُيُوتُ ٱلاَلْفَاظِ مِنْ سُكَّانِ ٱلْمَعَانِي تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَةَ ٱلاَطْلَالِ ٱلْبَالِيَةِ

البحث الثامن

في ذكر انواع التجنيس

اِعْلَمْ اَنَّ اَنْوَاعَ ٱلْجِنَاسِ كَثِيرَةٌ ٱقْتَصَرْنَا عَلَى ذِكْرِ اخَصِّهَا وَاَوَّلُهَا ٱلْجِنَاسُ (ٱلْمُرَكَّبُ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ كَلِمَةً مُفْرَدَةً وَٱلاُخْرَى مُرَكَّبَةً مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : فَٱلاَوَّلُ مَا تَشَابَهَ لَفْظًا وَخَطًّا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

عَضَّنَا ٱلدَّهْرُ بِنَابِهْ ‏ ‏ ‏ ‏ لَيْتَ مَا حَلَّ بِنَا بِهْ

وَٱلثَّانِي مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ لَفْظًا لَا خَطًّا وَيُسَمَّى ٱلْمَفْرُوقَ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لَا تَعْرِضَنَّ عَلَى ٱلرُّوَاةِ قَصِيدَةً ‏ ‏ ‏ ‏ مَا لَمْ تَكُنْ بَالَغْتَ فِي تَهْذِيبِهَا

وَإِذَا عَرَضْتَ ٱلشِّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ   عَدُّوهُ مِنْكَ وَسَاوِساً تَهْذِي بِهَا

وَلِلْجِنَاسِ ٱلْمُرَكَّبِ نَوْعٌ يُسَمَّى (ٱلْمَرْفُوَّ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ جُزْءًا مُسْتَقِلاًّ وَٱلْآخَرُ مُجَزَّأً مِنْ كَلِمَةٍ أُخْرَى كَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ :

وَٱلْمَكْرَ مَهْمَا ٱسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ   لِتَقْتَنِيَ ٱلسُّؤْدَدَ وَٱلْمَكْرُمَهْ

وَقَوْلِهِ :

وَلَا تَلْهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَٱبْكِهِ   بِدَمْعٍ يُحَاكِي ٱلْمُزْنَ حَالَ مَصَابِهِ

وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ ٱلْحِمَامَ وَوَقْعَهُ   وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يَخْلُو مِنْ تَعَسُّفٍ وَتَعْقِيدٍ فِي ٱلتَّرْكِيبِ . وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُلَفَّقُ) وَحَدُّهُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنَ ٱلرُّكْنَيْنِ مُرَكَّبًا مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُرَكَّبِ وَقَلَّ مَنْ أَفْرَدَهُ عَنْهُ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَكَمْ لِجِبَاهِ ٱلرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ   مَجَالِ سُجُودٍ فِي مَجَالِسِ جُودِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُذَيَّلُ وَٱللَّاحِقُ) . فَٱلْمُذَيَّلُ هُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي آخِرِهِ فَصَارَ لَهُ كَٱلذَّيْلِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

يَمُدُّونَ فِي أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ   تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

عَذِيرِيَ مِنْ دَهْرٍ مُوَارٍ مُوَارِبٍ   لَهُ حَسَنَاتٌ كُلُّهُنَّ ذُنُوبُ

وَقَدْ تَأْتِي ٱلزِّيَادَةُ فِي آخِرِ ٱلذَّيْلِ بِحَرْفَيْنِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي رِثَاءٍ :

فَيَا لَكَ مِنْ حَزْمٍ وَعَزْمٍ طَوَاهُمَا جَدِيدُ ٱلرَّدَى تَحْتَ ٱلصَّفَا وَٱلصَّفَائِحِ

وَأَرَقُّ مَا سَمِعْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

إِنَّ ٱلْبُكَاءَ هُوَ ٱلشِّفَا ءُ مِنَ ٱلْجَوَى بَيْنَ ٱلْجَوَانِحْ

وَأَمَّا (ٱللَّاحِقُ) فَهُوَ مَا أُبْدِلَ فِي أَحَدِ رُكْنَيْهِ حَرْفٌ مِنْ غَيْرِ مَخْرَجِهِ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي جَوَابِ رِسَالَةٍ : وَصَلَ كِتَابُكَ فَتَنَاوَلْتُهُ بِٱلْيَمِينِ وَوَضَعْتُهُ مَكَانَ ٱلْعِقْدِ ٱلثَّمِينِ . وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ : أَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْجِنَاسِ ٱللَّاحِقِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمُضَارِعِ أَنَّ حُرُوفَ ٱللَّاحِقِ لَيْسَتْ مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ كَٱلنُّونِ وَٱلْقَافِ فِي : (تَقْهَرْ وَتَنْهَرْ) . وَأَمَّا حُرُوفُ ٱلْمُضَارِعِ فَإِنَّهَا مُتَشَابِهَةٌ فِي ٱلْمَخْرَجِ كَمَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ : إِنَّ ٱلْخَيْلَ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا ٱلْخَيْرُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : ٱلْبَرَايَا أَهْدَافُ ٱلْبَلَايَا . فَإِنَّ ٱلرَّاءَ وَٱللَّامَ مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّجْنِيسِ (ٱلتَّامُّ) . وَهُوَ مَا تَمَاثَلَ رُكْنَاهُ وَٱتَّفَقَا لَفْظًا وَٱخْتَلَفَا مَعْنًى مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ فِي تَصْحِيحِ تَرْكِيبِهِمَا وَٱخْتِلَافِ حَرَكَتِهِمَا سَوَاءٌ كَانَا مِنِ ٱسْمَيْنِ أَوْ مِنْ فِعْلَيْنِ أَوْ مِنِ ٱسْمٍ وَفِعْلٍ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إِذَا ٱنْتَظَمَ رُكْنَاهُ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ كَٱسْمَيْنِ أَوْ فِعْلَيْنِ سُمِّيَ مُمَاثِلًا وَإِنِ ٱنْتَظَمَا مِنْ نَوْعَيْنِ كَٱسْمٍ وَفِعْلٍ سُمِّيَ مُسْتَوْفًى . وَجُلُّ ٱلْقَصْدِ تَمَاثُلُ ٱلرُّكْنَيْنِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْخَطِّ وَٱلْحَرَكَةِ وَٱخْتِلَافُهُمَا فِي ٱلْمَعْنَى . فَمِنْهُ قَوْلُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ : صَوْلَةُ ٱلْبَاطِلِ سَاعَةٌ وَصَوْلَةُ ٱلْحَقِّ إِلَى ٱلسَّاعَةِ . وَمِنَ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي رِثَاءِ صَغِيرٍ ٱسْمُهُ يَحْيَى :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا وَلَمْ يَكُنْ إِلَى رَدِّ أَمْرِ ٱللهِ فِيهِ سَبِيلُ

وَكَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا ٱحْتَدَمَ ٱلْوَغَى وَٱلْفَضْلُ فَضْلٌ وَٱلرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمِنْهُ ٱلْجِنَاسُ (ٱلْمُطَرَّفُ) وَهُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي طَرَفِهِ ٱلْأَوَّلِ . وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُذَيَّلِ . فَإِنَّ ٱلزِّيَادَةَ فِي ٱلْمُذَيَّلِ تَكُونُ فِي آخِرِهِ . وَأَمَّا ٱلْمُطَرَّفُ فَتَكُونُ زِيَادَتُهُ فِي أَوَّلِهِ لِتَصِيرَ لَهُ كَٱلطَّرَفِ وَيُسَمَّى أَيْضًا ٱلنَّاقِصَ وَٱلْمُرْدَفَ وَٱلْمُزْدَوِجَ وَٱلْمُكَرَّرَ وَٱلْمَرْدُودَ وَٱلْمُجَنَّبَ وَفِي تَسْمِيَتِهِ ٱخْتِلَافٌ. وَٱلزِّيَادَةُ تَكُونُ تَارَةً فِي أَوَّلِ ٱلرُّكْنِ ٱلثَّانِي وَتَارَةً فِي أَوَّلِ ٱلرُّكْنِ ٱلْأَوَّلِ كَقَوْلِهِمْ : لَمَّا مَلَأَ ٱلصَّاعَ ٱنْصَاعَ . وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَكَمْ سَبَقَتْ مِنْهُ إِلَيَّ عَوَارِفُ ثَنَائِي عَلَى تِلْكَ ٱلْعَوَارِفِ وَارِفُ

وَكَمْ غُرَرٍ مِنْ بِرِّهِ وَلَطَائِفٍ لِشُكْرِي عَلَى تِلْكَ ٱللَّطَائِفِ طَائِفُ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱللَّفْظِيُّ) وَهُوَ أَنْ يَتَمَاثَلَ رُكْنَانِ وَيَتَجَانَسَا خَطًّا إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا يُخَالِفُ ٱلْآخَرَ بِإِبْدَالِ حَرْفٍ مِنْهُ فِيهِ مُنَاسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ كَمَا ٱلَّذِي يُكْتَبُ بِٱلضَّادِ وَٱلظَّاءِ كَقَوْلِهِ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَكَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْعَفِيفِ :

أَحْسَنُ خَلْقِ ٱللهِ وَجْهًا وَفَمًا إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَقَّ بِٱلْمَدْحِ فَمَنْ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمَقْلُوبُ) وَسَمَّاهُ قَوْمٌ ٱلْمَعْكُوسَ وَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا عَكْسُ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلثَّانِي عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : عَادَاتُ ٱلسَّادَاتِ . سَادَاتُ ٱلْعَادَاتِ وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

إِنَّ ٱللَّيَالِي لِلأَنَامِ مَنَاهِلٌ ... تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا ٱلأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ ٱلْهُمُومِ طَوِيلَةٌ ... وَطِوَالُهُنَّ مَعَ ٱلسُّرُورِ قِصَارُ

وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ لَهُ حَلاوَةٌ وَعَلَيْهِ رَوْنَقٌ وَقَدْ سَمَّاهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ: (ٱلتَّبْدِيلَ). وَذٰلِكَ ٱسْمٌ مُنَاسِبٌ لِمُسَمَّاهُ لِأَنَّ مُؤَلِّفَ ٱلْكَلَامِ يَأْتِي بِمَا كَانَ مُقَدَّمًا فِي جُزْءِ كَلَامِهِ ٱلأَوَّلِ مُؤَخَّرًا فِي ٱلثَّانِي وَبِمَا كَانَ مُؤَخَّرًا فِي ٱلأَوَّلِ مُقَدَّمًا فِي ٱلثَّانِي. وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ فَكَقَوْلِ بَعْضِهِمْ:

أَهْدَيْتُ شَيْئًا يَقِلُّ لَوْلَا ... أُحْدُوثَةُ ٱلْفَالِ وَٱلتَّبَرُّكْ
كُرْسِي تَفَاءَلْتُ فِيهِ لَمَّا ... رَأَيْتُ مَقْلُوبَهُ يَسُرُّكْ

وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْبَيْتُ كُلُّهُ مَعْكُوسًا يُقْرَأُ طَرْدًا وَعَكْسًا وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي مِنْهُ مَعْكُوسٌ كَقَوْلِ ٱلأَرَّجَانِيِّ:

أُحِبُّ ٱلْمَرْءَ ظَاهِرُهُ جَمِيلٌ ... لِصَاحِبِهِ وَبَاطِنُهُ سَلِيمُ
مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ ... وَهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمُقَارَبُ) وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ جِنَاسَ ٱلِاشْتِقَاقِ وَجِنَاسَ ٱلِاقْتِضَابِ وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ ٱسْمَيْنِ كَقَوْلِ ٱلصَّاحِبِ: إِنَّ ٱلْهُمُومَ بِقَدْرِ ٱلْهِمَمِ. وَكَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ: رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ. وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ ٱسْمًا وَٱلْآخَرُ فِعْلًا نَحْوُ: وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى ٱللهِ. وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ فِعْلَيْنِ. كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

إِنْ تَرَ ٱلدُّنْيَا أَغَارَتْ وَنُجُومَ ٱلسَّعْدِ غَارَتْ
فَصُرُوفُ ٱلدَّهْرِ شَتَّى كُلَّمَا جَارَتْ أَجَارَتْ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمَعْنَوِيُّ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ رُكْنَيِ ٱلْجِنَاسِ دَالًّا عَلَى مَعْنَى ٱلْآخَرِ فِي غَيْرِ أَلْفَاظِهِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱسْتَدْرَكَهُ فُضَلَاءُ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَٱسْتَخْرَجُوهُ وَبَعْضُهُمْ لَا يَعُدُّهُ جِنَاسًا لِأَنَّهُ قَلَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْكَلَامِ لِتَوَعُّرِ مَسْلَكِهِ . وَسَبَبُ وُرُودِ هٰذَا ٱلنَّوْعِ فِي ٱلْكَلَامِ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَقْصِدُ ٱلْمُجَانَسَةَ فِي كَلَامِهِ بَيْنَ لَفْظَتَيْنِ فَلَا يُوَافِقُهُ ٱلْوَزْنُ عَلَى إِثْبَاتِ أَحَدِ رُكْنَيِ ٱلْجِنَاسِ فَيَعْدِلُ إِلَى مَا يُوَافِقُهُ مَعْنًى وَيُخَالِفُهُ لَفْظًا وَعَلَى هٰذَا لَا وُرُودَ لِهٰذَا ٱلنَّوْعِ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ إِذْ لَا وَزْنَ يَضْطَرُّهُ إِلَى ٱلْإِتْيَانِ بِذٰلِكَ . وَمِنْ أَمْثِلَةِ أَرْبَابِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ يَمْدَحُ ٱلْمُهَلَّبَ بْنَ أَبِي صُفْرَةَ وَيَذْكُرُ فِعْلَهُ بِقَطَرِيِّ بْنِ ٱلْفُجَاءَةِ وَكَانَ قَطَرِيٌّ يُكَنَّى أَبَا نَعَامَةَ :

حَدَا بِأَبِي أُمِّ ٱلرِّئَالِ فَأَجْفَلَتْ نَعَامَتُهُ مِنْ عَارِضٍ مُتَلَهِّبِ

أَرَادَ أَنْ يَقُولَ : حَدَا بِأَبِي نَعَامَةَ فَأَجْفَلَتْ نَعَامَتُهُ أَيْ رُوحُهُ فَلَمْ يُسَاعِدْهُ ٱلْوَزْنُ فَقَالَ : بِأَبِي أُمِّ ٱلرِّئَالِ لِأَنَّ ٱلرِّئَالَ فِرَاخُ ٱلنَّعَامَةِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلشُّعَرَاءَ عِنْدَ نَظْمِ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ مَا نَحَوْا هٰذِهِ ٱلْمَقَاصِدَ ٱلْبَعِيدَةَ . وَلَا يَخْفَى مَا فِي هٰذَا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَٱلتَّعَسُّفِ

الفصل الثامن

في فنون الانشاء

البحث الاوّل

في المثل وشرفهِ

(عن الميداني)

(راجع صفحة ١٢٦ من علم الادب)

قَالَ ٱلْمُبَرّدُ: ٱلْمَثَلُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْمِثَالِ وَهُوَ قَوْلٌ سَائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حَالُ ٱلثَّانِي بِٱلْأَوَّلِ وَٱلأَصلُ فِيهِ ٱلتَّشْبِيهُ. فَقَوْلُهُمْ: مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا ٱنْتَصَبَ مَعْنَاهُ: أَشْبَهَ ٱلصُّورَةَ ٱلْمُنْتَصِبَةَ. وَفُلَانٌ أَمْثَلُ مِنْ فُلَانٍ أَيْ أَشْبَهُ بِمَا لَهُ ٱلفَضْلُ. وَٱلْمِثَالُ ٱلْقِصَاصُ لِتَشْبِيهِ حَالِ ٱلْمُقْتَصِّ مِنْهُ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ فَحَقِيقَةُ ٱلْمَثَلِ مَا جُعِلَ كَٱلْعَلَمِ لِلتَّشْبِيهِ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ. كَقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا   وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا ٱلْأَبَاطِيلُ

فَمَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ عَلَمٌ لِكُلِّ مَا لَا يَصِحُّ مِنَ ٱلْمَوَاعِيدِ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ: ٱلْمَثَلُ لَفْظٌ يُخَالِفُ لَفْظَ ٱلْمَضْرُوبِ لَهُ وَيُوَافِقُ مَعْنَاهُ مَعْنَى ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ. شَبَّهُوهُ بِٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي يُعْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُمَا: سُمِّيَتِ ٱلْحِكَمُ ٱلْقَائِمُ صِدْقُهَا فِي ٱلْعُقُولِ أَمْثَالًا لِٱنْتِصَابِ صُوَرِهَا

فِي ٱلْعُقُولِ مُشْتَقَّةً مِنَ ٱلْمُثُولِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلِٱنْتِصَابُ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلنَّظَّامُ : يَجْتَمِعُ فِي ٱلْمَثَلِ أَرْبَعَةٌ لَا تَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِيجَازُ ٱللَّفْظِ وَإِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَحُسْنُ ٱلتَّشْبِيهِ وَجُودَةُ ٱلْكِنَايَةِ فَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْبَلَاغَةِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ : إِذَا جُعِلَ ٱلْكَلَامُ مَثَلًا كَانَ أَوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ وَآنَقَ لِلسَّمْعِ وَأَوْسَعَ لِشُعُوبِ ٱلْحَدِيثِ. قَالَ آخَرُ : إِنَّ ٱلْأَمْثَالَ هِيَ وَشْيُ ٱلْكَلَامِ وَجَوْهَرُ ٱللَّفْظِ وَحُلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّتِي تَخَيَّرَتْهَا ٱلْعَرَبُ وَقَدَّمَتْهَا ٱلْعَجَمُ وَنَطَقَ بِهَا كُلُّ زَمَانٍ وَدَارَتْ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ. فَهِيَ أَبْقَى مِنَ ٱلشِّعْرِ وَأَشْرَفُ مِنَ ٱلْخَطَابَةِ. لَمْ يَسِرْ شَيْءٌ مَسِيرَهَا وَلَا عَمَّ عُمُومَهَا حَتَّى قِيلَ : أَسْيَرُ مِنْ مَثَلٍ. قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا أَنْتَ إِلَّا مَثَلٌ سَائِرٌ   يَعْرِفُهُ ٱلْجَاهِلُ وَٱلْغَابِرُ

هٰذَا وَإِنَّ ٱلْأَمْثَالَ تَتَحَلَّى بِفَرَائِدِهَا صُدُورُ ٱلْمَحَافِلِ وَٱلْمَحَاضِرِ. وَتَتَحَلَّى بِفَوَائِدِهَا قُلُوبُ ٱلْبَادِي وَٱلْحَاضِرِ. وَتُقَيَّدُ أَوَابِدُهَا فِي بُطُونِ ٱلدَّفَاتِرِ وَٱلصَّحَائِفِ. وَتَطِيرُ نَوَاهِضُهَا فِي رُؤُوسِ ٱلشَّوَاهِقِ وَظُهُورِ ٱلتَّنَائِفِ. يَحْتَاجُ ٱلْخَطِيبُ وَٱلشَّاعِرُ إِلَى إِدْمَاجِهَا وَإِدْرَاجِهَا لِٱشْتِمَالِهَا عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجَمَالِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْحَاجَةَ إِلَى ٱلْأَمْثَالِ شَدِيدَةٌ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ لَمْ تَضَعِ ٱلْأَمْثَالَ إِلَّا لِأَسْبَابٍ أَوْجَبَتْهَا وَحَوَادِثَ ٱقْتَضَتْهَا. فَصَارَ ٱلْمَثَلُ ٱلْمَضْرُوبُ لِأَمْرٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ عِنْدَهُمْ كَٱلْعَلَامَةِ ٱلَّتِي يُعْرَفُ بِهَا ٱلشَّيْءُ وَلَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ أَوْجَزُ مِنْهَا وَلَا أَشَدُّ ٱخْتِصَارًا. وَسَبَبُ ذٰلِكَ مَا أَذْكُرُهُ لَكَ لِتَكُونَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى يَقِينٍ فَأَقُولُ : قَدْ جَاءَ عَنِ

ٱلْعَرَبِ مِنْ جُمْلَةِ أَمْثَالِهِمْ (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْأَمْرِ ٱلظَّاهِرِ ٱلْمَشْهُورِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدٍ : أَنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهَنُوا عَلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلشَّهْرِ . فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يُرَى . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَغِيبُ ٱلْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ ٱلشَّمْسُ فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ حَكَمًا . فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : إِنَّ قَوْمِي يَبْغُونَ عَلَيَّ . فَقَالَ ٱلْحَكَمُ : إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ . فَذَهَبَتْ مَثَلًا . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ : (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . إِذَا أُخِذَ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى ٱلْقَرَائِنِ ٱلْمَنُوطَةِ بِهِ وَٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي قِيلَ مِنْ أَجْلِهَا لَا يُعْطِي مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا قَدْ أَعْطَاهُ ٱلْمَثَلُ . وَذَاكَ ٱلْمَثَلُ لَهُ مُقَدِّمَاتٌ وَأَسْبَابٌ قَدْ عُرِفَتْ وَصَارَتْ مَشْهُورَةً بَيْنَ ٱلنَّاسِ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ . وَحَيْثُ كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذَلِكَ جَازَ إِيرَادُ هٰذِهِ ٱللَّفْظَاتِ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَلَوْلَا تِلْكَ ٱلْمُقَدِّمَاتُ ٱلْمَعْلُومَةُ وَٱلْأَسْبَابُ ٱلْمَعْرُوفَةُ لَمَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ : (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ بَلْ مَا كَانَ يُفْهَمُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَعْنًى مُفِيدٌ . لِأَنَّ ٱلْبَغْيَ هُوَ ٱلظُّلْمُ وَٱلْقَمَرُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا فَكَانَ يَصِيرُ مَعْنَى ٱلْمَثَلِ : إِنْ كَانَ يَظْلِمُكَ قَوْمُكَ لَا يَظْلِمُكَ ٱلْقَمَرُ . وَهٰذَا كَلَامٌ مُخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى لَيْسَ بِمُسْتَقِيمٍ . فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْأَمْثَالُ كَٱلرُّمُوزِ وَٱلْإِشَارَاتِ ٱلَّتِي يُلَوَّحُ بِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي

تَداوُلِهَا صَارَتْ مِنْ اَوجَزِ ٱلْكَلَامِ وَاَكْثَرِهِ ٱخْتِصَارًا . وَمِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ قِيلَ فِي حَدِّ ٱلْمَثَلِ : اِنَّهُ ٱلْقَوْلُ ٱلْوَجِيزُ ٱلْمُرْسَلُ لِيُعْمَلَ عَلَيْهِ وَحَيْثُ هِيَ بِهٰذِهِ ٱلْمَثَابَةِ فَلَا يَنْبَغِي ٱلْاِخْلَالُ بِمَعْرِفَتِهَا

البحث الثاني

في آداب المثل وشروطهِ

(عن الماوَردي ومقدمة كليلة ودمنة)

(راجع صفحة ١٣٣ من علم الادب)

وَمِنْ آدَابِ ٱلْحَكِيمِ اَنْ يَجْتَنِبَ اَمْثَالَ ٱلْعَامَّةِ ٱلْغَوْغَاءِ وَيَتَخَصَّصَ بِاَمْثَالِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْاُدَبَاءِ فَاِنَّ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ اَمْثَالًا تُشَاكِلُهُمْ فَلَا تَجِدُ لِسَاقِطٍ اِلَّا مَثَلًا سَاقِطًا وَتَشْبِيهًا مُسْتَقْبَحًا . . . .

وَلِذٰلِكَ عِلَّتَانِ : اِحْدَاهُمَا اَنَّ ٱلْاَمْثَالَ مِنْ هَوَاجِسِ ٱلْهِمَمِ وَخَطَرَاتِ ٱلنُّفُوسِ وَلَمْ يَكُنْ لِذِي ٱلْهِمَّةِ ٱلسَّاقِطَةِ اِلَّا مَثَلٌ مَرْذُولٌ وَتَشْبِيهٌ مَعْلُولٌ . وَٱلثَّانِيَةُ اَنَّ ٱلْاَمْثَالَ مُسْتَخْرَجَةٌ مِنْ اَحْوَالِ ٱلْمُتَمَثِّلِينَ بِهَا فَبِحَسَبِ مَا هُمْ عَلَيْهِ تَكُونُ اَمْثَالُهُمْ . فَلِهَاتَيْنِ ٱلْعِلَّتَيْنِ وَقَعَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ اَمْثَالِ ٱلْخَاصَّةِ وَاَمْثَالِ ٱلْعَامَّةِ وَرُبَّمَا اَلِفَ ٱلْمُتَخَصِّصُ مَثَلًا عَامِيًّا اَوْ تَشْبِيهًا رَكِيكًا لِكَثْرَةِ مَا يَطْرُقُ سَمْعَهُ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱلْاَرَاذِلِ فَيَسْتَرْسِلُ فِي ضَرْبِهِ مَثَلًا فَيَصِيرُ بِهِ مَثَلًا كَٱلَّذِي حُكِيَ عَنِ ٱلْاَصْمَعِيِّ : اِنَّ ٱلرَّشِيدَ سَاَلَهُ يَوْمًا عَنْ اَنْسَابِ بَعْضِ ٱلْعَرَبِ . فَقَالَ : عَلَى ٱلْخَبِيرِ

سَقَطتَ يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . فَقَالَ لَهُ ٱلفَضلُ بنُ ٱلرَّبِيعِ : اَسقَطَ ٱللهُ جَنبَيكَ اَتُخَاطِبُ اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِمِثلِ هٰذَا ٱلْخِطَابِ . فَكَانَ ٱلفَضلُ ٱبنُ ٱلرَّبِيعِ مَعَ قِلَّةِ عِلمِهِ اَعلَمَ بِمَا يُستَعمَلُ مِنَ ٱلكَلَامِ فِي مُحَاوَرَةِ ٱلْخُلَفَاءِ مِنَ ٱلاَصمَعِيِّ ٱلَّذِي هُوَ وَاحِدُ عَصرِهِ وَقَرِيعُ دَهرِهِ. وَلِلْاَمثَالِ مِنَ ٱلكَلَامِ مَوقِعٌ فِي ٱلْاَسمَاعِ وَتَأْثِيرٌ فِي ٱلقُلُوبِ لَا يَكَادُ ٱلكَلَامُ ٱلْمُرسَلُ يَبلُغُ مَبلَغَهَا وَلَا يُؤَثِّرُ تَأْثِيرَهَا لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ بِهَا لَائِحَةٌ وَٱلشَّوَاهِدَ بِهَا وَاضِحَةٌ وَٱلنُّفُوسَ بِهَا وَامِقَةٌ وَٱلقُلُوبَ بِهَا وَاثِقَةٌ وَٱلعُقُولَ لَهَا مُوَافِقَةٌ . وَلَهَا اَربَعَةُ شُرُوطٍ : اَحَدُهَا صِحَّةُ ٱلتَّشبِيهِ . وَٱلثَّانِي اَن يَكُونَ ٱلعِلمُ بِهَا سَابِقًا وَٱلكُلُّ عَلَيهَا مُوَافِقًا . وَٱلثَّالِثُ اَن يُسرِعَ وُصُولُهَا لِلفَهمِ وَيَعجَلَ تَصَوُّرُهَا فِي ٱلوَهمِ مِن غَيرِ ٱرتِيَاءٍ فِي ٱستِخرَاجِهَا وَلَا كَدٍّ فِي ٱستِنبَاطِهَا . وَٱلرَّابِعُ اَن تُنَاسِبَ حَالَ ٱلسَّامِعِ لِتَكُونَ اَبلَغَ تَأْثِيرًا وَاَحسَنَ مَوقِعًا . فَإِذَا ٱجتَمَعَت فِي ٱلْاَمثَالِ ٱلْمَضرُوبَةِ هٰذِهِ ٱلشُّرُوطُ ٱلْاَربَعَةُ كَانَت زِينَةً لِلكَلَامِ وَجِلَاءً لِلمَعَانِي وَتَدَبُّرًا لِلْاَفهَامِ

قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمنَةَ : يَجِبُ عَلَى قَارِئِ ٱلْاَمثَالِ اَن يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا مِن غَيرِ ضَجَرٍ وَيَلتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهَا وَلَا يَظُنَّ اَنَّ نَتِيجَتَهَا إِنَّمَا هِيَ ٱلْاَخبَارُ عَن حِيلَةِ بَهِيمَتَينِ اَو مُحَاوَرَةِ سَبُعٍ لِثَورٍ فَيَنصَرِفَ بِذٰلِكَ عَنِ ٱلغَرَضِ ٱلْمَقصُودِ وَيَكُونَ مَثَلُهُ مَثَلَ ٱلصَّيَّادِ ٱلَّذِي كَانَ فِي بَعضِ ٱلْخُلجَانِ يَصِيدُ فِيهِ ٱلسَّمَكَ فِي زَورَقٍ . فَرَاَى ذَاتَ يَومٍ فِي عَمِيقِ ٱلْمَاءِ صَدَفَةً تَتَلَألَأُ حُسنًا فَتَوَهَّمَهَا جَوهَرًا لَهُ قِيمَةٌ . وَكَانَ قَد اَلقَى

شَبَكَتَهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَٱشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ . فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ لِيَأْخُذَ ٱلصَّدَفَةَ . فَلَمَّا أَخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَا شَيْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ وَأَلْقَى شَبَكَتَهُ فَأَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا وَرَأَى أَيْضًا صَدَفَةً سَنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا . وَٱجْتَازَ بِهَا بَعْضُ ٱلصَّيَّادِينَ فَأَخَذَهَا فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي أَمْوَالًا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلْجُهَّالُ عَلَى إِغْفَالِ أَمْرِ ٱلتَّفَكُّرِ فِي ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْاغْتِرَارِ بِهَا وَتَرْكِ ٱلْوُقُوفِ عَلَى أَسْرَارِ مَعَانِيهَا وَٱلْأَخْذِ بِظَاهِرِهَا دُونَ ٱلْأَخْذِ بِبَاطِنِهَا . وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي أَبْوَابِ ٱلْهَزْلِ مِنْهَا فَهُوَ كَرَجُلٍ أَصَابَ أَرْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا حَتَّى إِذَا قَرُبَ خَيْرُهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلزَّهْرِ وَقَطْعِ ٱلشَّوْكِ فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَائِدَةً وَأَجْمَلَ عَائِدَةً . وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي ٱلْأَمْثَالِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَغْرَاضٍ : أَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ إِلَى وَضْعِهَا عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلْبَهَائِمِ غَيْرِ ٱلنَّاطِقَةِ مِنْ مُسَارَعَةِ أَهْلِ ٱلْهَزْلِ مِنَ ٱلشُّبَّانِ إِلَى قِرَاءَتِهَا فَتُسْتَمَالُ بِهِ قُلُوبُهُمْ لِأَنَّ هٰذَا هُوَ ٱلْغَرَضُ بِٱلنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ ٱلْحَيَوَانَاتِ . وَٱلثَّانِي إِظْهَارُ خَيَالَاتِ ٱلْحَيَوَانَاتِ بِصُنُوفِ ٱلْأَصْبَاغِ وَٱلْأَلْوَانِ لِيَكُونَ أُنْسًا لِقُلُوبِ ٱلْمُلُوكِ وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهَا أَشَدَّ لِلنُّزْهَةِ فِي تِلْكَ ٱلصُّوَرِ . وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَتَتَّخِذَهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلسُّوقَةُ فَيَكْثُرَ بِذٰلِكَ ٱنْتِسَاخُهَا وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلَقَ عَلَى مُرُورِ ٱلْأَيَّامِ . وَلِيَنْتَفِعَ

بِذٰلِكَ ٱلْمُصَوِّرُ وَٱلنَّاسِخُ أَبَدًا. وَٱلْغَرَضُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلْأَقْصَى مَخْصُوصٌ بِٱلْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً لِتَكُونَ ٱلْأَمْثَالُ رِيَاضَةً لِعَقْلِهِمْ إِذْ فِيهَا يَجِدُونَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَأُولَاهُ وَيَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ *

البحث الثالث

في آداب المحادثة والرواية

(عن مروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٦٩ من علم الادب)

قَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ : لَا تَحْسُنُ ٱلْمُحَادَثَةُ إِلَّا بِحُسْنِ ٱلْفَهْمِ. وَقَالُوا: تَعَلَّمْ حُسْنَ ٱلِٱسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ ٱلْكَلَامِ. وَحُسْنُ ٱلِٱسْتِمَاعِ هُوَ أَشْهَى إِلَى ٱلْمُحَدِّثِ حَتَّى يَنْقَضِيَ حَدِيثُهُ. وَمِنْ أَدَبِ

---

* وقال بعضهم في وصف كليلة ودمنة :

اذا افتخر الرجال بفضل علم	ومدّت فيه السنة طويلهْ
ففاخر ما استطعت بما حوتهُ	بطون كتاب دمنةَ مع كليلهْ
كتاب يغرق العلماء فيهِ	وألباب الورى منهُ كليلهْ
وكم فيهِ عجائب كامنات	على دنيا وآخرةٍ دليلهْ
وكم حكم على افواه طير	وآداب وامثال مقولهْ
يراها الجاهل المأفون هزلًا	وحسكها لعالمها فضيلهْ

ٱلْحَدِيثِ وَمُوجِبَاتِهِ أَنْ لَا يُقْتَضَبَ ٱقْتِضَابًا وَلَا يُهْجَمَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُتَوَصَّلَ إِلَى إِجْرَائِهِ بِمَا يُشَاكِلُهُ . وَأَنْ يُسْتَنْسَبَ لَهُ مَا يَحْسُنُ أَنْ يَجْرِيَ فِي غَرَضِهِ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُ ٱلْمُفَاوَضَةِ مُتَعَلِّقًا بِبَعْضٍ عَلَى حَسَبِ مَا قَالُوا فِي ٱلْمَثَلِ : إِنَّ ٱلْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ يُرِيدُونَ بِذٰلِكَ تَشَعُّبَهُ وَتَفَرُّعَهُ عَنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ إِلَى وُجُوهٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَثِيرَةٍ إِذْ كَانَ ٱلْعَيْشُ كُلُّهُ فِي ٱلْجَلِيسِ ٱلْمُمْتِعِ . وَقَالَ رَجُلٌ : إِنِّي مَا أَمَلُّ ٱلْحَدِيثَ . فَقَالَ ٱلسَّامِعُ : إِنَّمَا يُمَلُّ ٱلْعَتِيقُ لَا ٱلْحَدِيثُ . وَقَدْ أَكْثَرَتِ ٱلشُّعَرَاءُ مِنَ ٱلْإِغْرَاقِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱلرُّومِيِّ :

وَسَئِمْتُ كُلَّ مَآرِبِي فَكَأَنَّ أَطْيَبَهَا غَثِيثُ
إِلَّا ٱلْحَدِيثَ فَإِنَّهُ مِثْلُ ٱسْمِهِ أَبَدًا حَدِيثُ

وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ :

وَضَجِرْتُ إِلَّا مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ حَسَنِ ٱلْحَدِيثِ يَزِيدُنِي تَعْلِيمَا

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْمُحَدِّثِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَدَبِ أَنَّ مِنَ ٱلْأَدَبِ عَدَمَ إِطَالَةِ ٱلْحَدِيثِ مِنَ ٱلنَّدِيمِ وَأَنَّ أَحْلَى لِحَدِيثِهِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِهِ أَنْ يَجْتَنِبَ مِنْهُ ٱلْأَحَادِيثَ ٱلطِّوَالَ ذَاتَ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُغَلْغَلَةِ وَٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَشْوِيَّةِ ٱلَّتِي ٱفْتَنَّ بِٱقْتِصَاصِهَا سُمَّارُ ٱلْمَجَالِسِ وَتَتَعَلَّقُ بِهَا ٱلنُّفُوسُ وَتُحْتَسَى عَلَى أَوَاخِرِهَا ٱلْكُؤُوسُ . فَإِنَّ ذٰلِكَ بِمَجَالِسِ ٱلْقُصَّاصِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِمَجَالِسِ ٱلْخَوَاصِّ . وَقَدْ ذَكَرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَأَجَادَ فِيهِ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَوَصَفَ ذٰلِكَ مِنْ أَوْصَافِ ٱلشَّرَابِ عَلَى ٱلْمُعَاقَرَةِ فَقَالَ :

بَيْنَ اَقْدَاحِهِمْ حَدِيثٌ قَصِيرٌ هُوَ سِحْرٌ وَمَا سِوَاهُ حَرَامُ

وَهٰذِهِ طَرِيقَةُ مَنْ ذَهَبَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اِلَى ٱسْتِمَاعِ ٱلْمُلَحِ

البحث الرابع

في حقيقة التاريخ وموضوعه

(عن كشف الظنون للحاج خلفا ومروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اَلتَّأْرِيخُ فِي ٱللُّغَةِ تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ مُطْلَقًا . وَيُقَالُ : اَرَّخْتُ ٱلْكِتَابَ تَأْرِيخًا وَوَرَّخْتُهُ تَوْرِيخًا كَمَا فِي ٱلصِّحَاحِ وَهُوَ مُعَرَّبٌ . وَعُرْفًا هُوَ تَعْيِينُ وَقْتٍ لِيُنْسَبَ اِلَيْهِ زَمَانٌ يَأْتِي عَلَيْهِ اَوْ مُطْلَقًا يَعْنِي سَوَاءٌ كَانَ مَاضِيًا اَوْ مُسْتَقْبَلًا . وَقِيلَ : تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ بِٱسْتِنَادِهِ اِلَى اَوَّلِ حُدُوثِ اَمْرٍ شَائِعٍ مِنْ ظُهُورِ مِلَّةٍ اَوْ دَوْلَةٍ اَوْ اَمْرٍ هَائِلٍ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلسُّفْلِيَّةِ مِمَّا يَنْدُرُ وُقُوعُهُ جُعِلَ ذٰلِكَ مَبْدَأً لِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَوْقَاتِ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَجِبُ ضَبْطُ اَوْقَاتِهَا فِي مُسْتَأْنَفِ ٱلسِّنِينَ . وَقِيلَ : عَدَدُ ٱلْأَيَّامِ وَٱللَّيَالِي بِٱلنَّظَرِ اِلَى مَا مَضَى مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشُّهُورِ اِلَى مَا بَقِيَ . وَعِلْمُ ٱلتَّأْرِيخِ هُوَ مَعْرِفَةُ اَحْوَالِ ٱلطَّوَائِفِ وَبُلْدَانِهِمْ وَرُسُومِهِمْ وَصَنَائِعِ اَشْخَاصِهِمْ وَاَنْسَابِهِمْ وَوَفَيَاتِهِمْ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَمَوْضُوعُهُ اَحْوَالُ ٱلْاَشْخَاصِ ٱلْمَاضِيَةِ مِنَ ٱلْاَنْبِيَاءِ وَٱلْاَوْلِيَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْحُكَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ٱلْاَحْوَالِ ٱلْمَاضِيَةِ . وَفَائِدَتُهُ ٱلْعِبْرَةُ بِتِلْكَ ٱلْاَحْوَالِ

ٱلْمَاضِيَةِ وَٱلتَّنَصُّحُ بِهَا وَحُصُولُ مَلَكَةِ ٱلتَّجَارِبِ بِٱلْوُقُوفِ عَلَى تَقَلُّبَاتِ ٱلزَّمَنِ لِيَحْتَرِزَ عَنْ أَمْثَالِ مَا نُقِلَ مِنَ ٱلْمَضَارِّ وَيُسْتَجْلَبَ نَظَائِرُهَا مِنَ ٱلْمَنَافِعِ . وَهٰذَا ٱلْعِلْمُ كَمَا قِيلَ عُمْرٌ آخَرُ لِلنَّاظِرِينَ وَٱنْتِفَاعٌ (لِلْمُطَالِعِ) فِي مِصْرِهِ بِمَنَافِعَ تَحْصُلُ لِلْمُسَافِرِينَ

وَلَوْلَا تَقْيِيدُ ٱلْعُلَمَاءِ خَوَاطِرَهُمْ عَلَى ٱلدَّهْرِ لَبَطَلَ أَوَّلُ ٱلْعِلْمِ وَضَاعَ آخِرُهُ إِذْ كَانَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ ٱلْأَخْبَارِ يُسْتَنْبَطُ وَٱلْفِقْهُ مِنْهَا يُسْتَثَارُ وَٱلْفَصَاحَةُ مِنْهَا تُسْتَفَادُ وَأَصْحَابُ ٱلْقِيَاسِ مِنْهَا يَبْنُونَ . وَأَهْلُ ٱلْمَقَالَاتِ بِهَا يَحْتَجُّونَ وَمَعْرِفَةُ ٱلنَّاسِ مِنْهَا تُؤْخَذُ وَأَمْثَالُ ٱلْحُكَمَاءِ فِيهَا تُوجَدُ وَمَكَارِمُ ٱلْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا مِنْهَا تُقْتَبَسُ . وَآدَابُ سِيَاسَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلْحَرْبِ مِنْهَا تُلْتَمَسُ وَكُلُّ غَرِيبَةٍ مِنْهَا تُعْرَفُ وَكُلُّ أُعْجُوبَةٍ مِنْهَا تُسْتَطْرَفُ . وَهُوَ عِلْمٌ يَسْتَمْتِعُ بِسَمَاعِهِ ٱلْعَالِمُ وَٱلْجَاهِلُ وَيَسْتَعْذِبُ مَوْقِعَهُ ٱلْأَحْمَقُ وَٱلْعَاقِلُ وَيَأْنَسُ بِمَكَانِهِ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ ٱلْخَاصِّيُّ وَٱلْعَامِّيُّ وَيَمِيلُ إِلَى رِوَايَتِهِ ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ . وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يُوصَلُ بِهِ كُلُّ كَلَامٍ وَيُتَزَيَّنُ بِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَيُحْتَمَلُ بِهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ وَيُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَحْفِلٍ . فَفَضِيلَةُ عِلْمِ ٱلْأَخْبَارِ بَيِّنَةٌ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ وَشَرَفُ مَنْزِلَتِهِ صَحِيحَةٌ فِي كُلِّ فَهْمٍ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى عِلْمِهِ وَتَيَقُّنِ مَا فِيهِ وَإِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ إِلَّا إِنْسَانٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِلْعِلْمِ وَفَهِمَ مَعْنَاهُ وَذَاقَ ثَمَرَتَهُ وَٱسْتَشْعَرَ مِنْ عِزِّهِ وَنَالَ مِنْ سُرُورِهِ

البحث الخامس

في شرف التاريخ

(عن ابن خلدون)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اما بعد فان فنَّ التأريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والاجيال وتشدُّ اليها الركائب والرحال وتسمو الى معرفتها السوقة والاغفال . وتتنافس فيها الملوك والاقيال . وتتساوى في فهمه العلماء والجهال . اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول . والسوابق من القرون الاول . تنمو فيها الاقوال وتضرب فيها الامثال . وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال . وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال . واتسع للدول فيها النطاق والمجال. وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال. وحان منهم الزوال وفي باطنه نظر وتحقيق. وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق . وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق . فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق . وجدير بان يعدَّ في علومها وخليق . وان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا اخبار الايام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر واودعوها . وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها . وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها . واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها . وادوها الين

كَمَا سَمِعُوهَا . وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ ٱلْوَقَائِعِ وَٱلْأَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعُوهَا .
وَلَا رَفَضُوا تُرَّهَاتِ ٱلْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا. فَٱلتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ. وَطَرْفُ ٱلتَّنْقِيحِ
فِي ٱلْغَالِبِ كَلِيلٌ. وَٱلْغَلَطُ وَٱلْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ . وَٱلتَّقْلِيدُ
عَرِيقٌ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ. وَٱلتَّطَفُّلُ عَلَى ٱلْفُنُونِ عَرِيضٌ طَوِيلٌ .
وَمَرْعَى ٱلْجَهْلِ بَيْنَ ٱلْأَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ. وَٱلْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ. وَٱلْبَاطِلُ
يُقْذَفُ بِشِهَابِ ٱلنَّظَرِ شَيْطَانُهُ. وَٱلنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ . وَٱلْبَصِيرَةُ
تَنْقُدُ ٱلصَّحِيحَ إِذَا تَمَقَّلُ. وَٱلْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ ٱلصَّوَابِ وَيَصْقُلُ .
هٰذَا وَقَدْ دَوَّنَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا . وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ ٱلْأُمَمِ
وَٱلدُّوَلِ فِي ٱلْعَالَمِ وَسَطَّرُوا . وَٱلَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْإِمَامَةِ
ٱلْمُعْتَبَرَةِ. وَٱسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمْ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ . هُمْ قَلِيلُونَ
لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ ٱلْأَنَامِلِ . وَلَا حَرَكَاتِ ٱلْعَوَامِلِ . مِثْلُ ٱبْنِ
إِسْحَقَ وَٱلطَّبَرِيِّ وَٱبْنِ ٱلْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ ٱلْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ
ٱبْنِ عُمَرَ ٱلْأَسَدِيِّ وَٱلْمَسْعُودِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمَشَاهِيرِ. ٱلْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ
ٱلْجَمَاهِيرِ. وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ ٱلْمَسْعُودِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ مِنَ ٱلْمَطْعَنِ
وَٱلْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ ٱلْأَثْبَاتِ. وَمَشْهُورٌ بَيْنَ ٱلْحَفَظَةِ ٱلثِّقَاتِ .
إِلَّا أَنَّ ٱلْكَافَّةَ ٱخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ . وَٱقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي
ٱلتَّصْنِيفِ وَٱتِّبَاعِ آثَارِهِمْ. وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَزْيِيفِهِمْ
فِيمَا يَنْقُلُونَ أَوِ ٱعْتِبَارِهِمْ . فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا
ٱلْأَخْبَارُ . وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا ٱلرِّوَايَاتُ وَٱلْآثَارُ . ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ ٱلتَّوَارِيخِ
لِهٰؤُلَاءِ عَامَّةُ ٱلْمَنَاهِجِ وَٱلْمَسَالِكِ . لِعُمُومِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ فِي

ٱلْآفَاقِ وَٱلْمَمَالِكِ وَتَنَاوُلِهَا ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْغَايَاتِ فِي ٱلْمَآخِذِ وَٱلْمَتَارِكِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنِ ٱسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَٱلْأُمَمِ. وَٱلْأَمْرِ ٱلْعَمَمِ. كَٱلْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ. وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ ٱلْإِطْلَاقِ إِلَى ٱلتَّقْيِيدِ. وَوَقَفَ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْإِحَاطَةِ عَنِ ٱلشَّأْوِ ٱلْبَعِيدِ فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ. وَٱسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفْقِهِ وَقُطْرِهِ. وَٱقْتَصَرَ عَلَى أَحَادِيثِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ. كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْأَمَوِيَّةِ بِهَا. وَٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَةَ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بِٱلْقَيْرَوَانِ. ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ. وَبَلِيدُ ٱلطَّبْعِ وَٱلْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ. يَنْسُجُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمِنْوَالِ. وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِٱلْمِثَالِ. وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ ٱلْأَيَّامُ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَٱسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ. فَيَجْلُبُونَ ٱلْأَخْبَارَ عَنِ ٱلدُّوَلِ. وَحِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلْأُوَلِ. صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا. وَصِفَاحًا ٱنْتُضِيَتْ مِنْ أَغْمَادِهَا وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا. إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا. وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا. يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا ٱلْأَخْبَارَ ٱلْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا. ٱتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا. وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ ٱلْأَجْيَالِ ٱلنَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا. بِمَا أَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجَمَاتِهَا فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا. ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ ٱلدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا. مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا أَوْ صِدْقًا. لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا. وَلَا يَذْكُرُونَ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا. وَلَا عِلَّةَ ٱلْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا. فَيَبْقَى ٱلنَّاظِرُ

مُتَطَلِّعًا بَعْدُ إِلَى ٱفْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِىءِ ٱلدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا . مُفَتِّشًا عَنْ أَسْبَابِ تَزَاحُمِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا. بَاحِثًا عَنِ ٱلْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ فِي تَنَاسُبِهَا . ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ ٱلِٱخْتِصَارِ . وَذَهَبُوا إِلَى ٱلِٱكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلِٱقْتِصَارِ . مَقْطُوعَةً عَنِ ٱلْأَنْسَابِ وَٱلْأَخْبَارِ . مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ ٱلْغُبَارِ . كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ ٱلْعَمَلِ وَمَنِ ٱقْتَفَى هٰذَا ٱلْأَثَرَ مِنَ ٱلْهَمَلِ . وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهٰؤُلَاءِ مَقَالٌ . وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا ٱنْتِقَالٌ . لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ ٱلْفَوَائِدِ . وَأَخَلُّوا بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْعَوَائِدِ

وَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَثْبَاتِ وَٱلْمُؤَرِّخِينَ ٱلْحُفَّاظِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱلْآرَاءِ . وَعَلِقَتْ بِأَفْكَارِهِمْ وَنَقَلَهَا عَنْهُمُ ٱلْكَافَّةُ مِنْ ضَعَفَةِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْغَفَلَةِ عَنِ ٱلْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضًا كَذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَٱنْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ فَنُّ ٱلتَّأْرِيخِ وَاهِيًا مُخْتَلِطًا . وَنَاظِرُهُ مُرْتَبِكًا وَعُدَّ مِنْ مَنَاحِي ٱلْعَامَّةِ . فَإِذًا يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْبِقَاعِ وَٱلْأَعْصَارِ فِي ٱلسِّيَرِ وَٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْعَوَائِدِ وَٱلنِّحَلِ وَٱلْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْإِحَاطَةِ بِٱلْحَاضِرِ مِنْ ذٰلِكَ . وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْغَائِبِ مِنَ ٱلْوِفَاقِ أَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ ٱلْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَٱلْمُخْتَلِفِ . وَٱلْقِيَامِ عَلَى أُصُولِ ٱلدُّوَلِ وَٱلْمِلَلِ وَمَبَادِىءِ ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا . وَأَحْوَالِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِبًا لِأَسْبَابِ كُلِّ

حَادِثٍ وَاقِفًا عَلَى أُصُولِ كُلِّ خَبَرٍ وَحِينَئِذٍ يَعْرِضُ ٱلْخَبَرَ ٱلْمَنْقُولَ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ وَٱلْأُصُولِ . فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَٱسْتَغْنَى عَنْهُ . وَمَا ٱسْتَكْبَرَ ٱلْقُدَمَاءُ عِلْمَ ٱلتَّأْرِيخِ إِلَّا لِذٰلِكَ حَتَّى ٱنْتَحَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْبُخَارِيُّ وَٱبْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْأُمَّةِ . وَقَدْ ذَهَلَ ٱلْكَثِيرُ عَنْ هٰذَا ٱلسِّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ ٱنْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً وَٱسْتَخَفَّ ٱلْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي ٱلْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمْلَهُ وَٱلْخَوْضَ فِيهِ وَٱلتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ وَٱللُّبَابُ بِٱلْقِشْرِ وَٱلصَّادِقُ بِٱلْكَاذِبِ وَإِنَّ لِلّٰهِ عَاقِبَةَ ٱلْأُمُورِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ فَنَّ ٱلتَّأْرِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ ٱلْمَذْهَبِ جَمُّ ٱلْفَائِدَةِ شَرِيفُ ٱلْغَايَةِ إِذْ هُوَ يُوقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَٱلْأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ وَٱلْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ ٱلْإِقْتِدَاءِ فِي ذٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى ٱلْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ ٱلْمَزَلَّاتِ وَٱلْمَغَالِطِ . لِأَنَّ ٱلْأَخْبَارَ إِذَا ٱعْتُمِدَ فِيهَا مُجَرَّدُ ٱلنَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ ٱلْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْأَحْوَالُ فِي ٱلْإِجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ ٱلْغَائِبُ مِنْهَا بِٱلشَّاهِدِ وَٱلْحَاضِرُ بِٱلذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ ٱلْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ ٱلْقَدَمِ وَٱلْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ ٱلصِّدْقِ . وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْمُفَسِّرِينَ وَأَئِمَّةِ ٱلنَّقْلِ ٱلْمَغَالِطُ فِي حِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ لِٱعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا . لَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا

وَقَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ وَٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذْرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ

البحث السادس

في شروط التاريخ

(عن الفخري)

(راجع صفحة ١٩٧ من علم الادب)

وَإِنْ بَاشَرْتَ بِكِتَابَةِ تَارِيخٍ عَامٍّ فَتَكَلَّمْ عَلَى دَوْلَةٍ دَوْلَةٍ بِمَجْمُوعِ مَا حَصَّلَ ذِهْنُكَ مِنَ ٱلْهَيْئَةِ ٱلِٱجْتِمَاعِيَّةِ ٱلَّتِي أَفَادَتْكَهَا مُطَالَعَةُ ٱلسِّيَرِ وَٱلتَّوَارِيخِ وَٱذْكُرْ كَيْفَ كَانَ ٱبْتِدَاؤُهَا وَٱنْتِهَاؤُهَا وَطَرَفًا مُمْتِعًا مِنْ مَحَاسِنِ مُلُوكِهَا وَأَخْبَارِ سَلَاطِينِهَا . ثُمَّ إِذَا ذَكَرْتَ دَوْلَةً فَدَوْلَةً تَكَلَّمْتَ عَلَى كُلِّيَّاتِ أُمُورِهَا ثُمَّ ذَكَرْتَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ مُلُوكِهَا وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ مِنَ ٱلْوَقَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْمَأْثُورَةِ فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ذٰلِكَ ٱلْمَلِكِ ذَكَرْتَ وُزَرَاءَهُ وَاحِدًا وَاحِدًا وَطَرَائِقَ مَا جَرَى لَهُمْ . فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ٱلْمَلِكِ وَوُزَرَائِهِ ٱبْتَدَأْتَ بِٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي بَعْدَهُ وَبِمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ وَبِسِيَرِ وُزَرَائِهِ كَذٰلِكَ إِلَى آخِرِ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْتَزِمْ فِيهِ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ لَا تَمِيلَ فِيهِ إِلَّا مَعَ ٱلْحَقِّ

وَلَا تَنطِقَ فِيهِ إِلَّا بِالْعَدْلِ . وَأَنْ تَعْزِلَ سُلْطَانَ الْهَوَى وَتَخْرُجَ مِنْ
حُكْمِ الْمَنْشَإِ وَالْمَرْبَى وَتَفْرِضَ نَفْسَكَ غَرِيبًا عَنْهُمْ وَأَجْنَبِيًّا بَيْنَهُمْ .
وَثَانِيهِمَا أَنْ تُعَبِّرَ عَنِ الْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ وَاضِحَةٍ تَقْرُبُ مِنَ الْأَفْهَامِ
لِيَنْتَفِعَ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ عَادِلًا عَنِ الْعِبَارَاتِ الْمُسْتَصْعَبَةِ الَّتِي يُقْصَدُ فِيهَا إِظْهَارُ
الْفَصَاحَةِ وَإِثْبَاتُ الْبَلَاغَةِ فَطَالَمَا رَأَيْتُ مُصَنِّفِي الْكُتُبِ قَدْ أَعْرَضَتْهُمْ
مَحَبَّةُ إِظْهَارِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ فَخَفِيَتْ أَغْرَاضُهُمْ وَاعْتَاصَتْ مَعَانِيهِمْ فَقَلَّتِ
الْفَائِدَةُ بِمُصَنَّفَاتِهِمْ . هٰذَا وَإِنَّ كُتُبَ التَّوَارِيخِ إِنْ نُظِرَ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ
إِلَيْهَا رُئِيَتْ أَنْفَعَ مِنَ الْحَمَاسَةِ الَّتِي لَهِجَ النَّاسُ بِهَا وَأَخَذُوا أَوْلَادَهُمْ
بِحِفْظِهَا فَإِنَّ الْحَمَاسَةَ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِنَ التَّرْغِيبِ فِي الشَّجَاعَةِ
وَالضِّيَافَةِ وَشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ فِي الْبَابِ الْمُسَمَّى بَابَ الْأَدَبِ
وَالتَّأَنُّسِ بِالْمَذَاهِبِ الشِّعْرِيَّةِ . وَالتَّأْرِيخُ يُسْتَفَادُ مِنْهُ هٰذِهِ الْخِصَالُ
الْمَذْكُورَةُ . وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ قَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَأَدَوَاتُ الرِّئَاسَةِ . فَهٰذَا
فِيهِ مَا فِي الْحَمَاسَةِ وَلَيْسَ فِي الْحَمَاسَةِ مَا فِيهِ وَإِنَّهُ يُفِيدُ الْعَقْلَ قُوَّةً
وَالذِّهْنَ حِدَّةً وَالْبَصِيرَةَ نُورًا وَهُوَ لِلْخَاطِرِ الذَّكِيِّ بِمَنْزِلَةِ الْمِسَنِّ لِلْفُولَاذِ
الْجَيِّدِ وَهُوَ أَيْضًا أَنْفَعُ مِنَ الْمَقَامَاتِ الَّتِي النَّاسُ فِيهَا مُعْتَقِدُونَ وَفِي تَحَفُّظِهَا
رَاغِبُونَ إِذِ الْمَقَامَاتُ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا سِوَى التَّمَرُّنِ عَلَى الْإِنْشَاءِ وَالْوُقُوفِ
عَلَى مَذَاهِبِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ . نَعَمْ وَفِيهَا حِكَمٌ وَحِيَلٌ وَتَجَارِبُ إِلَّا أَنَّ
ذٰلِكَ مِمَّا يُصَغِّرُ الْهِمَّةَ إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى السُّؤَالِ وَالِاسْتِجْدَاءِ وَالتَّحَيُّلِ الْقَبِيحِ
عَلَى تَحْصِيلِ النَّزْرِ الطَّفِيفِ فَإِنْ نَفَعَتْ مِنْ جَانِبٍ ضَرَّتْ مِنْ جَانِبٍ
وَبَعْضُ النَّاسِ تَنَبَّهُوا عَلَى هٰذَا مِنَ الْمَقَامَاتِ الْحَرِيرِيَّةِ وَالْبَدِيعِيَّةِ فَعَدَلَ

نَاسٌ إِلَى نَهْجِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : فَإِنَّهُ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي يُتَعَلَّمُ مِنْهُ ٱلْحِكَمُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَٱلْخُطَبُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلزُّهْدُ وَعُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ وَأَدْنَى فَوَائِدِهِ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ . وَكَذٰلِكَ كُتُبُ ٱلتَّوَارِيخِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ رُبَّمَا أَضْجَرَتْهُ ٱلْمَهَامُّ وَٱلْأَشْغَالُ فَإِذَا رَوَّحَ فِكْرَهُ بِٱلنَّظَرِ فِيهَا دَفَعَ بِهَا ٱلْمَلَالَ وَتَذَكَّرَ بِهَا مَا أَنْسَتْهُ ٱلْأَشْغَالُ . .

البحث السابع

في الاصول العشرة التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات

(من كتاب صبح الاعشى لابي العبّاس احمد القلقشندي)

(راجع صفحة ٢٠٧ من علم الادب)

(ٱلْأَصْلُ ٱلْأَوَّلُ حُسْنُ ٱلِٱفْتِتَاحِ) ٱلْمَطْلُوبُ فِي سَائِرِ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ مِمَّا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ لِيَكُونَ دَاعِيَةً لِٱسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ . وَيَرْجِعُ حُسْنُ ٱلِٱفْتِتَاحِ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ إِلَى مَعْنَيَيْنِ: (ٱلْمَعْنَى ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا إِلَى ٱلْمُبْتَدَإِ بِهِ إِمَّا بِٱلِٱفْتِتَاحِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ كَمَا فِي بَعْضِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ لِأَنَّ ٱلنُّفُوسَ تَتَشَوَّقُ إِلَى ٱلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى . أَوْ بِٱلسَّلَامِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱلشَّارِعُ مُفْتَتَحَ ٱلْخِطَابِ أَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ . فَإِنَّ أَمْرَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلتَّلَطُّفِ وَٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَوَاطِرِ وَتَأْلِيفِ ٱلْقُلُوبِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱصْطِلَاحُ كُلِّ زَمَنٍ فِي ٱلِٱبْتِدَاءَاتِ . (ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا إِلَى مَا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ مِنْ سُهُولَةِ ٱللَّفْظِ

وَصِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَوُضُوحِ ٱلْمَعْنَى وَتَجَنُّبِ ٱلْحَشْوِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّانِي) بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ ٱلْمَطْلُوبَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ بِأَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عَجُزِهَا فَإِنْ كَانَ ٱلْكَاتِبُ يُهَنِّئُ أَتَى فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّهْنِئَةِ . أَوْ كَانَ ٱلصَّدَدُ فِي ٱلتَّعْزِيَةِ أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعْزِيَةِ أَوْ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لِيُعْلَمَ مِنْ مَبْدَإِ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ . . . ثُمَّ مِنَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَا يَعْسُرُ مَعَهُ ٱلْإِتْيَانُ بِبَرَاعَةِ ٱلِٱسْتِهْلَالِ فَيَأْتِي بِهَا فِيمَا يَلِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مُقَدَّمَةِ ٱلْمُكَاتَبَةِ قَبْلَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلْمَقْصُودِ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّالِثُ) ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلَّتِي يَلْزَمُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا فِي صَدْرِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ تَأْسِيسًا لِمَا يَأْتِي فِي مُكَاتَبَةٍ . مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ كُتُبِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْجِهَادِ بِذِكْرِ ٱفْتِرَاضِهِ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَمَا وَعَدَ ٱللّٰهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ وَخِذْلَانِ أَعْدَائِهِ وَإِعْزَازِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَقَمْعِ ٱلْمُلْحِدِينَ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ ٱلْفَتْحِ بِإِنْجَازِ وَعْدِ ٱللّٰهِ ٱلَّذِي وَعَدَهُ أَهْلَ ٱلطَّاعَةِ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَٱلظَّفَرِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ جِبَايَةِ ٱلْخَرَاجِ بِحَاجَةِ قِيَامِ ٱلْمُلْكِ إِلَى ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِمَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ حُقُوقِ ٱلسُّلْطَانِ فِي عِمَارَةِ ٱلثُّغُورِ وَتَحْصِينِ ٱلْأَعْمَالِ وَتَقْوِيَةِ ٱلرِّجَالِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّمَطِ . قَالَ فِي مَوَادِّ ٱلْبَيَانِ : وَعَلَى هٰذَا ٱلسَّبِيلِ جَرَتْ سُنَّةُ ٱلْكُتَّابِ فِي جَمِيعِ ٱلْكُتُبِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَٱلْفُتُوحِ وَٱلتَّهَانِي وَٱلتَّعَازِي وَٱلتَّهَادِي وَٱلِٱسْتِخْبَارِ وَٱلِٱسْتِبْطَاءِ وَٱلْإِحْمَادِ وَٱلْإِذْمَامِ وَغَيْرِهَا لِيَكُونَ

ذلكَ بِساطاً لِمَا يُرِيدُ ٱلقَوْلَ فِيهِ وَحُجَّةً يَسْتَظْهِرُ بِهَا ٱلسُّلْطَانُ لِأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَرْشٍ يُفْرَشُ قَبْلَهُ لِيَكُونَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْأَسَاسِ مِنَ ٱلْبُنْيَانِ . (قَالَ) : وَيُرْجَعُ فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْكَاتِبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي تُشَاكِلُهَا . (ثُمَّ قَالَ) وَٱلطَّرِيقُ فِي إِصَابَةِ ٱلْمَرْمَى فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ أَنْ تُجْعَلَ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَغْرَاضِ وَأَنْ يُوضَعَ لِلْأَمْرِ ٱلْخَاصِّ مُقَدِّمَةٌ خَاصَّةٌ وَلِلْأَمْرِ ٱلْعَامِّ مُقَدِّمَةٌ عَامَّةٌ وَلَا يُطَوَّلَ فِي مَوْضِعِ ٱلِٱقْتِصَارِ وَلَا يُقَصَّرَ فِي مَوْضِعِ ٱلْإِيجَازِ . وَلَا تُجْعَلَ أَغْرَاضُهَا بَعِيدَةَ ٱلْمَآخِذِ مُعْتَاصَةً عَلَى ٱلْمُتَصَفِّحِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكَاتِبَ رُبَّمَا قَصَدَ إِظْهَارَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْكَلَامِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي وُجُوهِ ٱلنُّطْقِ فَيَخْرُجُ إِلَى ٱلْإِمْلَالِ وَٱلْإِضْجَارِ ٱلَّذِي تَتَبَرَّمُ مِنْهُ ٱلنُّفُوسُ وَذَوُو ٱلْأَخْطَارِ ٱلْجَلِيلَةِ . أَمَّا ٱلْكُتُبُ ٱلَّتِي لَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ كَرِقَاعِ ٱلتُّحَفِ وَٱلْهَدَايَا وَنَحْوِهَا فَلَا تُجْعَلُ لَهَا مُقَدِّمَةٌ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ وَغَيْرُ وَاقِعٍ مَوْقِعَهُ . (ٱلْأَصْلُ ٱلرَّابِعُ) مَوَاقِعُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّائِرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَيَلْزَمُ أَنْ يُمَيِّزَ مَوْقِعَ كُلٍّ لِيَضَعَهُ مَكَانَهُ . وَقَالَ فِي ذَخِيرَةِ ٱلْكُتَّابِ : يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ ٱلرَّئِيسِ أَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَوَاقِعَهَا لِيُرَتِّبَهَا وَيُفَرِّقَ بَيْنَهَا فَرْقًا يَقِفُهُ عَلَى ٱلْوَاجِبِ وَيَنْتَهِي بِهِ إِلَى ٱلصَّوَابِ فَيُخَاطِبُ كُلًّا فِي مُكَاتَبَتِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ ٱلْخِطَابِ . . وَمَتَى ٱسْتَمَرَّ ٱلْكَاتِبُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمُنَاقَضَةِ نَقَصَتِ ٱلْمَعَانِي وَرَذُلَتِ ٱلْأَلْفَاظُ وَسَقَطَتِ ٱلْمَقَاصِدُ وَكَانَ

ٱلْكَاتِبُ قَدْ أَخَلَّ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ بِمُعْظَمِهَا وَتَرَكَ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ غَايَةَ مُحْكَمِهَا بَلْ يَجِبُ إِنْ بَدَا بِخِطَابِ رَئِيسٍ أَوْ نَظِيرٍ أَوْ مَرْؤُوسٍ أَنْ يَكُونَ مَا يَتَخَلَّلُ مُكَاتَبَتَهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى ٱتِّسَاقٍ إِلَى آخِرِهَا وَٱطِّرَادٍ مِنْ غَيْرِ مُخَالَفَةٍ بَيْنَهَا وَلَا مُضَادَّةٍ وَلَا مُنَاقَضَةٍ . نَعَمْ يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِي مُعَاتَبَاتِ ٱلْإِخْوَانِ وَٱلْمُدَاعَبَاتِ ٱلْجَارِيَةِ بَيْنَ ٱلْخِلَّانِ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلْخَامِسُ) ٱلْأَدْعِيَةُ ٱلَّتِي جَرَتْ عَادَةُ ٱلسَّلَفِ وَتَبِعَهُمُ ٱلْخَلَفُ بِٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ. وَٱلنَّظَرُ فِيهَا مِنْ سِتَّةِ أَوْجُهٍ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلدُّعَاءِ لِيُوقِعَهَا فِي مَوَاقِعِهَا وَيُورِدَهَا فِي مَوَارِدِهَا . وَيَأْتِي ذٰلِكَ فِي عِدَّةِ أَدْعِيَةٍ مِنْهَا : ٱلدُّعَاءُ بِإِطَالَةِ ٱلْبَقَاءِ وَٱلدُّعَاءُ بِإِطَالَةِ ٱلْعُمْرِ . فَٱلدُّعَاءُ بِإِطَالَةِ ٱلْبَقَاءِ أَرْفَعُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ بِإِطَالَةِ ٱلْعُمْرِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْبَقَاءَ لَا يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي لِأَنَّهُ ضِدُّ ٱلْفَنَاءِ وَٱلْعُمْرُ يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي وَلِذٰلِكَ يُوصَفُ ٱللّٰهُ تَعَالَى بِٱلْبَقَاءِ وَلَا يُوصَفُ بِٱلْعُمْرِ . . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَرْبَابِ ٱلْمَنَاصِبِ ٱلْجَلِيلَةِ مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَيَخُصُّهُ بِهِ فَيَأْتِي بِٱلدُّعَاءِ فِي مُكَاتَبَةِ ٱلْمُلُوكِ بِدَوَامِ ٱلسُّلْطَانِ وَخُلُودِ ٱلْمُلْكِ . وَإِلَى ٱلْأُمَرَاءِ بِٱلدُّعَاءِ بِعِزِّ ٱلنَّصْرِ وَمُدَاوَمَةِ ٱلنِّعْمَةِ . وَإِلَى ٱلْوُزَرَاءِ مِنْ أَرْبَابِ ٱلْأَقْلَامِ بِسُبُوغِ ٱلنَّعْمَاءِ وَتَخْلِيدِ ٱلسَّعَادَةِ وَدَوَامِ ٱلْمَجْدِ. وَإِلَى ٱلْقُضَاةِ وَٱلْحُكَّامِ بِٱلدُّعَاءِ بِعِزِّ ٱلْأَحْكَامِ . وَإِلَى ٱلتُّجَّارِ بِٱلدُّعَاءِ بِمَزِيدِ ٱلْإِقْبَالِ وَشِبْهِ ذٰلِكَ . (وَٱلثَّالِثُ) أَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِي كُلَّ حَالَةٍ بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَتَكُونُ ٱلْأَدْعِيَةُ دَالَّةً عَلَى مَقَاصِدِ ٱلْكُتَّابِ

فَإِنْ كَانَ فِي ٱلْهَنَاءِ وَٱلشُّكْرِ أَوِ ٱلتَّعْزِيَةِ أَتَى كُلًّا بِمَا يُنَاسِبُهُ. (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يَعْرِفَ مَوَاضِعَ ٱلدُّعَاءِ عَلَى ٱلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ... (ٱلْأَصْلُ ٱلسَّادِسُ) أَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ ٱلْمَكْتُوبَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْأَلْقَابِ فَيُعْطِيَهُ حَقَّهُ مِنْهَا . . كَٱلْمَقَامِ وَٱلْمَقَرِّ وَٱلْجَنَابِ وَٱلنَّادِي وَٱلْمَجْلِسِ فِي زَمَانِنَا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلنُّعُوتَ. (ٱلْأَصْلُ ٱلسَّابِعُ) أَنْ يُرَاعِيَ مَقَاصِدَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِيَ لِكُلِّ مَقْصَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ وَمَدَارُ ذٰلِكَ عَلَى أَمْرَيْنِ: (ٱلْأَمْرُ ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَأْتِيَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ بِمَا يَلِيقُ بِهَا وَيَتَخَيَّرَ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَا يُشَاكِلُهَا فَإِنْ ذَكَرَ ٱلنِّعْمَةَ حَمِدَ ٱللهَ وَإِنْ ذَكَرَ ٱلْبَلْوَى شَفَعَهَا بِٱلِٱسْتِعَانَةِ بِٱللهِ وَٱلرُّجُوعِ إِلَيْهِ فِيهَا. وَيَلْتَحِقُ بِذٰلِكَ أَيْضًا أَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ ٱلرَّئِيسَ فِي أَثْنَاءِ ٱلْمُكَاتَبَةِ دَعَا لَهُ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلسُّلْطَانِ : خَلَّدَ ٱللهُ مُلْكَهُ وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى. (ٱلْأَمْرُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَتَخَطَّى ٱلتَّصْرِيحَ إِلَى ٱلتَّلْوِيحِ وَٱلْإِشَارَةِ إِذَا أَلْجَأَتْهُ ٱلْحَالُ إِلَى ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا لَا يَجُوزُ كَشْفُهُ وَإِظْهَارُهُ عَلَى صَرَاحَتِهِ بِمَا فِي ذِكْرِهِ ٱطِّرَاحُ مَهَابَةِ ٱلسُّلْطَانِ وَإِسْمَاعُهُ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ إِخْلَالُ ٱلْأَدَبِ فِي حَقِّهِ كَمَا لَوْ أَطْلَقَ لِسَانَهُ فِيهِ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَسُوءُهُ سَمَاعُهُ فَيَحْتَاجُ ٱلْمُنْشِئُ إِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ وَٱلتَّلَطُّفِ فِي ٱلْعِبَارَةِ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي مِنْ غَيْرِ خِيَانَةٍ فِي طَيِّ مَا لَا غِنَى بِهِ عَنْ عِلْمِهِ . وَهٰذَا مِمَّا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْمُتَصَرِّفُ فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّامِنُ) أَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَ فَهْمِ كُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِينَ فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ مِنَ ٱللِّسَانِ فَيُخَاطِبَ كُلَّ أَحَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱللَّفْظِ وَمَا

يصلُ إليه فهمُهُ من الخطاب (استشهادٌ من كتاب الصناعتين)..

(الأصلُ التاسعُ) ان يراعيَ رتبةَ المكتوبِ عنهُ والمكتوبِ إليه في الخطاب فيُعبّرَ عن كلٍّ واحدٍ منهما بما يليقُ بهِ. ويخاطبَ المكتوبَ إليه بما يليقُ بمقامه. فأمَّا المكتوبُ عنهُ فيختلفُ الحالُ فيه باختلافِ منصبه ورُتبته فيعبّرُ في الكتبِ الصادرةِ عن أبوابِ الخلافةِ بأميرِ المؤمنين مثلُ أن يقالَ: فجرى أمرُ أميرِ المؤمنين في كذا على كذا. وأوعزَ أميرُ المؤمنين إلى فلانٍ بكذا واقتضى رأيُ أميرِ المؤمنين كذا وهلمَّ جرًّا. وكذلك أن يعرفَ قدرَ المكتوبِ إليه من الرؤساء والنظراء والعلماء والوكلاء ليفرقَ بينَ من يكتبُ إليه.. ألا ترى أنّك لو خاطبتَ سلطانًا أو وزيرًا بالتعزيةِ عن المصيبةِ من مصائبِ الدنيا لما جازَ أن تبنيَ الكلامَ على وعظهِ وتبصيرهِ وإرشادهِ وحضّهِ على الأخذِ بحظٍّ من الصبرِ.. وإنَّما الصوابُ أن تبنيَ الخطابَ على أنّهُ أعلى شأنًا وأرفعُ مكانًا من أن يُعزّى بخلافِ المتأخرِ في الرتبةِ فإنّهُ إنّما يُعزّى تنبيهًا وتذكيرًا وتصبيرًا وتعريفًا للواجبِ في تلقّي السرّاء بالشكرِ والضرّاء بالصبرِ..

(الأصلُ العاشرُ) أن يراعيَ مواقعَ الآياتِ والسجعَ في الكتبِ وذكرَ أبياتِ الشعرِ في المكاتباتِ...

الفصل التاسع

في حل الشعر والاحتذاء

البحث الاول

في حسن الاخذ

(من كتاب الصاعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٣٩ من علم الادب)

لَيسَ لِاَحَدٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلْقَائِلِينَ غِنًى عَنْ تَنَاوُلِ ٱلْمَعَانِي مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَٱلصَّبُّ عَلَى قَوَالِبِ مَنْ سَبَقَهُ وَلٰكِنْ عَلَيْهِ اِذَا اَخَذَهَا اَنْ يَكْسُوهَا اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِهِ وَيُبْرِزَهَا فِي مَعَارِضَ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَرَصْفِهِ وَيُؤَدِّيَهَا فِي غَيْرِ حِلْيَتِهَا ٱلْأُولَى وَيَزِيدَ فِي حُسْنِ تَأْلِيفِهَا وَجَوْدَةِ تَرْكِيبِهَا وَكَمَالِ حِلْيَتِهَا وَمَعْرِضِهَا . فَاِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ فَهُوَ اَوْلَى بِهَا مِمَّنْ سَبَقَ اِلَيْهَا وَلَوْلَا اَنَّ ٱلْقَائِلَ يُؤَدِّي مَا سَمِعَ لَمَا كَانَ فِي طَاقَتِهِ اَنْ يَقُولَ وَاِنَّمَا يَنْطِقُ ٱلطِّفْلُ بَعْدَ ٱسْتِمَاعِهِ مِنَ ٱلْبَالِغِينَ . وَقَالَ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِي : لَوْلَا اَنَّ ٱلْكَلَامَ يُعَادُ لَنَفِدَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُلُّ شَيْءٍ ثَنَيْتَهُ قَصُرَ اِلَّا ٱلْكَلَامَ فَاِنَّكَ اِذَا ثَنَيْتَهُ طَالَ . عَلَى اَنَّ ٱلْمَعَانِي مُشْتَرِكَةٌ بَيْنَ ٱلْعُقَلَاءِ فَرُبَّمَا وَقَعَ ٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ لِلسُّوقِيِّ وَٱلنَّبَطِيِّ وَٱلزِّنْجِيِّ وَاِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ وَرَصْفِهَا وَتَأْلِيفِهَا وَنَظْمِهَا . وَقَدْ يَقَعُ لِلْمُتَأَخِّرِ مَعْنًى سَبَقَهُ اِلَيْهِ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُلِمَّ بِهِ وَلٰكِنْ

كَمَا وَقَعَ لِلأَوَّلِ وَقَعَ لِلآخِرِ . وَهٰذَا أَمْرٌ عَرَفْتُهُ مِنْ نَفْسِي فَلَسْتُ أَمْتَرِي فِيهِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ مَنْ أَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ كَانَ لَهُ سَالِخًا وَمَنْ أَخَذَهُ فَكَسَاهُ لَفْظًا مِنْ عِنْدِهِ أَجْوَدَ مِنْ لَفْظِهِ كَانَ هُوَ أَوْلَى بِهِ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ . وَقَالُوا : إِنَّ أَبَا عُذْرَةِ ٱلْكَلَامِ مَنْ سَبَكَ لَفْظَهُ عَلَى مَعْنَاهُ . وَمَنْ أَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ . عَلَى أَنَّ ٱبْتِكَارَ ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّبْقَ إِلَيْهِ لَيْسَ هُوَ فَضِيلَةً تَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَإِنَّمَا هُوَ فَضِيلَةٌ تَرْجِعُ إِلَى ٱلَّذِي ٱبْتَكَرَهُ وَسَبَقَ إِلَيْهِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ جَيِّدٌ وَإِنْ كَانَ مَسْبُوقًا إِلَيْهِ . وَٱلْوَسَطُ وَسَطٌ وَٱلرَّدِيءُ رَدِيءٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا إِلَيْهِمَا . وَقَدْ أَطْبَقَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ وَٱلْمُتَأَخِّرُونَ عَلَى تَدَاوُلِ ٱلْمَعَانِي بَيْنَهُمْ فَلَيْسَ عَلَى أَحَدٍ فِيهِ عَيْبٌ إِلَّا إِذَا أَخَذَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ وَأَخَذَهُ فَأَفْسَدَهُ وَقَصَّرَ فِيهِ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَرُبَّمَا أَخَذَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْقَوْلَ ٱلْمَشْهُورَ وَلَمْ يُبَالِ كَمَا فَعَلَ ٱلنَّابِغَةُ فَإِنَّهُ أَخَذَ قَوْلَ وَهْبِ بْنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ زُهَيْرٍ :

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ

وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ ... لَا ٱلنُّورُ نُورٌ وَلَا ٱلْإِظْلَامُ إِظْلَامُ

وَأَخَذَ قَوْلَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ فِي عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ :

هُوَ ٱلشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فَأَفْضَلَتْ
عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

فَقَالَ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَسَنَتَّبِعُ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ وَٱلْحَاذِقُ يُخْفِي دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى يَأْخُذُهُ فِي سُتْرَةٍ فَيُحْكَمُ لَهُ بِٱلسَّبْقِ إِلَيْهِ . وَذٰلِكَ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنًى مِنْ نَظْمٍ فَيُورِدَهُ فِي نَثْرٍ. أَوْ مِنْ نَثْرٍ فَيُورِدَهُ فِي نَظْمٍ أَوْ يَنْقُلَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَعْمَلَ فِي صِفَةِ خَمْرٍ فَيَجْعَلَهُ فِي مَدِيحٍ أَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقُلَهُ إِلَى وَصْفٍ . إِلَّا إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ بِهٰذَا إِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ وَٱلْكَامِلُ ٱلْمُقَدَّمُ مِمَّنْ أَخْفَى دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَسَتَرَهُ غَايَةَ ٱلسَّتْرِ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

جَمَعْتَ عُرَى أَعْمَالِهَا بَعْدَ فُرْقَةٍ ... إِلَيْكَ كَمَا ضَمَّ ٱلْأَنَابِيبَ عَامِلُ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْجِبَالِ ٱلرَّبْعِيِّ :

أُولَئِكَ إِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ رُزِئْتُهُمْ ... فَمَا ٱلْكَفُّ إِلَّا إِصْبَعٌ ثُمَّ إِصْبَعُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ وَقَدْ نَقَلَهُ مِنْ مَعْنًى إِلَى آخَرَ :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا ... تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَخْطَلِ :

عَرُوفٌ لِحَقِّ ٱلسَّائِلِينَ كَأَنَّهُ ... بِعَقْرِ ٱلْمَتَالِي طَالِبٌ بِذُنُوبِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ وَزَادَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَوَّلِ قَوْلُهُ :

أَفْنَاهُمُ ٱلصَّبْرُ إِذْ أَبْقَاكُمُ ٱلْجَزَعُ

مِنْ قَوْلِ ٱلسَّمَوْءَلِ :

يُقَرِّبُ حُبُّ ٱلْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا ... وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

أَوْرَدَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي نِصْفِ بَيْتٍ وَٱسْتَوْفَى ٱلتَّطْبِيقَ وَمِنْ هٰذَا ٱلضَّرْبِ قَوْلُهُ :

عَلَّمَنِي جُودُكَ ٱلسَّمَاحَ فَمَا ... أَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكْ

مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَيَّاطِ :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ ٱبْتَغِي ٱلْغِنَى ... وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ ٱلْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي

فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذَوُو ٱلْغِنَى ... أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتْلَفْتُ مَا عِنْدِي

وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

أُحِبُّ ٱلرِّيحَ مَا هَبَّتْ شَمَالًا ... وَأَحْسُدُهَا إِذَا هَبَّتْ جَنُوبَا

قَسَّمَ تَقْسِيمًا حَسَنًا وَمَعْنَاهُ : أَنَّ ٱلشَّمَالَ تَجِيءُ مِنْ نَاحِيَةِ صَدِيقِهِ إِلَيْهِ فَأَحَبَّهَا وَٱلْجَنُوبَ تَهُبُّ إِلَى ٱلْحَبِيبِ فَحَسَدَهَا لِمُبَاشَرَتِهَا جِسْمَهُ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ جِرَانِ ٱلْعَوْدِ :

إِذَا هَبَّتِ ٱلْأَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ ... وَجَدْتُ لِرَيَّاهَا عَلَى كَبِدِي بَرْدَا

وَزَادَ مُسْلِمٌ فِي قَوْلِهِ أَيْضًا :

وَيُغْمِدُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱلنَّحْرِ وَٱلْجِيدِ

عَلَى ٱلسَّابِقِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَهُوَ بَعْضُ ٱلْفُرْسَانِ إِذْ يَقُولُ :

جَعَلْتُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱللَّيْثِ مِنْهُ ... وَبَيْنَ سَوَادِ لِحْيَتِهِ عِذَارَا

لِأَنَّ ٱلْإِغْمَادَ فِيهِ أَشَدُّ تَأْثِيرًا مِنْ وَضْعِ ٱلْعِذَارِ عَلَيْهِ . وَقَدْ زَادَ أَبُو نُوَاسٍ عَلَى جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ :

وَقَدْ أَطُولُ نِجَادَ ٱلسَّيْفِ مُحْتَبِيًا ... مِثْلَ ٱلرُّدَيْنِيِّ هَزَّتْهُ ٱلْأَنَابِيبُ

فَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

سَبْطُ ٱلْبَنَانِ إِذَا ٱحْتَبَى بِنِجَادِهِ ... غَمْرُ ٱلْجَمَاجِمِ وَٱلسِّمَاطُ قِيَامُ

قَوْلُهُ : غَمْرُ ٱلْجَمَاجِمِ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ .

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

اَشَمُّ طُوَالُ ٱلسَّاعِدَيْنِ كَأَنَّمَا يُلَاثُ نِجَادَا سَيْفِـهِ بِلِوَاءِ

اَحْسَنُ لَفظًا وَسَبْكًا مِنْ قَوْلِ عَنْتَرَةَ :

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَالَ ٱلسِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ فِي أَبْنِي عُبَيْدِ ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ :

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ ٱلْمَخَايِلِ فِيهِمَا لَوْ أُمهِلَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا

لَوْ يُنْسَبَانِ لَكَانَ هٰذَا غَارِبًا لِلْمَكْرُمَاتِ وَكَانَ هٰذَا كَاهِلَا

اِنَّ ٱلْهِلَالَ اِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ اَيْقَنْتَ اَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلَا

اَحْسَنُ وَاَجْوَدُ مِمَّا اَخَذَ مِنْهُ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ لَوَ انَّ ٱلْمَنَايَا اَنْسَأَتْهُ لَيَالِيَا

لَا يَقَعُ بَيْتُ ٱلْفَرَزْدَقِ مَعَ اَبْيَاتِ اَبِي تَمَّامٍ مَوْقِعًا . وَاَخَذَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَمَا وَامَرَتْنِي ٱلنَّفْسُ فِي رِحْلَةٍ لَهَا اِلَى اَحَدٍ اِلَّا اِلَيْكَ ضَمِيرُهَا

فَشَرَحَهُ وَقَالَ :

وَمَا طَوَّفْتُ فِي ٱلْآفَاقِ اِلَّا وَمِنْ جَدْوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

مُقِيمُ ٱلظَّنِّ عِنْدَكَ وَٱلْاَمَانِي وَاِنْ قَلِقَتْ رِكَابِي فِي ٱلْبِلَادِ

وَاِلَى بَيْتِ ٱلْفَرَزْدَقِ يُشِيرُ ٱلْقَائِلُ :

مَدَحْتُكَ جَهْدِي بِٱلَّذِي اَنْتَ اَهْلُهُ فَقَصَّرَ عَمَّا فِيكَ مِنْ صَالِحٍ جَهْدِي

فَمَا كُلُّ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ قُلْتُهُ وَلَا كُلُّ مَا فِيهِ يَقُولُ ٱلَّذِي بَعْدِي

وَكُنتُ إِذَا هَيَّأْتُ مَدْحًا لِمَاجِدٍ
أَتَانِي ٱلَّذِي فِيهِ بِأَدْنَى ٱلَّذِي عِنْدِي

وَمِنْ هَا هُنَا أَخَذَ أَبُو نُوَاسٍ قَوْلَهُ :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ ٱلَّذِي نُثْنِي
وَإِنْ جَرَتِ ٱلْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمِدْحَةٍ لِغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ ٱلَّذِي نَعْنِي

وَيُشِيرُ إِلَى قَوْلِ ٱلْخَنْسَاءِ :

وَمَا بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا ٱلَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلدُّرُوعَ لِمَوْقِفٍ لَبِسَتْهُمُ ٱلْأَحْسَابُ فِيهِ دُرُوعَا

أَتَمُّ وَأَجْوَدُ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَوَّلِ :

لَبِسُوا ٱلْقُلُوبَ عَلَى ٱلدُّرُو عِ مُظَاهِرِينَ لِدَفْعِ ذٰلِكْ

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : إِنَّ ٱلنَّدَى حَيْثُ تَرَى ٱلضِّغَاطَا . فَأَخَذَهُ بَشَّارٌ وَقَدْ شَرَحَهُ وَبَيَّنَهُ فَقَالَ :

تَسْقُطُ ٱلطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ ٱلْحَبُّ م وَتُغْشَى مَنَازِلُ ٱلْكُرَمَاءِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

يَزْدَحِمُ ٱلنَّاسُ عَلَى بَابِهِ وَٱلْمَشْرَبُ ٱلْعَذْبُ كَثِيرُ ٱلزِّحَامْ

وَسَمِعَ أَبُو تَمَّامٍ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ : إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ قَضَاءُ ٱللهِ وَأَنْتَ مَوْزُورٌ . وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْلُ ٱحْتِسَابًا سَلَوْتَ كَمَا تَسْلُو ٱلْبَهَائِمُ فَحَكَاهُ حِكَايَةً حَسَنَةً فِي قَوْلِهِ :

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي ٱلتَّعَازِي لِأَشْعَثٍ   وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ ٱلْمَآثِمِ
أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَى حَيَاءً وَحِسْبَةً   فَتُؤْجَرُ أَمْ تَسْلُو سُلُوَّ ٱلْبَهَائِمِ
خُلِقْنَا رِجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَٱلْأَسَى   وَتِلْكَ ٱلْغَوَانِي لِلْبُكَا وَٱلْمَآتِمِ

وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَخِيرُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ لَمَّا قُتِلَ مُصْعَبٌ . وَإِنَّمَا ٱلتَّسْلِيمُ وَٱلسَّلْوَةُ لِحَزْمَاءِ ٱلرِّجَالِ . وَإِنَّ ٱلْهَلَعَ وَٱلْجَزَعَ لِرَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ وَسَمِعَ قَوْلَ زِيَادٍ لِأَبِي ٱلْأَسْوَدِ . لَوْ أَنَّكَ ضَعِيفٌ لَأَسْتَعْمَلْتُكَ . فَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ : إِنْ كُنْتَ تُرِيدُنِي لِلصِّرَاعِ فَإِنِّي لَا أَصْلُحُ لَهُ وَإِلَّا فَغَيْرُ شَدِيدٍ أَنْ آمُرَ وَأَنْهَى فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا   كَأَنَّ ٱلْمَجْدَ يُدْرَكُ بِٱلصِّرَاعِ

وَلَمَّا قَالَ بَشَّارٌ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ   وَفَازَ بِٱلطَّيِّبَاتِ ٱلْفَاتِكُ ٱللَّهِجُ

تَبِعَهُ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ فَقَالَ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ مَاتَ غَمًّا   وَفَازَ بِٱللَّذَّةِ ٱلْجَسُورُ

فَلَمَّا سَمِعَ بَشَّارٌ هٰذَا ٱلْبَيْتَ قَالَ : ذَهَبَ ٱلْخَبِيثُ بِبَيْتِي . وَمِنْ حُسْنِ ٱلِٱتِّبَاعِ أَيْضًا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ حَيْثُ كَتَبَ : إِذَا كَانَ لِلْمُحْسِنِ مِنَ ٱلثَّوَابِ مَا يُقْنِعُهُ وَلِلْمُسِيءِ مِنَ ٱلْعِقَابِ مَا يَقْمَعُهُ ٱزْدَادَ ٱلْمُحْسِنُ فِي ٱلْإِحْسَانِ رَغْبَةً وَٱنْقَادَ ٱلْمُسِيءُ لِلْحَقِّ رَهْبَةً . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ : يَجِبُ عَلَى ٱلْوَالِي أَنْ يَتَعَهَّدَ أُمُورَهُ وَيَتَفَقَّدَ أَعْوَانَهُ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ ثُمَّ لَا يَتْرُكَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ . فَإِنْ تَرَكَ ذٰلِكَ تَهَاوَنَ ٱلْمُحْسِنُ وَٱجْتَرَأَ ٱلْمُسِيءُ وَفَسَدَ

ٱلْأَمْرُ وَضَاعَ ٱلْعَمَلُ . وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ نُصَيْبٍ :

وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَائِبُ

فَكَتَبَ وَلَوْ أُمْسِكُ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ لَنَطَقَ أَثَرُكَ عَلَيَّ . وَفِي فَصْلٍ آخَرَ : وَلَوْ جَحَدْتُكَ إِحْسَانَكَ لَأَكْذَبَتْنِي آثَارُهُ وَنَمَّتْ عَلَيَّ شَوَاهِدُهُ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : شَاهِدَاتُ ٱلْأَحْوَالِ أَعْدَلُ مِنْ شَهَادَاتِ ٱلرِّجَالِ . أَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَشَرَحَهُ فِي قَوْلِهِ :

حَالَ ٱلسِّدَادُ فَمِي عَمَّا يُرِيبُكُمْ ... لٰكِنْ فَمُ ٱلْحَالِ مِنِّي غَيْرُ مَسْدُودِ

حَالٌ تَصِيحُ بِمَا أَوْلَيْتَ مُعْلِنَةً ... وَكُلُّ مَا تَدَّعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ

كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ ... فَمَا يُدَاوِيكُمْ مِنِّي سِوَى ٱلْجُودِ

وَمِمَّنْ أَحْسَنَ ٱلِٱتِّبَاعَ أَيْضًا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ سَمِعَ قَوْلَ عَلِيٍّ : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ وَيَلْتَمِسُ ٱلزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ . فَكَتَبَ : أَحَقُّ مَنْ أَثْبَتَ لَكَ ٱلْعُذْرَ فِي حَالِ شُغْلِكَ مَنْ لَمْ يَخْلُ سَاعَةً مِنْ بِرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . وَأَخَذَهُ أَخْذًا ظَاهِرًا أَحْمَدُ بْنُ صُبَيْحٍ فَقَالَ : فِي شُكْرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِحْسَانِ ٱلْأَمِيرِ شَاغِلٌ عَنِ ٱسْتِبْطَاءِ مَا تَأَخَّرَ مِنْهُ . وَأَخَذَهُ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْدٍ فَقَالَ : لَسْتُ مُسْتَقِلًّا لِشُكْرِ مَا مَضَى مِنْ بَلَائِكَ فَأَسْتَبْطِئَ دَرْكَ مَا أُؤَمِّلُ مِنْ مَزِيدِكَ . وَمِنْ هٰذَا أَيْضًا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً ... حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَأَخْبَرَ ٱلْأَخْفَشُ قَالَ : قَالَ أَبُو تَمَّامٍ لِٱبْنِ أَبِي دُوَادٍ لَمَّا غَضِبَ عَلَيْهِ : أَنْتَ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمْ وَلَا طَاقَةَ لِي بِغَضَبِ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ . فَقَالَ

ٱبْنُ أَبِي رُؤَادٍ : مَا أَحسَنَ هٰذَا مِنْ أَيْنَ أَخَذْتَهُ . قَالَ : مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ وَلَيسَ عَلَى ٱللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ . أَنْ يَجْمَعَ ٱلعَالَمَ فِي وَاحِدِ

وَمَنْ سَمِعَ هٰذَا ٱلكَلَامَ يَظُنُّهُ مَسْرُوقًا مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ   رَأَيتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَسَمِعَ قُلَيبٌ ٱلمُعْتَزِلِيُّ أَبيَاتًا لِلعُتْبِيِّ وَهِيَ :

أَفْلَتْ بَطَالَتُـهُ وَرَاجَعَهُ   حِلْمٌ وَأَعقَبَهُ ٱلهَوَى نَدَمَا

أَلْقَى عَلَيْهِ ٱلدَّهرُ كَلْكَلَهُ   وَأَعَارَهُ ٱلإِقْتَارَ وَٱلعَـدَمَا

فَإِذَا أَلَمَّ بِهِ أَخُو ثِقَـةٍ   غَضَّ ٱلجُفُونَ وَمَجْمَجَ ٱلكَلِمَا

فَقَالَ لِبَعضِ ٱلمُلُوكِ يَستَعْطِفُهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِهِ : جَعَلَنِي ٱللهُ فِدَاكَ . لَيسَ هُوَ ٱلْيَوْمَ كَمَا كَانَ أَمسِ إِنَّهُ وَحَيَاتِكَ أَفْلَتْ بَطَالَتُهُ إِي وَٱللهِ وَرَاجَعَهُ حِلمُهُ وَأَعقَبَهُ وَحَقِّكَ ٱلهَوَى نَدَمًا أَلقَى ٱلدَّهرُ عَلَيهِ كَلْكَلَهُ فَهُوَ ٱلْيَوْمَ إِذَا رَأَى أَخَا ثِقَةٍ غَضَّ بَصَرَهُ وَمَجْمَجَ كَلَامَهُ .

وَبِهٰذَا يُعْرَفُ أَنَّ حَلَّ ٱلمَنظُومِ وَنَظْمَ ٱلمَحْلُولِ أَسهَلُ مِنِ ٱبْتِدَائِهِمَا لِأَنَّ ٱلمَعَانِيَ إِذَا حُلَّتْ مَنظُومًا أَوْ نُظِمَتْ مَنْثُورًا حَاضِرَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ تَزِيدُ فِيهَا شَيْئًا فَتَنْحَلُّ أَوْ تَنقُصُ مِنهَا شَيْئًا فَتَنْتَظِمُ . وَإِذَا أَرَدتَّ ٱبْتِدَاءَ كَلَامٍ وَجَدتَّ ٱلمَعَانِيَ غَائِبَةً عَنكَ فَتَحْتَاجُ إِلَى فِكْرٍ يُحْضِرُكَهَا وَٱلمَحْلُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ عَلَى أَرْبَعَـةِ أَضْرُبٍ : ضَرْبٌ مِنْهَا يَكُونُ بِإِدْخَالِ لَفظَةٍ بَيْنَ أَلْفَاظِهِ . وَضَرْبٌ يَنْحَلُّ بِتَأْخِيرِ لَفظَةٍ مِنْهُ وَتَقدِيمِ أُخْرَى فَيَحْسُنُ مَحْلُولُهُ وَيَستَقِيمُ . وَضَرْبٌ مِنْهُ يَنْحَلُّ عَلَى هٰذَا ٱلوَجْهِ وَلَا يَحْسُنُ وَلَا يَستَقِيمُ . فَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلأَوَّلُ فَمِثَالُـهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

صدرِ كلامٍ قُليبٍ المعتزليّ . وأمّا الضربُ الثاني فمثالُهُ ما ذكر بعضُ الكُتّابِ من قولِ البحتريّ :

تَطْلُبُ الأكثرَ في الدُّنيا وقد تَبْلُغُ الحاجةُ فيها بالأقلّ

ثمّ قال : فإذا نثرتَ ذلك ولم تزد في ألفاظِهِ شيئاً قلتَ : نطلُبُ في الدُّنيا الأكثرَ ونبلُغُ منها الحاجةَ بالأقلّ . فأمّا الضربُ الثالثُ فهوَ أن تُوضعَ ألفاظُ البيتِ في مواضعَ لا يَحْسُنُ وضعُها في غيرِها فيَختلُّ إذا نُثِرَ بتأخيرِ لفظٍ وتقديمِ آخرَ فيحتاجُ نثرُهُ إلى النقصانِ منهُ والزيادةِ فيهِ . كقولِ البحتريّ أيضاً :

يُسَرُّ بعُمْرانِ الدِّيارِ مُضَلَّلٌ وعُمرانُها مُستأنفٌ من خَرابِها

ولم أرتضِ الدُّنيا أوانَ مجيئِها فكيفَ ارتضائيها أوانَ ذهابِها

فإذا نُثِرَ على هذا الوجهِ قيلَ : يُسَرُّ مُضَلَّلٌ بعُمرانِ الدُّنيا ومن خرابِها عُمرانُها مُستأنفٌ ولم أرتضِ أوانَ مجيئِها الدُّنيا فكيفَ أوانَ ذهابِها ارتضائيها . فهذا نثرٌ فاسدٌ فإذا غيّرتَ بعضَ ألفاظِهِ حَسُنَ وهوَ أن تقولَ : يُسَرُّ المُضَلَّلُ بعُمرانِ الدِّيارِ وإنّما يُستأنفُ عُمرانُها من خرابِها . وما ارتضيتُ الدُّنيا أوانَ مجيئِها فكيفَ ارتضيها أوانَ ذهابِها . ونحنُ نقولُ إنّ من النظمِ ما لا يُمكنُ حلُّهُ أصلاً بتأخيرِ لفظةٍ وتقديمِ أخرى منهُ حتّى يَلْحَقَ بهِ التغييرُ والزيادةُ والنقصانُ . مثلُ قولِ الشاعرِ :

لِسانُ الفتى نِصفٌ ونِصفٌ فؤادُهُ فلم يَبْقَ إلّا صورةُ اللحمِ والدمِ

فالمِصراعُ الأوّلُ يُمكنُ أن تُؤخَّرَ ألفاظُهُ وتُقدَّمَ فيصيرُ نثراً

مُسْتَقِيمًا وَهُوَ اَنْ تَقُولَ : فُؤَادُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَلِسَانُهُ نِصْفٌ . وَلَا يُمْكِنُ فِي ٱلْمِصْرَاعِ ٱلثَّانِي ذٰلِكَ حَتَّى تَزِيدَ فِيهِ اَوْ تَنْقُصَ مِنْهُ لِاَنَّ ٱلْمِصْرَاعَ ٱلثَّانِيَ اِنَّمَا هُوَ تَذْيِيلٌ لِلْمِصْرَاعِ ٱلْاَوَّلِ فَاِذَا اَرَدْتَ اَنْ تَحُلَّهُ حَلًّا مُقْتَصَرًا بِغَيْرِ لَفْظِهِ قُلْتَ : ٱلْاِنْسَانُ شَطْرَانِ لِسَانٌ وَجَنَانٌ . وَمِمَّا لَا يُمْكِنُ حَلُّهُ بِتَقْدِيمِ لَفْظَةٍ مِنْهُ وَتَأْخِيرِ اُخْرَى اَيْضًا قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

اَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا   اَمَا وَٱللّٰهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبْقَى

فَتَحْتَاجُ فِي نَثْرِهِ اِلَى تَغْيِيرِهِ وَاِبْدَالِ اَلْفَاظِهِ فَتَقُولُ : اَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ مَاتُوا وَمَضَوْا وَطَعَنُوا فَنَأَوْا فَوَٱللّٰهِ مَا ظَعَنُوا لِتُقِيمَ وَمَا رَامُوا اِلَّا لِتَرِيمَ . وَلَا مَاتُوا لِتَحْيَا وَلَا فَنُوا لِتَبْقَى . وَفِي هٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظِ طُولٌ وَلَيْسَ بِصَائِرٍ عَلَى مَا خَبَّرْتُكَ فَاِنْ اَرَدْتَ ٱخْتِصَارَهُ قُلْتَ : اَمَا وَٱللّٰهِ اِنَّ ٱلْمَوْتَ لَمْ يُصِبْكَ فِي اَبِيكَ اِلَّا لِيُصِيبَكَ فِيكَ . وَٱلضَّرْبُ ٱلرَّابِعُ اَنْ تَكْسُوَ مَا تَحُلُّهُ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِكَ . وَهٰذَا اَرْفَعُ دَرَجَاتِكَ . وَمِنْهُ مَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِلرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ وَقَدْ رَاَى ٱجْتِهَادَهُ فِي ٱلْعِبَادَةِ : قَتَلْتَ نَفْسَكَ . فَقَالَ : رَاحَتَهَا اَطْلُبُ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

سَاَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ مِنْكُمْ لِتَقْرُبُوا   وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

وَمِنْهُ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْحَسَنِ ٱلْبَصْرِيِّ فَقَالَ نَثْرًا : اِنَّ ٱمْرَاً لَمْ يَعُدَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ اِلَّا اَبًا مَيِّتًا لَمُعْرِقٌ لَهُ فِي ٱلْمَوْتِ . فَاَخَذَهُ اَبُو نُوَاسٍ فَقَالَ :

وَمَا ٱلنَّاسُ اِلَّا هَالِكٌ وَٱبْنُ هَالِكٍ   وَذُو نَسَبٍ فِي ٱلْهَالِكِينَ عَرِيقُ

وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ اَبِي تَمَّامٍ :

فَإِنْ نَجِدْ عِلَّةً نُعَمُّ بِهَا　　حَتَّى تَرَانَا نُعَادُ مِنْ مَرَضِهْ

فَكَتَبَ مَنْ تَرَلَ مَنْزِلَتِي مِنْ طَاعَتِكَ وَمُشَارَكَتِكَ كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُهَنَّا بِالنِّعْمَةِ تَحْدُثُ عِنْدَكَ وَيُعَزَّى عَلَى النَّائِبَةِ تُلِمُّ بِكَ. فَنَقَلَ الْعِيَادَةَ إِلَى الْمُصِيبَةِ وَالتَّعْزِيَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكِتَابَةُ نَقْضُ الشِّعْرِ. وَقِيلَ لِلْعَتَّابِيِّ: بِمَ قَدَرْتَ عَلَى الْبَلَاغَةِ. فَقَالَ: بِحَلِّ مَعْقُودِ الْكَلَامِ وَأَحْسَنَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ:

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيْلٍ كَأَنَّمَا　　قَدِ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِدِ

وَزَادَ فِيهِ عَلَى أَبِي نُوَاسٍ وَمِنْهُ أَخَذَ. وَهُوَ قَوْلُهُ:

وَجُنْحُ لَيْلٍ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ

لِأَنَّ الِاكْتِحَالَ يَكُونُ بِالْإِثْمِدِ وَلَا يَكُونُ بِالْقَارِ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ الْعَبَّاسِ:

لِفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ　　تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلْ

فَبَسْطَتُهَا لِلْغِنَى　　وَسَطْوَتُهَا لِلْأَجَلْ

وَبَاطِنُهَا لِلنَّدَى　　وَظَاهِرُهَا لِلْقُبَلْ

وَأَخَذَ الْمَعْنَى الْأَمِيرُ أَبُو عَزِيزٍ قَتَادَةُ أَمِيرُ مَكَّةَ فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى يَدِهِ مِنْ أَبْيَاتٍ:

تَظَلُّ مُلُوكُ الْأَرْضِ تَلْثِمُ ظَهْرَهَا　　وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيعُ

فَأَتْبَعَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فَأَحْسَنَ الِاتِّبَاعَ فَقَالَ:

أَصْبَحْتُ بَيْنَ خَصَاصَةٍ وَتَجَمُّلٍ　　وَالْحُرُّ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلَا

فَامْدُدْ إِلَيَّ يَدًا تَعَوَّدَ بَطْنُهَا　　بَذْلَ النَّوَالِ وَظَهْرُهَا التَّقْبِيلَا

وَمَا أَلطَفَ قَوْلَ مَنْ قَالَ :

وَمَا ٱلدَّهْرُ فِي حَالِ ٱلسُّكُونِ بِسَاكِنٍ
سِوَى أَنَّهُ مُسْتَجْمِعٌ لِوُثُوبِ

وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَقُلْتُ يَا قَوْمُ إِنَّ ٱللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ عَلَى بَرَاثِنِهِ لِوَثْبَةِ ٱلضَّارِي

وَكَذَٰلِكَ قَوْلُهُ :

كَأَنَّ أَبَاهُ حِينَ سَمَّاهُ صَاعِدًا رَأَى كَيْفَ يَرْقَى فِي ٱلْمَعَالِي وَيَصْعَدُ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

سَمَّاهُ أُسْرَتُهُ ٱلْعَلَاءَ وَإِنَّمَا قَصَدُوا بِذَٰلِكَ أَنْ يَتِمَّ عُلَاهُ

وَزَادَ أَبُو تَمَّامٍ عَلَى ٱلْأَفْوَهِ وَٱلنَّابِغَةِ وَأَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فِي مَعْنًى تَدَاوَلُوهُ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْأَفْوَهِ :

وَتَرَى ٱلطَّيْرَ عَلَى أَرْمَاحِنَا رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً أَنْ سَتُمَارْ

وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ :

إِذَا مَا غَزَوْا بِٱلْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحُ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

تَتَأَيَّا ٱلطَّيْرُ غَزْوَتَهُ ثِقَةً بِٱلشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ

وَقَوْلُ مُسْلِمٍ :

قَدْ عَوَّدَ ٱلطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ

فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

أَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا ... مِنَ ٱلْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تُقَاتِلُ

وَقَوْلُهُ : (أَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ زِيَادَةٌ) وَزَادَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ فَقَالَ :

حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ

وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

هِمَّةٌ تَنْطَحُ ٱلنُّجُومَ وَجِدٌّ ... آلِفٌ لِلْحَضِيضِ فَهْوَ حَضِيضُ

أَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيّ فَحَسَّنَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

مُتَحَيِّرٌ يَغْدُو بِعَزْمٍ قَائِمٍ ... فِي كُلِّ نَائِبَةٍ وَجِدٍّ قَاعِدِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ مِنْ أَبِي تَمَّامٍ فَقَسَّمَهُ تَقْسِيمًا حَسَنًا قَوْلُهُ :

مَلِكٌ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ ... إِقْدَامُ غِرٍّ وَٱعْتِزَامُ مُجَرِّبِ

هُوَ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

وَمُجَرَّبُونَ سَقَاهُمُ مِنْ بَأْسِهِ ... فَإِذَا لُقُوا فَكَأَنَّهُمْ أَغْمَارُ

وَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

كَمْ نِعْمَةٍ لَا يُسْتَقَلُّ بِشُكْرِهَا ... لِلّٰهِ فِي طَيِّ ٱلْمَكَارِهِ كَامِنَهْ

أَخَذَهُ أَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

قَدْ يُنْعِمُ ٱللّٰهُ بِٱلْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ ... وَيَبْتَلِي ٱللّٰهُ بَعْضَ ٱلْقَوْمِ بِٱلنِّعَمِ

فَزَادَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ أَتَى بِعَكْسِ ٱلْمَعْنَى وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

رَأَيْتُ رَجَائِي فِيكَ وَحْدَكَ هِمَّةً ... وَلٰكِنَّهُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ مَطْمَعُ

فَأَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَٱخْتَصَرَهُ فَقَالَ :

ثَنَى أَمَلِي فَٱخْتَارَهُ عَنْ مَعَاشِرٍ ... يَبِيتُونَ وَٱلْآمَالُ فِيهِمْ مَطَامِعُ

فَاَخَذَهُ اَبْنُ اَلرُّومِيِّ فَقَالَ :

بِهِ صَدَقَ اللهُ اَلْاَمَانِي حَدِيثَهَا وَقَدْ مَرَّ دَهْرٌ وَاَلْاَمَانِي وَسَاوِسُ

وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

اَنْضَرَتْ اَيْكَتِي عَطَايَاكَ حَتَّى عَادَ غُصْنِي سَاقًا وَكَانَ قَضِيبَا

فَقَالَ اَلْبُحْتُرِيُّ وَزَادَ :

حَتَّى يَعُودَ اَلذِّئْبُ لَيْثًا ضَيْغَمًا وَاَلْغُصْنُ سَاقًا وَاَلْقَرَارَةُ نِيقَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَفِيمَا اَوْرَدْتُ كِفَايَةٌ

البحث الثاني

في قبح الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٤٣ من علم الادب)

وَقُبْحُ اَلْاَخْذِ اَنْ تَعْمِدَ اِلَى اَلْمَعْنَى فَتَتَنَاوَلَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ اَوْ اَكْثَرِهِ اَوْ تُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ مُسْتَهْجَنٍ. وَاَلْمَعْنَى اِنَّمَا يَحْسُنُ بِاَلْكُسْوَةِ . اَخْبَرَ بَعْضُ اَصْحَابِنَا قَالَ قِيلَ لِلشَّعْبِيِّ : اِنَّا اِذَا سَمِعْنَا اَلْحَدِيثَ مِنْكَ نَسْمَعُهُ بِخِلَافِ مَا نَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِكَ . قَالَ : اِنِّي اَجِدُهُ عَارِيًا فَاَكْسُوهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِيهِ حَرْفًا . اَيْ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِي مَعْنَاهُ شَيْئًا فَمِمَّا اُخِذَ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ وَاَدَّعَى آخِذُهُ اَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهُ وَلٰكِنْ وَقَعَ كَمَا وَقَعَ لِلْاَوَّلِ كَمَا سُئِلَ اَبُو عَمْرِو بْنُ اَلْعَلَاءِ عَنِ اَلشَّاعِرَيْنِ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنًى . فَقَالَ : عُقُولُ اَلرِّجَالِ

تَوَافَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهَا وَذٰلِكَ قَوْلُ طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ   يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ

وَهُوَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ   يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

فَغَيَّرَ طَرَفَةُ ٱلْقَافِيَةَ . وَقَالَ ٱلْبَعِيثُ :

أَتَرْجُو كُلَيْبٌ أَنْ يَجِيءَ حَدِيثُهَا   بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا كُلَيْبًا قَدِيمُهَا

وَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أَنْ تَجِيءَ صِغَارُهَا   بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا رَبِيعًا كِبَارُهَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ جِدًّا وَٱلْأَخْذُ إِذَا كَانَ كَذٰلِكَ كَانَ مَعِيبًا وَإِنِ ٱدَّعَى ٱلْآخِرُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ ٱلْأَوَّلِ بَلْ وَقَعَ لَهُ كَمَا وَقَعَ لِذَاكَ فَإِنَّ صِحَّةَ ذٰلِكَ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلْعَيْبُ لَازِمٌ لِلْآخِرِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْقَوْمُ فِي قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّ خَوَاطِرَهُمْ تَقَعُ مُتَقَارِبَةً كَمَا أَنَّ أَخْلَاقَهُمْ وَشَمَائِلَهُمْ تَكُونُ مُتَضَارِعَةً وَأَنْشَدتُّ ٱلصَّاحِبَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ عَبَّادٍ :

كَانَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ تَحْتَ أَظِلَّةٍ

فَسَبَقَنِي وَقَالَ :

فَغَدَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ

وَكَذٰلِكَ كُنْتُ قُلْتُ : فَعَلَى هٰذَا جَائِزٌ مَا يُدَّعَى لَهُمْ وَٱلظَّاهِرُ مَا قُلْنَاهُ فَهٰذَا ضَرْبٌ . وَٱلضَّرْبُ ٱلْآخَرُ مِنَ ٱلْأَخْذِ ٱلْمُسْتَهْجَنِ أَنْ يَأْخُذَ ٱلْمَعْنَى فَيُفْسِدَهُ أَوْ يُعَرِّضَهُ أَوْ يُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ قَبِيحٍ وَكُسْوَةٍ

مُسْتَرْذَلة . وَذلِكَ مِثلُ قَوْلِ ابي كَرِيمَة :

قَفَاهُ وَجْهٌ ثُمَّ وَجْهُ ٱلَّذِي قَفَا هُ وَجْهٌ يُشْبِـهُ ٱلْبَدْرَا

وَإِنَّمَا اخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ابي نُوَاس :

بَزَّ حُسْنَ ٱلْوُجُوهِ حُسْنُ قَفَانَا

وَاخَذَهُ ابُو نُوَاسٍ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ بقَوْلِهِ لِلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ : أَيُفَاخِرُكَ ابْنُ جَفْنَةَ وَٱللاتِ لَأَمْسُكَ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِهِ وَلَقَذَالُكَ احْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَلَيَسَارُكَ اسْمَحُ مِنْ يَمِينِهِ . وَلَعَبِيدُكَ اكْثَرُ مِنْ قَوْمِهِ وَلَنَفْسُكَ اكْبَرُ مِنْ جُنْدِهِ وَلَيَوْمُكَ اشْرَفُ مِنْ دَهْرِهِ . وَلَوَعْدُكَ أَنْجَزُ مِنْ رِفْدِهِ . وَلَهَزْلُكَ اصْوَبُ مِنْ جِدِّهِ . وَلَكُرْسِيُّكَ ارْفَعُ مِنْ سَرِيرِهِ . وَلَفِتْرُكَ ابْسَطُ مِنْ شِبْرِهِ . وَلَأُمُّكَ خَيْرٌ مِنْ ابِيهِ . وَسَمِعَ بَعْضُهُمْ قَوْلَ مَحْمُودٍ ٱلْوَرَّاقِ :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ ٱللهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ ٱلشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ ٱلشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ ٱلْأَيَّامُ وَٱتَّصَلَ ٱلْعُمْرُ

إِذَا مَسَّ بِٱلسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا وَإِنْ مَسَّ بِٱلضَّرَّاءِ اعْقَبَهَا ٱلْأَجْرُ

وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَـةٌ تَضِيقُ بِهَا ٱلْأَوْهَامُ وَٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ

فَقَالَ وَاسَاءَ :

ٱلْحَمْـدُ لِلّهِ إِنَّ ٱللهَ ذُو نِعَمٍ لَمْ يُحْصِهَا عَدَدًا بِٱلشُّكْرِ مَنْ حَمِدَا

شُكْرِي لَهُ عَمَلٌ فِيـهِ عَلَيَّ لَهُ شُكْرٌ يَكُونُ لِشُكْرٍ قَبْلَهُ مَدَدَا

فَهَذَا مِثَالُ قُبْحِ ٱلْأَخْذِ فَٱعْلَمْهُ . وَاخَذَ ابْنُ طَبَاطِبَا قَوْلَ عَلِيٍّ قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ . فَقَالَ :

فيالائمي دعني أُغالي بقيمتي ٭ فقيمة كلّ الناسِ ما يُحسنونه

فأخذه بلفظه وأخرجه بغيضاً متكلّفاً . والجيد قول الآخر :
(فقيمة كلّ امرئ علمه) فهذا وإن كان أخذه ببعض لفظه فإنّ بيته أحسن موقعاً منه من بيت ابن طباطبا . ومما قصّر فيه البحتري قوله :

قومٌ ترى أرماحهم يوم الوغى ٭ مشغوفةً بمواطن الكتمان

أخذه من قول عمرو بن معدي كرب :

والضاربين بكلّ أبيض مُرهفٍ ٭ والطاعنين مجامع الأضغان

فإنّ قوله (مجامع الأضغان) أجود من قوله: مواطن الكتمان لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل أضغانهم فإذا وقع الطعن في موضع الضغن فذاك غاية المراد . وأنشد عبد الرحمن عن عمه :

حرامٌ على أرماحنا طعنُ مُدبرٍ ٭ وتندقّ قدماً في الصدور صدورها
مُسلّمةٌ أعجاز خيلي في الوغى ٭ مُكلَّمةٌ لبّاتها ونحورها

أخذه أبو تمام فقال :

أُناسٌ إذا ما استحكم الروع كسّروا
صدور العوالي في صدور الكتائب

فأحسنا جميعاً ومثله قول الآخر :

يلقى السيوف بنحره وبوجهه ٭ ويقيم هامته مقام المغفر
ويقول للطرف اصطبر لشبا القنا ٭ فهدمت ركن المجد إن لم يُعقر

ومثله قول بكر بن النطاح :

يَتَلَقَّى ٱلنَّدَى بِوَجْهٍ حَيِيٍّ   وَصُدُورَ ٱلْقَنَا بِوَجْهٍ وَقَاحِ

وَهٰذَا كُلُّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

لَا يَقَعُ ٱلطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمِ   لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ تَهْلِيلُ

وَهُوَ دُونَ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ أَتَيْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ . فَقِسْ بِمَا أَوْرَدْتُهُ عَلَى مَا تَرَكْتُهُ فَإِنِّي لَوِ ٱسْتَقْصَيْتُهُ خَرَجَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ عَنِ ٱلْمُرَادِ وَزَاغَ عَنِ ٱلْإِيثَارِ وَبِٱللهِ ٱلتَّوْفِيقُ

البحث الثالث

في حلّ الشعر

(عن المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٤٤ من علم الادب)

حَلُّ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا وَهُوَ أَدْنَاهَا مَرْتَبَةً أَنْ يَأْخُذَ ٱلنَّاثِرُ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ فَيَنْثُرُهُ بِلَفْظِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهٰذَا عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَمِثَالُهُ كَمَنْ أَخَذَ عِقْدًا قَدْ أُتْقِنَ نَظْمُهُ وَأُحْسِنَ تَأْلِيفُهُ فَأَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ وَكَانَ يَقُومُ عُذْرُهُ فِي ذٰلِكَ أَنْ لَوْ نَقَلَهُ عَنْ كَوْنِهِ عِقْدًا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى مِثْلِهِ أَوْ أَحْسَنَ مِنْهُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا نُثِرَ ٱلشِّعْرُ بِلَفْظِهِ كَانَ صَاحِبُهُ مَشْهُورَ ٱلسَّرِقَةِ فَيُقَالُ : هٰذَا شِعْرُ فُلَانٍ بِعَيْنِهِ لِكَوْنِ أَلْفَاظِهِ بَاقِيَةً لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ وَقَدْ سَلَكَ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ بَعْضُ ٱلْعِرَاقِيِّينَ فَجَاءَ مُسْتَهْجَنًا لَا مُسْتَحْسَنًا .

كقوله في بعض أبيات الحماسة :

وَأَلَدَّ ذي حَنَقٍ عليَّ كأنَّما تَغْلِي عداوةُ صدرِهِ في مِرْجَلِ
أرجيتُهُ عنّي فأبصرَ قصدَهُ وكويتُهُ فوقَ النّواظِرِ من علِ

(فيُقالُ) في نثرِ هذينِ البيتينِ : فكم لقيَ الألدَّ ذا حنقٍ كأنّهُ ينظرُ إلى الكواكبِ من علٍ وتغلي عداوةُ صدرِهِ فكواهُ فوقَ ناظريهِ وأكبَّهُ لفمِهِ ويديهِ . فلمْ يزدْ هذا الناثرُ على أنْ أزالَ رونقَ الوزنِ وطلاوةَ النظمِ لا غيرُ . ومن هذا القسمِ ضربٌ محمودٌ لا عيبَ فيهِ وهوَ أنْ يكونَ البيتُ منَ الشعرِ قدْ تضمّنَ شيئًا لا يمكنُ تغييرُ لفظِهِ فحينئذٍ يُعذرُ ناثرُهُ إذا أتى بذلكَ اللفظِ . وكذلكَ الأمثالُ السائرةُ فإنّهُ لا بدَّ من ذكرِها على ما جاءتْ في الشعرِ . (وأمّا القسمُ الثاني) فهوَ وسطٌ بينَ الأولِ والثالثِ في المرتبةِ وهوَ أنْ ينثرَ المعنى المنظومَ ببعضِ ألفاظِهِ ويُعبّرَ عنِ البعضِ بألفاظٍ أُخرَ وهناكَ تظهرُ الصنعةُ في المماثلةِ والمشابهةِ ومؤاخاةِ الألفاظِ الباقيةِ بالألفاظِ المرتجلةِ فإنّهُ إذا أخذَ لفظًا لشاعرٍ مجيدٍ قدْ نقّحهُ وصحّحهُ فقرنَهُ بما لا يلائمُهُ كانَ كمنْ جمعَ بينَ لؤلؤةٍ وحصاةٍ . ولا خفاءَ بما في ذلكَ منَ الانتصابِ للقدحِ والاستهدافِ للطعنِ والطريقُ المسلوكُ إلى هذا القسمِ أنْ تأخذَ بعضَ بيتٍ منَ الأبياتِ الشعريّةِ هوَ أحسنُ ما فيهِ ثمَّ تماثلَهُ . وسأوردُ ههنا مثالًا واحدًا ليكونَ قدوةً للمتعلّمِ (فأقولُ) : قدْ وردَ هذا البيتُ منْ شعرِ أبي تمّامٍ في وصفِ قصيدةٍ لهُ :

وَحِدَاءٌ تَمْلَأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً   وَبَلَاغَةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَرِيدِ

فَقَوْلُهُ (تَمْلَأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً) مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْحَسَنِ وَهُوَ أَحْسَنُ مَا فِي ٱلْبَيْتِ فَإِذَا أَرَدتَّ أَنْ تَنْثُرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَلَا بُدَّ مِنِ ٱسْتِعْمَالِ لَفْظِهِ بِعَيْنِهِ لِأَنَّهُ فِي ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى مِنَ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . فَعَلَيْكَ أَنْ تُؤَاخِيَهُ بِمِثْلِهِ وَهٰذَا عَسِرٌ جِدًّا وَهُوَ أَصْعَبُ مِثَالًا مِنْ نَثْرِ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ لِأَنَّهُ مَسْلَكٌ ضَيِّقٌ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّعَرُّضِ لِمُمَاثَلَةِ مَا هُوَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجُودَةِ . وَأَمَّا نَثْرُ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ فَذٰلِكَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ نَاثِرُهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ وَلَا يَكُونُ مُقَيَّدًا فِيهِ بِمِثَالٍ يُضْطَرُّ إِلَى مُؤَاخَاتِهِ . وَقَدْ نَثَرْتُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْمُشَارَ إِلَيْهَا وَأَتَيْتُ بِهَا فِي جُمْلَةِ كِتَابٍ فَقُلْتُ : وَكَلَامِي قَدْ عُرِفَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱشْتَهَرَ . وَفَاقَ مَسِيرَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ . وَإِذَا عُرِفَ ٱلْكَلَامُ صَارَتِ ٱلْمَعْرِفَةُ لَهُ عَلَامَةً . وَأُمِنَ مِنْ سَرِقَتِهِ إِذْ لَوْ سُرِقَ لَدَلَّتْ عَلَيْهِ ٱلْوَسَامَةُ . وَمِنْ خَصَائِصِ صِفَاتِهِ أَنْ يَمْلَأَ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً . وَيَجْعَلَ فَصَاحَةَ كُلِّ لِسَانٍ عُجْمَةً . وَإِذَا جَرَتْ نَفَثَاتُهُ فِي ٱلْأَفْهَامِ قَالَتْ : أَهٰذِهِ بِنْتُ فِكْرَةٍ أَمْ بِنْتُ كَرْمَةٍ . فَٱنْظُرْ كَيْفَ فَعَلْتُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَإِنِّي لَمَّا أَخَذْتُ تِلْكَ ٱلْكَلِمَاتِ مِنَ ٱلْبَيْتِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْتَزَمْتُ بِأَنْ أُوَاخِيَهَا بِمَا هُوَ مِثْلُهَا أَوْ أَحْسَنُ مِنْهَا فَجِئْتُ بِهٰذَا ٱلْفَصْلِ كَمَا تَرَاهُ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْعَلَ فِيمَا هٰذَا سَبِيلُهُ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَعْلَى مِنَ ٱلْقِسْمَيْنِ ٱلْأَوَّلَيْنِ فَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ ٱلْمَعْنَى فَيُصَاغَ بِأَلْفَاظٍ غَيْرِ أَلْفَاظِهِ . وَثَمَّ يَتَبَيَّنُ حِذْقُ ٱلصَّائِغِ فِي صِيَاغَتِهِ وَيُعْلَمُ مِقْدَارُ تَصَرُّفِهِ

فِي صِنَاعَتِهِ فَإِنِ ٱسْتَطَاعَ ٱلزِّيَادَةَ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتِلْكَ ٱلدَّرَجَةُ ٱلْعَالِيَةُ وَإِلَّا احْسَنَ ٱلتَّصَرُّفَ وَأَتْقَنَ ٱلتَّأْلِيفَ لِيَكُونَ اوْلَى بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ ٱلْاَوَّلِ . وَٱعْلَمْ انَّ مِنْ ابْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا يَتَّسِعُ ٱلْمَجَالُ لِنَاثِرِهِ فَيُورِدُهُ بِضُرُوبٍ مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ . وَذٰلِكَ عِنْدِي شَبِيهٌ بِٱلْمَسَائِلِ ٱلسَّيَّالَةِ فِي ٱلْحِسَابِ ٱلَّتِي يُجَابُ عَنْهَا بِعِدَّةِ اجْوِبَةٍ . وَمِنَ ٱلْاَبْيَاتِ مَا يَضِيقُ فِيهِ ٱلْمَجَالُ حَتَّى يَكَادَ ٱلْمَاهِرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ انْ لَا يَخْرُجَ عَنْ ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ وَإِنَّمَا يَكُونُ هٰذَا لِعَدَمِ ٱلنَّظِيرِ . . . وَإِذَا ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْكَلَامُ إِلَى هٰا هُنَا فِي ٱلتَّنْبِيهِ عَلَى نَثْرِ ٱلشِّعْرِ وَكَيْفِيَّةِ نَثْرِهِ وَذِكْرِ مَا يَسْهُلُ مِنْهُ وَمَا يَعْسُرُ . فَلْنُتْبِعْ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فَنَقُولُ : مَنْ احَبَّ انْ يَكُونَ كَاتِبًا اوْ كَانَ عِنْدَهُ طَبْعٌ مُجِيبٌ فَعَلَيْهِ بِحِفْظِ ٱلدَّوَاوِينِ ذَوَاتِ ٱلْعَدَدِ وَلَا يَقْنَعْ بِٱلْقَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ يَأْخُذْ فِي نَثْرِ ٱلشِّعْرِ مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ . وَطَرِيقُهُ انْ يَبْتَدِئَ فَيَأْخُذَ قَصِيدًا مِنَ ٱلْقَصَائِدِ فَيَنْثُرَهُ بَيْتًا بَيْتًا عَلَى ٱلتَّوَالِي . وَلَا يَسْتَنْكِفْ فِي ٱلْاِبْتِدَاءِ انْ يَنْثُرَ ٱلشِّعْرَ بِأَلْفَاظِهِ اوْ بِأَكْثَرِهَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا ذٰلِكَ وَإِذَا مَرَنَتْ نَفْسُهُ وَتَدَرَّبَ خَاطِرُهُ ٱرْتَفَعَ عَنْ هٰذِهِ ٱلدَّرَجَةِ وَصَارَ يَأْخُذُ ٱلْمَعْنَى وَيَكْسُوهُ عِبَارَةً مِنْ عِنْدِهِ . ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَنْ ذٰلِكَ فَيَكْسُوهُ ضُرُوبًا مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ لِخَاطِرِهِ بِمُبَاشَرَةِ ٱلْمَعَانِي لِقَاحٌ فَيَسْتَنْتِجُ مِنْهَا مَعَانِيَ غَيْرَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي وَسَبِيلُهُ انْ يُكْثِرَ ٱلْاِدْمَانَ لَيْلًا وَنَهَارًا وَلَا يَزَالَ عَلَى ذٰلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى يَصِيرَ لَهُ مَلَكَةً . فَإِذَا كَتَبَ كِتَابًا اوْ خَطَبَ خُطْبَةً تَدَفَّقَتِ ٱلْمَعَانِي فِي

أثناء كلامهِ وجاءت ألفاظهُ معسولة مغسولة وكان عليها حِدَّة حتى تكاد ترقص رقصا . وهذا شيء خبرته بالتجربة ولا ينبئك مثل خبير

تم بعونه تعالى



فهرس

المقالات